

قصة الحضارة

ول وَايرثيل ديورانت

الجنوب الكاثوليكي

مراجعة
عماد أدهم

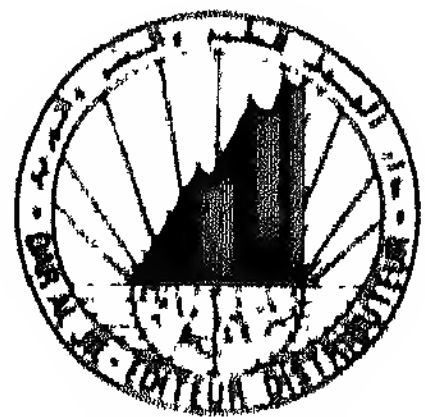
ترجمة
فؤاد أندراوس

الجزء الثاني من المجلد العاشر

٤٠



تونس



بيروت

الكتاب الثالث

الجنوب الكاثوليكي

١٧٨٩ - ١٧١٥

الفصل التاسع

إيطاليا السعيدة

١٧١٥ — ١٧٥٩

١ — المشهد العام

لم يكن في استطاعة إيطاليا أن تتحد في سبيل الدفاع عن نفسها وهي منقسمة إلى نحو اثني عشرة دولة متحاسدة متنازلة . وانصرف الإيطاليون إلى الاستمتاع بالحياة ، التلذذ بها انصرافا جعلهم يتركون الأجانب الذين أعوزهم النضج يقتتلون طمعا في ثمرة السياسة المرة ، وغنائم الحرب وأسلابها الملوثة . وهكذا ضدت شبه الجزيرة الزاهرة ساحة قتال بين أسبانيا وفرنسا البوربونيتين والنمسا الهابسبورجية . ووضعت سلسلة متعاقبة من حروب الوراثة أوزارها في ١٧٤٨ وقد استردت أسبانيا مملكة نابلي ودوقية بارما ، واحتفظت البابوات بسلطانهم على الدويلات البابوية ، وظلت سافوي والبندقية وسان مارينو حرة ، وكانت جنوه ومودينا محميتين فرنسيتين ، واحتفظت النمسا بميلان وتسكانيا . وكانت الشمس أثناء ذلك تشرق على ربوع إيطاليا والحقول والكروم والبساتين تجود بالطعام والشراب ، وكانت النساء رائعات الحسن مشبوبات العاطفة ، والأغاني والألحان تملأ أجواز الفضاء ، ووفد عليها الأجانب سائحون وطلاب علم ليستمتعوا بالمناخ ومشاهد الطبيعة ، وبالمسارح والموسيقى والفن ، وبمخالطة رجال ونساء أوتوا ثقافة قرون طوال . لقد كانت إيطاليا ، على الأقل في همالها ، أسعد بلد في أوربا ، رغم أنها كانت نصف مغلوبة ، ونصف مسلوبة منهوبة .

وكان سكانها عام ١٧٠٠ يناهزون الأربعة عشر مليونا ، وعام ١٨٠٠ الثمانية عشر مليونا . وكان الصالح للزراعة من أرضها يقل عن النصف ولكن

كل شهر من هذا النصف كان يفلح بالجهد الصابر والرعاية الفائقة . وكانت الأرض المنحدرة تقسم إلى مصاطب لتحتفظ بالتربة . والكروم تتدلى من شجرة إلى شجرة فتزدان بها بساكنة الفاكهة . أما الجنوب فكانت أرضه ضعيفة ، وجففت الشمس المبتسمة في سخرية الأنهار والتربة والإنسان ، ولم يرخ الاقطاع قبضته التي فرضها على الناس في العصر الوسيط . وكان من الأمثال الساخرة قولهم « أن المسيح لم يتجاوز قط جنوبي إيبولى » — التي كانت إلى الجنوب تماما من سورينتو . أما وسط إيطاليا فكان خصب التربة ، يفلحه الزراع نظير حصاة من المحصول باشراف كبار رجال الكنيسة . وأما في الشمال — لاسيما في وادي نهر بو — فقد أشبعت القنوات الأرض ربا ، وكانت هذه القنوات تتطلب رؤوس الأموال تنفق عليها ، والفلاحين المدربين على تطهير الصفاية وتقوية الشواطئ . وهنا أيضا زرع الفلاحون أرض غيرهم لقاء نصيب من المحصول . ولكن في هذه الحقول المثمرة استطاع الناس أن يحتملوا كل شيء حتى الفقر وهم محتفظون بكرامتهم .

وقامت مئات القرى على السهول ، وفي اللال ، وعلى شاطئ البحر : قرى قلعة متربة في الصيف ، صاخبة في الصباح بأحاديث الفلاحين وهم يمشون الهويناء إلى وقدة الحر ، ساكنة في الظهيرة ، شاغبة في المساء بثرثرة المترثرين وبالموسيقى ولقاءات المحبين . وكان الإيطاليون يحبون القيلولة أكثر من حبهم للمال ، وهي فترة قال فيها الأب لابا « لا يرى المرء في الشوارع أثناءها غير الكلاب والحمقى والفرنسيين .^(١) وكان هناك عشرات المدن الملأى بالكنائس والقصور والمتسولين والفن ، وست مدن تضارع باريس جمالا ، وألوف من مهرة الصناعات ما زالوا في قمة فهم . وكانت الصناعة الرأسمالية تتطور من جديد في مجال النسيج لاسيما في ميلان وتورين وبرجامو وفتشتا ، ولكن معظم العمل حتى في النسيج كان يؤدي على أنوال بيتية جزءا من حياة الأسرة . وكانت هناك طبقة وسطى صغيرة (قوامها التجار والمصرفيون ورجال الصناعة والمحامون والأطباء والموظفون والصحفيون والكتاب والفنانون والكهنة) آخذة في النمو وسطا بين الطبقة الأرستقراطية (طبقة ملاك

الأرض وكبار رجال الدين) وطبقة « العامة » (وهم أصحاب الحوانيت ومهرة الحرفيين والفلاحون) ، ولكن لم تحرز هذه الطبقة الوسطى أية قوة سياسية بعد .

ولم تكن الفوارق الطبقية واضحة ملحوظة إلى حد مؤلم ، اللهم إلا في البندقية وجنوه . ففي معظم المدن الإيطالية دخل النبلاء بنشاط ميدان التجارة أو الصناعة أو المال . وكان في إمكان وصول أى فلاح إيطالى إلى منصب الأسقفية أو البابوية ما أشاع عنصرا ديمقراطيا في الحياة الاجتماعية ؛ وفي البلاط كان حامل لقب النبالة المهيب يلتقى بالأسقف المتواضع الأصل ويجالسه ، وفي الأكاديميات والجامعات كان النبوغ الفكرى يرجح الدعاوى الطبقية ، وفي صخب الكرنفال كان الرجال والنساء المطمثون وراء أقنعتهم ينسون مراتبهم الاجتماعية كما ينسون نواويسهم الخلقية . وكان الحديث بين الناس يتسم بالمرح شأنهم في فرنسا ، هذا إذا استثنينا إجماعا متفاهما عليه بعدم المساس بدين يأتى بالجزية الدولية لإيطاليا — حتى من فاتحها — بنوع خاص .

على أن ذلك الدين كان بريئا من أى شائبة تزمت ، فقد تصالح مع طبيعة البشر ومناخ إيطاليا . وسمح في الكرنفالات بفترة تعطيل للاحتشام ، ولكنه جاهد للمحافظة على مؤسسى الزواج والأسرة وحمايتهما من سذاجة النساء وأهواء الرجال . فكانت الفتيات في الطبقات المثقفة يرسلن إلى أحد الأديرة في سن مبكرة — في الخامسة — لا للتعليم أولا بل لضمان الإشراف الخلقى عليهن . ولم تكن الفتاة التواقة إلى الحرية يطلق سراحها إلا إذا وفر لها صديق وهيء لها خطيب يوافق عليه أبوها أو أولياؤها ويتقدم لزواجها . وإذا جاز لنا أن نصدق كازانوفا ، فإنه كان في استطاعة راهبة شديدة الشوق إلى الرجال أن تغافل أحيانا الرئيسة الأم — أو تغافل الرئيسة الأم راهباتها — وتجد سبيلا للقاء رجل شديد الشوق إلى النساء بين الغسق والفجر ، ولكن هذه كانت مغامرات نادرة مخوفة بالخطر . على أننا لا نستطيع أن نطبق هذا الحكم على أخلاقيات الرهبان .

وكان الذكر غير المتزوج إذا لم يستطع إغواء زوجة رجل آخر ، يتعامل

عموما مع البغايا . وقد قدر الكونت دكايلوس أن عددهن في نابلي عام ١٧١٤ بلغ ثمانية آلاف من بين السكان البالغين ١٥٠,٠٠٠ . ووجد الرئيس دبروس في ميلان « إنك لا تخطو خطوة في الميادين العامة دون أن تتلقى بقوادين courtiers de galanterie يعرضون عليك نساء من كل لون أو جنس تشاء ، ولكن لك أن تثق بأن النتيجة لا تكون دائما باهرة كالوعد .^(٢) » وكان محظورا على البغايا في روما أن يظهرن في الكنائس أو المحافل العامة ، وحرّم عليهن بيع مفاتهن خلال صوم الميلاد ، والصوم الكبير ، وأيام الآحاد والعطلات الدينية .

وكان أشد ما يعاكس هؤلاء البغايا ويفسد عليهن حرفتهن أن طريق العشق الحرام كانت ميسرة إلى قلوب النساء المتزوجات . فهؤلاء النساء انتقمن لأنفسهن من فترة المراهقة التي ضيق عليهن فيها ، ومن الأزواج الذين لم يكن لهن رأى في إختيارهن ، بالانغماس في العلاقات الغرامية غير المشروعة ، وباتخاذ « سيد تابع » cavaliere servente . وقد سمحت عادة مرافقة المرأة المتزوجة هذه cicisbeatura ، بموافقة زوجها وفي غيبته ، (وهي عادة مستوردة من أسبانيا) بأن يقوم على خدمتها سيد يخدمها ، فيرافقها إلى العشاء وإلى المسرح وإلى المنتديات ، ولكن نادرا ما يصحبها إلى الفراش . واختيار بعض الأزواج مرافقين لزوجتهن لحمايتهن من علاقات العشق الحرام .^(٣) وقد أفضى الانتشار الواسع لمذكرات كازانوفا ، والأخبار المتعجلة التي أذاعها الرحالة الفرنسيون الذين الفوا التحلل الفرنسي ، إلى مبالغة الأجانب في فكرتهم عن فساد الأخلاق في إيطاليا . صحيح أن جرائم العنف أو الجنس كثرت ، ولكن الإيطاليين كانوا بوجه عام أبناء أوفياء لوآلديهم ، وأزواجا غيورين على نساءهم ، وزوجات مجندات في بيوتهن ، وآباء متعلقين بأبنائهم ، يحيون حياة أسرية مترابطة ، ويواجهون متاعب الزواج والأبوة والأمومة بأباء في الحلق وطلاقة في الحديث وبشاشة حاضرة في الطبع .

ولم يلق تعليم النساء تشجيعا ، لأن كثيرا من الرجال كانوا يرون التعليم خطرا على العفة . وتلفت قلة من البنات في الأديرة تعلما في القراءة والكتابة

والتطريز وفنون الحياكة والترفيه . ومنع ذلك نسمع عن نساء راقيات التعليم يدرن صالونات ينجاذبن فيها الأحاديث في يسر مع الكتاب والفنانين ورجال الأعمال . وفي بلرمو ترجمت « أنا جنتيلي » فولثير شعرا إيطاليا جيدا ، ونشرت « الرسائل الفلسفية » التي دافعت فيها بجرأة عن أخلاقيات هلفتيوس غير القائمة على الدين . وفي ميلان سمع الرئيس دبروس ماريا جايتانا اجنيزي ، البالغة من العمر عشرين عاما ، تحاضر باللاتينية في علم السوائل^(٤) ، وقد درست اليونانية والعبرية والفرنسية والإنجليزية وكتبت رسائل في القطاعات المخروطية والهندسة التحليلية^(٥) ، وفي جامعة بولونيا كانت السنيورة ماتسوكيني تدرس التشريح ، والسنيورة تامبروني تدرس اليونانية^(٦) . ومن تلك الجامعة ذاتها نالت لاورا باسي درجة الدكتوراه في الفلسفة ولما تتجاوز الحادية والعشرين (١٧٣٢) ، وما لبثت أن ضربت في العلم بسهم وافر حتى عينت استاذا في الجامعة وحاضرت في « بصريات » نيوتن والفت البحوث في الفيزياء ، وأنجبت خلال ذلك لزوجها اثني عشر طفلا قامت بنفسها على تربيتهن^(٧) .

وظلت الكثرة العظمى من الجنسين أمية دون أن ينالها من ذلك أي غضاضة أو ازدراء من المجتمع . فاذا ظهرت مخايل الذكاء والنضج على غلام في القرية وجد له القسيس عادة سبيلا إلى التعليم . ذلك أن شتى الجماعات الدينية أسست المدارس في المدن . فكان لليسوعيين عدد كبير من الكليات في إيطاليا — ست في البندقية ، وسبع في ميلان وست في جنوه ، وعشر في بيدمونت ، وتسع وعشرون في صقلية وكليات كثيرة في مملكة نابلي وفي الولايات البابوية . وقامت الجامعات في تورين وجنوه وميلان وبافيا وبيزا وفلورنسه وبولونيا وبادوا وروما ونابلي وبلرمو ، وكلها تحت إشراف رجال الكنيسة الكاثوليك ، ولكن الكليات ضمت الكثير من العلمانيين . وكان المعلمون والطلاب على حد سواء يحلفون اليمين بالا يعلموا أو يقرأوا ويقولوا أو يفعلوا شيئا يخالف تعليم كنيسة روما . يقول كازانوفا « في بادوا كانت حكومة البندقية تدفع المرتبات الكبيرة لمشاهير الأساتذة ، وتترك للطلاب كامل الحرية في الانتظام في حضور دروسهم ومحاضراتهم أو عدمه كما يشاءون »^(٨) .

يضاف إلى هذا أن الفكر الإيطالي شحذه عدد كثير من الأكاديميات المخصصة للآداب أو العلوم أو الفنون ، المتحررة عادة من إشراف رجال الدين ، وأشهرها الأكاديمية الاركادية التي كانت في الفترة التي نحن بصددتها تموت موتا كريما . وكانت هناك مكاتب عامة مثل « دار الكتب الامروزية » ، الجميلة في ميلان ، أو دار كتب ماجليابكيانا (دار الكتب القومية الآن) في فلورنسه ، وكان الكثير من المكتبات الخاصة كمكتبة بيزاني في البندقية ، يفتح أبوابه للجمهور في أيام معلومة من الأسبوع . وقد روى دبروس أن مكاتب إيطاليا كان يستخدمها القراء استخداما يفوق في كثرته وحماسته استخدام القراء لمكتبات فرنسا . وأخيرا كانت هناك دوريات من جميع الأنواع — ثقافية ، أو أدبية ، أو فكاھية . وكانت مجلة الآداب الإيطالية التي أسسها أبوستولو تسينو وفرانشيسكو سكييوتي دي مافي عام ١٧١٠ من أرقى المجلات في أوروبا ثقافة وأحظاها بالاحترام .

وصفوة القول أن إيطاليا كانت تنعم بحياة فكرية نشيطة ، فكثرت عدد الشعراء الذين عاشوا على إهداء شعرهم لكبار القوم ، وتعطر الجو بأريج القصائد الغنائية التي ما برحت تقلد بترارك ، وتنافس المرتجلون في إفراخ القريض فور دعوتهم إلى قرضه . ولكن العصر خلا من الشعر العظيم حتى أقبل ألفييري في ختام القرن . وقامت المسارح في البندقية وفتشتا وجنوه وتورين وميلان وفلورنسه وبادوا ونابلي وروما ، وأم هذه الأبنية الأنيقة الرشيقة صفوة القوم وعامة الشعب ليتجاذبوا الحديث ويسددوا نظرات الغرام . كما أتوها ليستمعوا إلى الأوبرا أو التمثيلية . وكان هناك دارسون كبار مثل مافي ، ومؤرخون شديدا للاجتهاد مثل موراتوري ، وعما قليل سيأتي علماء عظام . غير أنها كانت ثقافة متكلفة بعض الشيء ، حذرة خشية الرقابة ، مهذبة مجاملة إلى حد أفقدها الجرأة .

ومع ذلك هبت عليها رياح متقطعة من الهرطقة عبر الألب أو البحر . فأسس الأجانب — لاسيما الإنجليز من أنصار جيمس الثاني — في جنوه وفلورنسه وروما ونابلي ، من ١٧٣٠ فصاعدا محافل ماسونية نزاعة إلى الربوبية . وقد أدانها البابوان كلمنت الثاني عشر وبندكت الرابع عشر ، ولكنها اجتذبت.

الاتباع العديدين خصوصاً من طبقة النبلاء وأحياناً من الأكليروس . وجلبت إلى إيطاليا بعض مؤلفات مونتسكيو وفولتير ورينال ومايلي وكوندريك وهلفتيوس ودولباخ ولامترى . ونشرت طبعات من « الموسوعة » بالفرنسية في لوكا ولجهورن وبادوا . ووصلت حركة التنوير إلى إيطاليا بدرجة متواضعة وفي صورة ميسرة لمن يقرءون الفرنسية . ولكن الإيطالي أعرض عن الفلسفة ، وأعرض عنها عمداً ؛ وعن قناعة في الأكثر الأعم . فلقد كان هواه ومهارته في إبداع أو تذوق الفن والشعر أو الموسيقى ، وبدا له الجمال المحسوس أو المرئي أو المسموع أفضل من حقيقة روائية لا يضمن إطلاقاً إشاعتها البهجة في نفسه . ومن ثم فقد ترك الدنيا تناقش وتجادل بينما انصرف هو إلى شذوه وغناؤه .

٢ -- الموسيقى

اعترفت أوروبا للموسيقى الإيطالية بمكان الصدارة وقبلت آلاتها وأشكالها ، ورحبت بمزاياها ، وتوجت كبار مغنيها الحصان واستسلمت لأوبراها الشجيرة قبل جلوك وعلى الرغم منه وبعده . وأم جلوك وهاسمي وموتسارت ومثبات غيرهم إيطاليا ليدرسوا موسيقاها ، وليقفوا على أسرار « الغناء الجفيل bel canté » (الملعلع) من بوربورا أو يتسلموا مدالية بادري مارتيني .

يقول بيرني في معرض حديثه عن البندقية ، « إذا سار إثنان معاً يتأبط أحدهما ذراع الآخر ، بدا كأنهما لا يتحدثان الا غناء . فكل الأغاني هناك ثنائيات » .^(٩) وكتب إنجليزى آخر « في ميدان القديس مرقص يرفع رجل من عامة الشعب — حذاء أو حداداً مثلاً — حقيرته بأغنية ، وللتو ينضم إليه أشخاص على شاكلة ويشلون بهذه الأغنية في عدة أصوات ، بضبط وذوق ندر أن يصادفهما المرء في أرقى المجتمعات في بلادنا الشمالية »^(١٠) .

وكان العاشق الواقف تحت نافذة حبيبته يداعب أوتار قيثاره أو مندولين كما يداعب قلب عذرائه . وحمل مغنو الشارع أنغامهم إلى المقاهي والحانات ، وفي الجندول كانت الموسيقى تعانق هواء المساء ، والصالونات والأكاديميات

والمسارح تحيي الحفلات الموسيقية ، والكنايس ترجعها أصوات الأراغن وفرق المرتلين ، وفي الأوبرا كان الرجال ينتشون طربا والنساء يغبن عن الوعي عند سماع لحن من المغنية الأولى أو الخصى المغنى . وفي حفلة سمفونية أحييت في روما في مكان لا تغطيه غير نجوم السماء (١٧٥٨) سمع موريلليه عبارات عاطفية مثل (إيه أها المبارك ! يا للذة الكبرى ! أكاد أموت طربا ! . (١١) ولم يكن من غير المؤلف في دار الأوبرا أن نسمع النشيج يتردد بين جمهور النظارة .

وأحب القوم آلاتهم الموسيقية حبا فوق وفاءهم للجنس الآخر ، وسنوا بالمال ليجعلوا منها تحفا صنعت بدقة من الخشب الثمين وطعمت بالعاج أو المينا أو رصعت بالأحجار الكريمة ، وربما زين الهارب أو القيثارة بالماس . (١٢) وكان سترافارى قد ترك في كريمونا تلاميذ له مثل جوزيبي انطونيو جوارنيرى ودومنيكو مونتانيانا واصلوا العلم بسر صنع الفيولينات والفيولات والفيولنشلات النابضة بالحياة . وظل الهاربسكورد (الذى كان الإيطاليون يسمونه كلافيتشمالو) إلى نهاية القرن الثامن عشر آلة المفاتيح المفضلة في إيطاليا رغم أن بارتولوميو كريستوفورى كان قد اخترع البيانو - فورتى بفلورنسه حوالى ١٧٠٩ . وحظى كبار عازفى الهاربسكورد مثل دومنيكو سكارلاتى ، أو الفيولينه مثل تارتينى وجمينيانى ، في هذا الجيل بشهرة دولية . فكان فرانسكرى وجمينيانى بمثابة « لست » الفيولينة ، أو كما لقبه منافسه تارتينى « مجنون » القوس (الفوريبوندو) . وحين وفد على إنجلترا في ١٧١٤ حظى بشعبية في الجزر البريطانية أغرته بالإقامة هناك معظم سنيه الثمانى عشرة الأخيرة .

وقد شجع ظهور أمثال هؤلاء العازفين المهرة على إنتاج الموسيقى الآلية ، وكان هذا هو العصر الذهبي للمؤلفات الموسيقية الإيطالية للفيولينة . فاتخذت شكلها الآن - خصوصا في إيطاليا - الإفتاحية ، والمتتالية ، والصوناتا ، والكونشرتو ، والسمفونية ، وكلها ركز على اللحن والإيقاع ، لا على الكونترابونت البوليفونى الذى كان آنشد بالغاً أوجه ثم مختما حياته مع يوهان سبستيان باخ . وكما أن المتتالية أنبثقت من موسيقى الرقص \llcorner فكذلك إنبثقت الصوناتا من

المتتالية . لقد كانت شيئاً يعزف ، كما كانت الكنتاتا شيئاً ينشد . وأصبحت الصوناتا في القرن الثامن عشر سلسلة من ثلاث حركات — سريعة (الليجرو أو بريستو) ، وبطيئة (أندانتي أو أداجو) وسريعة (بريستو أو الليجرو) ويدس فيها أحياناً سكيرتسو (دعابة) تذكر السامع برقصة الجليجة المرححة ، أو منويته رشيقة تذكره بموسيقى الرقص . وما وافى عام ١٧٥٠ حتى كانت الصوناتا ، على الأقل في حركتها الأولى ، قد طورت « شكل الصوناتا » — وهو عرض موضوعات متعارضة وإطالتها بالتنويع ، ثم تلخيصها عند الختام . وبعد تجارب ج . ب . سامارتيئي ورينالدودي كابوا في إيطاليا ، ويوهان شتامتس في ألمانيا ، تطورت السموفونية بتطبيق شكل الصوناتا على ما كان في الماضي إفتتاحية أو برالية أو مصاحبة سردية . وهذه الوسائل هي الملمحن اللذة للعقل والحواس معاً ، وأعطى الموسيقى الآلية ميزة فنية جديدة هي البنيان المحدد الذي يقيّد ويربط اللحن بنظام ووحدة منطقيين . ذلك أنه إذا انعدم البناء في فن ما — أي العلاقة العضوية بين الأجزاء والكل ، أو العلاقة بين البداية والوسط والنهاية — كان ذلك معناه انحطاط هذا الفن .

أما الكونشرتو (من اللفظ اللاتيني concertare ومعناه يتبارى) فقد طبق على الموسيقى مبدأ الصراع الذي هو روح الدراما . فعارض الأوركسترا بعازف منفرد ، وأدخل الاثنين في مناظرة هارمونية . وكان شكله المفضل في إيطاليا الكونشرتو جروسو (الكبير) ، حيث التعارض بين أوركسترا صغير من الوترية ، و« كونشرتينو » (كونشرتو صغير) من عازفين أو ثلاثة . وكان ليفالدي في إيطاليا وهيندل في إنجلترا ، وباخ في ألمانيا ، الفضل في صقل شكل الكونشرتو جروسو صقلاً مطرداً ، وتحدثت موسيقى الآلات تفوق الأغنية .

ومع ذلك ، ظل الصوت — خصوصاً في إيطاليا — هو الآلة المحببة التي لا ضريب لها . ففي إيطاليا أتيحت له ميزة لغة عذبة رخيمة ، تغلب فيها الصوت اللين على الساكن ، وتقليد طويل من الموسيقى الكنسية ، وفن بالغ الرقي من فنون التدريب الصوتي . هنا ظهر كبار مغنيات الأوبرا (البريمادونات) .

الفاتنات اللأئي يرتقين كل عام سلم الثراء والبدانة ، والمغنون الطواشية ذوو الأجسام الريانة الذين كانوا يخرجون من إيطاليا ليأسروا الملوك والملكات . هؤلاء المغنون السوبرانو أك الكونترالتو الذكور جمعوا بين رثات الرجال وحناجرهم ، وبين أصوات النساء أو الغلمان . وكانوا بعد أن يطوشوا في سن السابعة أو الثامنة ، ويخضعوا لنظام طويل دقيق من التدريب على التنفس والنطق ، يتعلمون ترعيشات الصوت وتحلياته وتهديجاته ، وتعاقب النغمات السريع ووقفات التقاط النفس — إلى آخر هذه الفنون التي جعلت جماهير السامعين الإيطالية تهذى طربا تعبر عنه أحيانا بهتاف هو « ليحيى السكين الصغير »^(١٣) . ذلك أن معارضة الكنيسة (لاسيما في روما) في استخدام النساء على خشبة المسرح ، وسوء تدريب المغنيات في القرن السابع عشر ، كانا قد خلقا طلبا لباه هذا السكين الصغير الذي كان يقطع القنوات المنوية للذكر . وبلغ من عظم مكانة المغنيين المطوشين إذا حالفهم الحظ أن بعض الآباء كانوا — بعد أن يغروا الصبي الضحية بالرضى بمصيره هذا — يسلمونه لهذه العملية بمجرد أن تبدو منه أول بادرة صوت رخيم . ولكن كثيرا ما كانت الآمال تخيب ، فكنت تجد في كل مدينة بإيطاليا كما ذكر بيرني نفرا من هؤلاء الفاشلين « ولا صوت لهم على الإطلاق »^(١٤) وبعد عام ١٧٥٠ اضمحلت بدعة الخصيان هذه ، لأن مغنيات الأوبرا تعلمن أن يتفوقن عليهم في نقاء النغمة وينافسنهم في قوة الصوت .

أما أشهر الأسماء في موسيقى القرن الثامن عشر فلم يكن باخ ولا هيندل ولا موتسارت ، بل فارينللي — وهذا ليس اسمه الأصلي . والظاهر أن كارلو بروسكى اتخذ اسم خاله الذي كان آنثذ معروفا في دوائر الموسيقى . وإذا كان كارلو قد ولد في نابلي (١٧٠٥) لأبوين عريقي الأصل ، فما كان لمثله عادة أن يدخل صفوف المطوشين ؛ وروى أن حادثا أصابه وهو راكب جواده اقتضى إجراء العملية التي أثمرت أبدع صوت في التاريخ . ثم درس الغناء في على بوريورا ، وصحبه إلى روما ، وظهر هناك في أوبرا بوريورا المسماة « إيوميني » . وفي أحد الألحان نافس عازفا على الناي في إطالة نغمة وتضخيمها وغطى عليه

في طول النفس ، فأتته الدعوات من أكثر من عشر عواصم . وفي ١٧٢٧ في
بواونيا لقي أول هزيمة له ؛ ذلك أنه قاسم أنطونيو برناكي لحنا ، فاعترف
له بأنه (ملك المغنين) ، وتوسل إليه أن يكون معلمه . ووافق برناكي ،
وسرعان ما بز التلميذ معلمه . وراح فارينللي الآن يحرز نصرا بعد نصر في
البلد تلو البلد — البندقية وفينا وروما ونابلي وفيرارا ولوكا وتورين ولندن
وبازيس . وكان تفننه الصوتي عجيبة العصر . وكان فن التنفس من أسرار
براعته ، فقد عرف أكثر من أي مغن آخر كيف يتنفس بعمق وسرعة
وهدوء ، وكان في استطاعته أن يستمر في غناء بنغمة ما بعد أن تتوقف جميع
الآلات الموسيقية . وفي لحن son qual nave (على أي مركب) بدأ
البنغمة الأولى مخافتاً لا يكاد يسمع ، ومطها تدريجاً إلى ملء حجمها ، ثم هبط
بها شيئاً فشيئاً إلى خفوتها الأول . وكان جمهور السامعين أحياناً ، حتى في
انجلترا — ذلك البلد البرصين — يصفق لهذه العجيبة السعيدة تصفيقاً يمتد
خمس دقائق . (١٥) وقد اكتسب قلوب سامعيه كذلك بحنانه وكياسته ورقته ،
وكانت هذه الحلال في فطرته كما كانت في صوته . وفي ١٧٣٧ قام بزيارة
لأسبانيا نالها قصيرة ، ولكن المكث طال به في مدريد أو قربها ربع قرن .
وسوف نفتش عليه هناك في فصل لاحق .

وبفضل المغنين الطواشية أمثال فارينللي وسينيزينو ، وكواكب الغناء من
النساء أمثال فاوستينا بوردوني وفرنشسكا كوتسوني ، أصبحت الأوبرا صوت
إيطاليا ، وبهذه المثابة استمع إليها الناس بابتهاج في كل بلد أوروبي إلا فرنسا حيث
اشتعلت نار الحرب . وكلمة « أوبرا » كانت في الأصل جمع « opus »
ومعناها « أعمال » ولكن الجمع أصبح في إيطاليا مفرداً ، واحتفظ بمعناه
« العمل » ، وما نسميه الآن أوبرا كان يسمى opera per musica —
عملاً موسيقياً . ولم تتخذ الكلمة معناها الحالي إلا في القرن الثامن عشر .
وإذ كانت متأثرة بتقاليد الدراما اليونانية ، فقد صممت أصلاً على أنها تمثيلية
تصاحبها الموسيقى ، ثم ما لبثت الموسيقى أن طغت على التمثيلية في إيطاليا ، وطلعت
الأغاني (الآريا) على الموسيقى . وصممت أوبرات تتيح عروضاً منفردة لكل

مغنية أولى وكل مغن أول في الفرقة . وكان السامعون يتجاذبون الحديث فيما بين هذه القمم المثيرة ، وبين الفصول يلعبون الورق أو الشطرنج ، ويقامرون ، ويأكلون الحلوى أو الفاكهة أو العشاء الساخن ، ويتزاورون ويغازلون من مقصورة إلى مقصورة . في مثل هذه المهرجانات كان النص عادة يغرق في طوفان معترض في الأغاني والثنائيات والكوارس والبالهات . وقد ندد المؤرخ لودفيكو موراتوري بطمس الشعر على هذا النحو (١٧٠١) (١٦) ووافق كاتب النصوص أبوستولوتسينو ، وانتقد المؤلف الموسيقي بنديتو مارنشيللي هذا الاتجاه في « تياترو على الموضة » (١٧٢١) . وأوقف متاستازيو حنا هذا السيل الجارف ، ولكن في النمسا لا في إيطاليا . وناضل جوميللي وترايستا ضده ، ولكن مواطنيهما أنكروا عليهما هذا النضال ، ذلك أن الإيطاليين آثروا في غير موارد الموسيقى على الشعر ، واتخذوا الدراما مجرد تكتة للأغنية .

وأغلب الظن أنه ما من شكل فني آخر وعاه التاريخ حظى بالشعبية التي حظيت بها الأوبرا في إيطاليا ، وما من حماسة ضارعت حماسة جمهور إيطالي يرحب بلحن أو قفلة لنغمة يشدو بها مغن مشهور . ولو سئل أحد المستمعين في حفلة كهذه لعد ذلك منه جريمة إجتماعية كبرى . وكان التصفيق يبدأ قبل أن تحتم الأغنية المألوفة ، وتدعمه العصي تدق على الأرض أو على ظهور المقاعد ، وكان بعض المتحمسين يقذفون بأحذيتهم في الهواء (١٧) . وكان لكل مدينة إيطالية تزهو بنفسها قليلا أو كثيرا (وأياها كانت مبرأة من الزهو ؟) دار للأوبرا ، وبلغ عدد هذه الدور في الولايات البابوية وحدها أربعين . وبينما كانت الأوبرا في ألمانيا حفلة رسمية تؤدي في البلاط ويحرم منها جمهور الشعب ، وبينما حد من مستمعها في إنجلترا ارتفاع أسعار الدخول ، نجدها في إيطاليا مفتوحة لكل شخص لائق الهندام نظير رسم متواضع ، وأحيانا دون رسم على الإطلاق . ولما كان الإيطاليون قوما يحبون الاستمتاع بالحياة فقد أصروا على أن يكون لأوبراتهم خاتمة سعيدة مهما كان في هذه الأوبرات من فواجع . ثم أنهم أحبوا الفاكهة كما أحبوا رقة العاطفة . فبما بينهم تقليد يقضى بدس فاصل هزلي بين فصول الأوبرا . ثم تطورت هذه الفواصل إلى

نوع قائم بذاته حتى لقد نافست (الأوبرا الجادة) في شعبيتها ، وأحيانا في طولها . والذي فتن باريس في ١٧٥٢ كان « أوبرا هازلة - opera buffa » هي الخادمة تنقلب ربة البيت la serva padrona لبرجوليزي ، التي أشاد بها روسو دليلا على تفوق الموسيقى الإيطالية على الفرنسية .

أيا كانت الأوبرا الإيطالية ، هازلة أو جادة ، فإنها كانت قوة في التاريخ . وكما غزت روما مرة غربى أوربا بجيوشها ، وكما غزتها كنيسة روما مرة ثانية بعقيدتها ، كذلك غزتها إيطاليا مرة ثالثة بالأوبرا . فأزاحت أوبراتها الإنتاج الوطني في ألمانيا والدنمرك وإنجلترا والبرتغال وأسبانيا بل وروسيا ، وكان مغنوها معبودى كل عاصمة أوربية تقريبا . واتخذ المغنون الوطنيون أسماء إيطالية لكي يحظوا بالقبول في وطنهم . وسيمضى هذا الغزو الساحر ما بقي للحروف اللينة التفوق في الغناء على الحروف الساكنة .

٣ - الدين

كانت الطبقة المسيطرة في إيطاليا هي طبقة الأكليروس بعد البريمادونات والمغنين الحصريان . وراح رجال الدين يمشون أو يركبون في غفاراتهم المتميزة وقبعاتهم العريضة الخواف في حرية تخالطها الكبرياء عبر المجتمع الإيطالى عالين أنهم يوزعون أغلى نعمة عرفها البشرية - هي نعمة الرجاء . وبينما كانت نسبة رجال الكنيسة إلى الشعب في فرنسا في هذا القرن على التقريب واحدا إلى مائتى نفس ، كانت النسبة في روما واحدا لكل خمس عشرة ، وفي بولونيا واحدا لكل سبع عشرة ، وفي نابلى وتورين واحدا لكل ثمان وعشرين^(١٨) . وقد شكوا رجل معاصر من أهل نابلى من هذا الوضع ، وهو باعترافه رجل متمسك بالتقاليد :

« لقد إستفحل عدد الأكليروس بحيث أصبح لزاما على الأمراء أن يتخذوا الإجراءات للحد من عددهم وإلا ابتلعوا الدولة بأسرها . فأى

ضرورة لأن يهيمن على أصغر القرى الإيطالية خمسون قسيساً أو ستون؟... أن العدد الضخم من أبراج الأجراس والأديرة يحجب نور الشمس . وهناك مدن يبلغ فيها العدد خمسة وعشرين ديراً لرهبان أو راهبات الدومنيكان وسبعة مجامع لليسوعيين ، ومثلها للتيارين ، ونحو عشرين أو ثلاثين ديراً للأخوة الفرنسيسكان ، وما لا يقل عن خمسين آخر من طوائف دينية مختلفة من الجنسين ، هذا فضلاً عن أربعائه أو خمسمائة كنيسة ومصلب^(١٩) .

ولعل هذه الأرقام بالغ فيها الكاتب دعماً لحجته . ونحن نسمع عن أربعائة كنيسة في نابلي ، و ٢٦٠ في ميلان ، و ١١٠ في تورين ، على أن هذه دخلت ضمنها المصليات الصغيرة . وكان الراهبان فقراء نسبياً ، أما الأكليروس من غير الراهبان فكانوا في جملة من يملكون ثروة تفوق ثروة النبلاء . وكان الأكليروس في مملكة نابلي يحصلون على ثلث الموارد . وفي دوقية بارما كان نصف الأرض يملكه الأكليروس ، وفي تسكانيا ثلاثة أرباع الأرض تقريباً . وفي البندقية أضافت الوصايا الجديدة في السنوات الأحدي عشرة من ١٧٥٥ إلى ١٧٦٥ إلى الكنيسة من الأملاك ما قيمته ٣,٣٠٠,٠٠٠ دوقة^(٢٠) . وكان بعض الكرادلة والأساقفة من أغنى الرجال في إيطاليا ، ولكن هؤلاء الكرادلة والأساقفة كانوا أولاً مديرين وحكاماً ، ولم يكونوا قد يسين إلا أحياناً . من ذلك أن عدة رجال منهم في النصف الثاني من القرن نزلوا عن ثروتهم وترفعهم وعاشوا حياة الفقر الاختياري .

أما الشعب الإيطالي فلم يبد منه أى احتجاج ذى بال على ثراء الأكليروس ، اللهم إلا قلة من المعلقين والهجائين . لقد كان الشعب فخوراً بهاء كنائسه وأديرته وأحبائه وبدت لهم مساهماتهم ثمناً زهيداً يدفعونه لقاء النظام الذى وفره الدين للأسرة والدولة . وكان فى كل بيت صورة أو تمثال للمسيح المصلوب ، وآخر للعدراء ، وأمامهما تركع الأسرة كلها فى صلاة كل مساء — الأبوان والأبناء والخدم . فأى شىء يستطيع الحلول محل التأثير الأخلاقى لتلك الصلوات الموحدة بين القلوب ؟ وكان الأمتناع

عن أكل اللحم أيام الجمع ، وأيام الأربعاء والجمع في الصوم الكبير ،
ضبطاً نافعا للشهوة — كما كان نعمة على الصحة وعلى صيادى السمك .
أما القساوسة ، الواعون لمفاتن النساء ، فلم يغالوا في إدانة خطايا الجسد ،
وأغضوا عن مظاهر التحلل في الكرنفالات . لا بل أن البغايا كن في
السبوت يوقدن شمعه أيام العذراء ، ويودعن نقودا لترتيل قداس . وقد
أدهش دبروس وهو يشاهد تمثيلية في فيرونا أن يرى التمثيل يتوقف حين
دقت أجراس الكنائس معلنة موعد الصلاة (الأنجيلوس) ، وركع كل
الممثلين وصلوا ، وقامت ممثلة كانت تتصنع الأنعام في المسرحية لتشارك في
الصلاة ثم عادت إلى أغماها (٢١) . حقاً ندر أن أحب الناس ديناً من الأديان
حباً كما أحب الإيطاليون الكتلركة في إيطاليا . على أنه كان للصورة
وجه آخر ... هو الرقابة على المطبوعات وديوان التفتيش . وقد طالبت
الكنيسة كل إيطالى أو إيطاليه أن يؤدي مرة في السنة على الأقل « واجب
عيد القيامة » — أى يذهب للاعتراف على الكاهن في سبت النور ، ويتناول
القربان في صباح القيامة . فإذا قصر في هذا الواجب — في كل أرجاء
إيطاليا باستثناء أكبر المدن — استوجب التوبيخ من الكاهن ، فإذا لم يجد مع
العاصى التوبيخ والنصح سرّاً عوقب بنشر اسمه على أبواب كنيسة الأبرشية ،
فإذا تمادى في الرفض كان جزاؤه الحرم ، بل السجن في بعض المدن (٢٢) .
على أن ديوان التفتيش كان قد فقد الكثير من قوته وشرته . وكان في
الأمكان تفادى الرقابة الكنسية في المراكز الكبرى ، فخفت الرقابة على
المطبوعات ، وكان هناك إنتشار صامت للشك والهرطقة في أوساط المثقفين
لا بل بين رجال الأكليروس أنفسهم — لأن بعضهم كانوا جانسين في
دخيلة أنفسهم برغم أوامر البابا .

وإذا كان الكثير من القساوسة والرهبان قد عاشوا حياة الراحة والدعة ،
ولم يكونوا غرباء على الأثم ، فقد كان هناك أيضاً الكثيرون ممن وفوا
بندورهم ، واحتفظوا بالإيمان حياً بالأخلاص لواجباتهم . وقامت المؤسسات
الدينية الجديدة شاهداً على بقاء نبض الحياة في الرهبنة . من ذلك أن القديس

الفونسودى لجيورى المحامى العريق الأصل أسس فى ١٧٣٢ جماعة « إتباع الفادى » (أى المسيح) ، كذلك أمس القديس بولس الصليبي (باولوداني) ، الذى مارس أقصى ضروب النسك ، فى ١٧٣٧ « طائفة المتألمين » . أى إتباع صليب المسيح المقدس وآلامه .

وكانت جماعة اليسوعيين فى ١٧٣٠ تضم نحو ٢٣,٠٠٠ عضو . منهم ٣,٦٢٢ فى إيطاليا ، ونصفهم قساوسة^(٢٣) . ولم يكن هناك تناسب قط بين سلطانهم وعددهم . فكثيراً ما أثروا فى السياسة الداخليه والدولة بحكم كونهم آباء الاعتراف للملوك والملكات والأسر المرموقة ، وكانوا أحياناً أكثر القوى إلحاحاً — بعد جماهير الشعب — فى اضطهاد الهرطقة . ربيع ذلك كانوا أكثر اللاهوتيين الكاثوليك تحراً ، وقد رأينا فى غير هذا الموضع كم حاولوا فى صبر ان يتوافقوا مع حركة التنوير الفرنسية . وقد تميزت بعثاتهم الخارجيه بمثل هذه المرونة . ففى الصين حولوا مئات الألوف إلى الكاثوليكية^(٢٤) ، ولكن تنازلاتهم الذكية لعبادة الأسلاف ، وللكنفوشيه ، وللطاوية ، صدمت مبعوثى الطوائف الدينية الأخرى فاقنعوا البابا بندكت الرابع عشر بأن يكبح جماح اليسوعيين ويوبخهم فى مرسوم *Ex quo singulari* (١٧٤٣) . على أنهم ظلوا برغم ذلك أقدر وأعلم المدافعين على العقيدة الكاثوليكية ضد البروتستنتية والألحاد ، واخلص المؤيدين للبابوات ضد الملوك . وقد وجد الملوك فى جماعة اليسوعيين أثناء صراعات السيادة والسلطة بين الدول القومية والكنيسة التى تعلو على القوميات عدواً هو أشد أعدائهم دهاء وإلحاحاً . ومن ثم فقد صحت نيّتهم على القضاء عليها . ولكن الفصل الأول فى هذه الدراما مكانه البرتغال .

٤ — من تورين إلى فلورنسه

إذا دخلنا إيطاليا من فرنسا بطريق مون — سنى ، هبطنا جبال الألب إلى بيدمونت التى تسمى « سفح الجبل » ثم مررنا بكروم وحقول للحبوب وبساتين لأشجار الزيتون أو الكستناء حتى نبلغ توبرين ، القصبة القديمة . لبیت ساقوى والى يرجع عمرها إلى أثنى سنة . وهذا البيت من أقدم الأسر

الملكية الموجودة ، وقد أسسه في ١٠٠٣ أومبرتو بيانكامانو - هومبرت ذو اليد البيضاء . وكان رأس الأسرة في الحقبة التي نحن بصددتها من أكفأ حكام العصر . فقد ورث فكتور أماديوس الثاني عرش دوقية سافوى في التاسعة من عمره (١٦٧٥) وأضطلع بشئون الحكم في الثامنة عشرة وقاتل من أجل الفرنسيين آنا وضدهم آنا في حروب لويس الرابع عشر ، وشارك أوجين السافواوى في طرد الفرنسيين من تورين وإيطاليا ، وخرج من معاهدة أوترخت (١٧١٣) وقد أضاف صقلية إلى تاجه . وفي ١٧١٨ استبدل سردينيا بصقلية ، واتخذ لقب ملك ساردنيا (١٧٢٠) ولكنه احتفظ بتورين عاصمة له . وحكم مملكته بكفاية تشوبها الحشونة ، وأصلح التعليم العام وزاد في رفاهية الشعب ، وبعد أن حكم خمسة وخمسين عاماً تخلى عن العرش لابنه شارل إيمانويل الأول (حكم ١٧٣٠ - ٧٣) .

كانت تورين خلال هذين الحكيم اللذين إمتدا قرابة قرن كامل مركزاً قيادياً للحضارة الإيطالية . وقد وصفها مونتسكيو الذى شاهدها في ١٧٢٨ بأنها « أجمل مدينة في العالم »^(٢٥) مع أنه أحب باريس . وإمتدح تشستر فيلد عام ١٧٤٩ بلاط سافوى لأنه خير بلاط في أوربا يربى « أناساً مهذبين لطفاء »^(٢٦) . وبعض الفضل في بهاء تورين راجع إلى فليبيو يوفارا ، المعمارى الذى كان لا يزال يتنفس وحى النهضة الاوربية . فعلى تل سوبرجا الشامخ الذى يعلو ٢,٣٠٠ قدم فوق المدينة بنى (١٧١٧ - ٣١) لفكتور أماديوس الثانى في ذكرى تحرير تورين من احتلال الفرنسيين باساليباً جميلة بطراز الأروقة والقباب الكلاسيكى إستخدمت مقبرة لأسرة سافوى الملكية قرناً من الزمان . ثم أضاف إلى قصر ماداما العتيق (١٧١٨) سلماً فخماً وواجهة ضخمة ، وفي ١٧٢٩ صمم قلعة ستوبينجى الهائلة (التى أكملها بنديتو ألفييري) والى أبرزها الرئيسى كل فخامة الباروك الحالية . وظلت تورين عاصمة لأدواق سافوى حتى أنتقلوا بعد نصرهم النهائى (١٨٦٠ وما بعدها) إلى روما ليتربعوا على عرش إيطاليا الموحدة .

أما ميلان التى طالما خنقتها السيطرة الاسبانية فقد بعثت من جديد تحت

الحكم النمساوى الأكثر رفقا . فى ١٧٠٣ أنشأ فرانتزيفن ، وفى ١٧٤٦ و ١٧٥٥ أستكمل فيلبيتشى وروكليريتشى بمعونه الحكومة ، مصانع للنسيج وسعت من إحلال الإنتاج الواسع النطاق الذى يموله ويديره رأس المال محل الحرف والنقابات الحرفية . أما التاريخ الثقافى لميلان فقد لمع فيه الآن أسم جوفانى باتيستا ساماريتى ، الذى نستطيع إلى الآن الاستماع إليه أحيانا على أمواج الأثير المتدفقة . ويلاحظ أنه فى سمفونياته وصوناتاته إستبدل بوقار موسيقى كبار الموسيقيين الإلمان الكونترابنطى تفاعلا ديناميكيا بين الموضوعات والحالات النفسية المتعارضة . وحين وفد الفتى جلوك على ميلان (١٧٣٧) ليشغل وظيفة موسيقى الحجرة للأمير فرانتشسكوملتسى ، أصبح تلميذ ساماريتى وصديقه واتخذ طريقه فى بناء هيكل الأوبرا . وفى ١٧٧٠ صاح المؤلف الموسيقى البوهيمى يوزف مزلفتشك ، وهو يصغى مع موتسارت الشاب إلى بعض سمفونيات سماريتى فى ميلان « لقد وجدت الأب الذى أنجب أسلوب هايدن ! » (٢٧) — وهو إذن أحد آباء السمفونية الحديثة .

وأما جنوة فقد كابدها خطوبا فى القرن الثامن عشر . كانت تجارتها قد انحطت إثر منافسة المحيطات للبحر المتوسط ، ولكن موقعها الاستراتيجى على ربوة دفاعية تطل على ثغر حسن الاعداد لفت الانتباه الخطر من الدول المجاورة . ووقعت الحكومة المحصورة بين أعداء من الخارج وشعب غضوب جاهل من الداخل فى أيدي أسر تجارية قديمة تحكم عن طريق مجلس مغان ودوج مطيع . هذه الأوجركية العاملة على تخليد نفسها فى كراسى الحكم أثقلت كاهل الشعب بالضرائب حتى هوى إلى درك الفقر الكثيب الفاقد الصبر ، وسيطر عليها وابتزها هى الأخرى بذلك سان جورجو . فلما حاصرت قوات سافوى والنمسا المتحالفة جنوة فى ١٧٤٦ لم تجرؤ الحكومة على تسليح الشعب ليقاوم خشية أن يقتل الحكام ، وآثرت أن تفتح أبوابها للمحاصرين الذين فرضوا تعويضات وفديات جرت عليها الخراب المالى . أما العامة الذين فضلوا المستغنين من بنى جلدتهم ، فقد ثاروا على الحماية

النمساوية ، وقذفوها بوابل من البسلاط والطوب إنزعوه من الأسطح والشوارع ، وطردها طردا مخزيا ثم عاود الطغيان القديم سيرته الأولى .

وشيد نبلاء جنوه القصور الحديدية مثل قصر فيرارى ، وشاركت ميلان في رعاية مصور بلغ شهرة من المرتبة الثانية في عصرنا هذا . فتكاد كل صورة باقية من الصور التي رسمها الساندرو ماناسكو تروعا باصالة أسلوبها القائمة . فصورة « بنكينلو يعزف على القيثارة » — جسد مستطيل في بقع مهملة سوداء وبنية ، واللوحة الرشيقة المسماة « فتاة وموسيقى أمام المدفأة »^(٢٩) ، ولوحة « الخلاق »^(٣٠) تبدو عايه اللهفة على قطع حلقوم زبونه ، ولوحة « حجرة طعام الرهبان » الضخمة الشاهدة على ازدهار مطبخ الكنيسة ، هذه كلها روائع فنية تذكرنا بالخرىكو في أجسادها النحيلة وحيلها الضوئية ، وترهص بجويا في فضيحها الرهيب لقساوات الحياة ، وتنزع إلى الحداثة في احتقارها الحشن للتفاصيل المتكلفة المترمة .

وشهدت فورنسة في هذا للعصر نهاية أسرة من أشهر أسر التاريخ . فقد كان حكم كوزيمو الثالث (١٦٧٠ — ١٧٢٣) الذي طال أمده أرشيدوقا لتسكانيا نكبة على شعب مازال فخورا بذكريات عظمة فلورنسة تحت حكم آل مديتشي الأسبقين . وقد سمح كوزيمو هذا الذي تسلط اللاهوت على تفكيره للاكليروس بأن يحكموه ويبتزوا من موارده الهزيلة منحاً سخية للكنيسة . وكان من أثر الحكم المستبد ، والإدارة العاجزة ، والضرائب الباهظة أن فقدت الحكومة التأييد الشعبي الذي حظيت به الأسرة المالكة طوال مائتين وخمسين عاما .

وآثر فرديناند بن كوزيمو الأكبر الغواني على رجال حاشيته . ودمر صحته بالافراط في اللذات ، ومات أبتر لا عقب له في ١٧١٣ . وكان لكوزيمو ابن كان يدعى جان (يوحنا) جاستوني أولع بالكتب ، ودرس التاريخ والنبات ، وعاش حياة هادئة . وفي ١٦٩٧ أكرمه أبوه على الزواج من آن أميرة ساكس لاونبرج ، وكانت أرملة فقيرة الثقافة . وذهب جان ليعيش معها في قرية بوهيمية نائية ، واحتمل الملل عاما ،

ثم تعزى بالخيانة الزوجية في براغ . فلما ساءت صحة فرديناند ، استدعى كوزيمو جان إلى فلورنسا ، ولما مات فرديناند أعلن جان وريثا لتاج الارشيدوقية . ورفضت زوجة جان أن تعيش في إيطاليا . وخشى كوزيمو أن ينقض بيت مديتشي ، فامتنع مجلس الشيوخ الفلورنسي بأن يصدر قراراً يقضى عند موت جان جاستوني دون عقب بأن يؤول العرش إلى شقيقة جان المدعوة آنا ماريا لودوفيكيا .

وحامت الدول الأوربية في لهفة حول الأسرة المحتضرة . ففي ١٧١٨ رفضت النمسا وفرنسا وإنجلترا وهولنده الاعتراف بترتيب كوزيمو ، وأعلنت أنه يجب عند وفاة جان أن تعطى تسكانيا وبارما لدون كارلوس الابن الأكبر لاليزابث فارنيزي ملكة أسبانيا . واحتج كوزيمو ، وأعاد تنظيم دفاعات لجمهورن وفلورنسة الحربية ولكن متأخراً . وخلف موته لإبنة دولة أنهكها الفقر وعرشاً مزعزع الأركان .

وكان جان جاستوني الآن (١٧٣٢) في عامة الثاني والخمسين . فجهاد ليصلح مساوىء الإدارة والاقتصاد ، وطرد الخواسيس والمتملقين الأذلاء الذين أثروا في عهد أبيه وخفض الضرائب وأعاد المنفيين ، وأفرج عن السجناء السياسيين ، وعاون على إحياء الصناعة والتجارة ورد الحياة فلورنسة الاجتماعية الأمان والمرح . وبفضل اثناء كوزيمو الثاني وجان جاستوني لقاعة الأوفيتسى للفنون ، وازدهار الموسيقى تحت قيادة كمان فرانسشكو فيراتشيني ، والمراقص التنكرية ، ومواكب العربات المزخرفة ، ومعارك الحلوى والأزهار الشعبية - بفضل هذا كله أصبحت فلورنسة تنافس البندقية وروما في جذب الزوار الأجانب ، مثال ذلك أنه اجتمع فيها حوالى عام ١٧٤٠ اللىدى مارى ورتلى مونتاجو ، وهوراس ولبول ، وتوماس جراى حول اللىدى هنرييتا بومفريت في قصر ريدولفو . إن في المجتمع المحتضر شيئاً يجذب اليه الناس جذباً حزيناً .

ولما أضنت جان جاستوني جهوده ، أحال في ١٧٣١ تبعات الحكم إلى وزارته وانزلق إلى هوة اللذات الحسية . وجردت أسبانيا جيشاً عدته

ثلاثون الف مقاتل لتضمن الخلافة لدون كارلوس ، وأرسى شارل السادس النمساوى خمسين الف جندي يرافقوا ابنته ماريا تريزا في طريقها إلى عرش الأرشيدوقية . وأمكن تفادي الحرب باتفاق (١٧٣٦) ابرم بين النمسا وفرنسا و إنجلترا وهولندا يقضى بأن يأخذ كارلوس نابلي ، وأن تأخذ ماريا وزوجها فرانسوا اللوزيني — وتسكانيا . وفي ٩ يوليو ١٧٣٧ قضى آخر المديتشيين نوبة وأصبحت تسكانيا تابعة للنمسا واردة هرت ناورنسة من جديد .

٥ . ملكة الادرياتيك

بين ميلان والبندقية استرخت بعض المدن الصغرى . فبرجامو اضطرت إلى أن تقنع في نصف القرن الذي نحن بصدده بمصورين مثل جيسلاندي ، وبمؤلفين موسيقيين مثل لوكاتيللي . وقامت فيرونا الأوبرات في مسرحها الروماني ، وكانت محظوظة برجل مرموق هو المركيز فرانشسكو سكيوني دي ماني . وقد قلده فولتير مسرحيته الشعرية (ميروبي) (١٧١٣) وأهداه في كرم مسرحيته (ميروب) باعتباره « أول كاتب أوتي من الشجاعة والعبقرية ما أعانه على المغامرة بكتابة مأساة تخلوا من الغزل ، مأساة جديدة بأثينا في عزها ، حيث تكون محبة الأم هي قوام المؤامرة كلها ، وينبعث أرق ضروب التشويق من أظهر الفضائل ^(٣٢) » . وهناك عمل آخر لماني أبرز حتى من مسرحية تلك وهو « فيرونا المصورة » (١٧٣١ - ٣٢) وهو كتاب بدأ تحديد خطى علم الآثار . واعتزت مدينته به فأقامت له تمثالا في حياته . وكانت فتشنتسا بمبانيا التي شيدها بلاديو كعبة يحج إليها المعماريون الذين يحبون الطراز الكلاسيكي . أما بادوا فكان بها جامعة اشتهرت بكليات الحقوق والطب ولمع فيها جوزيبي تاريني . الذي اعترف به الجميع (عمدا جمناني) إماما لعازي الفيولينة الأوربيين ، ومن الذي لم يستمع إلى موسيقى تاريني « رعدة الشيطان » ؟

هذه المدن كلها كانت جزءاً من جمهورية البندقية . وكذلك كانت تريفيزو و فيرونا ، وفلترى ، وباسانو ، وأوديني ، وبلونو ، وترنتو . وبولسانو

في الشمال ، واستريا في الشرق ، وفي الجنوب امتدت دولة فينيتسيا مخترقة كيودجا وروفيجو إلى نهر بو ، وملكيت عبر الأديرياتيك كتارو وبريفيتسا وأجزاء أخرى مما يقع اليوم في يوغوسلافيا وألبانيا ، وكانت تملك في الأديرياتيك جزائر كورفو وكفالونيا وزنطة . وسكن هذا الملك المعقد نحو ثلاثة ملايين من الأنفس كل منها يعد نفسه مركز العالم .

١ - الحياة الفينيتسية

أما مدينة البندقية (فينيتسيا) ذاتها عاصمة الجمهورية ، فكانت تضم ١٣٧,٠٠٠ - نسمة . وكانت الآن في فترة اضمحلال سياسي واقتصادي ، بعد أن استولى الترك على امبراطوريتها الأيحية ، وانزعت دول الأطلنطي الكثير من تجارتها الخارجية . وكان فشل الحروب الصليبية ، وإعراض الحكومات الأوربية بعد انتصارها في ليبانتو (١٥٧١) عن تقديم المعونة للبندقية في الدفاع عن مخافر العالم المسيحي الأمامية في الشرق ، ولهفة تلك الحكومات على أن تقبل من تركيا امتيازات تجارية ضمنت بها على أشجع أعدائها^(٣٣) - هذه التطورات كلها كانت قد خلفت البندقية في حال من الضعف أعجزها عن الاحتفاظ بها أيام النهضة ، ومن ثم قررت أن ترعى بيتها هي - فتمنح ممتلكاتها الإيطالية والأديراتية حكومة صارمة في القانون ، والرقابة السياسية ، والإشراف الشخصي ، ولسكنها كفاء في الإدارة ، متسامحة في الدين والأخلاق ، متحررة في التجارة الداخلية .

وكانت تحكمها أوجركية شأن غيرها من جمهوريات أوزبا في القرن الثامن عشر . وفي هذا المحيط من حطام السلالات المختلفة - انطونين وشيلوكين وعطيلين ، وبين جماهير لم تصب من التعليم حظاً يذكر ، بطيئة التفكير سريعة الحركة ، تؤثر اللذة على السلطة ، كان معنى الديمقراطية - لو استقرت فيها - هو الفوضى المتوجة . ومن ثم قصر الحق في عضوية المجلس الأعلى على نحو ستمائة أسرة تضمنها « الكتاب الذهبي » ولكن هذه الأرستقراطية الوطنية أضيفت لها إضافات حكيمة من صفوف التجار ورجال المال وإن كانوا من دم غريب . وكان المجلس الأعلى يختار السناتو ، الذي

كان يختار مجلس العشرة القوى النفوذ . وكان جيش من الجواسيس يتنقل في صمت بين المواطنين ويبلغ القضاء بأى تصرف أو كلام مريب يصدر من أى بندقى . حتى من الدوج نفسه . وكان الأدواج الآن عادة حكماً أصوريين وظيفتهم استقطاب الوطنية وتزيين الدبلوماسية .

وكان الاقتصاد يخوض معركة خاسرة ضد المنافسة الأجنبية ورسوم الاستيراد وقيود النقابات الحرفية . ولم تتوسع صناعة البندقية لتبلغ مرحلة المشروعات الحرة والتجارة الحرة والإدارة الرأسمالية ، بل قنعت بشهرة حرفها . ولم يبق في صناعة الصوف التى كانت تشغل ألفاً وخمسمائة عامل في عام ١٧٠٠ غير ستمائة في نهاية القرن . واضمحلت صناعة الحرير في الفترة ذاتها فلم يبق فيها غير ألف واحد بعد أن حفلت بأثنى عشر ألفاً^(٣٤) . وقاوم صناع زجاج مورانو كل تغيير في الطرق التى أذاعت في الماضى شهرتهم في طول أوروبا وعرضها ، وتسربت أسرارهم إلى فلورنسة وفرنسا وبوهيميا وإنجلترا ، واستجاب منافسهم لما طرأ من تقدم على الكيمياء ، وللتجارب التى أجريت في الصناعة ، وهكذا ولى زمان المورانو . وبالمثل استسلمت صناعة الدنتلا لمنافسيها وراء الألب ، فلم يحل عام ١٧٥٠ حتى كان البنادقة أنفسهم يلبسون المخرمات الفرنسية . وازدهرت صناعتان : مصايد الأسماك التى استخلمت ثلاثين ألف رجل ، واستيراد العبيد وبيعهم .

ولم يسمح للدين بالتدخل في أرباح التجارة أو للذات الحياة . ونظمت الدولة جميع المسائل المتعلقة بملكيات الكنيسة وبجرائم رجال الدين . وكان اليسوعيون قد أعيدوا في ١٦٥٧ بعد طردهم في ١٦٠٦ ، ولكن بشروط حددت من نفوذهم في التعليم والسياسة . ووجدت تعاليم فولتير وروسو وهلفتيوس وديدرو طريقها إلى صالونات البندقية ولو بطريق الزوار رغم أن الحكومة حظرت استيراد مؤلفات الفلاسفة الفرنسيين ، ودأبت الأرستقراطية في البندقية كنظيرتها في فرنسا الأفكار التى استنزفت قوتها^(٣٥) . وقبل الناس الدين على أنه عادة لاشعورية تقريباً من عادات الشعائر والإيمان ، ولكنهم كانوا يلهون أكثر مما يصلون . وقد وصف مثل بندقى أخلاقيات البنادقة

بكل ما في الأجرام من قصور ، « في الصباح قداس صغير ، وبعد الغداء لعبة قمار صغيرة ، وفي المساء امرأة صغيرة » (٣٦) . وذهب الشبان إلى الكنيسة لا ليصلوا للعدراء ولكن ليدققوا النظر إلى النساء . وكان النساء برغم الغضبات الكنسية والحكومية يرتدين « الديكولتيه » الذي يكشف عن نحورهن وظهورهن (٣٧) وكانت الحرب المتصلة بين الدين والجنس تهيء للجنس أسباب النصر .

وأجازت الحكومة البغاء المنظم إجراء واقيا لسلامة الشعب . واشتهرت غواني البندقية بجاهن ، ودماثة طباعهن ، وفخامة لباسهن ، وبذخ مساكنهن المشرفة على القناة الكبرى . وكان عدد المعروض من هؤلاء الغواني (cortigiane) كبيرا ، ولكته رغم ذلك قصر على الوفاء بالطلب . وكان المقتصدون من البنادقة ، والأغراب مثل روسو ، يتجمعون معا اثنين أو ثلاثة لينفقوا على محظية (٣٨) . ولكن النساء المتزوجات انغمسن في العلاقات الغرامية الخطرة رغم هذه التسهيلات ، ولم يكتفين بمرافقهن من « السادة الخدام » ، واختلف بعضهن إلى الكازينوات التي وفرت فيها كل أسباب اللقاءات الغرامية . ووبخت الحكومة علنا عدة نساء نديلات لسلوكهن المنحل ، وأمرت بعضهن بأن يلزمن بيوتهن ، ونفت بعضهن خارج البلاد . ولكن الطبقات الوسطى كانت أكثر تعقلا ، وكان تعاقب النسل يشغل الزوجة ويشبع حاجتها لتلقى الحب وبذله . ولم تغدق الأمهات على أطفالهن في أي بلد آخر ما أغدقته في البندقية من عبارات الاعزاز الحارة . ومن عباراتهن المأثورة : (يا سبيع القديس مرقص ! يا بهجتي ! يا زهرة ربيعي !) .

أما الجريمة فكانت في البندقية أقل منها في أي بلد آخر في إيطاليا ، فقد كبج جماع العدوان كثرة ضباط الشرطة والأمن ويقتظهم . ولكن القوم قبلوا القمار على أنه عمل من أعمال الإنسان الطبيعية . ونظمت الحكومة يانصيبا في ١٧١٥ . وافتتح أول ناد للقمار في ١٦٣٨ ، وسرعان ما كثر عدد هذه الأندية العامة والخاصة التي تهرع إليها جميع الطبقات .

وكان في استطاعة مهرة المقامرين المخادعين من أمثال كازانوف أن يعيشوا على مكاسبهم من القمار ، في حين يخسر غيرهم مدخرات عام بأكمله في ليلة واحدة . وكان المقامرون ينحنون على مائدة القمار في حب صامت أحر من عشق الناس . أما الحكومة فكانت تتفرج بعين الرضى (حتى ١٧٧٤) ، لأنها فرضت الضرائب على أندية القمار وبلغ إيرادها السنوى منها نحو ٣٠٠,٠٠٠ جنيه (٣٩) .

وأقبل العاطلون الأغنياء من شتى الدول لينفقوا مدخراتهم أو سنى شيخوختهم وسط الاسترخاء الخلقي والمرح الطلق في الميادين والقنوات . ونخفت حمى السياسة بعد أن تخلت الجمهورية عن امبراطوريتها . ولم يجر حديث الثورة هنا على أى لسان ، فقد كان لكل طبقة عاداتها وتقاليدها العاملة على الاستقرار ، واستغراقها في الواجبات التى تقبلتها ، هذا فضلا عن المسرات المتاحة لها . وكان الخدم طيعين أوفياء ، ولكنهم لا يطيقون الأهانة أو الازدراء . وكان ملاحو الجندول فقراء ، ولكنهم ملوك البحيرات ، يقفون على زوارقهم المذهبة في فخر وثقة بمهارتهم الموروثة عن الأسلاف ، أو يدورون حول المنحنيات وهم يصيحون صيحات قوية غريبة أو يدندنون بأغنية تصاحب تمايل أجسادهم ، وإيقاع مجاديفهم .

واختلطت الجنسيات المختلفة الكثيرة في الميادين . واحتفظ كل منها بميزة من زى ولغة وتبذل ، وظلت الطبقات العليا ترتدى ما ارتدته في عز أيام التهضة ، من قمصان من أرق الكتان ، وسراويل من المخمل ، وجوارب حريرية ، وأحذية ذات مشابك ، ولكن البنادقة هم الذين أدخلوا إلى غربي أوروبا في هذا القرن لباسا تركيا هو السراويل الطويلة (البنطالونات) . وكانت الباروكة قد وفدت من فرنسا حوالى ١٦٦٥ . وعنى المتأنقون من الشباب عناية بالغة بلباسهم وشعرهم ورائحتهم حتى لقد صعب تمييز جنسهم؛ أما النساء العصريات فقد رفعن فوق رؤوسهن أبراجا عجبية من الشعر المستعار أو الطبيعى . وكان الرجال والنساء جميعا يشعرون كأنهم عراة إذا لم يتحلوا بالجواهر والحلى . وكانت المراوح تحفا فنية ، ترسم في تألق ،

وكثيرا ما كانت تغشى بالأحجار الكريمة أو تحوى منظارا لعين واحدة (مونوكل) .

وكان لكل طبقة أنديتها ، ولكل شارع مقهاه ، يقول جولدوني « في ايطاليا تناول عشرة أقداح من القهوة كل يوم » ^(٤١) وازدهرت كل ضروب الملاهي ، من معارك الجوائز (pugni) إلى المراقص التنكرية . وكلمة « بالوان » (balloon) مشتقة من لعبة كانت تسمى باللونى pallone — فيها تنطط كرة منفوخة براحة اليد . وكانت رياضات الماء تتكرر بانتظام . فمند ١٣١٥ كان يقام سباق regatta في ٢٥ يناير على القناة الكبرى ، بين زوارق تسير بخمسين مجدافا وتزين كما تزين عرباتنا في المعارض ، ويبلغ الاحتفال ذروته بلعبة بولو مائية ينقسم فيها مئات البنادق إلى جماعات متصاحبة متنافسة . وكان الدوج في عيد الصعود بمخر عباب الماء في أبهة من « سان ماركو » إلى الليد وعلى متن سفينة الدولة الفاخرة الزينة المسماة « بوتشنتورو » بين مئات من السفن الأخرى لزف البندقية إلى البحر من جديد .

واتخذت العطلات الكثيرة أسماء وذكريات القديسين والمناسبات السنوية التاريخية ، لأن مجلس شيوخ البندقية وجد أن الخبز والسرك بديل مقبول عن الانتخابات . في مثل هذه المناسبات كانت المواكب البهية تنتقل من كنيسة إلى كنيسة ومن ميدان إلى ميدان ، وكانت الأبسطة الزاهية الألوان ، وأكاليل الزهر والحرائر تتدلى من النوافذ أو الشرفات على الطريق ، وكان هناك موسيقى سهلة ، وأغنية دينية أو غرامية ، ورقص رشيق في الشوارع . وألف النبلاء الذين يختارون للمناصب المرموقة أن يحتفلوا بانتصاراتهم بالعروض ، والأقواس ، وتذكارات النصر ، والمهرجانات ، وأعمال البر التي تكلفهم أحيانا ثلاثين ألف دوقاتية . وكان كل عرس مهرجانا ، ومأتم الوجيه من القوم أفخم حدث في حياته .

ثم كان هناك الكرنفال ... ذلك التراث المسيحي من « ساتورناليا » روما الوثنية . وكانت الكنيسة والدولة تأملان أنهما إذا سمحتا بأجازه

من الأخلاق استطاعت التخفيف بقية العام من التوتر القائم بين الجسد والوصية السادسة . وكان الكرنفال في إيطاليا عادة لا يستغرق إلا اسبوعاً واحداً هو الأسبوع السابق للصوم الكبير ، وفي بندقية القرن الثامن عشر امتد من ٢٦ ديسمبر أو ٧ يناير إلى «الثلاثاء السمين» Mardi Gras-Martedi Grasso وربما اتخذ المهرجان اسمه من ذلك اليوم الأخير من الأيام التي يسمح فيها بأكل اللحم Carne Vale أى وداعاً للحم . وكان البنادقة في كل ليلة تقريباً من أسابيع الشتاء تلك ، والزوار المتجمعون من طول أوروبا وعرضها — يتدفقون على الميادين ، يرتدون ملابس فاقعة الألوان ، ويخفون سنهم ورتبهم وشخصياتهم وراء الأقنعة . وفي ذلك التخفى هزأ الرجال والنساء بالقوانين ، وراجت سوق البغايا ، وتطايرت قطع الحلوى ، وقذف البيض الصناعى هنا وهناك لينشر ماءه المعطر حين ينكسر . وكانت شخصيات بانتالونى ، وارلكينو ، وكولبينو ، وغيرها من الشخصيات المحببة من المسرح الكوميدي تبغض وتثرثر لتسلي الجمع المحتشد ، ورقصت الدى ، وبهر السائرون على الحبال ماثات الأنفاس . وكانت تجلب الحيوانات الغريبة لهذه المناسبة ، كوحيد القرن الذى شهده لأول مرة بالبندقية في مهرجانات ١٧٥١ وفي منتصف الليلة السابقة لأربعاء الرماد (Mercoledì della Conoi) تدق أجراس كنيسة القديس مرقس الضخمة مؤذنة بانتهاء الكرنفال ، هنا يعود المعربد المنهك إلى فراشه الحلال ، وبعد نفسه للاستماع إلى القسيس يقول له في الغد: «Memento, homo, quia pulvis es et in pulvrem redieris» «تذكر يا ابن آدم أنك تراب وإلى التراب تعود» .

٢ — فيفالىدى

كانت البندقية ونابلى مركزى الموسيقى المتنافسين في إيطاليا . فاستمعت البندقية في مسارحها إلى ألف ومائتى أوبرا مختلفة في القرن الثامن عشر . هناك خاضت أشهر كواكب الغناء في ذلك العصر ، فرانسكا كوترونى

وفاوستينا بوردوني ، معاركهما المشجعة في سبيل التفوق ، وكانت كل منهما تهر العالم من خشبة المسرح . فأمل كوتزوني فكانت تغني أمام فارينللي في مسرح ، وأما بوردوني فأمام برناكي في مسرح آخر ، وانقسمت البندقية بأسرها بين المعجبين بهؤلاء المغنين . ولو قد غنى أربعتهم معاً لذابت ملكة الأدرياتيكي طرباً في بحيراتها .

ومقابل قلاع الأوبرا والبهجة هذه قامت الملاجيء الأربعة ospedali التي رعت فيها البندقية بعض فتياتها اليتيمات أو غير الشرعيات . ورغبة في شغل هؤلاء الأطفال المشرذات واضفاء المغزى على حياتهن كن يدربن على الموسيقى الصوتية والآلية ، وعلى الغناء في فرق الانشاد ، وأحياء الحفلات الموسيقية العامة من خلف حواجز ذات قضبان كحواجز الأديرة . وقد قال روسو انه لم يسمع من حيانته شيئاً أثر فيه كأصواتهن الرقيقة وهن يغنين في إيقاع مدرب^(٤١) ، وذكر جوته أنه لم يسمع قط سوبرانو بهذا الاتقان ، أو موسيقى « لها هذا الجمال الذي لا يوصف »^(٤٢) . وكان يعلم في هذه المعاهد نفر من أعظم الملحنين الايطالين ويؤلفون لها الموسيقى ، ويفودون حفلاتها ، أمثال مونتيفردى ، وكافاللي ، ولوتي ، وجالوبي ، ويوريورا ، وفيفالدي . . .

واتجهت البندقية إلى مدن إيطاليا ، وأحياناً النمسا وألمانيا ، لتزود مسارحها بالأوبرات وتمد ملاجئها وأوركستراتها وعازفيها المهرة بالموسيقى للصوتية والآلية . وكانت هي ذاتها الأم أو الحاضنة لانطونيو لوتي ، عازف الأرغن ثم رئيس فرقة المرتلن في كنيسة القديس مرقس ، ومؤلف أوبرات غير ذات بال ، ولكنه أيضاً ملحن قداس ذرفت له عينا بيرني البروتستنتي ، ولبلدا ساري جالوبي الذي اشتهر بأوبراته الهازلة وببهاء الحانه الأوبرالية ورقتها ، ولألساندرو مارتشيللو الذي تنبأ كونشرتاته مقاما عالياً في مؤلفات عصره الموسيقية ، ولأخيه الأصغر بنديتو الذي قيل عن تلحينه لخمسين مزموراً أنه « من أبدع المؤلفات الموسيقية قاطبة »^(٤٣) ولا نطونيو فيفالدي .

ولقد كان استماع بعضنا لكونشرتو من تأليف فيفالدى أول مرة مفاجأة أشعرتنا بالحزى . فلم جهلناه طوال هذا الزمن ؟ هنا انسياب جليل للنغم ، وتموجات ضاحكة من اللحن ، ووحدة فى البناء ، وتماسك الأجزاء كان خليقا بأن يكسب هذا الرجل مدخلا أسبق من هذا إلى علمنا ، ومكاناً أرفع فى توارىخنا الموسيقية (*) .

ولد حوالى ١٦٧٨ لعازف فيولينة فى أوركسترا مصلى الدوجات بكتدرائية القديس مرقس . وعلمه أبوه الفيولينه ؛ وحصل له على وظيفة فى الأوركسترا . وفى الخامسة عشرة كرس تكريماً مبدئياً للدين ، وفى الخامسة والعشرين أصبح قسيساً ولقب « البريتى روسو » لخمرة شعره . ولعل ولعه بالموسيقى تعارض مع واجباته الكهنوتية . وقال الأعداء إنه « ذات يوم بينما كان فيفالدى يتلو القداس ، خطر له موضوع يصلح لفوجه ، وللتو غادر المذبح . . . وذهب إلى غرفة المقدسات والملابس ليدون الموضوع ، ثم عاد ليكمل القداس » (٤٤) . واتهمه قاصد بابوى بأنه يحتفظ بعدة نساء ، وأخيراً نهاه ديوان التفتيش (كما زعموا) عن تلاوة القداس . وقد روى انطونيو فى سنوات لاحقة قصة تختلف عن هذه تمام الاختلاف . وقال :

« كانت آخر مرة تلاوت فيها القداس منذ خمسة وعشرين عاماً ، لا بسبب منعى من تلاوته . . . ولكن بناء على قرار منى اتخذته بسبب علة أرهقتنى منذ ولادتى . فبعد أن رسمت قسيساً كنت أتلو القداس عاماً أو أكثر بقليل ، ثم توقفت عن تلاوته لأن هذا المرض اضطرنى ثلاث مرات إلى مغادرة المذبح دون أن أتمه .

(*) خصصت له طبعة ١٩٢٨ من « قاموس جروف للموسيقى والموسقيين » عموداً واحداً وخصصت له طبعة ١٩٥٤ اثني عشر عموداً ، وأحكم من هذا على الذبوع الفجائى لشهرة فيفالدى ، فهل الشهرة نزوة من نزوات الصدفة ؟

« ولهذا السبب ذاته أقضى وقى كله تقريباً في بيتي ولا أبرحه إلا راكباً زورقاً أو عربة لأنني لم أعد قادراً على المشي بسبب حالة الصدر التي أعانيها ، أو على الأصح شعور الضيق والتوتر في صدري (strettza di petto) ربما كانت هي الربو) ولا يدعوني أي نبيل لبيتسه ، لا ولا حتى أميرنا ، لأن الجميع عليهم بمرضى ، وقد كانت أسفاري دائماً غالية النفقة جداً لأنني كنت مضطراً دائماً أن أصحب معي أثناءها أربع نساء أو خمساً ليساعدنني . » ثم أضاف أن هؤلاء النسوة كن نقيات السيرة « يسلم الناس في كل مكان بعفتن . . . وكن يؤدين الصلاة كل يوم من أيام الأسبوع »^(٤٥) .

على أنه حتى لو شاء لما استطاع أن تغلب الخلاعة على خلقة لأن معهد الموسيقى الملحق بالملجأ الديني احتفظ به طـوال سبعة وثلاثين عاماً عازفاً للفيولينه ومعلماً وملحناً أو رئيساً للكورس . وقد لحن لتلميذاته البنات معظم أعماله غير الأوبرالية . وتكاثرت الطلبات عليه ، ومن ثم كان يكتب في عجلة ثم يصحح فيما يتاح له من فراغ ، وقد أخبر دبروس أن في استطاعته أن « يلحن الكونشرتو بأسرع مما يستطيع ناسخ أن ينسخه »^(٤٦) . وبالمثل كانت أوبراته تلحن على عجل ، وقد سجلت أحداها على صفحة الغلاف عبارة تشي بالفخر (أو الاعتذار) هي (Fatto in cinque giorni) كتبت في خمسة أيام . وقد وفر الوقت كما وفره هندل بالاستعارة من نفسه ، فأقتبس من موسيقاه القديمة ما يلبي حاجاته الحاضرة .

وفي فترات فراغه من عمله في الملجأ ألف أربعين أوبرا . وأتفق كثير من معاصريه مع تارتينى على أنها متوسطة الجودة ، وقد سخر منها بنديتو مارتشيللو في (تياترو على الموضة) ولكن جماهير النظارة في البندقية ، وقتشنتسا ، ومانتوا ، وفلورنسة ، وميلان ، وفيينا ، رحبوا به ، وكثيراً ما كان فيفالدى يترك بناته ليسافر مع نسائه مخترقاً شمالى إيطاليا ، بل حتى إلى فيينا وامستردام ايعزف الفيولينه أو ليقود إحدى أوبراته أو ليشرف على إخراجها وديكورها . وأوبراته الآن ميتة ، ولكن هذا مصير معظم

الأوبرات التي ألقت قبل جلوك . فقد تغيرت الأساليب والعادات والإبطال ،
والأصوات ، والجنسان .

ويعرف التاريخ ٥٥٤ من مؤلفات فيفالدى ، منها ٤٥٤ كونشرتو .
وقد قال ناقد ماكر أن فيفالدى لم يكتب ستمائة كونشرتو ، بل هو
كونشرتو واحد أعاده ستمائة مرة^(٤٧) . ويبدو الأمر كذلك أحيانا . ففي
هذه القطع قدر كبير من نشر الاوتار ونغمات الأرغن اليدوى المتصلة ،
وقياس للوقت أشبه بحركات البندول ، بل أننا نجد حتى في السلسلة الشهيرة
المسماة (الفصول) (١٧٢٥) صحارى من الرتابة ، ولكن فيها أيضاً قما من
الحياة المشبوبة والعواصف القارسة ؛ وواحات من الصراع الدرامى بين
العزفين المنفردين والأوركسترا ؛ وجداول سائغة من الالخان . في قطع
كهله^(٤٨) ، أبلغ فيفالدى الكونشرتو الكبير مكانة ممتازة لاسبق لها ولايزها
إلا باخ وهيندل .

وكان فيفالدى يعانى كمعظم الفنانين من الحساسية التى غدت عبقرية .
وقد عكست قوة موسيقاه طبعه النارى ، وعكست رقة نغماته تقواه . فلما
تقدم به العمر استغرق فى واجباته الدينية حتى لقد وصفته رواية مبالغة
بأنه لا يترك مسبحته إلا ليلحن^(٤٩) . وفى ١٧٤٠ فقد وظيفته فى الملجأ الدينى
أو استقال منها ، ولأسباب نجهلها الآن نزع من البندقيه إلى فيينا .
ولا نعرف المزيد عنه ؛ اللهم إلا أنه مات هناك بعد سنة ودفن كما يدفن
فقراء الناس .

ومرموته دون أن تلحظه الصحف الإيطالية ، لأن البندقيه كانت
قد كفت عن الاهتمام بموسيقاه ، ولم يقدره أحد قدرا يقرب من قمة فنه
لا فى وطنه ولا فى جيله . على أن مؤلفاته لقيت الترحيب فى المانيا .
فاستورد كوانتسى الذى كان عازفا للفلوت وملحنا لفردريك الأكبر ،
كونشترات فيفالدى ؛ وقبلها بصراحة نماذج تحتذى . وأشد أعجاب باخ
بها حتى نقل تسعه منها على الأقل للهاربسكورد ، وأربعة للارغن ، وواحدا

لأربعة هاربسكوردات ومجموعة وتريات^(٥١) . وواضح أن باخ أخذ عن فيفالدى وكوريللى البناء الثلاثى لكونشرتاته .

وكاد فيفالدى أن يكون نسياً منسيا طوال القرن التاسع عشر إلا من الدارسين الذين تتبعوا تطور باخ . ثم رده إلى مكان مرموق فى ١٩٠٥ أنولد شيرنج فى كتابه « تاريخ الكونسيرت الآلية » ؛ وفى عشرينات القرن العشرين دافع أرتورو توسكانينى عن قضية فيفالدى بكل عواطفه ومكانته . واليوم يحتل « القسيس الأحمر » مؤقثاً أرفع مكان بين الملحنين الإيطاليين فى القرن الثامن عشر .

٣ - ذكريات

من صيف الفن البندقى المؤذن بالأفول يبرز نحو أثنى عشر مصوراً ويلتمسون أن نذكرهم . ونكتفى هنا بتحيةة نقرأها حبا مبيتستا بيتونى ؛ الذى لم ترفع البندقية فوقه غير تيبولو وبياتسيتا ؛ ويأكوبو آميجونى الذى أورت بوشيه أسلوبه الشهوانى ؛ وجوفانى أنطونيو بللاجرينى ، الذى حمل الوانه إلى إنجلترا وفرنسا والمانيا ، وهو الذى زين قلعة كمبولتز وقلعة هوارد ، وبنك فرنسا . وألفت للنظر من هؤلاء ماركو ريتشى لأنه قتل أحد النقاد ثم انتحر . ففى عام ١٦٩٩ ، حين كان فى الثالثة والعشرين ، طعن ملاح جندول إستخف بصورة طعنات قضت عليه ، ثم فرالى دلماشيا ، وأغرم بمشاهدها الطبيعية ، وبلغ من حذقه فى التقاطها بالوانه أن غفرت له البندقية جريمته وهملت له كأنه تنتوريتو مبعوثاً من جديد . وصحبه عمه سبستيانو ريتشى إلى لندن ، حيث تعاونوا على تصوير مقبرة دوق ويفونشير . وكان ككثيرين جداً من فناني القرنين السابع عشر والثامن عشر يحب أن يرسم الأطلال الحقيقية أو الخيالية ولا ينسى فى ذلك نفسه . وفى ١٧٢٩ ، وبعد عدة محاولات ، أفلح فى الانتحار . وفى ١٧٣٣ بيعت إحدى لوحاته بخمسمائة دولار ؛ وفى ١٩٦٣ بيعت من جديد بتسعين ألف دولار^(٥١) ، وهو ما يبين مبلغ تقدير قيمة الفن وهبوط قيمة النقود .

وتأمل شخصية روزاليا كارييرا أدعى إلى السرور . فقد بدأت حياتها العملية برسم نماذج للمخمرات الفينيسيه Point de venise ؛ ثم رسمت علب السعوط (كما فعل رينوار الصغير) ثم المنمنمات ، وأخيراً وجدت في ألوان الباستيل قمة تفوقها . ولم يحل عام ١٧٠٩ حتى كانت قد أكتسبت من الشهرة ما جعل فردريك الرابع ملك الدنمرك يدعوها حين أعتلى العرش ليختارها لترسم له لوحات بالباستيل تمثل أجمل سيدات البندقيه أو أبعدهن صيتاً . وفي ١٧٢٠ دعاها إلى باريس بيير كروزا جامع التحف المليونير . وهناك لقيت من الترحيب والحفاوة ما لم يلقه فنان أجنبي آخر منذ برتيني . وكتب الشعراء فيها الصونيتات ؛ وزارها الوصي فليب أورليان ، وصورها فاتو ، وصورته هي ، وجلس إليها لويس الخامس عشر لتصوره ؛ وانتخبت عضواً في أكاديمية التصوير ؛ وقدمت لوحة الدبلوم « ربة الفنون » المعروضة في اللوفر . وبدأ للناس كأن روح الروكوك قد تجسدت فيها .

وفي ١٧٣٠ ذهبت إلى فيينا ؛ حيث رسمت صوراً بالباستيل لشارل السادس ؛ وإمبراطورته ، والأرشيدوقة ماريا تريزا . فلما عادت إلى البندقيه أستغرقت في فنها أستغراقاً إنساها أن تتزوج . وفي أكاديمية البندقيه ملء حجرة من اللوحات التي رسمتها ، وفي قاعة الفنون يدرس دن ١٥٧ ، معظمها يتميز بالوجوه الوردية ، والخلفيات الزرقاء ، والبراءة المشرقة ، ورقة الوجوه ذات الغمازات ؛ بل أنها حين رسمت هوراس وليول (٥٢) ، جعلته يبدو كأنه فتاة . وكانت ترضى غرور كل من يجلس إليها لتصوره إلا نفسها ، وصورتها الذاتية المعلقة في قلعة وندزر تظهرها في سننها الأخيرة وقد أبيض شعرها وشابها شيء من الاكتئاب كأنها تتوقع أن يكف بصرها بعد قليل . وقد اضطرت طوال الأعوام الأثني عشر الأخيرة من عمرها البالغ أثنى وثمانين عاماً أن تعيش محرومة من النور واللون اللذين كانا لها بمثابة رحيق الحياة . وقد تركت بصمتها على فن جيلها : ولعل لا تور قد أستلهم الحرارة منها ، وتذكر جروز تمثيلها لشباب النساء في صورة مثالية ؛ وانحدرت ألوانها الوردية — الحياة بلون الورد — إلى بوشيه ورنوار .

أما جوفاني باتستا بياتسيتا فكان فنانا أعظم يسمو فوق العواطف الهشة ويحتقر الزخرف ولا يسعى وراء ارضاء الجمهور بقدر سعيه إلى تدليل صعاب صناعته والتمسك بأرفع تقاليدها . وتبين زملاءه الفنانون هذه النزعة فيه ، ومع أن تيبولو كان له فضل السبق في تأسيس أكاديمية البندقية للتصوير والنحت (١٧٥٠) ، فإن بياتسيتا هو الذى اختاروه أول رئيس لها . ولوحته المسماة « رفقة عند البئر » ^(٥٣) جديرة بتتسيانو ، وهى أقل حتى من تتسيانو اكتراثا بمفاهيم الجمال المتعارف عليها . واللوحة تكشف من جسد رفقة قدرا يكفى لاثارة غريزة المتوحش ، ولكن وجهها الهولندى وأنفها الأفطس لم يصورا اينتشى بهما الايطاليون . فالذى يثير عواطفنا هنا هو الرجل ، إنه شخصية جديرة بفن النهضة : وجه قوى ، ولحية ملمعة وقبعة ذات ريش وومضة إغراء مكر فى عينيه . واللوحة كلها آية من آيات اللون والنسيج والتصميم ، وقد تميز بياتسيتا بأنه كان أكثر المصورين البنادقة احتراما فى جيله ، وأنه مات أفقرهم جميعاً .

وأشهر منه انطونيو كانالى ، الملقب كاناليتو ، لأن نصف العالم يعرف البندقية بفضل مناظره vedute . أما انجلترا فعرفته دما ولحما . وقد نهج حيناً نهج أبيه الذى امتن رسم المناظر للمسارح ، ثم درس العمارة فى روما ، فلما عاد إلى البندقية طبق الفرجار والزاوية على رسمه ، وجعل العمارة ملمحا من ملامح صوره . وفى هذه الصور عرفنا ملكة الادرياتيكا كما كانت تبدو فى النصف الأول من القرن الثامن عشر . ونلاحظ من لوحة باتشينودى سان ماركو Baccino بحيرة القديس مرقص ^(٥٤) مبلغ ازدحام البحيرة الكبرى بالمراكب ، ونبصر سباق الزوارق Regatta على القناة الكبرى ^(٥٥) ونرى أن الحياة كانت زاخرة مشبوبة شأنها من قبل دائماً ، ويهيجنا أن نجد « جسر الريالتو » ^(٥٦) وميدان القديس مرقص ^(٥٧) والميدان الصغير ^(٥٨) وقصر الادواج ^(٥٩) وكنيسة سانتا ماريا ديللا سالوتا ^(٦٠) كما نجدوها اليوم تقريبا ، إذا استثنينا البرج الذى أعيد بناؤه . وصور كهذه هى التى احتاج إليها السياح فى الشمال الملبد بالغيوم ليذكروا فى عرفان شمس البندقية الشديدة

الصفاء وسحرها الفتان . وقد اشترى هذه الصور ودفعوا أثمانها ثم حملوا هذه التذكارات إلى بلادهم ، وسرعان ما طالبت إنجلترا بكانالييتو نفسه ، فذهب إليها في ١٧٤٦ ورسم مناظر مستفيضة لها يتحول^(٦١) ، « ونهر التيمز من قصر رتشموند » ، واللوحة الأخيرة بجمعها المدهش بين الاتساع والتناسب والتفصيل هي تحفة كانالييتو الرائعة . ولم يعد إلى البندقية إلا في ١٧٥٥ . وظل هناك عاكفا بهمة على عمله حتى عام ١٧٦٦ حين كان قد بلغ التاسعة والستين . وقد كتب بفخر على لوحته داخل كتدرائية القديس مرقس هذه العبارة « رسمت بدون منظار » .^(٦٢) وقد أسلم أساوبه في القياس الدقيق إلى ابن أخيه برناردو بلوتو كانالييتو ، وولعه بالمناظر إلى « تلميذه الطبيب » فرانشسكو جواردي الذي سالتقى به ثانية .

وكما ابرز كانالييتو المنظر الخارجي للمدينة الفخمة ، كشف بييترو لونجي عن الحياة داخل جدرانها باستخدامه أسلوب تصوير مناظر الحياة اليومية في رسم الطبقة الوسطى . فالسيدة التي تتناول فطورها في ثوبها الفضفاض الطويل ، والأب الراهب يعلم ابنها ، وابنتها الصغيرة تدلل كلبا لعبة ، والحياط يعرض فستاتنا ، ومعلم الرقص يدرب السيدة على خطوات المنويت ، والأطفال وعيونهم تملق في معرض للوحوش ، والصبايا يمرحن في لعبة « الاستغاية » (الغميضة) ، والتجار في حوانيتهم ، والمتنكرون بالأقنعة في الكرنفال ، والمسارح ، والمقاهي ، « والجمعيات » الأدبية ، والشعراء يتلون أشعارهم ، ودجاجة الطب ، وقارئات البخت ، وباعة السجق والبرقوق ، والتمشي في الميدان ، وفريق القنص ، وجماعة صيد السمك ، والأسرة في عطلتها : كل نشاط بورجوازي يستحق الذكر هناك ، وفي إفاضة ، تفوق حتى ما في كوميديات جوليدوني ، صديق لونجي . إنه ليس فنا عظيما ، ولكنه فن يشرح الصدر ، ويرينا مجتمعاً أكثر نظاما وتهذيبا مما كنا نتصوره من أرستقراطي أندية القمار أو أعمال شحن السفن وتفريغها الشتامين السبابين .

٤ — تيبولو

أما البندقى الذى أوهم أوربا لحظة أن النهضة قد عادت فهو جامباتستا تيبولو . ومن المشاهد المألوفة فى أى يوم من أيام الصيف أن ترى موكبا من الطلاب والسياح يدخلون مسكن أسقف فورتسبورج ليرى بيت السلم والسقف اللذين رسم تيبولو صورهما الجصية فى ١٧٥٠ — ٥٣ ، هذه الصور هى قمة التصوير الإيطالى فى القرن الثامن عشر . أو تأمل لوحة « الثالث يظهر للقديس كلمنت » فى متحف الفن القومى بلندن ، ولاحظ تكوينها البارع ، ورسمها الدقيق ، وتناولها الحاذق للضوء ، وعمق لونها وتوهجها ، أليس هذا قريباََ لفن تنسيانو ؟ ربما ، ولولا أن تيبولو قد طوف كثيراََ لكان واحداً من عمالقة التصوير .

أو لعل ثراءه هو الذى عوقه . ذلك أنه كان آخر طفل لتاجر بندقى غنى خلف ثروة كبيرة عند وفاته . ومالبث جان ، الذى كان وسيما ذكياََ مرحاً « أن اكتسب الازدراء الارستقراطى لكل ما هو شعبي »^(٦٣) . وفى ١٧١٩ حين بلغ الثالثة والعشرين تزوج تشيشيليا أخت فرانشسكو جواردى ، فولدت له أربع بنات وخمسة أولاد ، أصبح اثنان منهم مصورين وعاشوا جميعاً فى بيت أنيق فى أبرشية سانتا ترينيتا . وكانت موهبته قد تفتحت . فى ١٧١٦ عرض لوحة « تضحية اسحق »^(٦٤) ، وهى لوحة فجأة ، ولكنها قرية ، ووضح أنه كان فى تلك الحقبة متأثراً بفن بياتسيتا . وقد درس فيرونيزى أيضاً ، واتخذ أسلوب باولى فى الملابس الفخمة والألوان الدافئة والخطوط الشهوانية . وفى ١٧٢٦ دعاه رئيس أساقفة أودينى ليزين كتدرايته وقصره . واختار تيبولو مواضيعه من قصة إبراهيم ، ولكن التناول لم يكن كتابياً تماماً . فوجه سارة المنبعث من طوق مكشكش من أطواق عصر النهضة ، هو غضون وتجاعيد تكشف عن سنين أثريتين ، ولكن الملاك رياضى إيطالى له ساق فاتنة . ويبدو أن تيبولو أحس أن فى استطاعته ، فى قرن بدأ يسخر من الملائكة والمعجزات ، أن يسمح لمزاجه باللهو بالتقاليد المبجلة ، وقد أتاح له رئيس الأساقفة اللطيف هذا اللهو . ولكن كان على الفنان

أن يكون حذراً ، لأن الكنيسة لم تزل يومها من أهم مصادر تمثيل المصورين في العالم الكاثوليكي .

أما المصدر الآخر فكان العلمانيين أصحاب القصور التي يراد تزيينها بالصور . وقد روى جان في قصر كازالى - دونياني بميلان (١٧٣١) قصة سكبيلو بالصور الجصية . ولم تكن هذه الصور معبرة عن فن تيبولو النموذجي ، لأنه لم يكن بعد قد شكل أسلوبه المتميز ، أسلوب الأشخاص الذين يتحركون في يسر وانطلاق في حيز غير محدد ، ولكنها دلت على براعة أثارت ضجة في شمالى إيطاليا . ولم يحل عام ١٧٤٠ حتى اهتدى إلى موطن النبوغ في فنه ، وانجز ما اعتبره البعض^(٦٥) رائعته الكبرى - وهى سقف قصر كليرنتى بميلان وهو ولأئمه . واختار لهذه الرائعة مطايا لخياله « أركان الأرض الأربعة » و « مسيرة الشمس » و « أبوللو والآلهة الوثنية » وأسعده أن يترك عالم الأساطير المسيحية الكابى ويمرح على قمم أولمب حيث يستطيع استخدام الآلهة اليونانية الرومانية شخصاً في عالم متحرر من قوانين الحركة واغلال الجاذبية بل من قواعد الرسم الأكاديمية . لقد كان في صميمه وثيقاً كأكثر الفنانين الذين يذوب قاموسهم الأدبي في حرارة مشاعرهم ، ثم أن الجسم الجميل قد يكون نتاج روح قوية العزيمة قادرة على التشكيل ، ومن ثم يكون هو ذاته واقعاً روحياً . وراح تيبولو الآن يطلق من جعبته على مدى ثلاثين عاماً أرباباً وربات رافلين في غلائل من الشاش ، عراة في غير اكتراث ، يسرحون ويمرحون في الفضاء ، أو يطارد بعضهم بعضاً بين الكواكب أو يتطارحون الغرام على وسادة من السحب .

فلما قفل إلى البندقية عاد إلى المسيحية ، وكفرت صورته الدينية - ن أساطيره الوثنية . فرسم لمدرسة سان روكو لوحة قماشية سماها « هاجر واسماعيل » يلفت النظر فيها جمال الطفل النائم . وفي كنيسة الجزواتى التى سماها الدومنيكان من جديد كنيسة « سانتا ماريا ديل روزاريو » رسم لوحة « تأسيس التسبحة » ورسم لمدرسة الرهبان الكرملين « عذراء جيل الكرمل » وكادت هذه الصورة تضارع تتسيانو « البشارة » . ورسم لكنيسة القديس الفيزى ثلاث

صور ، إحداها المسماة « المسيح حاملاً الصليب » تزدحم بشخص قويا
صورت تصويراً نابضاً بالحياة . وهكذا سدد تيبولو دينه لعقيدة وطنه .

على أن خياله كان أكثر تحرراً على جدران القصور . ففي قصر بربارو رسم
« تمجيد فرانشيسكو بربارو » — واللوحة الآن في متحف المتربوليتان للفنون
بنيويورك . ورسم لقصر الأدواج لوحة « نبتون يقدم لفينوس خيرات البحر » .
وقدم لقصر بابا دوبولى لقطتين مبهجتين للبندقية في الكرنفال — « المنويته »
و « المشعوذ » . ثم توج كل صور القصور التي رسمها في البندقية بزخرفة
قصر لايبا بصور جصية تحكى قصة انطونيوس وكيلوباتره في مشاهد مبهية
نفدت تنفيذاً رائعاً . ورسم زميل له يدعى جيرولامو منجوتسى كولونا
الحلفيات المعمارية في فورة من بهاء الطراز البلاديوى . فعلى جدار ترى لقاء
الحاكمين ، وعلى الجدار المقابل وليمتها ، وعلى السقف حشد جامع من
شخص طائفة تمثل بيجاسوس ، والزمن ، والجمال ، والرياح التي تثيرها
عفاريت نفاخه مرحة . وفي لوحة « اللقاء » تهبط كيلوباتره من زورقها
في ثياب تهر الأبصار ، تكشف عن صدر ناهد لتفتن حاكماً مرهقاً في
الحكومة الثلاثية ، حتى يسكن إليها في راحة عطرة . وفي لوحة « الوليمة »
وهي أشد تألقاً حتى من هذه تسقط كيلوباتره لؤلؤة غالية الثمن في خررها ،
ويؤخذ انطونيوس بهذا الثراء الذي لايعبأ بشيء . وعلى شرفة يعزف
الموسيقيون قياثيرهم ليضاعفوا الخطر مرتين والثمل ثلاثاً ، وهذه الرائعة التي
تذكر بفيرونيزى وتنافسها كانت إحدى الصور التي نسخها رينولدز
في ١٧٥٢ .

هذا الإنتاج الذي تميز بالأسلوب الفخم رفع تيبولو إلى قمة ترى من
وراء الألب . فاذاع الكونت فرانشيسكو الجاروتى صديق فردريك وفولتير
اسمه في أوربا . وفي تاريخ مبكر (١٧٣٦) أبلغ الوزير السويدي في البندقية
حكومته أن تيبولو هو أصلح رجل يرسم القصر الملكي في أستوكهولم ،
« كله ذكاء وخبرة » ، سهل المعاملة ، يتدفق أفكاراً ، موهوب في اختيار
الألوان الساطعة ، سريع في عمله سرعة خارقة ، يرسم صورته في زمن يقل .

عما يستغرقه مصور آخر في مزج الوانه^(٦٦) . وكانت استوكهولم آنذاك مدينة جميلة ولكنها بدت بعيدة جداً .

وفي ١٧٥٠ جائته دعوة أقرب ، فقد طلب إليه كارل فليب فون جرايفنكلو أمير فورتسبرج الأسقف أن يرسم صوراً للقاعة الإمبراطورية لقصره الإداري الذي بناه مؤخراً . وأغرى الأجر المعروض بالحاج الفنان المسن . فلما وصل في ديسمبر بصحبة أبنيه دومنيكو البالغ أربعة وعشرين عاماً ولورنتسو ذي الرابعة عشرة وجد تحدياً لم يتوقعه في بهاء قاعة التصر التي صممها بليتا زار نويمان ، فأنى لأى صورة أن تخطف العين وسط ذلك الضياء الباهر ؟ وكان نجاح تيبولو هنا القمة التي توجت عمله . فقد رسم على الجدران قصة الإمبراطور فردريك بروسا (الذي كان قد ذهب في لقاء مع بياتريس أميرة برجنديا في فورتسبرج عام ١١٥٦) وعلى السقف رسم « أبولو مصطحبها العروس » ؛ هنا راح يصول ويجول في مهرجان من الخيول البيضاء والأرباب المرحين والضياء يتألق فوق ملائكة تطير وغيوم شفافة . وعلى منحدر في السقف رسم « الزفاف » : وجوه مليحة . وأجسام مهيبة ، وأغطية وأستار مزدانة بالزهر ؛ وأثواب تذكر بالبندقية أيام فيرونيزي لا بالطرز الوسيطة . وانشرح صدر الأسقف فوسع العتد ليحتوى سقف بيت السلم الكبير ونقوش مذبحين اكتدرائيته . وعلى طريق السلم الفخم رسم تيبولو القارات وجبل أولب — مرتع خياله السعيد — وصورة رائعة لا بولو إله الشمس يجوب السماوات .

وقفل جامباتستا إلى البندقية (١٧٥٣) غنيا مرهقا ، وترك دمنيكوليكل المهمة في فورتسبرج . وما لبث أن انتخب رئيساً للأكاديمية . وكان فيه لطف في الطبع جعل حتى منافسيه مولعين به ، فلقبوه (تيبواو الطيب) . ولم يستطع مقاومة جميع المطالب التي تكاثرت على وقته المتضائل ، فنحن نجده يرسم في البندقية ، وترفيزو ، وفيرونا ، وبارما ، فضلاً عن لوحة قماشية كبيرة طلبها « بلاط موسكوفيا » . وما كنا للنتظر منه في هذه الحالة أن ينتج عملاً كبيراً آخر ، ولكنه في ١٧٥٧ ، حين كان في الحادية

والستين ، أضطلع برسم صور فيلا فالمارانا قرب فيتشنتسا . ورسم منجوتسى كولونا الإطار المعمارى ووقع دومنيكو على بعض الصور فى المضيقة ، أما جامباتستا فقد نشر الوان فرشاته فى الفيلا ذاتها . واختار موضوعات من ملاحم الالياذه ، والأنياذه ، وأورلندو الغاضب ، والقدس المحررة ، وأطلق العنان لخداعيته المرححة فتاه اللون فى الضوء ، والمكان فى اللانهاية ، وترك أربابه ورباته يطفون على هواهم فى جنة سمت فوق كل الشواغل والأزمان . وقد أخذ العجب جوته وهو يتأمل هذه الصور الخصبه فقال فى دهشة :

« غاية فى البهجة والجرأة » ، وكانت هذه آخر انتصار مثير لتيولو فى إيطاليا .

وفى ١٧٦١ طلب إليه شارل الثالث ملك أسبانيا أن يحضر ويرسم صوراً فى القصر الملكى الجديد بمدريد . وأعتذر هذا التتسيانو المتعب بشيخوخته ؛ ولكن الملك رجا مجلس شيوخ البندقية أن يستعمل نفوذه . فانطلق على مضض مرة أخرى مع ولديه الوفيين ونموذجه كرسيتينا ؛ تاركاً زوجته مرة أخرى لأنها كانت تحب كازينوات البندقية . وسوف نلقاه راكبا سقالة الرسم فى أسبانيا .

٥ — جولدوني وجوتسى

يبرز فى إيدب البندقية فى هذا العصر أربعة اشخاص كل اثنين منهم معا : أبوستولو تسينو وبييترو متاستازيو وكلاهما كاتب نصوص لأوبرات كانت شعرا ؛ ثم كارلو جولدوني وكارلو جوتسى اللذان أقتتلا ليحلا محل الكوميديا البندقية كوميديا أصبحت مأساة جولدوني . وقد كتب جولدوني عن الاثنين الأولين يقول :

« لقد أثر هذان المؤلفان المشهوران فى إصلاح الأوبرا الإيطالية . فقبل محيئهما لم يكن غير الأرباب والشياطين والآلات والعجائب فى هذه الملاحى المنعمة . وكان تسينو أول من فكر فى أمكان تمثيل المأساة بشعر

غنائي دون أبتدال ، وإنشادها دون أن يرهق الأنشاد السامعين . وقد أنفذ فكرته بطريقة رضى عنها الجمهور رضاء عظيما ، مما حقق له ولأمته مفخرة كبرى^(٦٧) .

وحمل تسينو اصلاحاته إلى فيينا في ١٧١٨ ، ثم اعتزل راضيا ليخلو الحسو لمتاستازيو في ١٧٣٠ وعاد إلى البندقية وعشرين عاماً من السلام . أما متاستازيو فقد لعب دور راسين لكورنيي تسينو كما قال جولدوني ، فاضاف الصقل إلى القوة ، وأرتفع بالشعر الأوبرالى إلى قمة لم يرتفع إليها من قبل . وقد وضعه فولتير في مصاف كبار الشعراء الفرنسيين ؛ وعده روسو الشاعر المعاصر الوحيد الذى يصل شعره إلى القلب . وأسمه الأصيل بييترو تراباسي (بيتر كروس) . وقد سمعه ناقد مسرحي يدعى جان فنتشنتو جرافينا يغنى في الشوارع ؛ فتبناه ؛ وسماه من جديد متاستازيو (وهو المقابل اليوناني لتراباسي) . وأنفق على تعليمه : وخلف له ثروة عند مماته . وراح بييترو يبدد هذه الثروة في غير تخرج ، ثم تعاقد مع محام فرض عليه شرطاً هو ألا يقرأ أو يكتب بيتاً واحداً من الشعر . ومن ثم أخذ يكتب تحت اسم مستعار .

وفي نابلي طلب إليه المبعوث النمساوي أن يكتب غنائيات لكننتاتا ؛ وألف بوريورا الموسيقى ، وغنت الدور الرئيسي ماريانا بولجاريللى المشهورة يومها باسم لا رومانينا ، وسار كل شيء على ما يرام . ودعت المغنية الكبرى الشاعر إلى صالونها ، وهناك التقى بليو وفنتشى وبرجوليزى وفارينللى وهاشى والساندرو ودومنيكو سكارلاتى ؛ وتطور متاستازيو سريعاً في تلك الصحبة المثيرة . ووقعت لا رومانينا في غرامه وكانت في الخامسة والثلاثين أما هو ففي الثالثة والعشرين . وخلصته من شباك الحماماه واخذته رفيقاً مع زوجها الكيس المتسامح ؛ وأوحت إليه بكتابة أشهر نصوصه « Didone abandonata ديدوني المهجورة » التى لحنها اثنا عشر ملحناً متعاقباً بين ١٧٢٤ و ١٨٢٣ . وفي ١٧٢٦ كتب « سيروى » لحبيته وبني عليها فنتشى وهاسى وهندل وأوبرات مستقلة . وأصبح متاستازيو الآن أكثر كتاب النصوص رواجاً في أوروبا .

وفي ١٧٣٠ قبل دعوة إلى فيينا وترك لا رومانيا . وحاولت أن تلحق به . وخاف أن يعرضه وجودها معه للفضيحة ، فحصل على أمر بمنعها من دخول الأراضي الإمبراطورية فطعنت صدرها محاولة الانتحار ، واخفق هذا الجهد الذي بذلته لتلعب دور ديدو ، ولكنها لم تعيش أكثر من أربع سنين أخرى .

وعند موتها خلفت لأينياسها الخائن كل ثروتها . ولكن متاستازيو رفض قبول التركة متأثرا بتأنيب ضميره ونزل عنها لزوجها . وكتب يقول « لم يعد لي أي أمل في أن أوفق إلى السلوى . واعتقد أن ما بقي لي من عمرى سيكون حزيناً لا لذة فيه » (٦٧) . وكان يستمتع بالنصر تلو النصر في حزن حتى قطعت حرب الوراثة النمساوية عروض الأوبرا في فيينا . وبعد ١٧٥٠ كان يكرر نفسه دون هدف . لقد استهلك الحياة قبل موته (١٧٨٢) بثلاثين عاماً .

طردت الأوبرا الدراما التراجيدية من المسرح الإيطالي كما تنبأ فولتير من قبل وتركه للكوميديا . ولكن الكوميديا الإيطالية كانت تسيطر عليها الكوميديا ديللارتي --- وهي مسرحية الحديث المرتجل والأقنعة المميزة . وكانت معظم الشخصيات قد تقبلت منذ زمن طويل : بنتالوني البورجوازي الطيب ذو السراويل ، وتارتاجايا الخادم النابوليتاني المهته ، وبريجيلا الدساس الساذج الذي يقع في شرك دسائسه ، وتروفالدينو الآكول الشهواني اللطيف ، وأرلكنو - ويقابله هارلكوين (المهرج) عندنا ، وبولتشنيللو --- ويقابله عندنا بنش ، وأضاف مختلف المدن والأجيال مزيداً من الشخصيات . وترك معظم الحوار والكثير من الأحداث في الحبكة للاختراع المرتجل . يقول كازانوفا « كان الممثل في تلك الكوميديات المرتجلة إذا توقف لأن كلمة غابت عنه ، لم يعفه رواد مؤخرة الصلاة والشرفات العليا الرخيصة من صياح السخرية والاستهجان » (٦٨) .

وكانت المسارح العاملة في البندقية عادة سبعة ، كلها مسماه بأسماء قديسين ، ويؤمها جمهور من النظارة شائن السلوك . فكان النبلاء في

مقاصيرهم لا يهمهم ما يلقونه على العامة تحتمهم . وكانت الأحزاب المتخاصمة ترد على التصفيق بالصفير أو التثاؤب أو العطس أو السعال أو صيحات الديكة أو مواء القطط^(٦٩) . وفي باريس كان أكثر رواد المسرح من عليه القوم ، وأرباب المهن أو المثقفين والأدباء ، أما في البندقية فكانوا أساساً من الطبقة الوسطى ، يتخللهم هنا وهناك الغواني المتبرجات ، وملاحو الجندولات البذيرون ، والقساوسة والرهبان متنكرين ، وأعضاء الشيوخ المتغطرسون في عبااتهم وباروكاتهم . وكان عسيرا أن ترضى مسرحية هذه العناصر كلها في مثل هذا الخليط من البشر ، ومن ثم نرعت الكوميديا الإيطالية إلى أن تكون مزيجاً من الهجاء والهزل الرخيص والتهريج والتوريات ، وقد أعجز الممثلين عن التنويع والتميز طول ما دربوا عليه من تصوير شخصيات ثابتة . هذا هو الجمهور وهذا هو المسرح الذي جاهد جولدوني في رفعه إلى مكانة الكوميديا المشروعة المتحضرة .

ويسر القارئ ما كتبه في « مذكراته » من استهلال بسيط . قال : « ولدت في البندقية في ١٧٠٧ ٠٠٠٠ جاءت بي أمي إلى العالم دون كبير ألم مما زاد حبهالي . ولم تعلن مولدى صيحات كالعادة ، وبدأ هذا اللطف آنشد دليلاً على الخلق الهادى الذى احتفظت به دائماً منذ ذلك اليوم »^(٧٠) .

وكان هذا القول تفاخراً منه ولكنه حق ، فجرلدوني من أحب الرجال في تاريخ الأدب ، وكان من بين فضائله التواضع رغم هذا الاستهلال — وهى نخلة ليست فى طبيعة الكتاب . ولنا أن نصدق له إذ يقول « كنت معبود الأسرة » وذهب الأب إلى روما ليدرس الطب ، ثم إلى بروجيا ليمارسه ، وتركت الأم فى البندقية لتربى ثلاثة أطفال .

وكان كارلو طفلاً نابغة . استطاع أن يقرأ ويكتب فى الرابعة ، وألف كوميدياً فى الثامنة . واقنع الأب الأم أن تسمح لكارلو بالذهاب إليه والعيش معه فى بروجيا . وهناك درس الغلام على اليسوعيين ، وتفوق ، ودعى للانضمام إلى الجماعة ، ولكنه رفض . ولحقت الأم وابن آخر بالأب ،

ولكن هواء الجبل البارد في بيروجيا لم يلائمها ، فانتقلت الأسرة إلى ريميني ، ثم إلى كيودجا . ودخل كارلو كلية دومنيكية في ريميني ، ثم إلى كيودجا . ودخل كارلر كلية دومنيكية في ريميني ، حيث كان يتلقى كل يوم جرعات من كتاب القديس توما الاكوينى « قمة اللاهوت » . ولما لم يجد شيئا يثير مشاعره في تلك الرائعة من روائع العقلانية فقد قرأ أرسطوفان ، وبلوتس ، وترنس ، فلما قدمت فرقة من الممثلين إلى ريميني انضم إليها فترة طالت إلى حد ادهش أبويه في كيودجا . فوبخاه ، وعانقاه ، ثم أرسله ليدرس القانون في بافيا . وفي ١٧٣١ نال درجته الجامعية وبدأ ممارسة المحاماة ، ثم تزوج ، « وكان الآن أسعد رجل في العالم » (٧١) ، اللهم إلا أنه أصيب بالجذري في ليلة زفافه .

وجذبتة البندقية فعاد إليها ، ونجح في المحاماة ، وأصبح قنصلا هناك لجنوه . ولكن المسرح ظل يستهويه ، وهفت نفسه للكتابة ، واشتهى أن تخرج مسرحياته . ومثلت مسرحيته « يلزارىوس » في ٢٤ نوفمبر ١٧٣٤ بنجاح ملهم ، وظلت تعرض يوميا حتى ١٤ ديسمبر ، وضاعف سروره افتخار أمه العجوز به . على أن البندقية لم تكن تستسيغ التراجيديات ، ففشلت مسرحياته التالية التي من هذا النوع ، فانصرف حزينا إلى الكوميديا . ولكنه رفض كتابة الفارصات « للكوميديا ديللارتي » ، وأراد أن يؤلف كوميديات السلوك والأفكار على طريقة مولير ، وألا يعرض على خشبة المسرح شخصا ثابتة تجمدت في أقنعة ، بل شخصيات ومواقف مشقة من الحياة المعاصرة . واختار بعض الممثلين من فرقة كوميديا البندقية ، ودرهم ، واخرج في ١٧٤٠ « مومولو » رجل البسلاط . « ونجحت التمثيلية نجاحا مذهشا ، وكان في هذا ما ارضانى » (٧٢) . ولكنه لم يرض تماما ، لأنه كان قد نزل عن بعض أفكاره بتركه الحوار كله دون أن يكتبه إلا للدور الرئيسى ، ويخلفه أدوارا لأربعة من الشخصوص المقنعة التقليدية .

وراح يدفع اصلاحاته خطوة خطوة . ففي مسرحية « المرأة الشريفة » كتب لأول مرة الحركة والحوار كاماين . وهبت فرق معادية لتنافس

تمثيلياته أو تسخر منها . وتآمرت عليه الطبقات التي هجاها ، مثل التشيشي (مرافقي الزوجات) فحاربها كلها وعقد له النصر . ولكن لم يمكن العثور على مؤلف آخر يزود فرقته بالكوميديات المناسبة . ومن ثم تقدمت تمثيلياته هو رضاء الجمهور لكثرة تكرارها . واکرهته المنافسة على أن يكتب ست عشرة تمثيلية في سنة واحدة .

وبلغ أوجهه ١٧٥٢ ، وأشاد به فولتير « بوصفه مولير إيطاليا » . ولقيت مسرحيته « لا لوكانديرا » (صاحبة الفندق) في ذلك العام « نجاحا رائعا حتى فضلت على أى عمل انجز في ذلك النوع من الكوميديا » . وقد اعتر بأنه راعى « الوحدات الارسطاطالية في الحركة والمكان والزمان ، وفيما عدا ذلك كان يحكم على تمثيلياته بواقعية ، فيقول « انها جيدة » ولكنها لم ترق بعد إلى مستوى مولير^(٧٣) . وكان قد تعجل في كتابتها تعجلا لا يتيح له أن يجعلها أعمالا فنية ، فكانت ذكية البناء ، مريحة على نحو سار ، مطابقة للحياة بوجه عام ، ولكن أعوزها ما ميز مولير من اتساع الأفكار ، وقوة الحديث ، وبراعة العرض ، ومن ثم ظلت على سطح الشخصيات والأحداث . ومنعته طبيعة جمهوره من أن يحاول التحليق في أجواء العاطفة أو الفلسفة أو الأسلوب ، وكان في فطرته من البشر ما منعه من سبر الأغوار التي عذبت مولير من قبل .

وقد صدم مرة واحدة على الأقل صدمة أخرجته عن لطفه وجرحته في الصميم ، وذلك حين تحداه كارلو جوتسى على مكان الصدارة المسرحية في البندقية وفاز في المعركة . وكان هناك رجلان باسم جوتسى شاركا في الضجة الأدبية التي أثرت في ذلك العهد ، أحدهما جيسارو جوتسى الذي ألف تمثيليات أكثرها مقتبس من الفرنسية ، وكان محررا للدوريتين بارزتين وقد بدأ حركة احياء دانتى . أما الثانى وهو أخوه كارلو فلم يكن فيه هذا اللطف والأنس ، كان رجلا طويل القامة وسيما مغرورا متحفزا للعراك على الدوام . وكان أذكى عضوا في أكاديمية جرانلليسى « التي شنت حملة لإستعمال الإيطالية التسكانية النقية في الأدب بدلا من اللهجة التي استعملها

جولدوني في معظم تمثيلياته . ولعله - وهو العشيق (أو المرافق الخادم)
لتيودورا ريتشي - أحس بوخز موجد حين هجا جولدوني مرافق
الزوجات هؤلاء . وقد كتب هو أيضاً « مذاكرات » هي البيان المفصل
للحروب التي خاضها . وقد حكم على جولدوني كما يرى مؤلف مؤلفاً
آخر فقال :

« تبينت في جولدوني وفرة في الدوافع الكوميديّة ، والصدق والطبيعية .
ولكنني اكتشفت فيه فقراً وحقارة في الحكمة » ، وهذه محاسن ومساوئ
متنافرة ، والمساوئ كثيراً ما تكون الغالبة ، ثم هناك عبارات سوقية
ذات توريث منحطة ونتف وأقوال فيها تنطع ، مسروقة لا أدرى
من أين ومجلوبة لتخدع جمهوراً من الجهال ، وأخيراً فهو بوصفه كاتباً
للإيطالية (إلا أنه يكتب باللهجة البندقية التي دل على تمكنه منها) لم يبد
خبر جدير بأن يوضع في مصاف أغبي المؤلفين الذين استخدموا لغتنا وأحقرهم
وأقلهم دقة وصواباً وعلى أن أضيف في الوقت ذاته أنه لم يخرج
فقط تمثيلية دون أن يكون لها سمة كوميديّة ممتازة . وقد بدا لعيني أن له
دائماً مظهر رجل ولد باحساس فطري بالطريقة التي يجب أن تؤلف بها
الكوميديات الأصيلة ، ولكنه - لعب في تعليمه ، ولافتقار إلى التمييز ،
ولضرورة ارضاء الجمهور وتقديم بضاعة جديدة للكوميديين المساكين
الذين يكسب قوته على حسابهم ، وللعجلة التي كان ينتج بها هذا العدد الوفير
من التمثيليات كل سنة ليقى نفسه من الغرق - أقول أنه لهذا كله لم يستطع
قط أن يبتكر تمثيلية واحدة لاتزخر بالاغلاط (٧٤) » .

وفي ١٧٥٧ أصدر جوتسي ديوان شعر يعرب عن انتقادات مماثلة في
« أسلوب كبار كتاب التسكانية القدامى » . ورد جولدوني بشعر مثلث القافية
(على طريقة دانتي) بما معناه أن جوتسي أشبه بالكلب الذي ينبح القمر
(Come il cane che abbaja la luna)

ورد عليه جوتسي بالدفاع عن « الكوميديا ديللارتي » ضد انتقادات
جولدوني القاسية ، واتهم جولدوني بأن تمثيلياته تفوق كوميديا الأقنعة مائة
مرة في فجورها ونبوها وعدوانها على مكارم الأخلاق ، وصنف معجماً
من « العبارات الغامضة ، والتوريث البذيئة . . . وغيرها من القذارات »

أخذها من أعمال جولدونى . يقول مولتى أن الجدل « آثار فى المدينة ضربا من الهوس ، فكان الخلاف يناقش فى المسارح والبيوت والحوانيت والمقاهى والشوارع^(٧٥) » .

وتعدى كاتب مسرحى آخر يدعى (أباتى كيارى) جوتسى أن يكتب تمثيلية خيرا من التمثيليات التى ندد بها ، وكان هذا الكاتب قد لدغه من قبل صل جوتسى التسكانى . ورد جوتسى أن هذا يسير عليه ، حتى عن أتلفه المواضيع وباستخدام كوميدى الأقنعة التقليدية دون غيرها . وفى يناير ١٧٦١ أخرجت فرقة فى تياترو سان صمويلى تمثيلته المسماه « خرافة حب البرتقالات الثلاث » وهى مجرد سيناريو أظهر بنتالونى ، وترتاجليا ، وغيرهما من أصحاب (الأقنعة) يبحثون عن ثلاث برتقالات يعتقد أن لها قنارات سحرية ، وأما الحوار فترك للارتجال . وكان نجاح هذه (الخرافة) حاسما : ذلك أن الجمهور البندقى العائش على الضحك استطاب خيال القصة والهجاء الضمنى لحبكات كيارى وجولدونى . وأردفها جوتسى بتسع (خرافات) أخرى فى خمس سنوات ، ولكنه قدم فيها حواراً شعرياً ، وبهذا سلم جزئيا بنقد جولدونى للكوميديا ديللارنى . على أية حال بدا انتصار جوتسى كاملا . وظل جمهور مسرح القديس صموئيل شديد الاقبال عليه ، فى حين هبط الإقبال على مسرح جولدونى (سانت انجيلو) إلى ما يقرب من الإفلاس . وانتقل كيارى إلى بريشا ، أما جولدونى فقبل دعوة إلى باريس (•) .

وتوديعا للبندقية . أخرج جولدونى (١٧٦٢) « أمسية من أمسيات الكرنفال الأخيرة » وتروى قصة مصمم منسوجات هو السنيور انتسوليتو الذى كان على وشك أن يفارق وهو حزين فى البندقية النساجين الذين طالما زود أنوالهم بالرسوم . وسرعان ما تبين الجمهور فى هذا رمزا للكاتب المسرحى الذى يترك أسفا الممثلين الذين طالما زود مسرحهم بالتمثيليات . فلما ظهر انتسوليتو فى المشهد الأخير ضج المسرح (كما يقول جولدونى) « يتصفق

• حولت « خرافتان » من خرافات جوتسى إل أوبرات : « رى توراندوتى » لغير وبوزوت ، و « حب البرتقالات الثلاث » : لبروكوفيف .

كهزيغ الرعد تسمع خلاله هتافات . . . (رحلة سعيدة) (عد الينا ثانية)
(لا يفتك أن تعود الينا)^(٧٦). وغادر البندقية في ١٥ ابريل ١٧٦٢ ولم يرها
بعد ذلك قط .

وفي باريس شغل عامين بتأليف كوميديات لمسرح الإيطاليين ، وفي
١٧٦٣ رفعت عليه دعوى إغواء^(٧٧) ، ولكن بعد سنة كلف بتعليم الإيطالية
لبنات لويس الخامس عشر . وقد كتب بالفرنسية ، بمناسبة زفاف ماري
انطوانيت والأمير الذي أصبح فيما بعد لويس السادس عشر ، مسرحية من
أفضل مسرحياته ، واسمها (الحلف الخير) وكوفىء عليها بمعاش قدره
١٢٠٠ فرنك ، الغته الثورة حين بلغ الحادية والثمانين . وقد واسى فقره
باملاء مذكراته لزوجته (١٧٩٢) — وهي مذكرات غير دقيقة ، خصبة
الخيال ، مثيرة ، مسلية ، وفي رأى جولدوني أنها (درامية على نحو
أصدق من كوميدياته الإيطالية)^(٧٨) ، ومات في ٦ فبراير ١٧٩٣ . وفي ٧
فبراير ، بناء على اقتراح قدمه الشاعر ماري — جوزف دشنييه ، رد اليه
المؤتمر الوطنى معاشه . وإذ لم يجده المؤتمر في حال تسمح له بتسلمه ،
فقد أعطاه لارملته بعد أن خفضه .

كان انتصار جوتسى في البندقية قصير الأجل . فقبل أن يموت (١٨٠٦)
بسنين طويلة اختفت (خرافاته) من خشبة المسرح ، وبعثت كوميديات
جولدوني في مسارح ايطاليا . ومازالت تمثل عليها في كثرة تكاد تقارب
كوميديات مولير في فرنسا . ويقوم تمثاله في الكامبوسان بارتولوميو
بالبندقية ، وفي اللارجو جولدوني (بفلوزنسه) . ذلك لأن الإنسانية كما
كتب في مذكراته واحدة في كل مكان ، والحسد يعلن عن نفسه في كل مكان ،
وفي كل مكان يكسب الرجل الهادىء الطبع في النهاية محبة الشعب ويبلى
خصومه^(٧٩) .

٦ - روما

في جنوبي نهر بو ، وعلى طول الادرياتيک وعبر الأبنين ، كانت تقوم ولايات الكنيسة — فيرارا وبولونيا وفورلي ورافنا وبروجه وبتفتو وروما — فتكون بهذا القسم الأوسط والأکبر من الحذاء السحري .

أما فيرارا فحين أدمجت في الولايات البابوية (١٥٩٨) جعل أدواقها آل استنسي مودينا مقرا لهم ، وجمعوا فيها محفوظاتهم وكتبهم وفنونهم . وفي ١٧٠٠ أصبح لودوفيكو موراتوري القسيس والباحث وفقه القوانين أمينا على هذه الكنوز . واستطاع خلال خمسة عشر عاماً من العمل الدءوب ، ومن ثمانية وعشرين مجلداً ، أن يصنف « كتاب الشئون الإيطالية » (١٧٢٣ — ٣٨) ، وأضاف بعد ذلك عشرة مجلدات للآثار والنقوش الإيطالية . وكان أثرياً أكثر منه مؤرخاً ، وما لبث كتابه « الحوليات الإيطالية » الذي أصدره في أثني عشر مجلداً أن تقادم . ولكن أبحاثه في الوثائق والنقوش جعلته الأب والمصدر للتأليف التاريخي الحديث في إيطاليا .

وكانت بولونيا أكثر هذه الولايات ازدهارا باستثناء روما . وظلت مدرسة تصويرها الشهيرة حية في عهد جوزيبي كرسبي (الأسباني) ، وكانت جامعتها لا تزال من خير الجامعات الأوربية . وكان قصر بفيلاکوا (١٧٤٩) من أعظم أبنية القرن أناقة . وسمت أسرة ممتازة تركزت في بولونيا بالعمارة والمسرحية ورسم المناظر المسرحية إلى ذرى الأتقان في العصور الحديثة . فبنى فرديناندو جاللي دابيينا (التياترو ريالي) في مانتوا (١٧٣١) وكتب نصوصاً شهيرة عن فنه ، وأنجب ثلاثة أبناء وأصلوا مهارته في الزخرفة الحداثة الفاخرة . وصمم أخوه فرانچسکو المسارح في فيينا ونانسي وروما ، والتياترو فيلارمونیکا بفيرونا — الذي كثيراً ما يعتبر أجمل مسرح في إيطاليا . وأصبح الساندرو بن فرديناندو كبير معماري ناخب البلاتينات . وصمم ابن ثان يدعى جوزيبي مدخل دار الأوبرا في بايروييت (١٧٤٨) — أجمل بناء موجود من نوعه^(٨١) . ورسم أنطونيو الأبن الثالث تصميمات « التياترو كومونالي » في بولونيا .

وقد ترددت في ذلك المسرح وفي كنيسة سان بترونيو القديمة الضخمة أفضل الموسيقى الآلية التي عزفت في إيطاليا ، لأن بولونيا كانت المركز الإيطالي الرئيسي للتعليم والنظرية الموسيقيين . فهناك كان بادري جوفاني باتستا مارتيني يعقد مجلسه المتواضع الصارم كأجل معلم للموسيقى في أوروبا . وكان يفتنى مكتبة موسيقية تضم سبعة عشر ألف مجلد ، وقد ألف نصوصا ممتازة في الكونترابنط وتاريخ الموسيقى ، وراسل عشرات من مشاهير الرجال في أكثر من عشر دول . وكان وسام الأكاديمية فيلارمونيكما التي ترأسها سنين كثيرة مشتهى جميع الموسيقيين . فإلى هنا سيأتى الصبي موتسارت في ١٧٧٠ ليواجه الاختبارات المقررة ، وهنا سيعلم روسيني ودونيتسى . وكان المهرجان السنوى للمؤلفات الموسيقية الجديدة ، التي يؤديها أوركسترا الأكاديمية ذو المئة عازف ، في نظر إيطاليا الحدث الأعظم للسنة الموسيقية .

قد جيون سكان روما في ١٧٤٠ بنحو ١٥٦,٠٠٠ نسمة . وحين تذكر زهوة ماضيها الأمبراطورى وتناسى فقراء هذا الماضى وأرقاءه ، وجد أن سخر العاصمة الكاثوليكية بحافى ذوقه :

« في داخل الأسوار الأوريلية الفسيحة تغشى القسم الأكبر من التلال السبعة الكروم والأطلال . ولعل جمال المدينة الحديثة وبهاءها راجع إلى مفاسد الحكومة وتأثير الخرافة . فقد تميز كل حكم (إلا فيما ندر) بصعود أسرة جديدة صعودا سريعا ، أثرت بفضل الخير الذى لا عقب له على حساب الكنيسة والدولة . وقصور أبناء الأخرى والأخوات المحظوظين هؤلاء هى أغلى صروح الأناقة والعبودية ، فقد سخرت لها أسى فنون المعمار والتصوير والنحت ، وأهاؤها وحداثتها تزينها أنفس الآثار القديمة التي جمعوها تلوقا أو غرورا (٨١) » .

وقد تميز بابوات هذا العهد بسمو الخلق ، وكانت فضائلهم تسمو كذا هبط سلطانهم . وكانوا كلهم إيطاليين ، لأن احدا من الملوك الكاثوليك أن أن يسمح لأى من الآخرين أن يقتضى البابويه . وقد برر كل منت الحادى عشر (حكم ١٧٠٠ - ٢١) أسمه (ومعناه الرحيم) باصلاحه سجون روما .

أما إنوسنت الثالث عشر (١٧٢١ - ٢٤) فهو في رأى رانكى البروتستنتى :

« كان يملك مؤهلات رائعة للحكم الروحى والزمنى معا ، ولكن صحته كانت هشة جداً . وقد وجدت الأسر الرومانية المتصلة به بصلة القرابة ، والتي راودها الأمل فى أن يرفع من شأنها ، أنها واهمة كل الوهم : لا بل إن ابن أخيه لم يستطع الظفر بالأثنتى عشر ألف دوقاتيه كل عام (التى أصبحت الآن الدخل العادى لابن الأخ) دون مشقة^(٨٢) » .

أما بندكت الثالث عشر (١٧٢٤ - ٣٠) فكان « رجلاً ذا تقوى شخصية عظيمة^(٨٣) » . ولكنه (كما قال مؤرخ كاتوليكي) سمح بقدر كبير جداً من السلطة لحاسب غير جد يرين بعطفه^(٨٤) » . وأهرق كلمنت الثالث عشر (١٧٣٠ - ٤٠) روما بأصدقائه الفلورنسيين ، وسمح لنفسه حين شاخ وكف بصره أن ينقاد لأبناء أخيه الذين زاد تعصبهم الصراع بين اليسوعيين والجانسينيين فى فرنسا مرارة فوق مرارة .

وفى رأى ماكولى أن بندكت الرابع عشر (١٧٤٠ - ٥٨) « كان أفضل وأحكم خلفاء القديس بطرس المائتين والخمسين^(٨٥) » وهو حكم فضفاضى ، ولكن البروتستنت والكاثوليك وغير المؤمنين على السواء مجمعون على الثناء على بندكت لأنه كان رجلاً واسع العلم ، ذا شخصية محبة ونزاهة خلقية . ولم ير وهو رئيس لأساقفة بولونيا أى تناقض بين الاختلاف إلى دار الأوبرا ثلاث مرات فى الأسبوع والاهتمام الصارم بواجباته الاسقفية^(٨٦) ، وقد وفق أثناء ولايته منصب البابوية بين حياته الشخصية ومرح الطبع وتحرر الحديث وتذوق الأدب والفن تذوقا يكاد يكون وثنيا . وقد أضاف تمثالا لفينوس عارية إلى مجموعته ، وقال للكردينال دتنسان أن أمير وأميرة فورتمبرج خطا إسميهما على جزء فى التشريح جميل الاستدارة لا يذكر كثيراً فى المراسلات البابوية^(٨٧) . وكاد يشبه فولتير فى حدة الذكاء والظرف ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون إدارياً حازماً ودبلوماسياً بعيد النظر .

وقد وجد مالية البابوية تشكو الفوضى : فنصف الإيرادات يضيع في الانتقال من بلد إلى بلد وثلث سكان روما كنسيون يفوق عددهم كثيرا ما تحتاج إليه شئون الكنيسة ، ويكلفونها من النفقة ما لا تطيقه . فأنقص بنداكت موظفيه الشخصيين ، وطرد أكثر جنود الجيوش البابوية ، وأنهى محسوبية الأقارب ، وخفض الضرائب ، وأدخل الإصلاحات الزراعية ، وشجع المشروعات الصناعية ، ولم يمر طویل وقت حتى أثمرت أمانته واقتصاده وكفائه فائضا للخزانة البابوية . أما سياسته الخارجية فقد قدمت تنازلات ودية للملوك المشاغبيين ، فوقع مع سردينيا والبرتغال ونابلي وأسبانيا إتفاقات سمحت لحكامها الكاثوليك بالترشيح لكراسي الأسقفية . وجاهد ليهدى الضجة العقائدية في فرنسا ، بالتراخي في تنفيذ الأمر البابوي unigenitus (الوحيد الجنس) الصادر ضد الجانسينيين ، « ما دام الإلحاد يزداد كل يوم فعلينا أن نسأل إن كان الناس يؤمنون بالله لا إن كانوا يقبلون الأمر البابوي^(٨٨) » .

وبذل جهودا شجاعة ليعثر على حل وسط مؤقت modus vivendi مع حركة التبرير . وقد لاحظنا تقبله الودى لإهداء فولتير مسرحية (محمد) إليه رغم أن المسرحية كانت تسلط عليها نيران الكنيسة في باريس (١٧٤٦) . وعين لجنة لمراجعة كتاب الصلوات اليومية ولتخليصه من بعض الأساطير الأبعد تصديقا ، على أن توصيات اللجنة لم تنفذ . واستطاع بنشاطه الشخصي أن يحقق انتخاب دامبير لمجمع بولونيا^(٨٩) . « وكان يثبت التحريم المتعجل للكتب . فلما أشار بعض مساعديه عليه بشجب كتاب لامترى « الإنسان الآلة » أجاب أليس من واجبكم أن تكفوا عن ابلاغى بوقاحات الحمقى ؟ ثم أردف « اعلموا أن للبابا يدا مطلقه يمنح البركات فقط^(٩٠) » وقد تخلت قائمة الكتب المحرمة التى أصدرها فى ١٧٥٨ عن جميع محاولات تعقب المؤلفات غير الكاثوليكية . واقتصرت فيما عدا استثناءات قليلة على اختيار بعض الكتب التى ألفها كتاب كاثوليك . وأمر ألا يبدان كتاب قبل أن يعرض مؤلفه أن وجد فرصة للدفاع عن نفسه ، ولا يبدان كتاب فى موضوع علمى إلا بعد استشارة الخبراء ، وينبغى أن يؤذن لرجال العلم أو المدرس دون

إبطال بقراءة الكتب المحرمة^(٩١) . واتبعت هذه القواعد في طبعات القائمة الثالثة ، وأكدها ليو الثالث عشر في ١٩٠٠ .

وقد ألقى البابوات حكم روما عسيرا عسرا يقرب من عسرحكم العالم الكاثوليكي . ولعل جمهور المدينة كان أشد الجماهير فظاظلة وعنفاً في إيطاليا وربما في أوروبا . فأى سبب يمكن أن يفضى إلى مبارزة بين النبلاء أو إلى صراع دام بين الزمر المتحزبة التى قسمت المدينة المقدسة ، وأما في المسرح فإن حكم النظارة كان يمكن أن يكون قاسياً لارحمة فيه خصوصاً إذا أخطأ ، وسرى مثلاً عليه في حالة برجوليتزى ، وجاهدت الكنيسة لتهدىء الشعب بالأعياد والمواكب والغفرانات والكرنفال ، وسمحت للناس في الأيام الثمانية السابقة للصوم الكبير بأن يرتدوا ملابس تنكرية مرحة غريبة الأشكال ، وأن يسرحوا ويمرحوا على (الكورسو) والتمس النبلاء رضى الجماهير باستعراضاتهم على الخيل أو العربات تحمل راكبين مهرة أونساء حسناً في أبهى زينة ، وعرضت البغايا بضاعتن لقاء أجور رفعتها مؤقتاً ، وخففت المغازلات المقنعة من ثقل الزواج الأحادى بضع ساعات . فإذا انقضى الكرنفال عاودت روما مسيرتها المتناقضة من التقوى والإجرام .

أما الفن فلم يزدهر وسط العائدات المتناقضة التى يغلبها إيمان مضمحل . لقد أسهمت العمارة ببعض الاسهامات الصغيرة : مثال ذلك أن الساندرو جايلى أضاف لكنيسة سان جوفانى القديمة فى اللاتيرانو واجهة فخمة ، وخلع فرديناند وفوجا على كنيسة سانتا ماريا مادجورى وجهها جديداً ، وشيد فرانشسكو دى سانكتيس « السكالادى سبانيا الفسيحة المهيبة من ميدان أسبانيا إلى مزار « الثالوت الأقدس » فى مونتي . وأضاف النحت أثراً مشهوراً هو « الفونتانا دى تريفى » . - حيث يلتقى السائح المسرور قطعة نقود من وراء كتفه فى الماء ليضمن عودته لزيارة روما ثانية . وكان لنافورة الخارج الثلاثة تاريخ طريل . ولعل برتيتى ترك رسماً تخطيطياً لها ، وافتتح كلمنت الثانى عشر مسابقة لإنشائها ، وقدم التصميمات لها آدمى بوشاردان الباريسى ولا مبير سجبر آدم النانسى ، واختير جوفانى ماينى ليصممها ،

ونحت بييترو براتشى مجموعة نبتون وفريقه الوسطى (١٧٣٢) ، ونحت فليبو ديللافالى أشكالا تمثل الحصوبة والشفاء ، وقدم نيكولو سالفى الخلفية المعمارية ، وأكمل جوزيبي يانينى العمل فى ١٧٦٢ ، وربما أوحى مشاركة العقول والأيدى الكثيرة على هذا النحو خلال ثلاثين سنة بأنه كان هناك شىء من التخاذل فى الإرادة أو الفقر فى الموارد ، ولكنها تدحض أى فكرة بأن الفن فى روما كان ميتاً . وأضاف براتشى إلى مآثره مقبرة (هى الآن فى كاتدرائية القديس بطرس) لماريا كلمنتينا سويسكا ، الزوجة التعسة لجيمس الثالث المطالب الاستيوارنى بالعرش ، وخلف ديللافالى فى كنيسة القديس أغناطيوس نقشاً بارزاً رقيقاً يمثل البشارة ، جديراً بالنهضة الأوربية ن أوجها .

أما التصوير فلم يتمخض عن عجائب فى روما فى هذا العصر ، ولكن جوفانى باتستا بيرانىزى جعل الحفر فناً من الفنون الكبرى . ولد لبناء بالحجر قرب البندقية ، وقرأ باللاديو وحلم بالقصور وأضرحة القديسين . على أن البندقية كانت تحوى من الفنانين أكثر مما تحوى من المال ، أما روما فكان فيها مال أكثر من الفنانين ، ومن ثم نرح جوفانى إلى روما وبدأ عمله معمارياً . غير أن الطلب على المباني كان ضعيفاً . ولكنه صمم المباني على أى حال ، أو على الأصح رسم مباني غريبة الأشكال تبدو كأن « السلام الأسبانية » سقطت فوق « حمامات دقلديانوس » . ونشر هذه الرسوم فى ١٧٥٠ باسم « رسوم مختلفة » و « كارتشيرى » (المسجون) ، واشتراها الناس كأنهم يشترون الألفاز أو الأسرار الغامضة . ولكن بيرانىزى وجه مهارته فى حالاته النفسية الأنبل إلى حفر رسومه التخطيطية للآثار القديمة . فقد عشقها كما عشقها بوسان وروبير ، وأحزنه أن يرى هذه الأطلال الرائعة تزداد تحللاً يوماً بعد يوم بفعل النهب أو الإهمال ، وظل طوال خمسة وعشرون عاماً ، فى كل يوم تقريباً ، يخرج ليرسمها ، ويفوته أحياناً تناول وجباته من الطعام ، بل أنه حتى وهو يموت من السرطان واصل الرسم والنقش والحفر . وقد ذاع مؤلفاه « الآثار الرومانية » و « مناظر

روما « في شكل نسخ مطبوعة في أوروبا كلها وشاركت في الإحياء المعماري للأساليب الكلاسيكية .

وقد وجد ذلك الاحياء حافظا قويا في الحفائر التي أجريت في هر كولانيوم وبومبي وهما مدينتان أغرقهما ثوران فيزوف في ٧٩ م فتم في ١٧١٩ أبلغ بعض الفلاحين أنهم وجدوا تماثيل مدفونة في التراب في هر كولانيوم . وأنقضت تسعة عشر عاما قبل أن يمكن الحصول على المال اللازم لارتداد الموقع على نحو نسقي . وفي ١٧٤٨ بدأت حفائر مماثلة تكشف عن عجائب بومبي الوثنية ، وفي ١٧٥٢ كشف عن معابد بايستوم الضخمة الجليلة بعد اجتثاث الأجمة التي غطتها . وأقبل الأثريون من شتى البلاد ليدرسوا الكشف ويصفوها ، وأثارت رسوم هذه الآثار اهتمام الفنانين والمؤرخين جميعاً ، وسرعان ما غزا المتحمسون للفن الكلاسيكي روما ونابلي ، وقدموا على الأخص من ألمانيا . فأتى منجز في ١٧٤٠ ، وفنكلمان في ١٧٥٥ . وهفت نفس لسنج للذهاب إلى روما ، « لامكث هناك على الأقل سنة ، وإلى الأبد أن امكن » (٩٢) . ثم جوته — ولكن لرجى هذه القصة الآن .

إما أنطون رفايل منجز فمن العسير أن نضعه في مكان واحد ، لأنه ولد في بوهيميا (١٧٢٨) ، وخص بجهوده إيطاليا وأسبانيا ، واختار روما موطناً له . وسماه أبوه باسم كوريدجو ورفايل ، وكان رساما للممنمات في درسدن ، ونذره للفن ، وظهرت على الصبي مخايل النجابة فأخذه أبوه وهو في الثانية عشرة إلى روما . ويروى أنه حبسه هناك في الفاتيكان يوما بعد يوم ولا غداء له إلا النبيذ والخبز ، وأخبره أن أراد مزيداً أن يطعم على آثار رفايل وميكلانجلو والعالم الكلاسيكي . وبعد أن أقام أنطون برهة قصيرة في درسدن عاد إلى روما واسترعى الأنظار بلوحة رسمها للعائلة المقدسة ، وكانت نموذجها فيها مارجاريتا جواتسي « عذراء فقيرة فاضلة جميلة » (٩٣) وتزوجها في ١٧٤٩ ، وفي المناسبة ذاتها دخل في الذهب الكاثوليكي الروماني . وعاد ثانية إلى درسدن ، وعين مصورا لبلاط أوغسطس الثالث براتب قدره ألف طالر في العام . ووافق

على أن يرسم لوحتين لكنيسة بدرسدن ، ولكنه أقنع الملك الغاضب بأن يسمح له برسمهما في روما ، وفي ١٧٥٢ استقر هناك وهو بعد في الرابعة والعشرين . ولما بلغ السادسة والعشرين عين مديرا لمدرسة الفاتيكان للتصوير . وفي ١٧٥٥ التقى بفنكلمان ، واتفق معه على أن الباروك غلطة ، وأن الفن يجب أن يظهر نفسه ويهذبها بأشكال الكلاسيكية الجديدة . ولعله في هذه الفترة أو نحوها رسم بالباستل صورته الذاتية الموجودة الآن في متحف فن درسدن — وجه فتاة وشعرها ، ولكن العينين تلمعان بكبرياء رجل واثق من أن في استطاعته أن يهز العالم .

وحين طارد فردريك الأكبر أوغسطس من سكسونيا (١٧٥٦) توقف راتب منجز الملكى ، وكان عليه أن يعيش على الأجور المتواضعة المعروضة عليه في إيطاليا . وجرب العمل في نابلى ، ولكن الفنانين المحليين هددوا حياته باعتباره دخيلا ، وذلك عملا بتقليد نايولتاني قديم ، فقفل منجز إلى روما سريعا . وزين فيللا ألبانى بصور جصية حظيت بالشهرة ذات يوم ، وما زالت ترى هناك لوحته « برناس » (١٧٦١) الممتازة فنيا ، الكلاسيكية هدوءا ، الميته عاطفيا . ومع ذلك أحس الوزير الأسباني في روما أن هذا هو الرجل الذى يصلح لرسم صور يزدان بها القصر الملكى في مدريد . وأرسل شارل الثالث فى طلب منجز ووعدته بألفى دبلون فى العام مضافا إليها مسكن ومركبة ورحلة مجانية على بارجة أسبانية موشكة على الاقلاع من نابلى . وفى سبتمبر ١٧٦١ وصل منجز إلى مدريد .

٧ — نابلى

(أ) الملك والشعب

أصبحت مملكة نابلى التى ضمت كل إيطاليا جنوب الولايات البابوية اللطحات الشديدة فى الصراع على الساطة بين النمسا وأسبانيا وانجلترا وفرنسا . ولكن هذا دأب التاريخ فى تمزيقه الكتيب للمنطق ، والتأرجح الدامى بين النصر والهزيمة ، وحسبنا هنا أن نلاحظ أن النمسا استولت على نابلى فى ١٧٠٧ ،

وأن دوس كارلوس ، دوق بارما البوربونى وابن فليب الخامس ملك أسبانيا ، طرد النمساويين فى ١٧٣٤ ، وحكم حتى ١٧٥٩ باسم شارل الرابع ملك نابلى وصقلية . وكانت عاصمته التى ضمت ٣٠٠,٠٠٠ من الأنفس أكبر مدينة فى إيطاليا .

وبلغ شارل النضج فى فن الملك ببطء . فى أول عهده اتخذ الملكية جوازا للبدخ : فأهمل شئون الحكومة ، وأنفق نصف أيامه فى القنص ، وأسرف فى الأكل حتى أصبح بدينا . ثم حوالى ١٧٥٥ ، وبوحى من وزير العدل والشئون الخارجية المركيز برناردو دى تانوتشى اضطاع بالتخفيف من مظالم الاقطاع القاسى الذى توارى خلف كد الحياه النابولية ونشوتها .

وكانت تحكم المملكة طويلا ثلاث جماعات متشابكة . فالنبلاء يملكون ثلثى الأرض تقريبا ويستعبدون أربعة أخماس الملايين الخمسة الذين يسكنونها ويسيطرون على البرلمان ، ويتحكمون فى نظام الضرائب ، ويعرقلون كل إصلاح . والأكليروس يملكون ثلث الأرض ، ويسترقون الشعب روحيا بلاهوت قوامه الرعب ، وكتب حافلة بالأساطير ، وشعائر تستغل المصلين ، ومعجزات على شاكلة تسييحهم المصطنع كل نصف سنة لدم القديس ياتيوارس (حامى نابلى) المتخثر . وكانت الإدارة فى يد قانونيين يدينون بالطاعة للنبلاء أو الأحبار ، ومن ثم ألزموا بالوضع الموروث من العصر الوسيط . وكانت الطبقة الوسطى الفقيرة المؤلفة أكثرها من التجار عاجزة سياسياً . وعاش الفلاحون والبرولتاريا فى فقر أكره بعضهم على قطع الطريق وكثيراً منهم على التسول ، وكان هناك ثلاثون ألف شحاذ فى نابلى وحدها^(٩٤) . وقد وصف دبروس جماهير العاصمة بأنهم « أبغض الرعاع ، وأقذر الحشرات »^(٩٥) — وهو حكم أدان النتيجة دون أن يدمغ السبب . على أننا يجب أن نعرف بأن هؤلاء النابوليين المهلهلى الثياب ، المتشبهين بالخرافات ، الخاضعين لسلطان الكهنة ، يبدو أنهم كانوا يملكون من نكهة الحياة يبهجتها أكثر من أى جمهور آخر فى أوروبا .

وكبح شارل قوة النبلاء باجتدابهم إلى بلاطه حتى يكونوا تحت ناظرى الملك ، وبإقامة نبلاء جدد يلتزمون بتأييده. وثبط تدفق الشباب على الأديرة ، وانقص جموع الكنسيين من ١٠٠,٠٠٠ إلى ٨١,٠٠٠ ، وفرض ضريبة قلرها اثنان في المائة على ممتلكات الكنيسة ، وحد من حصانات الأكليروس القانونية . وضيق تانوتشى من سلطة النبلاء القضائية ، وحارب الفساد فى القضاء ، وأصلح الإجراءات القضائية ، وخفف من صرامة قانون العقوبات . وأبيحت حرية العبادة لليهود ، ولكن الرهبان أكدوا لشارل أن افتقاده الوريث الذكر لعرشه هو العقاب الذى أنزله به الله جزاء تسامحه الآثم فسحب الغفران من اليهود (٩٦) .

وكان لودع الملك بالبقاء الفضل فى إقامة صرحين شهيرين فى نابلى . وأحدهما هو « التياترو سان كارلو » الشاسع ، وقد أقيم فى ١٧٣٧ ومازال واحداً من أوسع وأجمل دور الأوبرا الموجودة . وفى ١٧٥٢ بدأ لويجى فانفيتلى يبنى الصرح الآخر فى كازوتا على واحد وعشرين ميلا شمالى العاصمة ، وهو قصر ملكى هائل صمم لينافس فرساي وليقوم بوظيفته فى إيواء الأسرة المالكة ونبلاء الحاشية وأهم الموظفين الإداريين . وقد اقتضى بناؤه كد العبيد سودا وبيضاً طوال اثنين وعشرين عاماً . وكانت الأبنية ذات المنحنيات تقوم على جانبي مدخل فسيح إلى الصرح الأوسط الذى مد واجتهه ٣٠ قدماً . وقام فى الداخل مصلى ومسرح وغرف لا حصر لها وسلم مزدوج عريض كانت كل درجة فيه لوحة رخام واحدة . وامتدت وراء القصر على طول نصف ميل الحدائق المنسقة ، وعدد غفير من التماثيل ، ونافورات فخمة تغذيها قناة طولها سبعة وعشرون ميلا .

ولم يكن فى نابلى فن متميز فى هذا العصر غير قصر كازيرتا هذا (لأن القصر أطلق عليه اسم مدينته شأن الأسكوريال وفرساي) ، ولا كان هناك شىء يستحق الذكر فى الدراما أو الشعر . لقد ألف رجل كتاباً جريئاً « التاريخ المدنى لملوك نابلى » (١٧٢٣) وهو هجوم متواصل على جشع الأكليروس ، ومفاسد المحاكم الكنسية ، وسلطة الكنيسة الزمنية ، ودعوى

البابويه يحرقها في نابلي كأقطاعية بابوية ، أما المؤلف وأسمه بييترو جانوتى فقد حرمه رئيس أساقفة نابلي ، وفر إلى فيينا ، وزج به ملك سردانيا في السجن ، ثم مات في تورين (١٧٤٨) بعد أن قضى اثنتى عشرة سنة حبساً^(٩٧) . وفقد انطونيو جينوفيزى إيمانه وهو يقرأ لوك ، وحاول في كتابه « مبادئ الميتافيزيقا » (١٧٤٣) أن يدخل سيكولوجية لوك إلى إيطاليا . وفي ١٧٥٤ أنشأ رجل أعمال فلونسي في جامعة نابلي أول كرسي أوربي للاقتصاد السياسى بشرطين ، ألا يشغله كنسى أبداً ، وأن يكون أول شاغل له أنطونيو جينوفيزى . ورد جينوفيزى صنيعة (١٧٥٦) بأول بحث اقتصادى نظامى فى اللغة الإيطالية « دروس فى التجارة » ، ردد صرخة التجار ورجال الصناعة المطالبين بالتححرر من القيود الاقطاعية والكنسية وغيرها على المشروعات التجارية الحرة . وفى العام نفسه أعرب كزنيه عن هذا المطلب ذاته للطبقة الوسطى الفرنسية فى مقالاته ، التى كتبها لموسوعة ديدرو .

ولعل بعض الاتصال كان قد تم بين جينوفيزى وكزنيه على فرديناندو جاليانى النابولى الباريسى . وقد نشر جاليانى فى ١٧٥٠ « بحثاً فى النقود » قرر فيه براءة اقتصادى فى الثانية والعشرين من عمره ثمن السلعة حسب تكلفة إنتاجها . وألمح منه كتابه « حوار حول تجارة الغلال » الذى ذكرناه من قبل نقداً لكزنيه . فلما اضطر إلى العودة إلى وطنه بعد السنين المثيرة التى قضاه فى باريس ، أحزنه ألا يجد فى نابلي صالونات ، ولا امرأة كمدام جوفران تطعمه وتثير ذكائه وظرفه . على أنه كان فيها على أية حال فيلسوف ترك بصمته على التاريخ .

(ب) جامباتيستا فيكو

تروى ترجمته الذاتية أنه حين كان فى السابعة سقط من على سلم نقالى ، فصدم الأرض برأسه أولاً ، وظل غائبا عن الوعى خمس ساعات . وأصيب بكسر فى الجمجمة تكون من حوله ورم ضخم . وكان الورم

ينخفف بشقه بموضع المرة تلو المرة . ولكن الصبي فقد من الدم في هذه العملية
ما جعل الجراحين يتوقعون موته القريب . ولكنه بقي على قيد الحياة
« بفضل الله » ، ولكن نتيجة لهذه البلية شبت بمزاج مكتئب حاد^(٩٨) .
كذلك أصيب بالدرن . ولو كانت العقرية رهنا بمعوق بلدى لكان فيكو
موفور الحظ .

وحين بلغ السابعة عشرة (١٦٨٥) كسب قوته بإعطاء الدروس
الخصوصية في فاتوللا (قرب سالرنو) لأبناء أخى أسقف اسكيا . ومكث
هناك تسع سنين ، ولكنه كان أثناءها عاكفا في خماسة محمومة على دراسة
القانون وفقه اللغة والتاريخ والفلسفة . وافتن على الأخص بقراءة أفلاطون
وأبيقور ولوكريتيوس ومكيافلى وفرانسيس بيكن وديكارت وجروتيوس ،
ونخرج من هذا كله بشيء من الأذى لإيمانه الدينى . وفي ١٦٩٧ حصل
على كرسى أستاذ البيان في جامعة نابلى ، ولم يؤجر عليه بأكثر من مائة
دوقايتيه في العام ، زادها بإعطاء الدروس الخصوصية ، ومن هذا الدخل
كان يعول أسرة كبيرة . وماتت ابنة له في ريعان الصبي ، وظهرت على
ابن له ميول شريرة اقتضت إرساله إلى إصلاحية للأحداث ، أما زوجته
فكانت أمية عديمة الكفاية ، فكان على فيكو أن يكون الأب والأم والمعلم
جميعاً^(٩٩) . وفي وسط هذه الشواغل المشتته للفكر كتب فلسفته للتاريخ .

وقد قدم كتابه « مبادئ علم جديد في الطبيعة المشتركة للأمم » (١٧٢٥) ،
وحاول إن يجد في فرضى التاريخ انتظامات من التعاقب قد تنسب الماضى
والحاضر والمستقبل . ورأى فيكو أن في استطاعته أن يتبين ثلاث فقرات
رئيسية في تاريخ كل شعب :

(١) عصر الأرباب الذى اعتقدت فيه الأمم (غير اليهود) أنها تعيش في
ظل حكومات إلهية ، وان كل شيء كان بأمر الأرباب عن طريق
التكهن والوحى .

(٢) عصر الأبطال حين كانوا يسيطرون على جمهوريات ارسقراطية ،
يحكمون تفوق في طبيعتهم اعتقدوا أنهم يمتازون به على للعامة .

(٣) عصر البشر ، وفيه أقر الجميع بأنهم متساوون في الطبيعة البشرية فأقاموا أولى الجمهوريات الشعبية ثم الملكيات (١٠٠) .

وقد طبق فيكو الفترة الأولى على التاريخ (الأسمى واللا ديني) (غير الكتابي) ، فما كان في استطاعته أن يقول إن يهود العهد القديم إنما « اعتقدوا أنهم » يعيشون في ظل حكومات إلهية « دون المساس بالتقاليد المقدسة . ولما كان ديوان التفتيش (وهو في نابولي أشد صرامة منه في شمال إيطاليا) قد حاكم باحثين نابوليين لأنهم تكلموا على بشروجدوا قبل آدم ، فإن فيكو وفق بمجهود بين صيغته وبين سفر التكوين بالافتراض بأن جميع ذراري آدم ، إلا اليهود ، قد ارتدوا بعد الطوفان إلى حالة أقرب إلى الوحشية فسكنوا الكهوف وتساءلوا دون تمييز في شيوعية نساء . ومن (حالة الطبيعة) الثانية هذه تطورات الحضارة بطريق الأسرة والزراعة والملكية والأخلاق والدين . وكان يذكر الدين أحيانا على أنه طريقه أرواحية (لتفسير الأشياء والأحداث) وأحيانا يشيد به باعتباره قمة التطور .

ويقابل مراحل التطور الإجتماعي الثلاث ، ثلاث (طبائع) أو طرق لتفسير الكون : اللاهوتية ، والأسطورية والعقلية .

كانت الطبيعة الأولى ، بحكم خداع الخيال (وهو أقوى ما يكون في أضعف الناس قدرة على التدليل العقلي) ، طبيعة شعرية أو إبداعية ، قد نسميها على سبيل التجوز إلهية ، لأنها تصورت الأشياء المادية على أنها تحيا بقوة الآلة . . . وكان الناس نتيجة لخطأ خيالهم هذا يخافون خوفا رهيبا من الأرباب التي خلقوها هم أنفسهم . . . أما الطبيعة الثانية فهي الطبيعة البطولية ، فقد اعتقد الأبطال أنهم من أصل إلهي . . . وأما الثالثة فالطبيعة (الطريقة) البشرية ، طبيعة ذكية . ومن ثم متواضعة ، معتدلة ، منطقية ، تسلم بأن الضمير والعقل والواجب كلها نواميس (١٠١) .

وقد حاول فيكو أن يفسح لتاريخ اللغة والأدب والقانون والحكومة:

(م د . . قصة الحضارة ج ٤٠)

ممكاناً ملائماً في هذا النظام الثلاثي. ففي المرحلة الأولى كان الناس يتواصلون بالإشارات والإيماءات، وفي الثانية بالرموز والتشبيهات والصور، وفي الثالثة بالكلمات التي اتفق عاينها القوم . . . ليحددوا بهذا معنى القوانين . ومر القانون نفسه بتطور مقابل لهذا : فكان أول الأمر إلهياً ؛ منزلاً كما كان الحال في ناموس موسى ، ثم بطولياً كقانون ليكورجوس ، ثم بشرياً — أملاه العقل البشري المكتمل النمو^(١٠٢) كذلك مرت الحكومة بثلاث مراحل : التيقراطية ؛ وفيها زعم الحكام أنهم صوت الله ، والارستقراطية ، وفيها اقتضت جميع الحقوق المدنية على طبقة الأبطال الحاكمة ، والبشرية ، وفيها يعتبر الجميع سواء أمام القوانين ، . . . وهذه هي الحال في المدين الشعبية الحرة . . . وكذلك في الملكيات التي تجعل جميع رعاياها سواء أمام قوانينهم^(١٠٣) . وواضح أن فيكو استعساد تلمخيص أفلاطون للتطور السياسي من الملكية إلى الإرسقراطية إلى الديمقراطية إلى الدكتاتورية (حكم الطغاة) ، ولكنه غير الصيغة لتقرأ : تيقراطية وارستقراطية ، وديمقراطية ، وملكية . وقد اتفق مع أفلاطون في أن الديمقراطية تنزع إلى الفوضى ، واعتبر حكم الرجل الواحد علاجاً ضرورياً للخلل الديمقراطي ، « أن الملكيات هي الحكومات النهائية ، ، التي تصل إليها الأمم لتستريح^(١٠٤) .

وقد ينبعث الخلل الإجتماعي من التدهور الخلقي ، أو الترف ، أو تركيز الثروة تركيزاً يمزق الأمة ، أو الحسد العدواني بين الفقراء . ومثل هذا الخلل يفضي عادة إلى الدكتاتورية ، كما نرى في حكم أوغسطس الذي كان فيه الشفاء من الفوضى الديمقراطية في الجمهورية الرومانية . فإذا عجزت حتى الدكتاتورية عن وقف الانحلال ، فإن أمة أشد قوة وعنفواناً تدخل فاتحة للبلاد .

« وإذا كان الناس الذين بلغ منهم الفساد هذا المبلغ قد انقلبوا عبيداً لشهواتهم الجائعة . . . فإن العناية الإلهية تقضي بأن يصيروا عبيداً بحكم القانون الطبيعي للأمم ، . . . فيستعبدوا للأمم أفضل منهم يحكمونهم بعد أن يغلبوهم كما يحكم الغالب الأقاليم الخاضعة له . . . وهنا يسطع ضوءان عظيمان من أضواء النظام الطبيعي . أولهما أن من يعجز عن حكم نفسه يجب

أن يدع القادر على حكمه أن يحكمه ، والآخر أن العالم يحكمه دائماً من هم بالطبيعة أصلح الحاكمين^(١٠٦) .

وفي مثل هذه الحالات يترد الشعب المغلوب إلى مرحلة التطور التي وصل إليها غالبوه . وهكذا إرتد سكان الإمبراطورية الرومانية إلى الهمجية والتخلف بعد غزوات الشعوب الهمجية واضطروا إلى أن يبدأوا بالتيوقراطية (حكم الكهنة واللاهوت) ؛ وتلك كانت العصور المظلمة . ثم جاء عصر بطولة آخر بمجىء الحروب الصليبية ؛ وأمراء الأقطاع يقابلون إبطال هومر . ودانتى هو هومر مكرراً .

ونسلمع في فيكو أصداء للنظرية التي تزعم أن التاريخ تكرر دائر ، ولقانون مكيافللى « corsi e ricorsi » التطور والتقهقر « وفكرة التقدم تضار في هذا التحليل ، فليس التقدم الأنصف حركة دورية نصفها الآخر الانحلال ؛ والتاريخ ، شأنه شأن الحياة ، هو تطور وإنحلال في تعاقب وحتمية لا محيص عنهما .

وقدم فيكو في الطريق إلماعات مدهشه . فقد رد الكثيرين من أبطال الاساطير الكلاسيكية إلى الأسماء البعدية eponyms والتشخيصات التالية لعمليات ظلت طويلا لا شخصية أو متعددة الشخصيات ، فأورفيوس مثلاً كان المدمج الوهمى لموسيقين بدائيين كثيرين ، وإيكورجوس كان التجسيد لسلسلة القوانين والعادات التي جمعت اسبرطة ، ورومرلوس كان ألف رجل جعلوا من روما دولة .^(١٠٧) وبالمثل رد فيكو هومر إلى الخرافة ، مدللاً على ذلك — قبل كتاب فريدريك فولف « مقدمات نقدية لهومر (١٧٩٥) بنصف قرن — بأن الملاحم الهومرية إنما هي حصيلة تجمعت وادجت شيئاً فشيئاً لجماعات وأجيال من رواة الملاحم الذين كانوا ينشدون بطولات طرواده وأوديسيوس في مدن اليونان^(١٠٨) . وقبل قرن تقريباً من صور كتاب بارتهولد نيبور « تاريخ روما » (١٨١١ — ٣٢) رفض فيكو الفصول الأولى من تاريخ لينى لأنها أسطورية . « كل تواريخ

الأهم غير اليهودية كان لها بدايات خرافية^(١٠٩) ، (وهنا أيضاً يتجنب فيكو في حذر أن يمس تاريخية سفر التكوين) :

وهذا الكتاب الخطير يكشف عن عقل قسوى تزعجه المضايقات المتصلة ، يكافح لصياغة أفكار أساسيه دون أن يقضى به المسير إلى سجن من سجون ديوان التفتيش . وقد بذل فيكو قصاراه المرة بعد المرة ليعلن ولاعه للكنيسة وأحس أنه جدير ببناء الكنيسة لتفسيره مبادئ القانون بطريقة تتفق واللاهوت الكاثوليكي^(١١٠) . ونحن نسمع نغمة أكثر إخلاصاً في رأيه في الدين دعامة لا غنى عنها للنظام الاجتماعي والفضلية الشخصية : « أن للأديان دون غيرها القوة على جعل الناس يعملون الأعمال الفاضله^(١١١)... » ومع ذلك ، ورغم تكرار استعماله للفظ « العناية الإلهيه » ، يبدو انه يبعد الله عن التاريخ ويزد الأحداث إلى التفاعل الحريين الأسباب والنتائج الطبيعية . وقد هاجم دارس دومنيكي فلسفة فيكو لأنها ليست مسيحية بل لوكريتيه .

ولعل العلمانية المنبعثه من تحليل فيكو كان لها بعض الصله بأخفاقها في أن تظفر بالاستماع إليها في إيطاليا ، وما من شك في أن ما شاب عمله من استطراد فوضوى وعاب فكره من اختلاط قد قضى على «علمه الجديد» ، بأن يولد ميتاً وأن تكون ولادته مؤلمة . فلم يوافق أحد على إعتقاده بأنه كتب كتاباً عميقاً أو مشيراً . وعبثاً ناشد جان لكليز ولو ليذكره في دورية « أخبار عالم الأدب » ، وبعد عشر سنوات من ظهور كتاب العلم الجديد خف شارل الرابع لنجدة فيكو ، فعينه مؤرخاً رسمياً للملك براتب سنوى قدره مائة دوقاوية . وفي ١٧٤١ قرت عين جامباتستا بروية ولده جنارو بخلفه أستاذاً في جامعة نابلى . وفي سنواته الأخيره (١٧٤٣ - ٤٤) ضعف عقله فردى في غيبية أشرفت على الجنون .

وكان في مكتبة مونتسيكو نسخه من كتابه^(١١٢) ، وقد أقر الفيلسوف الفرنسى في هوامش مذكرات خاصه بدينه لمنظرية فيكو في التطور والانحلال الدورى ، ويظهر هذا الدين الذى لم يفصح عنه في كتاب مونتسيكو « عظمة الرومان وإنحطاطهم » (١٧٣٤) . وفيما عدأ هذا ظل فيكو مجهولاً

في فرنسا حتى نشر جول ميشليه (١٨٢٧) ترجمة مختصرة لكتاب العلم الجديد . وقد وصف ميشليه إيطاليا بأنها « الأم الثانية والحاضنة التي غدتني في صباى بفرجل ، وفي شبابي بفيكو^(١١٣) » . وفي ١٨٢٦ بدأ أوجست كونت المحاضرات التي أصبحت فيما بعد « مجموعة محاضرات في الفلسفة الوضعية » (١٨٣٠ - ٤٢) ، وفيها يشعر القارئ بتأثير فيكو في كل خطوة .

أما الأنصاف الكامل لفيكو فلم يأت إلا على يد رجل نابولي هو بنديتو كروتشي^(١١٤) ، الذي ألمع هو الآخر إلى أن التاريخ يجب أن يتخذ مكانه إلى جوار العلم أساساً ومدخلا للفلسفة .

ج - موسيقى نابلى

تليت نابلى قول فيثانورس ، قرأت أن الموسيقى أرفع ضروب الفلسفه . وقد كتب لالاند ، الفلكي الفرنسي ، بعد جولة في إيطاليا في ١٧٦٥ - ٦٦ يقول :

« إن الموسيقى هي الانتصار الأعظم للنابوليين ، وكان أغشية طلبة الأذن في ذلك البلد أشد توترا وتناغما ورنينا منها في أى بلد آخر في أوربا . فالأمة كلها تغنى . وإيماءات الجسد ، والنبرة ، والصوت ، وإيقاع المقاطع بل والحديث نفسه . . كلها تنفَس الموسيقى . ومن ثم كانت نابلى المصدر الرئيسى للموسيقى الايطالية ، ولكبار الملحنين ، وللأوبرات الممتازة ، ففيها أخرج كوريللى وفنتشى ورينالدو وجوميللى ودورانتى وليو وبرجوليزى . . . وكثير غيرهم من أعلام الملحنين روائعهم^(١١٥) » .

على أن نابلى تفوقت في الأوبرا الألحان الصوتيه فقط ، أما في الموسيقى الآليه فقد عقدت ازعامة للبلانقية ، وشكا هواة الموسيقى من أن أهل نابلى أحبوا جيل الصوت أكثر من لطائف الهارمونى (التوافق) والكونتراپنط . هنا ملك نيكولو برريورا ، « الذى ربما كان أعظم من عاش من معلمى الغناء^(١١٦) » . وكان كل شاد ايطالى يصبو إلى أن يكون تلميذه ، فإذا قبله

احتمل في ذلة شذوذاته العاتية ؛ روى أنه أبقي جايثانو كفاريللى خمس سنوات في صفحته تمارين واحدة ، ثم صرفه مؤكدا له أنه الآن أعظم المغنين في أوربا (١١٧) . وكان هناك معلم غناء آخر يدعى فرانثيسكو دورانتى ، لم يفوقه مرتبة غير يوريورو ، وقد علم الغناء لفتشى ، وجوميللى ، ويرجوليزى ، وبايزيللو ، ويتشيني .

أما ليونارد وفنتشى فقد بدأ معوقا بسبب اسمه ، ولكنه ظفر بالغناء المبكر بتلمينه أوبرا متاستازيو *Didone abbandonate*. وقال الجاروتى « أن فرجل نفسه كان يهجه أن يسمع تلحيننا فيه هذه الحيوية وهذا التعذيب ، تهجم فيه على القلب والروح كل قوى الموسيقى (١١٨) » . وأشهر منه ليوناردو ليو ، في الأوبرا الجادة والهازله ، والاوراتوربو ، والقداصات والموتيتات ، وقد ترددت نابلى فترة بين الضحك على أوبراه الكوميديه *La finta Fracastana* (الضجة المفتعلة) والبكاء على لحن *Miserere* (ارحمنى) الذى لحنه لخدمات الصوم الكبير في ١٧٤٤ .

وحيث استمع ايو حوالى عام ١٧٣٥ إلى كنتانا من تلحين نيكولو جوميللى قال في عجب « لن يمض طویل زمن حتى يغدو هذا الفتى محط عجب أوربا واعجابها . . . (١١٩) وقد حقق جوميللى النبوة تقريبا . ففي الثالثة والعشرين من عمره ظفر باطراء نابلى الحماسى على أوبراه الأولى ، وفي السادسة والعشرين حقق نصرا ممثلا في روما . وحيث مضى إلى بولونيا قدم نفسه على أنه تلميذ لبادري مارتيني ، ولكن حين سمعه ذلك المعلم المبهجل يرتجل فوجيه بكل تطورها الكلاسيكى صباح « إذن فمن أنت ؟ أترك تسخر منى ؟ إننى أنا الذى يجب أن يتعلم منك » (١٢٠) . وفي البندقية أثارت أوبراته من الحماسة ما حمل مجلس العشرة على تعيينه مديرا للموسيقى في مدرسة ذوى الأمراض المستعصية ، وهناك كتب قطعا من أفضل موسيقى ذلك الجيل الدينية . وحيث انتقل إلى فيينا (١٧٤٨) أخذ يلحن مع متاستازيو الذى ارتبط معه برباط صداقة وثيقة . وبعد أن حقق مزيدا من الانتصارات في البندقية وروما استقر في شتوتجارت ولود فجبسبرج

(١٧٥٣ — ٦٨) رئيساً لفرقة مرتلى دوق فورتمبيرج . وهنا عدل أساوبه الأوبرالى فى اتجاه ألمانى ، فزاد من توافقه تركيباً ، واضفى مزيداً من المادة والثقل لموسيقاه الآلية ، وتخلّى عن تكرار الألحان من البداية da capo وأضاف مصاحبة أوكستراليه للسرديات وأحل الباليه محلاً بارزاً فى أوبراته ، ربما متأثراً بجان جورج نوفير ، أستاذ الباليه الفرنسى فى شتوتجارت ، وقد مهدت هذه التطورات فى موسيقى جوميللى ، إلى حد ما ، لاصلاحات جلوك .

فلما عاد الملحن المسن إلى نابلى (١٧٦٨) أنكر الجمهور ميوله التيوتونية ، ورفضوا أوبراته رفضاً باتاً . وقد قال موتسارت بعد أن سمع إحداها هناك فى ١٧٧٠ — « إنها جميلة ، ولكن أسلوبها أرفع وأقدم مما يحتمله المسرح » ، (١٢١) ولقى جوميللى حظاً أفضل بموسيقاه الكنسية . فترتلت موسيقى لحن « ارحمنى » و « قداسة للموتى » فى العالم الكلاثوليكي طويلاً وعرضاً . وقد كتب ولیم بكفورد بعد استماعه إلى القداس يرتل فى لشبونه فى ١٧٨٧ « لم أسمع قط ولعلى لن أسمع ثانية مثل هذه الموسيقى المهيبة المؤثرة » . (١٢٢) واعتزل جوميللى فى بلدته أفرسا بعد أن ادخر لمستقبله بحرص تيوتونى ، وأنفق ستواته الأخيرة شيخاً بديناً ثرياً . وفى ١٧٧٤ شيع جثمانه بجميع موسيقي نابلى البارزين .

ولقد ضحكت نابلى أكثر حتى مما غنت . فبأوبرا كوميدية غزرا برجوايزى باريس بعد أن أبت تلك المدينة المستكبرة دون سائر العواصم الأوربية أن تخضع لأوبرا إيطاليا الجادة . ولم ينحس جوفانى باتستا برجوليزى تلك المعوكة بشخصه ، لأنه مات فى ١٧٣٦ فى السادسة والعشرين من عمره . وقد ولد بقرب أنكونا ، ووفد على نابلى وهو فى السادسة عشرة . وما أن بلغ الثانية والعشرين حتى كان قد كتب عدة أوبرات ، وثلاثين صوناتا ، وقد أسين ، حظيت كلها بالاعجاب الشديد ، وفى ١٧٣٣ قدم أوبرا تسمى il prigioniero « السجين » وقدم لها بمقدمة « الخادمة التى تنقلب سيدة البيت : والنص قصة مريحة تحكى كيف تحتالى الخادمة سربينا على سيدها

حتى يتزوجها ، أما الموسيقى فساعة حافلة بالمرح والألحان الرشيق . وقد أسلفنا كيف أسر هذا المرح البارع مزاج باريس وقلبها في « حرب المهرجين » في ١٧٥٢ ، التي عرضت في الأوبرا مائة مرة ، ثم ستا وتسعين مرة أخرى في ١٧٥٣ في التياتر فرانسيه . وقاد برجوليزي أثناء ذلك أوبراه « الأولمبياد » في روما (١٧٣٥) ، فقوبلت بعاصفة من صفيير الاستهجان ، وببرتقالة صوبت بدقة على رأس الملحن . (١٢٣) وبعد سنة ذهب إلى بوتسرولي ليعالج من إصابته بالسل . الذي ازداد فداحة من جراء أسلوب حياته الخليع . وقد كفر موته الباكر عن آثامه ، ودفنه في الكتدرائية المحلية الرهبان الكبوشيون الذين أنفق معهم أيامه الأخيرة . أما روما التي ندمت على فعلتها فقد بعثت « الأولمبياد » من جديد ، وصفت لها في طرب شديد ، واليوم تحفظ له إيطاليا ذكرى مجيدة لا لفواصله المرحية بقدر ما تحفظها له لركة العاطفة في « آلام العذراء » التي لم يعيش إكمالها . وقد جعل برجوليزي نفسه موضوعا لأوبراوين .

وقد أصاب دومنيكو سكاربوني ما أصاب برجوليزي من مبالغة طفيفة نفختها فيه رياح النوق ، ولكن من ذا الذي يستطيع مقاومة تألق براعته وخفة يده ، ولد في عام العجائب ، عام هندل وباخ (١٦٨٥) ، وكان الطفل السادس لألساندرو سكارلاتي ، الذي كان آنثد فردى الأوبرا الإيطالية . وقد تنفس الموسيقى منذ ولد . فقد كان أخوه بييترو ، وابن عمه جوزيبي ، وعماه فرانثيسكو وتومازو موسيقيين . وكانت أوبرات جوزيبي تخرج في نابلي وروما وتورين والبندقية وفيينا . ونخشي الأب أن تحتق عبقرية الفتى دومنيكو بهذه الوفرة في المواهب فبعث به إلى البندقية وهو في العشرين وقال ، ان ابني هذا نسر كبر جناحاه ، فيجب ألا يبقى في العش ، وعلى ألا أعطل طيرانه (١٢٤) .

وفي البندقية واصل الشاب دراساته والتقى بهندل . ولعاهما قصدا روما معا حيث دنخلا بتحريرض من الكردينال أوتوبوني في مباراة ودية على الهاريسكورد ثم على الأرغن . وكان دومنيكو يوسها أفضل عازف على

المهاريسكورد في إيطاليا ، ولكن يروى أن هندل لم يكن دونه مهارة عليه ،
أما على الأرغن فإن سكارلاتي اعترف بصراحة بتفوق « السكسوني العزيز »
عليه . وتوثقت الصداقة بين الرجلين ، وهذا أمر عسير جدا على كبار
الممارسين لفن واحد ، ولكن يقول معاصرهما أن « دومنيكو كان صاحب
طبع غاية في اللطف ، سلوك غاية في النبل » (١٢٥) . أما هندل فكان قلبه
كبيرا كهيكله . ومنع الإيطالي تواضعه وحيأؤه من عرض براعته في العزف
على المهاريسكورد أمام الجماهير . ونحن نعرفها من أخبار السهرات الموسيقية
الخاصة فتمط . وقد خيل لأحد سامعيه في روما (١٧١٤) « أن عشرة
آلاف شيطان كانوا يعزفون على الآلة » إذ لم يسمع قط من قبل « مثل
هذه الفقرات تنفيذا وتأثيرا » (١٢٦) وكان سكارلاتي أول من طور
امكانيات لوحة مفاتيح اليد اليسرى بما في ذلك إمرارها فوق اليد اليمنى .
قال « ان الطبيعة منحنتى عشرة أصابع ، وبما أن آلتى تتيح تشغيلها جميعا ،
فلست أرى سبباً في ألا استعملها » (١٢٧) .

وفي ١٧٠٩ قبل وظيفة « مايسترودى كاببلا » لملكة بولندة السابقة ماريا
كازيميرا . ذلك أنها بعد موت زوجها جان سوييكي نقيت لاعتبارها دساسة
مثيرة للقلاقل . فلما قدمت إلى روما في ١٦٩٩ صممت على إنشاء ندوة تحفل
بالعقريات كصالون كرستينا ملكة السويد التي ماتت قبل ذلك بعشر سنين .
فجمعت الكثير من رواد صالون كرستينا السابقين في قصر على ميسدان
« ترينيتا دى مونتى » وفيهم عدة أعضاء في الأكاديمية الأركادية . وهناك
(١٧٠٩ - ١٤) أخرج سكارلاتي عدة أوبرات . ولما شجعه نجاحها ،
قدم « أمليتو » (هاملت) على مسرح الكايرانيكو . ولم تلق قبولا حسناً من
الجمهور ، ولم يعد دومنيكو بعدها قط لتقديم أوبرا لجمهور إيطالى . فلتد
وضع أبوه مستوى للأوبرا كان أعلى من أن يدركه .

وظل أربع سنين (١٧١٥ - ١٩) يقود الكاببلا جوليا بالفاتيكان ،
ويعزف الأرغن في كتدرائية القديس بطرس ؛ ثم لحن الآن « آلام العذراء »
التي حكم الجمهور عليها بأنها « رائعة أصيلة » (١٢٨) وفي ١٧١٩ ، قاد أوبراه

« نار تشيزو » في لندن . ثم نجده بعد عامين في لشبونة قائداً لفرقة المنشدين .
للاملك يوحنا الخامس ومعلما لابنة الملك ماريا بربارة ، التي أصبحت بفضل
تعليمه عازفة ماهرة على الهاريسكورد ، ومعظم صوناتاته الباقية ألفها
لاستعمالها . فلما عاد إلى نابلي (١٧٢٥) تزوج وهو في الثامنة والأربعين بماريا
جنتيلي التي لم تتجاوز السادسة عشرة ، وفي ١٧٢٩ اصطحبها إلى مدريد .
في تلك السنة تزوجت ماريا برباره من فرديناند ، ولي عهد أسبانيا . فلما
انتقلت معه إلى إشبيلية رافقها سكارلاتي وظل في خدمتها إلى أن ماتت .

وماتت زوجة سكارلاتي في ١٧٣٩ مخلفة له خمسة أطفال . وتزوج
ثانية ، وسرعان ما أصبح الخمسة تسعة . فلما أصبحت ماريا بربارة ملكة على
أسبانيا (١٧٤٦) جلبت أسرة سكارلاتي معها إلى مدريد . وكان فارنيللي
الموسيقى الأثير لدى الملك والملكة ، ولكن المغنى والعازف أصبحا صديقين
حميمين . وكانت وظيفة سكارلاتي وظيفة خادم مميز ، يمد البلاط الأسباني
بالموسيقى . وحصل على إذن بالذهاب إلى دبلن في ١٧٤٠ وإلى لندن في ١٧٤١ ،
ولكنه كان أكثر الوقت يعيش في قناعة هادئة بمدريد أو قربها ، متوارياً عن
العالم تقريباً ، لا يخامرهُ الظن على الأرجح بأنه سيكون أثيراً لدى عازفي
البيان في القرن العشرين .

ولم ينشر سكارلاتي في حياته سوى ثلاثين صوناتا من بين ٥٥٥ صوناتا
تستند الآن إليها شهرته استناداً قلقاً بفضل حلياتها النغمية . وقد دل عزوانها
المتواضع (تمارين على الهاريسكورد) على هدفها المحدود ، وهو ارتياد
إمكانات التعبير بتقنية الهاريسكورد . وهي ليست صوناتات إلا بالمعنى الأقدم
للفظ ، أى قطع آلية « تعزف » ولا تغنى . ولبعضها موضوعات متعارضة ،
وبعضها تزاوج في مقامات كبيرة وصغيرة ، ولكنها كلها في حركات مفردة
لم تبذل فيها أى محاولة لتفصيل الموضوع وتلخيصه . وهي تمثل تحرر موسيقى
الهاريسكورد من تأثير الأرغن ، وتلقى التأثيرات من الأوبرا بمؤلفات للوحة
المفاتيح . وقد تفوقت على حيوية أصوات السوبرانو والمغنين الحصريان
ورقها ورعشاتها وحياتها بالأصابع الخفيفة الرشيقة الطيبة لحيال لعوب مسرف .

لقد « لعب » سكارلاتى الهارىسكورد بمعنى الكلمة الحرفى . يقول فى هذا :
« لا تتوقعوا أى عمق فى العلم ، بل معاينة بارعة بالفن » (١٢٩) . وهناك أثر
فى الرقص الأسباني وما فيه من أرجل طافرة وتنورات مدومة وصاحجات
رنانة تحسه فى هذه التموجات والتدفقات ؛ وفى كل موضع من الصوتانات
تجد استسلام العازف للذة التحكم فى آله (١٣٠) .

ولابد أن هذا الفرح بالآلة كان من بواعث السلوى لسكارلاتى فى سنوات
خدمته تلك فى أسبانيا . وقد نافسته لذة لعب الميسر الذى أتى على الكثير من
معاشه ، واضطرت الملكة إلى سداد ديونه غير مرة . ثم ساءت صحته
بعد ١٧٥١ ، وزادت تقواه وورعه . وفى ١٧٥٤ عاد إلى نابلى ومات فيها بعد
ثلاث سنين . وتولى فارنيللى الطيب إعالة أسرته المعوزة .

وقد أرجأنا الكلام على سيرة فارنيللى الغربية فى أسبانيا حتى فصل لاحق .
وقد كان هو ودومنيكو سكارلاتى ، وجامباتستا ودومنيكو تيبولو ، من
الإيطاليين الموهوبين الذين كان لهم الفضل ، هم ومنجز المتطلين تقريباً ،
فى استخدام الموسيقى والفن الإيطاليين فى البعث الأسباني . وفى ١٧٥٩ لحق بهم
ملك نابلى أوسبقهم . وفى ذلك العام مات فرديناند السادس دون عقب ،
وورث أخوه شارل الرابع ملك نابلى العرش الأسباني باسم شارل الثالث .
وأُسفت نابلى على رحيله عنها . وكان هذا الرحيل فى أسطول من ست عشرة
سفينة يوم عطلة حزينة لأهل نابلى ، فاجتمعوا فى حشود كبيرة بطول الشاطئ
ليشاهدوه وهو يقلع ، ويروى أن كثيرين منهم بكوا وهم يرددون « ملاكاً
أثبت أنه أب لشعبه » (١٣١) . وقد كتب له أن يتزوج أعماله يث الشباب فى
حياة أسبانيا .

الفصل العاشر

البرتغال وبومبال ١٧٠٦ - ٨٢

١ - يوحنا الخامس : ١٧٠٦ - ٥٠

لم اضمحلت البرتغال بعد أيامها المحيدة التي أنجبت ماجلان وفاسكو داجاما وكاموئيس ؟ لقد كان في جسدها وروحها يوما ما من الهمة ما يكفي لإرتياد نصف الكرة وانشاء المستعمرات الخريثة في ماديرا ، والأزور ، وأمريكا الجنوبية ، وأفريقيا ، ومدغشقر ، والهند وملقا ، وسومطرة : أما الآن ، في القرن الثامن عشر ، فقد باتت نتوءاً ضئيلاً لأوروبا ، مقيدة إلى إنجلترا في التجارة والحرب ، ويغذيها ذهب البرازيل وماسها اللذان يصلان إليها بإذن الأسطول البريطاني . فهل أنهكت قواها لفرط ما قدمت من الرجال البواسل لتملك هذا العدد العديد من المخافر الأمامية القلقة التوازن على أطراف المعمورة ؟ أم لعل تدفق الذهب عليها نزع الحديد من عروقها وأوهن طبقاتها الحاكمة فانتكست من حياة الأقدام والمغامرة إلى حياة اللين والدعة ؟

أجل ، لا بل أنه أوهن من قوة الصناعة أيضاً . فأى جدوى في محاولة تبذلها لتنافس مهرة الصانع أو ملتزمي الصناعة الإنجليز أو الهولنديين أو الفرنسيين في الحرف أو الصناعات ، ما دام في طاقتها شراء ما تستورده من الكساء والغذاء وأسباب الترف والنعيم بالذهب المستورد ؟ فأما الأغنياء اللذين يتاجرون بالذهب فقد أصبحوا أكثر غنى ، وازادوا فخامة ملبس وبهاء زينة ، وأما الفقراء الذين حيل بينهم وبين ذلك الذهب نقد ظلوا يتردون في فقرهم لا يحثهم على الكد والعرق غير حافز الجوع . وأدخل

تشغيل الرقيق في مزارع كثيرة ، وملاّ المتسولون المدن ضجيجاً بصيحاتهم .
وقد كتب عنهم ولیم بكفورد حين سمعهم في ١٧٨٧ بقول « ليس بين
الشحاذين قاطبة من يضارع شحاذى البرتغال قوة رثات ، ووفرة قروح ،
وكثرة حشرات ، وتنوع أسماك ، وترتيب خرق ، ومثابة لآتهاب ..
أن عددهم لا يحصى ، عمی ، صم . جرب (١) » .

ولم تكن لشبونة يومها هذه المدينة الحميلة التي نعهد لها اليوم . لقد كانت
الكنائس والأديرة ضاية في البهاء ، وقصور النبلاء فسيحة ضخمة ، ولكن
نسبة لا تقل عن عشر السكان بغير مأوى ، وكانت الأزقة الملتوية تفوح منها
رائحة القمامة والقذارة (٢) . ومع ذلك فهنا ، كما في سائر بلاد الجنوب ،
عوض الفقر بأسباب العزاء من الأيام المشمسة ، والأمسيات المزدانة بالنجوم ،
والموسيقى ، والدين ، والنساء المتدينات ذوات العيون التي تعذب الناظرين .
وكان القوم يتدفقون في الشوارع بعد أن تخف وقدوة القيظ لا يعوقهم لدغ
البراغيث في أجسامهم ولا طنين البعوض في الهواء ، فيرقصون ويغنون
ويعزفون على القيثائر ويقتتلون للفوز بابتسامة من عذراء .

وكانت المعاهدات (١٦٥٤ . ١٦٦٢ . ١٧٠٣) قد قيدت البرتغال
بانجلترا في تكافل عجيب حالف بينهما في الاقتصاد والسياسة الخارجية
وابقاهما في الوقت نفسه أشد ماتكونان تبايناً في العادات وخصومة في العقيدة .
وتعهدت إنجلترا بحماية استقلال البرتغال والسماح باستيراد النبيذ البرتغالي
(البورت من أوبورتو) برسم جمركي منخفض جداً . أما البرتغال فتعهدت
بالسماح باستيراد المنسوجات الانجليزية معفاة من الرسوم ، وبالوقوف في
صف إنجلترا في أي حرب تنشب . ونظر البرتغاليون إلى الانجليز على أنهم
زنادقة هالكون يملكون أسطولا قوياً ، ونظر الانجليز إلى البرتغال على أنهم
قوم جهالة متعصبون يملكون الموانئ الاستراتيجية . وسيطر رأس المال
البريطاني على الصناعة والتجارة البرتغاليتين . كتب بومبال يشكو من هذه
الأوضاع في شيء من المبالغة : —

« في سنة ١٧٥٤ لم تكد البرتغال تنتج أي شيء يعينها على الاستكفاء .

فقلنا الضروريات المادية تزودها إنجلترا . وغدت إنجلترا السيد المتصرف في تجارتنا كلها ، وكان الوكلاء الانجليز يدبرون تجارتنا الخارجية بحملتها . . فهم يملكون كل شحنات السفن المقلعة من لشبونة إلى البرازيل ، ومن ثم يملكون الثروة العائدة بديلا عن هذه الشحنات . فلم يكن شيء برتغالياً إلا بالاسم فقط^(٣) .

ومع ذلك وصل إلى يد الحكومة البرتغالية من ذهب المستعمرات وفقتها وأحجارها الكريمة ما يكفي لتمويل مصروفاتها ولجعل الملك مستقلا عن مجلس الشعب وسلطانه الضريبي . وهكذا عاش يوحنا الخامس ، طوال ملكه الذي امتد أربعة وأربعين عاماً ، يرفل في رغسد من العيش كأنه أحد سلاطين الشرق ، ويلطف من تعدد نسائه بالثقافة ويحمله بالولاء للكنيسة . فوهب الأموال الطائلة أو أقرضها للبابوية ، وتلقى نظير ذلك لقب « صاحب الجلالة العظيم الإيمان » بل نال حتى حق تلاوة القديس . . دون حق تحويل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه . قال فردريك الأكبر « كانت لاداته في الوظائف الكهنوتية ، ومبانيه أديرة ، وجيوشه رهباناً وخليلاته راهبات^(٤) » .

وأثرت الكنيسة بفضل هذا الملك الذي يدين لها بالكثير جدا من الغفرانات . فملككت نصف الأراضي^(٥) ، وشغل اتباعها تسعمائة دار دينية . وبلغ عدد الكنسيين من مختلف الرتب أو المحدثين بالمؤسسات الدينية زهاء ٢٠٠.٠٠٠ في أمة تعد مليونين من الأنفس . واختص اليسوعيون بمكان الصدارة المرموق سواء في أرض الوطن وفي المستعمرات ، فلقد ساهموا في الفوز بالبرازيل للبرتغال ، وكان الناس — حتى فولتير — مسرورين بإدارتهم لبارجواي ، ولقى نفر منهم الترحيب في البلاط ، وتمكن بعضهم التسلط على الملك ، وكان الملك في موكب (عيد القربان) العظيم يحمل أحد أعمدة الظلة التي حمل تحفا بطريك لشبونة السر المقدس . فلما تعجب الانجليز لمنظر طريق الموكب يصطف على جانبيه الحشد والمصلون وكلهم عارى الرأس جاث على ركبتيه ، قيل لهم في تفسير هذا المشهد أن مثل هذه

المراسم ، وعرض الآنية التفسيرية والرفات المعجز في الكنائس ، عامل رئيسي في حفظ النظام الاجتماعي بين الفقراء .

وكانت محاكم التفتيش خلال ذلك ساهرة على نقاء عقيدة الأمة ودمائها . وقد كبح يوحنا الخامس من سلطان هذه المؤسسة بحصوله على مرسوم من البابا بندكت الثالث عشر يسمح لسجنائها بأن يدافع عنهم المحامون ويشترط مراجعة الملك لجميع أحكامها^(٦) . ومع ذلك كان لهذه المحكمة من النفوذ والسلطان ما مكنها من إحراق ستة وستين شخصاً في لشبونة على مدى أحد عشر عاماً (١٧٣٢ — ٤٢) من بينهم أنطونيو خوزيه دا سيلفا كبير كتاب العصر المسرحيين البرتغاليين ، الذي اتهم بأنه يضمير اليهودية . وفي يوم إعدامه (١٩ أكتوبر ١٧٣٩) مثلت إحدى مسرحياته في ملهى لشبوني^(٧) .

وأحب يوحنا الخامس الموسيقى والأدب والفن . فاستقدم الممثلين الفرنسيين والموسيقيين الإيطاليين إلى عاصمة ملكه . ثم أنشأ أكاديمية التاريخ الملكية . ومول القناة الكبرى التي تمتد لشبونة بالماء . وانفق خمسين مليوناً من الفرنكات لإشيد دير مافرا (١٧١٧ — ٣٢) ، الذي يفوق الأسكوريال سعة ، والذي ما زال من أروع ما تحويه شبه الجزيرة الأيبيرية من صروح . ورغبة في تزيين داخل الدير استعار من أسبانياً أعظم مصوري القرن البرتغاليين .

وكان هذا المصور — فرانسيسكو فييرا — البالغ آنذاك الرابعة والثمانين من عمره يمزج العشق والفن في شاعرية إفتنت بها البرتغال بأسرها . ولد بلشبونة في ١٦٩٩ ، ووقع في غرام أجنيز إيلينا دي ليا وهما بعد طفلان . وإذا كان مولعاً بالتصوير أيضاً ، فقد ذهب إلى روما في التاسعة ودرس فيها سبع سنين ، ولما بلغ الخامسة عشرة فاز بالجائزة الأولى في مسابقة قدمتها أكاديمية القديس لوقا . وحين عاد في ١٧١٥ اختاره يوحنا الخامس ليرسم صورة « سر التناول » وروى أنه أتمها في ستة أيام . ثم إنطلق باحثاً عن أجنيز ، فرده عنها أبوها النبيل وحبس الفتاة في دير للراهبات . فلجأ فرانسيسكو إلى الملك ، ولكنه أبى أن يتدخل في الأمر . فقصد روما وحصل على مرسوم

بابوي يلغى ندور اجنيز الديرية ويصرح بزواجه منها . ولكن السلطات البرتغالية تجاهلت المرسوم . فتنكر فرانسيسكو في زى بناء بعد أن عاد إلى لشبونه ، ودخل الدير وخطف حبيبته وتزوجها . فأطلق عليه أخوها الرصاص ، ولكنه شفى من إصابته وغفر لمهاجمه . وعينه يوحنا الخامس مصورا للبلاط . ولم يكتف بتكليفه تزيين دير مافرا بل وكل إليه تجميل القصور الملكية . وبعد موت اجنيز (١٧٧٥) انفق فرانسيسكو ما بقي من أجله في الاعتكاف الديني وأعمال البر . كم من قصص كهذه تروى مغامرات الروح والدم ضاعت وراء وأجهات التاريخ ؟

٢ . بومبال واليسوعيون

مات يوحنا الخامس الخامس عام ١٧٥٠ بعد أن قضى ثمانية أعوام يعاني الشلل والعتة ، وبدأ ابنه يوسف الأول (خوزيه مانويل) حكما حافلا بالأحداث فعين في وزارته وزيراً للحرب والشئون الخارجية يدعى سباستيا وخوزيه دى كارفالو اى ميللو ، الذى يعرفه التاريخ باسم المركز بومبال ، أعظم وأرهب من حكم البرتغال من الوزراء في أى عهد من عهودها .

كان قد بلغ الحادية والخمسين من عمره حين ارتقى يوسف العرش . تلقى العلم على أيدي اليسوعيين في جامعة كويمبرا ، واكتسب أول شهرته رياضياً وزعيماً مشاعباً لعصابة « الموهوك » التى عاثت فساداً في شوارع لشبونه . وفي ١٧٣٣ أغرى النبيلة دونا تريزا دى نورونها بالفرار معه . فتبرأت منها أسرتها ، ثم تبينت موهبته فأعانتته على الترقى في حرفة السياسة . وأتمته زوجته بثروة صغيرة ، وورث مالا آخر من عم له . وشق طريقه بالوساطة والالحاح والكفاية الواضحة . وفي ١٧٣٩ عين وزيراً مفوضاً لدى لندن ، واعتكفت زوجته في أحد الأديرة حيث ماتت في ١٧٤٥ وخلال السنوات الست التى قضها بومبال في لندن درس الاقتصاد ونظام الحكم الانجليزيين ولحظ طاعة الكنيسة الانجلكانية للدولة ، ولعله نفّض عنه بعض إيمانه الكاثوليكي . ثم عاد إلى لشبونه (١٧٤٤) ، وأوفد مبعوثاً إلى فيينا (١٧٤٥) ، وهناك تزوج

ابنة أخ للمرشال داون للذى كتب له الظفر بالخلود لأنه هزم فردريك مرة ،
وقد ظلت عروسه الجديدة وفية له طوال ما أحرز من انتصارات وما منى به
من هزائم .

وكان يوحنا الخامس عديم الثقة به لأن له « قلباً فظاً »^(٨) . ولأنه « سليل
أسرة قاسية محبة للثأر »^(٩) ولأن فيه القدرة على أن يتحدى ملكاً . ومع ذلك
استدعى بومبال إلى أرض الوطن عام ١٧٤٩ ، ورقى إلى منصب الوزارة
بفضل تأييد اليسوعيين . وثبته يوسف الأول في وظيفته . وسرعان ما أتاح له
ذكاؤه المقرون بالجد والاجتهاد أن يسيطر على الوزارة الجديدة . كتب
قائم بالأعمال فرنسى يقول « يمكن اعتبار كارفالو الوزير الأول ، فهدر سريع
البت وافر النشاط لا يعتريه كلل . ولقد كسب ثقة مولاه الملك ، ولم يظفر
بها أحداً . أكثر منه في جميع شئون السياسة »^(١٠) .

وظهر تفوقه واضحاً جلياً في الزلزال الكبير الذى زلزل لشبونة في أول
نوفمبر ١٧٥٥ . ذلك أنه في الساعة ٩،٤٠ صباح عيد جميع القديسين بينما كان
معظم السكان يصلون في الكنائس ، زلزلت المدينة بهزات أربعة أحالت
نصفها أنقاضاً ، وقتلت أكثر من خمسة عشر ألف شخص ، ودمرت أكثر
الكنائس ، وأبقت على معظم المواخير^(١١) وعلى بيت بومبال . وهرع كثير
من السكان فرساً إلى شواطئ تاجه ، ولكن موجة مد بلغ ارتفاعها خمس
عشرة قدماً أغرقت مزيداً من الأنفس ، وحطمت السفن الراسية في النهر .
وحصدت الحرائق التى اندلعت في أحياء المدينة كلها مزيداً من الأنفس .
وفى غمار الفوضى التى ضربت أطنابها بدأ السفلة من الغوغاء يسرقون ويقتلون
وهم آمنون . أما الملك الذى لم يفلت هو نفسه من الموت إلا بشق النفس ، فقد
طلب إلى وزرائه أن يشيروا عليه بما ينبغى صنعه . ويقال أن بومبال أجاب
« علينا أن ندفن الموتى ونقدم الغوث للأحياء » . وأطلق يوسف يده ،
واستعمل بومبال سلطته بما تميز به من همة وسرعة . فعين الجند لحفظ النظام
وأقام الخيام والمعسكرات لإيواء من باتوا بغير مأوى . وأمر بأن يشنق فوراً
كل من وجد يسرق الموتى . ثم حدد أسعار المؤن بمالا يزيد على أسعارها
(م ٦ - قصة الحضارة ج ٤٠)

السائدة قبل الزلزال ، وألزم جميع السفن الوافدة أن تفرغ شحناتها من الطعام وتبيعها بتلك الأسعار . وأعانه تدفق الذهب البرازيلي الذي لم ينضب ، فأشرف على إعادة بناء لشبونة سريعاً بطرق مشجرة عريضة وشوارع جيدة الرصف والإضاءة . وقلب المدينة كما نراه اليوم من صنع المعماريين والمهندسين الذين اشتغلوا تحت إشراف بومبال (١٢) .

وكان لنجاحه في هذه الكارثة التي أضعفت معنوية الأمة الفضل في ترسيخ قدمه في الوزارة واضطلع الآن بعمالين بعيدى الأثر : أولها تخليص الحكم من سيطرة الكنيسة ، والآخر تحرير الاقتصاد من سيطرة بريطانيا . وتطلبت المهمتان رجلاً أوتي صلابة الفولاذ إلى صفات الوطنية والإباء ومضاء العزيمة التي لا تعرف شفقة أو رحمة .

وإذا كان عداؤه للاكليريكية قد تركز على اليسوعيين فلنما السبب الأول هو أنه توجس منهم إثارة المقاومة لتملك البرتغال للأقاليم البراجوانية التي كان اليسوعيون منذ عام ١٦٠٥ ينظمون فيها أكثر من ١٠٠,٠٠٠ هندي في إحدى وثلاثين مستوطنة ، على أساس شبيه بالأنظمة الشيوعية في خضوع شكلي لأسبانيا (١٣) . وكان الرواد من الأسبان والبرتغال قد سمعوا بوجود الذهب (الأسطوري تماماً) في تربة براجواي ، وشكا التجار من أن الآباء اليسوعيين يحتكرون تجارة الصادر البراجوية ويضيفون الأرباح إلى أموال طائفتهم . ففي ١٧٥٠ فاوض بومبال لعقد معاهدة نزلت البرتغال بمقتضاها لأسبانيا عن مستعمرة سان سكومنتو الغنية (على مصب الريودي لابلاتا) بديلاً عن سبع من المستوطنات اليسوعية المجاورة للحدود البرازيلية . واشترطت المعاهدة أن يهاجر الثلاثون ألف هندي المقيمون في هذه المستوطنات إلى أقاليم أخرى ويتخلوا عن الأرض للبرتغال الوافدين . وأمر فرديناند السادس ملك أسبانيا يسوعي براجواي بالرحيل عن المستوطنات وبإصدار الأمر لرعاياهم بالرحيل في هدوء . وزعم اليسوعيون أنهم امتثلوا لهذه الأوامر ، أما الهنود فقاموا في إصرار غاضب عنيف اقتضى التغلب عليه جيشا برتغاليا ثلاث سنين . واتهم بومبال جماعة اليسوعيين بتشجيع هذه المقاومة سرّاً .

فَعَقَدَ الْعَزْمَ عَلَى أَنْ يَنْهَى كُلَّ مِشَارَكَةٍ لِلْيَسُوعِيِّينَ فِي الصَّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ وَالْحُكُومَةِ الْبَرْتِغَالِيَّةِ . فَلَمَّا أُدْرِكَ يَسُوعِيُو الْبَرْتِغَالِ نِيَّتَهُ تَضَافَرَتْ جُهُودُهُمْ لِلإِطَاحَةِ بِهِ .

وَكَانَ قَائِدُهُمْ فِي هَذِهِ الْحَرَكَةِ جَابِرِيِيل مَالَا جَرِيدَا ، الَّذِي وَلَدَ بِمِنَادَجُو (عَلَى بَحِيرَةِ كُومُو) عَامَ ١٦٨٩ ، وَتَمَيَّزَ عَلَى أَقْرَانِهِ فِي الْمَدْرَسَةِ بِمَا مَارَسَ مِنْ عَضِّ يَدَيْهِ حَتَّى يَدْمِيَهُمَا ، وَكَانَ يَقُولُ أَنَّهُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَعِدُ نَفْسَهُ لِتَحْمِيلِ آلَامِ الْإِسْتِشْهَادِ . ثُمَّ التَّحَقَّقَ بِجَمْعِيَّةِ الْيَسُوعِيِّينَ ، وَأُبْحَرَ إِلَى الْبِرَازِيلِ مَبْعُوثًا . وَرَاحَ يَبْشُرُ الْهِنُودَ فِي الْأَدْغَالِ بِالْإِنْجِيلِ مِنْ ١٧٢٤ إِلَى ١٧٣٥ . وَأَفْلَتَ مِنَ الْمَوْتِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ — مِنْ أَكْلَةِ لَحُومِ الْبَشَرِ ، وَمِنْ التَّمَسُّيحِ ، وَمِنْ الْغُرُقِ فِي السَّفِينَةِ ، وَمِنْ الْمَرَضِ . وَابْيَضَّتْ لَحْيَتُهُ فِي بَوَاكِيَرِ كَهُولَتِهِ . وَنَسَبَتْ إِلَيْهِ قُوَى خَارِقَةٌ ، وَكَانَتْ الْجَمْعُوعُ الْمَتَرَقِبَةُ تَتَّبِعُهُ أَيْنَمَا ظَهَرَ فِي مَدَنِ الْبِرَازِيلِ . وَبَنَى الْكِنَائِسَ وَالْأَدِيرَةَ ، وَأَسَّسَ الْمَدَارِسَ الْلَاهُوتِيَّةَ . وَفِي ١٧٤٧ قَدِمَ عَلَى أَشْبُونَةِ فِي طَلَبِ الْمَالِ مِنَ الْمَلِكِ يُوْحَنَّا . وَحَصَلَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أُبْحَرَ قَافِلًا إِلَى الْبِرَازِيلِ وَأَسَّسَ الْمَزِيدَ مِنَ الْبُيُوتِ الدِّينِيَّةِ ، وَكَثِيرًا مَا شَارَكَ بِيَدَيْهِ فِي أَعْمَالِ الْبِنَاءِ . وَفِي ١٧٥٣ عَادَ إِلَى لِشْبُونَةِ ثَانِيَةً ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ وَعَدَ بِأَنْ يَعِدَ الْمَلِكَةَ الْأُمَّ لِلْقَاءِ رَجُلًا . وَقَدْ عَزَا زَلْزَالُ ١٧٥٥ لِحَطَايَا الشَّعْبِ ، وَطَالَبَ بِإِصْلَاحِ الْأَخْلَاقِ ، وَتَنَبَّأَ مَعَ غَيْرِهِ مِنْ أَفْرَادِ طَائِفَتِهِ بِمَزِيدَ مِنَ الزَّلَازِلِ إِنْ لَمْ تَنْصَلَحِ الْأَخْلَاقُ . وَأَصْبَحَ بَيْتُ خُلُوتِهِ الدِّينِيَّةِ بؤْرَةً لِلْمُؤَامَرَاتِ ضِدَّ بَوْمِبَالِ .

وَكَانَ بَعْضُ أَسْرِ النَّبَلَاءِ ضَالَعِينَ فِي هَذِهِ الْمُؤَامَرَاتِ . وَاحْتَجَّجُوا بِأَنْ ابْنَ مَالِكِ أَرْضِ رِيْفِي حَقِيرٌ قَدْ سَوَّدَ نَفْسَهُ عَلَى الْبَرْتِغَالِ ، وَقَبِضَ عَلَى مَقَالِيدِ حَيَاتِهِمْ وَمَقْدَرَاتِهِمْ . وَكَانَ أَحَدُ هَذِهِ الْأَحْزَابِ الْأَرِسْتَقْرَاطِيَّةِ تَحْتَ زَعَامَةِ دُومِ خُوزِيَه دِي مَاسْكَارِيْنِهَاسَ ، دُوقُ أَفِيرُو ، وَآخِرُ يَرَأْسِهِ ابْنُ أَخِي الدُّوقِ وَهُوَ دُومُ فِرَانسِيْسْكَو دِي أُسِيْزَ ، مَرْكِيزُ طَابُورِهِ . وَكَانَتْ زَوْجَةُ طَابُورِهِ ، وَهِيَ الْمَرْكِيزَةُ دُونَا لِيُونُورَ ، إِحْدَى زَعِمَاتِ الْمَجْتَمَعِ الْبَرْتِغَالِيِّ ، تَلْمِيْذَةٌ شَدِيدَةٌ التَّحَمُّسِ الْأَبْ مَالَا جَرِيدَا كَثِيرَةُ التَّرَدُّدِ عَلَيْهِ . وَكَانَ أَكْبَرُ أَبْنَائِهَا ، الدُّومُ لُوِيْزُ بَرْنَارْدُو ، « مَرْكِيزُ طَابُورِهِ الْأَصْغَرُ » مَتَزَوِّجًا مِنْ عَمَّتِهِ . فَلَمَّا رَحَلَ

رجل لويز إلى الهند جندياً ، أصبحت هذه : « المركيزة الصغيرة » الفاتنة الرائعة الجمال خليعة ليوسف الأول ، وهذا أيضاً لم ينس قط آل أفيرو وطابوره . وافقوا اليسوعيين صادقين على أنه لو أزيح بومبال لتحسن الموقف .

ورد بومبال باقناع يوسف بأن جمعية اليسوعيين تشجع سرّاً المزيد من الثورة في بارجوإي ، وأنها لا تتأمر على الوزارة فحسب بل على الملك أيضاً . ففي ١٩ سبتمبر ١٧٥٧ أقصى مرسوم ملكي عن البلاط أباء اعتراف الأسرة المالكة اليسوعيين . وأمر بومبال ابن عمه ، فرانسيسكو دي المادا أي مندونسا ، المبعوث البرتغالي لدى الفاتيكان ، ألا يضمن بالمال في سبيل تشجيع وتمويل الحزب المناوئ لليسوعيين في روما . وفي أكتوبر قدم المادا لبندكت الرابع عشر قائمة بالتهم الموجهة إلى اليسوعيين : اتهموا بأنهم « ضحوا بكل العهد والواجبات المسيحية ، والدينية ، والطبيعية ، والسياسية في رغبة عمياء . . . في جعل أنفسهم سادة على الحكومة » . وبأن الجمعية مدفوعة « بشره لا يشيع لإقتناء الأموال الأجنبية وتكديسها ، بل حتى لإغتصاب أملاك الملوك ^(١٤) » ، وفي أول إبريل ١٧٥٨ أمر البابا الكردينال دي سالدانا ، بطريك لشبونة ، بالتحقيق في هذه التهم . وفي ١٥ مايو نشر سالدانا مرسوماً يعلن أن اليسوعيين البرتغال يمارسون التجارة ، « مخالفين بذلك جميع القوانين السماوية والبشرية » ، وأمرهم بالكف عنها . وفي ٧ يونيو ، بتحرير من بومبال في أغلب الظن ، أمرهم بالامتناع عن سماع الإعترافات أو عن الوعظ . وفي يوليو نفى رئيس يسوعى لشبونة إلى مسافة ستين فرسخاً عن القصر الملكي : وخلال ذلك (٣ مايو ١٧٥٨) مات بندكت الرابع عشر ، فعين خليفته كلمنت الثالث عشر لجنة تحقيق أخرى ، قررت أن اليسوعيين براء من التهم التي رماهم بها بومبال ^(١٥) .

وخامر الناس بعض الشك في أن يوسف الأول سيؤيد وزيره في هجومه على اليسوعيين ، ولكن تحولاً فجائياً في الأحداث دفع الملك دفعاً تاماً إلى صف بومبال . ذلك أن يوسف كان في ليلة الثالث من سبتمبر ١٧٥٨ قافلاً إلى قصره القريب من بيليم من لقاء عرام سرى مع مركيزة

طابوره في أغلب الظن^(١٦) . وقيل منتصف الليل انبعث ثلاثة رجال مقنعين من عقد قناة وأطلقوا النار على المركبة دون أن يصيبوا هدفهم ، وأطلق السائق بحواده العنان ، وما هي إلا لحظة حتى انطلقت رصاصتان من كمين آخر ، وأصابتا الأولى السائق والأخرى الملك في كتفه وذراعه اليمينين . وقررت محكمة تحقيق لاحقة أن كميناً ثالثاً أعده أفراد من آل طابوره كان ينتظر المركبة على مسافة أبعد على الطريق العام إلى بيلم . ولكن يوسف أمر السائق أن يحيد عن الطريق الرئيسي ويقصد بيت جراح الملك ، الذي ضمد جراح الرجلين . ولعل الأحداث التالية التي أحدثت ضجة في جميع أرجاء أوروبا ، كانت تختلف كل الاختلاف لونجح الكمين الثالث في الاغتيال المبيت .

وتصرف بومبال بتدبر ودهاء . فنفت أشاعات الهجوم رسمياً ، وعزى اعتكاف الملك المؤقت إلى كبرة كباها ، وظل جواسيس الوزير ثلاثة أشهر يجمعون الأدلة . فوجدوا رجلاً شهد بأن انطونيو فريرا استعار بنادقية منه في ٣ أغسطس وردها إليه في ٨ سبتمبر . وقيل أن رجلاً آخر قال أن فريرا استعار مسدساً منه في ٣ سبتمبر ورده بعد أيام . وقال الشاهدان أن فريرا في خدمة دوق أفيرو وشهد سلفادور دوراو ، وهو خادم في بيلم ، بأنه في ليلة الهجوم ، بينما كان في لقاء خارج بيت أفيرو ، سمع عفواً أفراداً من أسرة أفيرو عائدتين من مغامرة ليلية .

وأعد بومبال لقضيته في حيطة وجراة . فضرب صفحاً عن الإجراء الذي يتطلبه القانون ، والذي كان سيحاكم الأشراف المشبوهين أمام محكمة من كبار النبلاء ؛ ومحكمة كهذه لن تدينهم أبداً . وبدلاً من هذا ، أصدر الملك في ٩ ديسمبر مرسومين ، وكان هذا الإصدار أول كشف علني عن الجريمة : فعين المرسوم الأول الدكتور بديرو جونسا لفيس بريرا قاضياً يرأس محكمة خاصة بقضايا الخيانة العظمى ، وأمره الآخر بأن يميظ اللثام عن المسئولين عن محاولة قتل الملك ويقبض عليهم ويعذبهم . ونحول جونسا لفيس بريرا سلطة أفعال جميع الأشكال المألوفة للمحاكمات ، وأمرت المحكمة

بتنفيذ أحكامها يوم إعلانها . وأضاف بومبال إلى المراسيم بياناً رسمياً علق في جميع أرجاء المدينة ، يروى أحداث ٣ سبتمبر ، ويعدهم كفاة أى شخص يقدم الأدلة التي تعين على القبض على القتلة (١٧) .

وفي ١٣ ديسمبر قبض ١٣ موظفاً حكومياً على دوق أفرو ، وعلى ابنه المركز جوفيا البالغ من العمر ستة عشر عاماً ، وعلى خادم أنطونيو فريرا ، وعلى مركيزى طاوره الأب والابن ، وعلى مركيزة طاورة الأم ، وعلى كل خدام الأسرتين ، وعلى خمسة نبلاء آخرين . وطوق الجند في ذلك اليوم جميع الكليات اليسوعية ، وأودع السجن مالا جريداً واثنى عشر آخرون من زعماء اليسوعيين . وتعجلاً للفصل في الأمر ، أباح مرسوم ملكي صادر في ٢٠ ديسمبر (بخلاف ما جرى عليه للعرف في البرتغال) استعمال التعذيب لإستخلاص الاعترافات من المتهمين . وفحص خمسون سجيناً بالتعذيب أو التهديد بالتعذيب . وورطت عدة اعترافات دوق أفرو ، واعترف هو نفسه بذنبه تحت وطأة التعذيب ، واعترف أنطونيو فريرا أنه أطلق النار على المركبة ، ولكنه أفسم أنه لم يكن يعلم أن ضحيته المحتمل هو الملك . وتحت وطأة التعذيب عرض عدة خدام تلك الأسرة بجملة للخطر ، واعترف المركز الابن باشتراكه ، أما المركز الأب الذي عذب حتى كاد بلفظ أنفاسه فقد أنكر أنه مذنب . وكان بومبال ذاته يحضر فحص الشهود والمسجونين . وكان قد أمر بتفتيش البريد ، فزعم الآن أنه وجد ضمنه أربعاً وعشرين رسالة كتبها دوق أفرو ، وعدة أفراد من آل طاوره . ومالا جريداً وغيره من اليسوعيين ، لا حاطة أصدقائهم أو أقربائهم في البرازيل بالمحاولة الفاشلة ، واعدتهم بمزيد من الجهود لقلب الحكومة . وفي ٤ يناير ١٧٥٩ عين الملك الدكتور أوزيبوتافاريس دى سكوبرا للدفاع عن المتهمين . ودفع سكوبرا بأن الاعترافات التي انتزعت تحت التعذيب عديمة القيمة في الدلالة على الجريمة ، وأن جميع النبلاء المتهمين يستطيعون اثبات غيابهم ليلة الجريمة . على أن المحكمة قضت بأن الدفاع غير مقنع . ورأت أن الرسائل المعترضة صحيحة وأنها تؤيد الاعترافات ، وفي ١٢ يناير حكمت المحكمة بأن جميع المتهمين مذنبون .

وأعدم تسعة منهم في ١٣ يناير في ميدان بيليم العام . وأول من تقرر إعدامه كان مركيزة طابورة الأم . فانحنى الجلاذ ليوثق قدميها وهى على المقصلة فدفعته قائلة « لاتمسنى إلا لتقتلنى » ^(١٨) وبعد أن أكرهت على رؤية العدة التى سيموت بها زوجها وابناها — وهى دولاب التعذيب ، والمطرقة والخطب — ضرب عنقها . وحطم ولداها على الدولاب ثم شتقاً ، وظلت جثتها على المشنقة حين صعد إليها دوق أفيرو ومركيز طابوره الأب . وذاقا مرارة الضربات المخطمة ذاتها ، وترك الدوق ليطول عذابه حتى تم إعدام آخر المتهمين — وهو أنطونيو فريرا الذى أحرق حياً . ثم أحرقت جميع الجثث وذر رمادها في نهر تاجه . ومازال الجدل قائماً في البرتغال حول هؤلاء النبلاء ، هل تعمّدوا حقاً قتل الملك أم لا ؟ هذا مع التسليم بعدائهم لبومبال .

أكان اليسوعيون ضالعين في تلك المحاولة ؟ لم يكن هناك شك في أن مالا جريداً في غضبته المضربة كان قد تنبأ بسقوط بومبال وبموت الملك وشيكا ، ^(١٩) ولم يكن هناك شك في أنه هو وآخرون من اليسوعيين كانوا قد اجتمعوا مرات بأعداء الوزير من الأشراف . وكان قد دل ضمناً على علمه بمؤامرة ما بكتابته إلى إحدى نبيلات البلاط يرجوها أن تنبه يوسف إلى الحذر من خطر وشيك . فلما سئل وهو في السجن كيف علم بهذا الخطر أجاب في « كرسى الاعتراف » . ^(٢٠) وفي غير هذا (كما يقول مؤرخ من خصوم اليسوعيين) « ليس هناك دليل إيجابى يربط اليسوعيين بهذا الاعتداء » ^(٢١) . ولكن بومبال اتهمهم بإثارة حلفائهم بوعظهم وتعاليمهم إثارة دفعهم إلى محاولة الاغتيال . وأقنع الملك أن الموقف يتيح للملكية الفرصة لتعزيز قوتها إزاء الكنيسة . وعليه ففي ١٩ يناير أصدر يوسف مراسيم بضم جميع ممتلكات اليسوعيين في المملكة ، وبإلزام جميع اليسوعيين بيوتهم أو مدارسهم حتى يفصل البابا في التهم الموجهة إليهم . واستعمل بومبال أثناء ذلك مطبعة الحكومة لطبع — ويوزع عماله على نطاق واسع في الداخل والخارج — كراسات تبسط الحجج التى تدين الأشراف واليسوعيين ، وكانت هذه فيما يبدو أول مرة استخدمت فيها حكومة من الحكومات المطبعة

لتفسير تصرفاتها للأهم الأخرى . وربما كان لهذه المنشورات بعض الأثر في
المعاونة على طرد اليسوعيين من فرنسا وأسبانيا .

وفي صيف ١٧٥٩ استأذن بومبال كلمنت الثالث عشر في تقديم اليسوعيين
المعتقلين للمحاكمة أمام محكمة الخيانة العظمى ، وزاد بالاقتراح بأن يحاكم
جميع الكنسيين المتهمين بجرائم ضد الدولة ، منذ الآن ، أمام محاكمة مدنية
لاكنسية . وصرحت رسالة شخصية من يوسف إلى البابا بعزم الملك على
طرد اليسوعيين من البرتغال ، وأعربت عن الأمل في أن يوافق البابا على
هذا الإجراء بإعتباره إجراء تبرره تصرفاتهم ، وضروريا لحماية الملكية .
وصدمت هذه الرسائل كلمنت ، ولكنه خشى أن قاومها صراحة أن يقنع
بومبال الملك بقطع الصلات جميعها بين الكنيسة البرتغالية والبابوية . وتذكر
ما فعله هنري الثامن عشر في إنجلترا ، وكان يعرف أن فرنسا أيضاً تزدد
عداء لجماعة اليسوعيين ، ففي ١١ أغسطس بعث بالإذن بمحاكمة اليسوعيين
أمام المحكمة المدنية ، ولكنه قصر بوضوح موافقته على تلك الحالة بعينها .
ثم وجه إلى الملك نداء شخصياً يدعو للرأفة بالتساوسة المتهمين ، وذكر
يوسف بانجازات هذه الطائفة الماضية ، وأعرب عن رجائه ألا يؤخذ
جميع اليسوعيين البرتغاليين بجريرة فئة قليلة منهم .

ولكن نداء البابا فشل . ففي ٣ سبتمبر ١٧٥٩ - وكان اليوم ذكرى
الاغتيال المبين - أصدر الملك مرسوماً ضمنه قائمة طويلة بجرائم منسوبة
لليسوعيين ، وأمر بما يأتي :

« أن هؤلاء الرهبان ، نظراً إلى فسادهم وسقوطهم المؤسف بعيداً عن
رهبنتهم المقدسة ، ولما أصابهم من عجز واضح عن العودة إلى شعائرها
بسبب هذه الرذائل البشعة المتأصلة ، يجب أن ينفوا نفياً حقيقياً فعلاً . .
وأن يحاكموا ويطردوا من جميع أملاك جلالته ، باعتبارهم عصاة سيئى
السمعة وخونة ، وأعداء ، اعتدوا على شخصه الملكى وعلى مملكته . .
ويقتضى الأمر ألا يقبلهم أى شخص كائناً ما كانت مكانته أو وضعه فى أى

من ممتلكاته وألا يتصل بهم بتاتا سواء بالحديث أو المراسلة ، وإلا كان جزاؤه الموت الذى لا رجوع فيه (٢٢) .

واستثنى من المرسوم اليسوعيون الذين لم يندروا أنفسهم النذر الوثيق للرهينة ، والذين يجب عليهم أن يلتزموا إعفاءهم من ندورهم الأولية . وصادرت الدولة ثروة اليسوعيين كلها ، ومنع المنفيون من أن يأخذوا معهم غير ملابسهم الشخصية (٢٣) . واقتيدوا من جميع أرجاء البرتغال فى مركبات أوسيرا على الأقدام إلى سفن أقلتهم إلى ايطاليا . وتم ترحيلهم على هذا النحو من البرازيل وغيرها من الممتلكات البرتغالية . ووصلت أول شحنة من المنفيين إلى تشيفيتافكيا فى ٢٤ أكتوبر ، ورثى لحالهم حتى ممثل بومبال هناك . كان بعضهم ضعيفا لكبره ، وبعضهم يكاد يتضور جوعا ، وبعضهم مات فى الطريق . ورتب قائد الجماعة ، لورنتسوريكى ، استقبال الأحياء منهم فى بيوت يسوعية فى ايطاليا ، وشارك الأخوة الدومنيكان فى استضافتهم . وفى ١٧ يونيو ١٧٦٠ أوقفت الحكومة البرتغالية العلاقات الدبلوماسية مع الفاتيكان .

وبدا نصر بومبال نصراً مؤزراً ، ولكنه كان عابياً بأنه نصر لانتحيه الأمة ، وأفضى به الشعور بعدم الأمان إلى توسيع سلطته إلى الدكتاتورية الكاملة ، فبدأ حكماً من الاستبدادية والارهاب حتى عام ١٧٧٧ . وكان جواسيسه يبلغونه بكل ما يكشفونه من ألوان المقاومة لسياساته أو أساليبه ، وسرعان ما اكتظت سجون لشبونة بالمسجونين السياسيين . وقبض على الكثيرين من الأشراف والكهنة لإتهامهم بمؤامرات جديدة على الملك ، أو باشتراكهم فى المؤامرة القديمة . وأصبحت قلعة جنكيرا ، المتوسطة الموقع بين لشبونة وبيليم ، سجناً خاصاً للأشراف زج فيه كثير منهم حتى قضوا نحبهم . وفى سجون أخرى أودع اليسوعيون المحبسون من المستعمرات والمتهمون بمقاومة الحكومة — وظل بعضهم نزيلها تسعة عشر عاماً .

أما مالا جريدا فقد ظل يذوى فى سجنه اثنين وثلاثين شهرا قبل أن

يمثل أمام المحكمة . وسلى الشيخ سجنه بتأليفه كتاب « حياة القديس . حنه البطولية ، أم مريم ، أملتها القديسة حنه ذاتها للأب المبجل ما لاجريدا » ، وصودر المخطوط بأمر بومبال ، وقد وجد فيه عدة سخافات يمكن أن ترصف بالهرطقة : فقد قال مالاجريدا أن القديسة حنه حبلى بها كما حبلى بمریم ، دون أن تلوّثها الخطيئة الأصلية ، وأنها كانت تتكلم وتبكي فى بطن أمها^(٢٤) . وبعد أن عين بومبال أخاه بول دى كارفالو رئيساً لـديوان التفتيش فى البرتغال ، أمر بأن يستدعى مالاجريدا للمثول أمامه ، وكتب بيده ورقة اتهم تهم اليسوعيين بالجشع ، والرياء ، والدجل ، وانتهاك المقدسات ، وبتهديدهم الملك بالتنبؤ مراراً بموته . وإذ كان مالاجريدا - الذى بلغ الآن الثانية والسبعين - قد أصبح نصف مخبول لشدة ما كابده من عذاب ، فقد أخبر قضاة التفتيش بأنه تكلم مع القديس أغناطيوس لويولا والقديسه تريزا^(٢٥) . وأراد قاض منهم أن يقف المحاكمة اشفاقاً على الشيخ فمضى بأمر بومبال . وفى ١٢ يناير ١٧٦١ حكمت المحكمة المقدسة بأن مالاجريدا مذنب بالهرطقة ، والتجديف ، والضلال ، وبخداع الشعب بما زعم من اعلانات إلهية له . ومد فى أجله ثمانية شهور آخر . وفى ٢٠ سبتمبر سيق إلى مشنقة فى البراسا روسيو ، فشنق ، وأحرق مشدوداً إلى خازوق . وقال لويس الخامس عشر معقبا بعد سماعه بالإعدام « لكأنى أحرقت الشيخ المخبول نزيل مستشفى البتيت (ميزون) الذى يزعم أنه الله الآب^(٢٦) . وكان رأى فولتير فى الحادث وهو يسجله « أنه حماقة وسخف مقرونان بشرغاية فى البشاعة^(٢٧) » .

ولم يرق جماعة الفلاسفة الفرنسيين ما طرأ على بومبال من تطور ، بعد أن كان رأيهم فيه فى ١٧٥٨ أنه « مستبد مستنير » . لقد رحبوا بالاطاحة باليسوعيين ، ولكنهم استنكروا الأساليب التعسفية التى انتهجها الدكتاتور ، والنغمة العنيفة التى سرت فى نشراته ، والوحشية التى لوّثت عقوباته . وصدمتهم معاملة اليسوعيين خلال ترحيلهم ، واعدام الأسر العريقة بالجملة ، والمعاملة غير الإنسانية التى لقيها مالاجريدا ، على أنه لم

يصلنا أى سجل يثبت احتجاجهم على حبس أسقف كويمبرا ثمانى سنوات لأنه أدان لجنة بومبال للرقابة على المطبوعات التى سمحت بتداول مؤلفات متطرفه ، كقاموس فولتير الفلسفى وعقد روسو الاجتماعى .

بيد أن بومبال نفسه لم يبشر بهرطقات ، وكان يختلف إلى القديس بانتظام . ولم يكن هدفه القضاء على الكنيسة بل إخضاعها للملك ، فلما وافق كلمنت الرابع عشر عام ١٧٧٠ على السماح للحكومة بالترشيح لمناصب الأسقفية ، اصطلاح مع الفاتيكان : وأسعدت يوسف الأول - وقد دنا أجه - فكرة الظفر بعد هذا كله بكامل البركات الكهنوتية حين يموت . وبعث البابا بقبعة الكردينالية إلى بول أنخى بومبال ، وأتحف بومبال نفسه بخاتم يحمل صورة البابا ، ومنمنمة لإطارها من الماس ، ورفات كامل لأربعة قديسين .

٣ - بومبال المصالح

وترك الدكتاتور أثناء ذلك بصمته على اقتصاد البرتغال وإدارتها وحياتها الثقافية . وأعاد تنظيم الجيش بمساعدة الضباط الانجليز والألمان ، وقد صد هذا الجيش غزوا أسبانيا فى حرب السنين السبع . وانتهج ما انتهجه ريشليو فى فرنسة القرن السابع عشر ، فحد من سلطان الارستقراطية الممزق للأمة ، ومركز الحكومة فى ملكية تستطيع أن تمنح هذه الأمة الوحدة السياسية ، والتطور التعليمى ، وبعض الحماية من تسلط الكنيسة وكف النبلاء بعد اعدام آل طابوره عن التآمر على الملك ، ونخضع الأكليروس للدولة بعد طرد اليسوعيين . وفى فترة الجفوة مع الفاتيكان كان بومبال يعين الأساقفة ، وكان أساقفته يرسمون القساوسة دون الرجوع إلى روما . وحد مرسوم ملكى من اقتناء الكنيسة للأرض ، وقيد حرية الرعايا البرتغاليين فى تحميل تركاتهم بوصايا لإقامة القديس^(١٨) وأغلق الكثير من الأديرة وحظر على الباقي منها قبول رهبان جدد تقل أعمارهم عن الخامسة والعشرين . وأنخضع ديوان

التفتيش لإشراف الحكومة . ونقلت محكمته إلى محكمة عامة خاضعة للقواعد التي تخضع لها محاكم الدولة ، وجردت من سلطات الرقابة على المطبوعات ، وألغى ما جرت عليه من تمييز بين قدامى المسيحيين وجددهم (أى اليهود أو المغاربة الذين دخلوا في المسيحية وذريتهم) ، لأن بومبال افترض أن في دماء معظم الأسبان والبرتغال الآن عرقاً سامياً^(٢٩) . وبمقتضى مرسوم صدر في ٢٥ مايو ١٧٧٣ أصبح جميع الرعايا البرتغال صالحين للاختيار للمناصب المدنية والعسكرية والكنسية^(٣٠) ، ولم تحرق محكمة التفتيش انساناً بعد احراق مالا جريداً عام ١٧٦١^(٣١) .

في تلك السنة ألغى بومبال ثلاثة أرباع الوظائف الصغيرة التي كانت تعوق سير القضاء ، ويسرت الطريق إلى المحاكم وجعل التقاضي أقل كلفة . وفي ١٧٦١ أعاد تنظيم الخزانة ، وألزمها بموازنة حساباتها كل أسبوع ، وأمر بأن تراجع إيرادات ومصروفات البلديات كل سنة ، وتحقيق بعض التقدم في أشد الإصلاحات كلها عسراً - وهو خفض عدد الموظفين في البلاط الملكي والحد من الاسراف في نفقاته . فتخلص من الثمانين طاهياً الذين كانوا يطعمون يوحنا الخامس وبطانته ، واضطر يوسف الأول أن يقنع بعشرين فقط . وبمقتضى مرسوم صدر في ٢٥ مايو ١٧٧٣ ألغى الرق في الواقع في البرتغال ولكن سمح باستمراره في المستعمرات .

وامتدت يد المصلح إلى كل ركن . فبذل الدعم الحكومي للزراعة ومصايد الأسماك ، وأدخل دودة القز في المقاطعات الشمالية ، وأنشأ الفواخير ، ومصانع الزجاج ، ومصانع القطن والصوف والورق ، لينهى اعتماد البرتغال على استيراد هذه الحاصلات من الخارج . وألغى المكوس الداخلية في انتقال السلع ، وأقام التجارة الحرة بين البرتغال ومستعمراتها الأمريكية . وأسس كلية للتجارة يدرّب فيها الرجال على إدارة الأعمال . ونظم وأعلن بالمال الشركات لتتلقى تجارة البرتغال من الأجانب الذين يتجرون فيها وينقلونها ، وفي هذا فشل - أو فشلت البرتغال - لأن

تجارة البرتغال في ١٧٨٠ كان أكثرها لا يزال في أيدي الأجانب لاسيما البريطانيين .

واقضى طرد اليسوعيين بناء التعليم من جديد بناء شاملا . فشرت في البلاد المدارس الأولية والثانوية الجديدة التي بلغ عددها ٨٣٧ — وحولت الكلية اليسوعية في لشبونة إلى كلية للإشراف يديرها العلمانيون . ووسع منهج الدراسة في كويمبرا وأضيفت إليه مقررات في العلوم ، وأقنع بومبال الملك بتشديد دار للأوبرا ودعوة المغنين الايطاليين لقيادة الفرق ، وفي ١٧٥٧ أسس « أركاديا لشبونة » لتشجيع الأدب .

وحظي الأدب البرتغالي طوال نصف قرن مثير (١٧٥٥ — ١٨٠٥) بحرية نسبية في الأفكار والأشكال . وبعد أن تحرر نفسه من النماذج الإيطالية ، أقر بسحر فرنسا ، وأحس بنسائم تهب عليه من حركة التنوير . وظفر أنطونيو دينيز داكروز أي سيلفا بالشهرة في وطنه كله بكتابة هجاء سماه « أو هسوبي » (١٧٧٢) ، ووصف فيه في ثمانية أقسام شجارا بين أسقف وكبير كهنة ، وترجم نخواو أنستاسيودا كونها بوب فولتير ، وعلى هذه الترجمة أدانته محكمة التفتيش (١٧٧٨) عقب سقوط بومبال . وأولع فرانسيسكو مانويل دوناسكيمينتو بالكتب ، وكان ابن عامل في تفريغ السفن وشحتها ، وأصبح قطبا لجماعة تمردت على الأكاديمية الاركادية لأنها عائق لتطور الشعر القومي . وفي ١٧٧٨ أمرت محكمة التفتيش بالقبض عليه (مغتنة ثانية فرصة سقوط بومبال) متهمة إياه بالولع بالفلاسفة المحدثين من اتباع العقل الطبيعي « ففر إلى فرنسا ، حيث انفق تقريبا كل سنه الواحدة والأربعين الباقية من عمره ، وهناك كتب معظم قصائده التي تنقد بحب الحرية والديمقراطية ، وفيها قصيده غنائية « لحزية الولايات المتحدة واستقلالها » وقد عده أنصاره أماما للشعر البرتغالي لا يميزه فيه غير كاموثيس . وحوى مجلد في قصائد الحب يسمى « أماريليا » أرشق وأرخم شعر العصر ، الذي خلفه توماز أنطونيو جونزاجا الذي عانى السجن (١٧٨٥ — ٨٨) بتهمة التآمر السياسي ومات في المنفى ، أما نخوزيه

أجوستينو دى ما سيدو ، الراهب الأوغسطينى الذى جرد لفسقه ، فقد اتخذ فى جرأة ، لقصيدته « أو أورينتى » الموضوع الذى اتخذه من قبل كاموئيس - وهو رحلة فاسكودا جاما إلى الهند . وكان يرى قصيدته أعظم من اللويزياده « والإلياذه » ولكنهم يؤكدون أنها عمل كئيب . وأطرف منها هجاء كتبه فى ستة أقسام « أوس بوروس » شهر فيه ماسيدو صراحة برجال ونساء من جميع المراتب ، الأحياء منهم والأموات . وكان ألد خصومه ما نويل ماريا باربوزادى بوساجى ، الذى سجنه محكمة التفتيش (١٧٩٧) بتهمة إذاعة الأفكار الفولتيرية فى شعره وتمثيلياته . وقد رده لإعدام مارى انطوانيت إلى المحافظة فى الدين والسياسة ، فاستعاد تدينه أيام الشباب ، ورأى فى البعوضة دليلاً على وجود الله (٣٢) .

أما الحدث العظيم فى تاريخ الفن فى حكم بومبال فهو التمثال الذى صنع ليوسف الأول ، والذى مازال قائماً فى ميدان الحصان الأسود بلشبونة . وقد صممه يواكيم مكادو دى كاسترو ، وصبه بالبرونز تروتولوميو داكوستا وهو يمثل الملك راكباً جواداً مطهما ، ظافراً فوق أفاعى ترمز إلى القوى الشريرة التى غلبها فى حكمه . وجعل بومبال من إزاحة الستار عن هذا الأثر (٦ يونيو ١٧٧٥) احتفالاً بوزرته المنتصرة . فاصطف جنود الجيش فى الميدان ، واجتمع رجال السلك السياسى ، والقضاء ، ومجلس الشيوخ وغيرهم من كبار القوم مرتدين الملابس الرسمية ، ثم أقبلت الحاشية ، ثم الملك والملكة ، وأخيراً تقدم بومبال وأزاح الستار عن التماثيل والقاعدة الضخمة التى صورت ميدالية عليها الوزير لا بساً صليب المسيح . وفهم الكل إلا الملك أن الموضوع الحقيقى للاحتفال هو بومبال .

وبعد أيام من إزاحة الستار أرسل إلى يوسف الأول وصفا وردى اللون للتقدم الذى حققه بومبال منذ ١٧٥٩ : نشر التعليم والإمام بالقراءة والكتابة ، نمو الصناعة والتجارة ، وتطور الأدب والفن ، وارتفاع مستوى المعيشة بصفة عامة ، على أن توخى الصديق لا بد أن يتخزل الكثير من وصفه هذا ، فالصناعة والتجارة كانتا تنموان ، ولكن فى بطء شديد ،

وكلتا تعانيان المصاعب المالية ، أما الفنون فركدت ، وكان نصف لشبونة لا يزال (١٧٧٤) في الخرائب التي سببها زلزال ١٧٥٥ . وكان تعلق الشعب الفطري بأهداب الدين يعيد سلطان الكنيسة إلى سابق عهده . وكان صلف بومبال وأساليبه الدكتاتورية تخلق له أعداء جدداً كل يوم . وكان قد اقتنى لنفسه ولأقربائه ثروة طائلة وبني لنفسه قصراً غالى التكلفة . ولم تكد توجد أسرة نبيلة في المملكة بغير عضو محبوب من أعضائها يندوى في غياهب السجن . وكان الناس في طرل البرتغال وعرضها يصلون ويتضرعون إلى الله سرا بأن يسقط بومبال عن عرشه .

٤ - انتصار الماسوني

في سنة ١٧٧٥ بلغ الملك الستين . وكانت العلل والتحليلات قد أشبهته قبل أوانه ، وراح ينفق الساعات متأملاً في الخطيئة والموت . وسأل نفسه أكان على حق في انتهاج سياسات وزيره ، وهل كان منصفاً لليسوعيين ؟ ثم ماخطب أولئك الأشراف والقساوسة نزلاء السجون ؟ بوده أن يغفر لهم وهو يطلب الآن المغفرة لنفسه . ولكن أنى له أن يذكر فكرة كهذه لبومبال الذي لا تلين له قناة ، وماذا تراه صانعاً بغير بومبال ؟ وفي ١٢ نوفمبر ١٧٧٦ أصيب بنوبة فالج ، وكان البلاط يخبط توقعاً لحكم ملك جديد ووزارة جديدة . وكانت وريثة العرش ابنته ماريا فرنسيسكا التي كانت زوجاً لأخيه بدرو . وكانت امرأة صالحة ، وزوجاً وأماً صالحة ، وإنساناً عطوفاً باراً ، ولكنها كانت إلى ذلك كاثوليكية غيوراً ، كرهت عداء بومبال للأكليروس كرها حملها على ترك البلاط لتعيش في هدوء مع بدرو في كيلود على أميال من العاصمة . وأحاط الدبلوماسيون الأجانب بحكوماتهم بأن تتوقع انقلاباً وشيكاً في السياسات البرتغالية .

وفي ١٨ نوفمبر تناول الملك الأسرار المقدسة ، وفي ٢٩ نوفمبر أصبحت ماريا وصية على العرش . وكان من أول أفعالها إنهاء سجن أسقف كويمبرا ، ورد الخبر البالغ من العمر أربعة وسبعين عاماً إلى كرسيه وسط مظاهر الفرح

الشاملة تقريباً . ورأى بومبال سلطانه يتضائل ، ولحظ في نذر قائمة أن أفراد الحاشية الذين كانوا بالأمس اتباعاً أذلاء له ، يرونه الآن وقد قضى على نفوذه السياسى . وفى عمل أخير من أعمال الاستبداد انتقم انتقاماً وحشياً من قرية تريفاريا التى عارض أهلها - وكانوا صيادى سمك - تجنيد أبنائهم بالقوة ، فأمر فصيلة من الجند بأن يحرقوا القرية : فأحرقوها بإلقاء المشاعل المتهبة من نوافذ الأكواخ الحشبية فى ظلام الليل (٢٣ يناير ١٧٧٧) .

وفى ٢٤ فبراير مات يوسف الأول ، وأصبحت الوصية الآن للملكة ماريا الأولى (حكمت ١٧٧٧ - ١٨١٦) ، وأصبح زوجها الملك بدرو الثالث (١٧٧٧ - ٨٦) . وكان بدرو رجلاً ضعيف العقل ، واستغرقت ماريا فى التقوى وأعمال البر . وسرعان ما استعاد الدين سلطانه ، وقد كان نصف حياة الشعب البرتغالى . واستأنفت محكمة التفتيش نشاطها فى الرقابة وقمع الهرطقة . وأرسلت الملكة ماريا إلى البابوية أربعين ألف جنيه لرد بعض ما أنفقت فى رعاية اليسوعيين المنفيين . وفى غداة دفن يوسف أمرت الملكة بالإفراج عن ثمانمائة سجين ، وكان أكثرهم قد سجنه بومبال لمعارضته سياسته . وكان كثير منهم قد قضى عشرين عاماً فى غياهب السجون ، فلما خرجوا لم تحتمل عيونهم ضوء الشمس وكانوا كلهم تقريباً فى أسماط بالية ، وبدا الكثيرون منهم فى ضعف سنهم ، وكان المئات من السجناء قد قضوا نحبهم فى سجونهم . ولم يبق على قيد الحياة من بين ١٢٤ يسوعياً زج بهم فى السجون قبل ثمانية عشر عاماً سوى خمسة وأربعين (٣٣) . ورفض خمسة من الاشراف الذين أدينوا بتهمة الاشتراك المزعوم فى مؤامرة قتل يوسف أن يرحلوا السجن حتى تعلن براءتهم رسمياً .

وكان لمشهد ضحايا عداء بومبال المفرج عنهم ، ولنبأ تحريق تريفاريا ، أثرهما فى تفاقم كره الشعب لبومبال إلى حد لم يعد يجرؤ فيه على الظهور علانية . وفى أول مارس أرسل إلى الملكة ماريا كتاباً يستقيل فيه من جميع وظائفه ويستأذن فى الاعتكاف فى ضيعته بمدينة بومبال ، وطالب

الاشراف المحيطون بالملكة بسجنه وعقابه ، ولكن حين تبين لها أن جميع القوانين التي استنكرتها كان قد وقعها الملك السابق ، قررت أنها لاتستطيع عقاب بومبال دون أن تلتطخ أمام الناس ذكرى أبيها . فقبلت استقالة الوزير وسمحت له بالاعتزال في بومبال ، ولكنها أمرته أن يلزمها وفي ٥ مارس غادر لشبونة في عربة خفيفة مستأجرة آملا أن يفلت من أنظار الناس ، ولكن بعضهم تبينه فحصبوا عربته ولكنه هرب منهم . ولحقت به امرأته عند مدينة أوبرس ، وكان يومها في السابعة والسبعين .

والآن وقد غدا مواطنا عاديا تكاثر عليه الهجوم من كل صوب بدعاوى تطالبه بديون أغفل سدادها ، وأضرار أوقعها بالشاكين ، وممتلكات استولى عليها دون تعويض أصحابها تعويضا كافيا . وحاصروا المحضرون أبوابه في بومبال بسلسلة من الأوامر القضائية . كتب يقول « ما من دبور أو بعوضة في البرتغال إلا طارا إلى هذه البقعة النائية وطنا في أذى . وساعدته الملكة بأن واصلت اجراء الراتب الذي كان يتقاضاه وزيراً عليه مدى الحياة وزادت عليه معاشاً متواضعا . بيد أن اعداء لا حصر لهم الحوا على الملكة في تقديمه للمحاكمة بتهمة الانحراف والحيانة . وقد اتخذت اجراء وسطا بسماعها للقضاة بأن يزوروه ويسائلوه في أمر هذه التهم . فظلوا يحققون معه ساعات كل مرة على مدى ثلاثة أشهر ونصف حتى التمس الدكتاتور العجوز الرحمة . وأجلت الملكة التصرف في تقرير الفحص ، آملة أن يعفيها موت بومبال من هذا الحرج ، وسعت في الوقت نفسه إلى تهدة خصومه بأن أمرت باعادة محاكمة المتهمين الذين أدينوا بالاشتراك في محاولة اغتيال أبيها . وأيدت المحكمة الجديدة الحكم بذبذوق أفيرو وثلاثة من خدمه ، ولكنها برأت ساحة باقي المتهمين أجمعين وأعلنت براءة الطابوريين . وردت كل ألقابهم وممتلكاتهم للأحياء منهم (٣ . ابريل ١٧٨١) ، وفي ١٦ أغسطس أصدرت الملكة مرسوما يدين بومبال « مذنباً بجرائم شائنة » ويضيف قراراً بتركه آمناً في منفاه محتفظاً بثروته مادام قد التمس الصفح .

وكان بومبال يمضى حثيثا إلى مرض الموت ، فقد غشى جسده كله تقريباً قروح صديدية يبدو أن سببها الجذام^(٣٥١) . ومنعه الألم من النوم أكثر من ساعتين في اليوم ، وأضعفته الدوسنتاريا ، وأقنعه أطباؤه بشرب حساء مصنوع من جلد الثعابين ، وكأنما أرادوا أن يزيدوه عذابا على عذاب . وتمنى الموت ، وتناول الأسرار المقدسة ، وانتهت آلامه في ٨ مايو ١٧٨٢ وبعد خمسة وأربعين عاما ، وقفت بقبوره جماعة من اليسوعيين كانت تجتاز المدينة ، وتلت الجماعة ، بشعو الانتصار والرافة ، صلاة جنائزية تطلب الراحة لنفسه .



الفصل الحادى عشر

اسبانيا و حركة التنوير

١٧٠٠ - ٨٨

١ - البيئة

أوصى شارل الثانى ، آخر الهابسبورجيين الأسبان ، عند وفاته عام ١٧٠٠ ، بـأسبانيا وكل امبراطوريتها العالمية لفرنسا البوربونية - العدو القديم لآل هابسبورج ، وقد قاتل حفيد لويس الرابع عشر ، الذى لقب بفليب الخامس ملك أسبانيا ، ببسالة خلال حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠٣-١٢) للاحتفاظ بوحدة تلك الامبراطورية كاملة ، وامتشقت أوروبا كلها تقريباً الحسام للحيلولة دون هذا التوسع الخطر فى قوة البوربون . وأخيراً أكرهت أسبانيا على النزول عن جبل طارق ومينورقة لانجلترا ، وصقلية لسافوى ، ونابلى وسردينيا وبلجيكا للنمسا .

ثم إن فقد أسبانيا لقوتها البحرية لم يترك لها سوى قبضة ضعيفة على المستعمرات التى كانت تغذى تجارتها وثروتها . فقمح أمريكا الأسبانية مثلاً كان يعطيها غلة بلغت من خمسة إلى عشرين ضعفاً فى الفدان لقلة الأرض الأسبانية . وجادت تلك الأراضى المشمسة بالزئبق والنحاس والزنك والزرنيخ والأصباغ واللحوم والجلود والمطاط والقرمز والسكر والكافور والبن والتبغ والشاي والكينين وكثير من العقاقير الأخرى . وفى ١٧٨٨ صدرت أسبانيا لمستعمراتها الأمريكية بضائع قيمتها ١٥٨,٠٠٠,٠٠٠ ريال ، واستوردت منها بضائع قيمتها ٨٠٤,٠٠٠,٠٠٠ ريال ولكن هذا « التحلل فى الميزان التجارى الذى لم يكن فى مصلحة أسبانيا محام سبل متدفق من الفضة والذهب الأمريكيين . وأرسلت الفلبين شحنات سفن من الفلفل والقطن والنيلة وقصب السكر . وقد بلغ سكان الفلبين فى تقرير الكسندر فون هوبولت

في ختام القرن الثاني عشر ١,٩٠٠,٠٠٠ ، وسكان أمريكا الأسبانية ١٦,٩٠٢,٠٠٠ ، أما أسبانيا نفسها عام ١٧٩٧ فقد بلغ سكانها ١٠,٥٤١,٠٠٠^(١) . وأنه لفضل يعزى لحكم البوربون أن هذا الرقم الأخير يعنى تضاعف السكان الذين لم يزيدوا على ٥,٧٠٠,٠٠٠ عام ١٧٠٠ .

لم تسخ الجغرافيا على أسبانيا إلا بميزة التجارة البحرية . كانت الأرض في الشمال خصبة تغذرها الأمطار والثلوج الذائبة من جبال البرانس ، وكانت قنوات الري (وأكثرها خلفه المغاربة للغالبين) قد استصلحت الأراضي الجذباء في بلنسية و مرسية والأندلس ، ولكن باقى أراضي أسبانيا كان جبليا أو قاحلا إلى درجة مشبطة للهم . ولم يتح لهبات الطبيعة أن تنمو وتتطور بفضل الإقدام الاقتصادي ، فذهب أكثر الأسبان حباً للمغامرة إلى المستعمرات ، وفضلت أسبانيا أن تشتري المنتجات الصناعية من الخارج بذهب مستعمراتها . وماتغله مناجم الفضة أو النحاس أو الحديد أو الرصاص في أسبانيا ذاتها . وتخلقت صناعاتها التي كانت لا تزال في المرحلة النقابية أو البيئية تخلفاً شديداً عن صناعات أقطار الشمال النشيطة ، وكان الكثير من مناجمها الغنية تشغله الإدارة الأجنبية لفائدة المستثمرين الألمان أو الإنجليز . واحتكرت «المستأ» إنتاج الصوف ، وهى اتحاد من ملاك قطعان الغنم ميزته الحكومة ، ورسخت التقاليد قدمه ، وسيطرت عليه فئة قليلة من النبلاء والأديرة ، وخنقت المنافسة ، وتخلقت أسباب التحسين . وتعفت برولتاريا ضئيلة في المدن ، تشتغل خدماً لكبار القوم أو عمال مياومة في النقابات الحرفية ، وكانت منازل الأثرياء تزدان ببعض العبيد الزنوج أو المغاربة . وعاشت طبقة وسطى صغيرة معتمدة على الحكومة أو الأشراف أو الكنيسة .

وكان ٥١,٥٪ من الأرض الزراعية تملكه الأسر الشريفة في مساحات شاسعة و ١٦,٥٪ تملكه الكنيسة ، و ٣٢٪ تملكه الكومونات (المسدن) أو الفلاحون . وتأخر نمو مليكة الفلاحين للأرض بفعل قانون وقف قديم يشترط وقف الأرض كاملة على الإبن الأكبر ويمنع رهن أى جزء منها أو بيعه . وكان ثلاثة أرباع الأرض خلال معظم هذا القرن فيما عدا إقليم

الماسك يفلحه مستأجرون يؤدون ضريبة على صورة إيجار ، أو رسوم ، أو خدمات ، أو عينا للملاك من الأشراف أو رجال الدين الذين ندر أن رأوهم ولما كانت الإيجارات تبغى حسب إنتاجية المزرعة ، فإن المستأجرين افتقدوا الحافز على الابتكار أو الاجتهاد^(٢) . ودافع الملاك عن هذا النظام بالزعم بأن الهبوط المطرد في قيمة العملة يكرههم على رفع الإيجارات لتتمشى مع الأسعار والتكاليف المتصاعدة . ثم أن ضريبة مبيعات فرضت على ضروريات الحياة كالحم والنبيد وزيت الزيتون والشموع والصابون كانت أثقل وطأة على الفقراء (الذين أنفقوا معظم دخلهم على الضروريات) وأخف وقعا على الأغنياء . وترتب على هذه الإجراءات ، وعلى الامتيازات الوراثية ، وعلى الفوارق الطبيعية في القدرة البشرية ، ألا تركزت الثروة في القمة ، وراى على القاع فقر كثيب اتصل جيلا بعد جيل ، تخففه وتسرى به التعزيات فوق الطبيعية .

وكانت طبقة النبلاء منقسمة إلى درجات من الشرف انقساما يملؤه التحاسد والتنابد . ففي القمة (في ١٧٨٧) ١١٩ من كبار النبلاء (Grandes de Espana) . وقد نحزر مبلغ ثرائهم من تقرير مبالغ فيه على الأرجح كتبه الرحالة البريطاني المعاصر جوزف تاونسند وذكر فيه أن ثلاثة من كبار النبلاء . وهم دوق أوزونا ، ودوق ألبا ، ودوق مدينا سلى يملكون إقليم الأندلس بجملته^(٣) . وكان دخل دوق مدينا من مصايد أسماك وحدها مليون ريال في العام ، ودخل دوق أوزونا السنوى ٨,٤٠٠,٠٠٠ ريال . ودخل كونت أراندا قرابة ١,٦٠٠,٠٠٠ ريال في السنة^(٤) . ويلى كبار النبلاء ٥٣٥ من أصحاب الألقاب titulos — وهم رجال منحهم الملك القابا وراثية بشرط أداء نصف دخلهم للناج . ويلى هؤلاء الفرسان caballeros الذين يعينهم الملك في عضوية مجزية في إحدى طبقات أسبانيا الحربية الأربع : وهى سنتياجو ، والقنطرة ، وكالاترافا ومونتيزا . أما أدنى النبلاء مرتبة فكانوا الـ ٤٠٠,٠٠٠ هيدلج hidalgo الذين يملكون مساحات متواضعة من الأرض ، والذين أعفوا من الخدمة العسكرية ومن

السجن للمدين ، وكان لهم الحق في أن يلبسوا شعار النبالة وأن يخاطبوا بلقب « للدون » . وكان بعضهم فقراء ، وبعضهم أنضم إلى المتسولين في الشوارع . وكان معظم النبلاء يعيشون في المدن ، ويعينون موظفي الإقليم .

أما الكنيسة الأسبانية فقد أدعت الحق في نصيب مريح من جملة الناتج القومي بوصفها الحارس الألهي للوضع الراهن . وقد قدر مصدر أسباني موثوق أن دخلها السنوي بعد الضرائب يبلغ ١,١٠١,٧٥٣,٠٠٠ ريال ، ودخل الدولة يبلغ ١,٣٧١,٠٠٠,٠٠٠ ريال^(٥) . وكان ثلث إيراداتها يأتيها من الأرض ، ومبالغ طائلة تجمعها من العشور وبواكير الثمار ، ومبالغ صغيرة من مراسيم العباد ، والزيجات ، والجناز ، والقدايس على أرواح الموتى ، والحلل الديرية تباع للأتقياء الذين ظنوا أنهم أن ماتوا وعليهم هذه الأرواب فقد يتسللون إلى الجحنة دون مساءلة . وأتى الرهبان المستجدون بمزيد من المال بلغ ٥٣,٠٠٠,٠٠٠ ريال . على أن أوساط القساوسة كانوا بالطبع فقراء لكثرة عددهم من جهة . فقد كان في أسبانيا ٩١,٢٥٨ من رجال الكهنوت ، منهم ١٦,٤٨١ كانوا قسا « و ٢,٩٤٣ رهبانا يسوعيين^(٦) . وفي ١٧٩٧ كان ستون ألف راهب وثلاثون ألف راهبة يعيشون في ثلاثة آلاف دير . وكان رئيس أساقفة أشبيلية وموظفوه البالغون ٢٣٥ مساعدا يتمتعون بدخل سنوي مقداره ستة ملايين ريال ، أما رئيس أساقفة طليطلة — وكان له ستمائة مساعد — فبلغ دخله تسعة ملايين ريال . وهنا ، كما في إيطاليا والنمسا ، لم تثر ثروة رجال الدين أي احتجاج من الشعب ، فالكاتدرائية من خلقهم ، وقد أحبوا أن يروها في زينة بهية .

وقد ضرب تدينهم المثل والقدوة للعالم المسيحي . فلم يلق اللاهوت الكاثوليكي في بقعة أخرى في القرن الثاني عشر مثل هذا الإيمان الشامل به ، ولا شهدت الطقوس الكاثوليكية من هذا الاحترام الشديد . ونافت الممارسات الدينية السعي وراء العيش ، ولعلها فاقت السعي وراء الجنس ، باعتبارها جزءا من صميم الحياة . وكان أفراد الشعب بما فيهم البغايا ، يرسمون علامة الصليب مراراً وتكراراً كل يوم . وفاقت عبادة العذراء عبادة المسيح

بكثير ، وانتشرت صورها وتمثيلها في كل مكان ، وكان النساء يخطن الأرواب لتمثيلها في شغف ، ويتوجن رأسها بالأزهار النضرة ، و أسبانيا أكثر من غيرها أرتفع صوت الشعب مطالبا بجعل ، « حملها غير الدنس » — أى خلوها من لوثة الخطيئة الأصلية — جزءا من العقيدة المحددة المشتركة. وكان الرجال يساوون النساء تمسكا بإهداب الدين . فكثير من الرجال ، كالنساء ، كانوا يختلفون إلى القديس يومية . وكان الرجال من الطبقات الدنيا يجلدون أنفسهم في بعض المواكب الدينية (حتى حرم هذا الجلد في ١٧٧٧) بحبال فيها عقد تنهى بكرات من الشمع تحوى زجاجا محطما ، وزعموا أنهم يفعلون هذا برهانا على حبهم لله أو مريم أو امرأة ما ، ورأى بعضهم أن هذا القصد مفيد للصحة^(٧) وأنه يهذى من شبق إيروس .

وكانت المواكب الدينية كثيرة ، مثيرة ، غنية بالألوان ، وقد شكا ظريف من أنه لم يستطع أن يخطو في مدريد خطوة دون أن يصادف هذا المشهد المهيب ، وكان في الامتناع عن الركوع إذا مر الموكب مجازفة بالاعتقال أو الاعتداء . فحين قام أهل سرقسطة بثورة عام ١٧٦٦ وراحوا يهبون ويسلبون ظهر موكب ديني على رأسه أسقف يحمل بين يديه القربان المقدس ، فكشف العصاة رؤوسهم وجثوا في الشوارع ، فلما عبر الموكب استأنفوا سلب المدينة^(٨) . وكانت كل مصالح الحكومة تشارك في موكب « عيد القربان » العظيم ، يتقدمهم الملك أحيانا . وكانت مدن أسبانيا تجلجل بالسواد طوال أسبوع الآلام ، والملاهي والمقاهي تغلق ، والكنائس تغص بالعابدين ، والمذابح الأضافية تقام في الميادين العامة إستجابة لتدفق التقوى والورع . ففي أسبانيا كان المسيح ملكا ، ومريم ملكة ، والأحاساس بالحضرة الألهية في كل لحظة من لحظات اليقظة ، جزءا من صميم الحياة .

وزكت طائفتان دينيتان أكثر من غيرهما في أسبانيا . فسيطر اليسوعيون على التعليم بفضل علمهم ولباقتهم في الحديث وأصبحوا آباء الاعتراف للأسرة المالكة . أما الدومنيكان فسيطروا على ديوان التفتيش ، ومع أن هذه المؤسسة كانت قد ودعت عصرها الذهبي منذ أمد بعيد ، فقد بقي لها

من القوة ما يكفى لأرهاب الشعب ونحدى الدولة . فلما ظهرت فلسوف لليهودية بسبب تراخي البوربون قطع ديوان التفتيش دابرهم بإحراقهم علنا ، وعلى مدى سبع سنوات (١٧٢٠ - ٢٧) أدان الديوان ٨٦٨ شخصا ، ٨٢٠ منهم بأنهم يبطنون اليهودية ، وأحرق ٧٥ ، وزح غيرهم في سفن تشغيل العبيد أو أكتفى بجادهم^(٩) . وفي ١٧٢٢ أظهر فليب الخامس تبنية لأساليب الحياة الأسبانية إذ ترأس مهرجانا فخما لإحراق المهرطقين ، أحرق فيه تسعة منهم احتفالا بمقدم أميرة فرنسية إلى مدريد^(١٠) . أما خلفه فرديناند السادس فقد أبدى روحا أكثر اعتدالا ، ففي عهده (١٧٤٦ - ٥٩) أحرق عشرة « فقط » أحياء ، وكلهم من اليهود « المرتدين »^(١١) .

ومارس ديوان التفتيش رقابة خانقة على كل ضروب النشر . وقد قدر راهب دومنيكى أن المطبوع في أسبانيا خلال القرن الثاني عشر كان أقل من المطبوع في القرن السادس عشر^(١٢) . وكان أكثر الكتب دينيا ، واحبها الشعب بوصفها هذا . وكانت الطبقات الدنيا أمية ، ولم تشعر بحاجة للقراءة أو الكتابة . وكانت المدارس في قبضة رجال الدين ، ولكن ألفا من الأبرشيات كانت خلوا من المدارس . أما الجامعات الأسبانية التي كانت يوما ما جامعات عظيمة فقد تخلفت تخلفا شديدا عن نظيراتها في إيطاليا أو فرنسا أو إنجلترا أو ألمانيا في كل ناحية إلا اللاهوت التقليدى . وكانت مدارس الطب فقيرة ، رديئة الإعداد بالأساتذة ، ناقصة الأجهزة ، وأعتمد العلاج على الحجامة ، وأعطاء المسهلات ، والاستعانة ببركات القديسين ، والصلاة . وكان الأطباء الأسبان خطرا على حياة الناس . وكان العلم علم العصر الوسيط ، والتاريخ أساطير ، وزكت الخرافة وكثرت النذر والمعجزات . وظل الإيمان بالسحر حيا إلى نهاية القرن ، وظهر بين الأهوال التي صورها الرسام جويا .

تلك كانت أسبانيا التي قدم البوربون من فرنسا ليحكموها .

٢ فليپ الخامس ١٧٠٠ - ٤٦

كان فليپ الخامس (Felipe Quinto) رجلا طيبا في حدود فلسفة حياته التي خشيها تعليمه . كان ابنا أصغر للدوفان ، فدرّب على التواضع ، والتقوى ، والطاعة ، فلم يتغلب قط على هذه الفضائل إلى حد يكفى للتصدي لنصف قرن من التحديات في الحكم والحرب . وأفضت به تقواه إلى أن يتقبل في أسبانيا ظلامية دينية كانت تحتضر في فرنسا ، وجعلته سهولة إنقياده مطواعا لوزرائه وزوجاته .

وكانت ماريا لويزا جابرييلا ، ابنة فكتور أماديوس الثاني ملك سافوى ، لا تعدو الثالثة عشرة يوم تزوجت فليپ (١٧٠١) ، ولكنها كانت رغم حداثة حاذقه لمكر النساء وكيدهن ، وإستطاعت بحبالها وحيويتها وبغضباتها ودموعها ، أن تخضع الملك فيستسلم بعد أرهاق ، بينما تدير هي وكبيرة وصيفاتها سياسة وطنهما الجديد . وكانت هذه الوصيفة ... مارى آن دلا تريموال ، أميرة أورسان ، والأرملة الفرنسية لنبيلى أسبانى كبير ، قد أعانت الملكة الصبية على الزواج والقبض على السلطة . ومكّنها طموحها المزوج باللباقة من أن تصبح قوة وراء العرش خلال عشرة أعوام . وما كان في أستطاعتها أن تعتمد على الجبال لأنها كانت في التاسعة والخمسين في ١٧٠١ ، ولكنها إمدت الملكة بما تفتقر إليه من معرفة ودهاء ، وبعد عام ١٧٠٥ كانت تقرر السياسة . وفي ١٧١٤ ماتت ماريا لويزا في السادسة والعشرين ، وتردى فليپ الذى تعلم أن يحبها حباً صادقا في أكتئاب مرضى . ورأت مدام ديزورسان أن تنقذ سلطانها بترتيب زواجه من إيزابيلا (الزاييث) فارتيزى ، ابنة أودواردو الثانى دوق بارما وبياسنزا . وذهبت للقاء الملكة الجديدة عند الحدود الأسبانية ، ولكن إيزابيلا أمرتها في إقتضاب أن ترحل عن أسبانيا ، فاعتزلت في روما وماتت بعد ثمانى سنوات مغمورة منسية رغم ثرائها .

لم تعترف إيزابيلا بأن النهضة الأوروبية قد ولت ، فقد وهبت كل قوة

الإرادة ، وشدة الذكاء ، وحدة الطبع ، واحتقار الوسائس الذى تميزت به النساء كما تميز الرجال الذين هيمنوا على إيطاليا القرن السادس عشر . وقد وجدت فى فليب رجلا عاجزا عن الجسم ؛ عاجزا عن النوم منفردا ، ومن ثم أصبح فراشها عرشها الذى تحكم منه أمة ، وتدير جيوشا ، وتظفر بامارات إيطالية . ولم تكن قد عرفت أى شىء تقريبا عن أسبانيا . ولم تألف قط الخلق الأسباني ولكنها درست ذلك الخلق ، ونجحت فى التعرف على حاجات البلد ؛ وادهش الملك أن يجدها لا تقل عن وزرائه إطلاعا وسعة حيلة .

وكان فليب فى سنوات حكمه الأولى قد استخدم جان أورى وغيره من المساعدين الفرنسيين لإعادة تنظيم الحكومة على الأسس التى وضعها لويس الرابع عشر : إدارة ومالية ممركتان مراقبتان ، مع بيروقراطية مدربه ونظار إقليميين ؛ وكلهم خاضعون لسلطة المجلس الملكى التشريعية والقضائية والتنفيذية ؛ وأسمه هنا « مجلس تشتاله » Consejo de Castilla ؛ فقل الفساد ؛ وحد من الاسراف — إلا فى عمليات البناء الخاصة بالملك . ثم خلفه هؤلاء الوزراء الفرنسيين فى ١٧١٤ إيطالى كفاء طموح هو الأباتى جوليو البيرونى ، الذى جعل نشاطه الأسبانيين يرتعدون . وكان أبنا لبستانى فى بياتشيزا ، وصل إلى أسبانيا بوصفه سكرتيرا لدوق فندوم . وكان أول من اقترح إيزابيلا فارنيزى زوجة ثانية لفليب . فيسرب وصوله إلى السلطة سرفانا بصنيعة . وقد وفقا معا فى اقضاء الملك عن شئون الدولة . وعن أى مشورة غير مشورتها . وخططا معا لبناء قوات أسبانيا المسلحة واستخدامها لطرده النمساويين من إيطاليا واستعادة النفوذ الأسباني فى نابلى وميلان ، وإقامة عروش للأدواق يزينا يوما ما أبناء إيزابيلا البعيدة النظر .

وطلب البيرونى خمس سنين للاستعداد ، فأحل فى المناصب الرئيسية رجالا أكفاء من الطبقة الوسطى محل الكسالى من حملة الألقاب ، وفرض الضرائب على الاكليروس وسجن القساوسة المتمردين (١٢) ، ونحرد السفن البالية وبني خيرا منها ، وأقام القلاع والترسانات على طول السواحل

والحدود ، وأعان الصناعة بالمال ، وشق الطرق ، وزاد من سرعة المواصلات وألغى ضرائب المبيعات ومكس المرور . وقد أُنذر السفير البريطاني في مدريد حكومته بأن أسبانيا لن تنقضي عليها بضع سنين أخر من أمثال هذه الخطى حتى تغدو خطرا على غيرها من دول أوروبا^(١٤) . ورغبة في تهدئة هذه المخاوف تظاهر البيروني بأنه يجند القوات ليعين بها البندقية والبابوية على الترك . والواقع أنه أرسل ست سفن كبيرة إلى كلمنت الحادى عشر ، الذى كافأه بقبعة الكردينالة الحمراء (١٧١٧) . كتب فولتير « أن الملكية الأسبانية قد استأنفت حياة جديدة تحت حكم الكردينال البيروني^(١٥) » .

ومنح كل شيء إلا الوقت . كان يرجو أن يكسب رضاء الفرنسيين والانجليز عن الأهداف الأسبانية في ايطاليا ، وعرض تنازلات قيمة مقابل هذا الرضا ، ولكن الملك المهمل أفسد هذه المناورات بكشفه عن رغبته في الحلول محل فليب أورايان حاكما لفرنسا . وانقلب هذا على فليب ، وانضم إلى انجلترا والاقليم المتحدة في ميثاق للحفاظ على الترتيبات الاقليمية التى حددتها معاهدة أوترخت . وانتهكت النمسا تلك المعاهدة باكراهها سافوى على اعطائها صقلية مقابل سردانيا . واحتج البيروني بأن هذا يضع عبر البحر المتوسط دولة ما زال رئيسها يطالب بتاج أسبانيا . ولعن تطور الأحداث بهذه العجالة على غير ما ينبغي ثم أذعن لدخول حرب قبل الأوان . واستولى أسطوله الوليد على بلرمو (١٧١٨) ، وسرعان ما أخضع جيشه صقلية كلها لسلطة أسبانيا وهنا انضمت النمسا إلى انجلترا وفرنسا وهولنده في حلف رباعى ضد أسبانيا . وفي ١١ أغسطس ١٧١٨ دمر أسطول بريطاني بقيادة الأميرال بنج الأسطول الأسباني نجاه ساحل صقلية ، وحبس خيرة جنود أسبانيا في تلك الجزيرة بينما غزت الجيوش الفرنسية أسبانيا . وطلب فليب وايزابيلا الصاح ، فأجيب الطلب شريطة أن ينفي البيروني . نفر إلى جنوه (١٧١٩) ، وشق طريقه متخفيا إلى ررما عبر لومبارديا التى يملكها النمساويون ، وشارك في مجمع

الكراولة الذى انتخب البابا انوسنت الثالث عشر ، ومات عام ١٧٥٢ وقد بلغ الثامنة والثمانين . وفى ١٧ فبراير ١٧٢٠ وقع مبعوث أسباني بلندن معاهدة نزل فيها فليب عن كل حق يدعيه فى عرش فرنسا ، ونزلت أسبانيا عن ضقلية للنمسا ، ووعدت انجلترا برده جبل طارق إلى أسبانيا ، وتعهدت الحلفاء بأن يكون للنسل ايزابيلا الحق فى وراثة بارما وتوسكانيا .

وفى مجال السياسة الدولية سرعان ما ينقلب الحلفاء أعداء ، ويصبح الخصوم أصدقاء رسمياً . ودعما للسلام مع فرنسا ، كان فليب قد خطب ابنته ماريا أنا فكتوريا التى لم تسلم من عمرها سوى عامين ، للويس الخامس عشر فى ١٧٢١ ، وأرسل بها إلى فرنسا (١٧٢٢) وسط دهشة الجمع . ولكن فى ١٧٢٥ ردتا فرنسا لعل لويس أن يتزوج امرأة تستطيع الاضطلاع فوراً بمهمة انجاب وريث له . ورأت أسبانيا فى هذا الرد اهانة ، فتحالفت مع النمسا ، ووعد الإمبراطور شارل السادس بمساعدة أسبانيا على استعادة جبل طارق ، فلما حاول جيش أسباني الإستيلاء على ذلك المعقل لم يأت العون من النمسا ، وفشلت المحاولة ، ولم تصطالح أسبانيا مع انجلترا وحسب ، بل ردت لها احتكار الازينتو Asiento الذى يبيع لها بيع العبيد للمستعمرات الأسبانية ، ومقابل هذا تعهدت بريطانيا بأن تجلس الدون كارلوس ، ابن ايزابيلا ، على عرش دوقة بارما . وفى ١٧٣١ اتجه كارلوس وستة آلاف أسباني إلى ايطاليا فى حراسة أسطول انجليزى . ونزلت النمسا عن بارما وبياتشنزا لكارلوس رغبة فى الحصول على تأييد بريطانيا وأسبانيا لها فى ارتقاء ماريا تريزا للعرش الإمبراطورى . وفى ١٧٣٤ رفع كارلوس نفسه إلى عرش نابلى . وهكذا اكتمل نصر ايزابيلا .

على أن فليب أصابته نوبة من الأكتئاب أخذت بعد عام ١٧٣٦ تنحدر أحيانا إلى درك الجنون . فقبع فى ركن من حجراته ، ظاناً أن كل الداخلين عليه ينوون قتله ، وعافت نفسه الأكل مخافة أن يدس له السم فيه . وظل

ردحا طويلا يأبى أن يبرح فراشة أو يحلق لحيته . وجربت إيزابيللا عشرات الوسائل لشفائه أو تهدئته ، ولكنها أخفقت كلها إلا واحدة . ففي ١٧٣٧ أقنعت فارنيللى بأساليب الملاطفة والتلق أن يجرى إلى أسبانيا . وذات ليلة ، فى جناح ملاصق لجناح الملك ، رتبت حفلا موسيقيا غنى فيه « الخصى » العظيم لحنين من تأليف هاسى . ونهض فليب من فراشة لينظر خلال باب ويرى أى قوة استطاعت أن تشدو بهذه الأصوات الساحرة . وجاءته إيزابيللا بفارينللى ، فأثنى عليه الملك وعانقه وأمره بأن يطلب ما شاء من مكافأة فتوهب له مهما غلت . وكانت الملكة قد أوصت المغنى بما يجيب ، فلم يطلب إلا أن يسمح الملك بأن تحلق لحيته وأن يرتدى ثيابه ويحضر المجلس الملكى . ووافق الملك ونخفت بخوافه . وبدأ أنه شفى كأنما بمعجزة . ولكن حين أقبل المساء التالى أرسل فى طلب فارنيللى ورجاه أن يغنى هاتين الأغنيتين ذاتهما ثانية ، إذ لم يكن فى الأمكان تهدئته لينام إلا بهذه الطريقة . وهكذا استمرت الحال ليلة إثر ليلة طوال عشر سنين . وكان أجر فارنيللى ٢٠٠,٠٠٠ ريال فى العام ، ولكن لم يسمح له بالغناء إلا فى البلاط . وتقبل هو الشرط شاكرا ، ومع أن نفوذه على الملك كان أقوى من نفوذ أى من وزرائه ؛ فإنه لم يستغلة وأستعمله دائماً للخير ؛ وظل بريثا من روح الرشوة وأكتسب أعجاب الجميع^(١٦) .

وفى ١٧٤٦ أمر ايب أن يقام ١٠٠,٠٠٠ قداس لخلاص نفسه . فإذا لم يكن ثمة حاجة لهذا العدد الكبير ليدخل به الجنة فليوهب الفائض للنفوس المسكينة التى لم يتح لها مثل هذا الاستعداد^(١٧) . فى ذلك العام قضى فليب نحبه .

٣ — فرديناند السادس

١٧٤٦ — ٥٩

ونخلفه على العرش ثانى أبنائه من زوجته الأولى ، فأعطى أسبانيا ثلاثة عشر عاماً من الحكم الشافى من عللها . وعمرت إيزابيللا حتى سنة ١٧٦٦ ،

ولقيت من ابن زوجها معاملة رقيقة مجاملة ، ولكنها فقدت سلطانها على التأثير في الأحداث . وأصبحت زوجة فرديناند ، ماريا بربارة ، تلميذة سكارلاتي ، هي المرأة التي تقف وراء العرش . ومع أنها كانت مفرطة الولع بالطعام والمال ، فإنها كانت روحاً أرق من إيزابيلا ، وبذلت أكثر همها لتشجيع الموسيقى والفن . وواصل فارنيللي غناؤه للحكام الجدد ، ولم يستطع هاريسكورد سكارلاتي أن ينافسه . وعمل الملك والملكة على إنهاء حرب الوراثة النمساوية ، فقبلا معاهدة إكس - لا - شابل (١٧٤٨) ، مع أنها أعطت توسكانيا للنمسا ، وبعد عام أنها اتفقت الأزبنتو الذي عمر ١٣٦ سنة بدفع ١٠٠,٠٠٠ جنيه لشركة بحر الجنوب تعويضاً عن خسارة امتيازاتها في تجارة الرقيق .

كان فرديناند رجلاً حسن النية ، لطيفاً أميناً ، ولكنه ورث جسداً رقيقاً وكان معرضاً لنوبات من الغضب كان ينجل منها نخجلاً مؤلماً . (١٨) وحمله الوعي بعيوبه على ترك الحكم لوزيرين قديرين - دون خوزيه دي كارفانخال وزينون دي سوموديفللا ، مركزاً انسداداً . وحسن انسداداً أساليب الزراعة ، وأعان بالمال التعدين والصناعة ، وشق الطرق والقنوات ، وألغى المكوس الداخلية ، وأعاد بناء البحرية واستبدل بضريبة البيوع البغيضة ضريبة على الدخل والممتلكات ، ونظم المالية من جديد ، وحطم عزلة أسبانيا الفكرية بإيفاده البعث من الطلبة إلى الخارج . ويرجع بعض الفضل إلى دبلوماسيته انسداداً في إبرام اتفاق مع البابوية (١٧٥٣) احتفظ للملك بحق فرض الضرائب على الأملاك الكنسية وتعيين الأساقفة للكراسي الأسبانية . وقد حد من سلطان الكنيسة ، وأخضع ديوان التفتيش ، وألغيت الاحتفالات العلنية بإحراق المهرطقين .

واختلف الوزيران في سياستهما الخارجية . فأما كارفانخال فقد أثر فيه لطف السفير البريطاني المخلص ، السير بنجامن كين ، فاستن سياسة مؤيدة للبريطانيين مسالمة لهم ، وأما انسداداً فقد حابي فرنسا ، وتحرك نحو محاربة إنجلترا . وطال صبر فرديناند عليه لأنه قدر نشاطه وكفايته ، ولكنه أقاله

في النهاية . وبينما كانت كل أوروبا تقريباً تتردى في سنوات سبع من الحرب ، منح فرديناند شعبه فترة من السلام والرخاء أطول مما حظيت به أسبانيا منذ أيام فليپ الثاني .

وفي ١٧٥٨ ماتت ماريا بربارة ، وكان الملك يحبها حباً يوحى بأن السياسة لم يكن لها دخل في زواجهما ، ومن ثم اعترته حالة من الاكتئاب وتشعث الشعر وإطلاق اللحية ذكرت الناس باكتئاب أبيه من قبل ، وأصابته هو الآخر لوثة في آخر سنة من عمره . وفي أخريات أيامه كان يأبى الذهاب إلى فراشه مخافة ألا ينهض منه أبداً . ومات في كرسيه في ١٠ أغسطس ١٧٥٩ وبكى الجميع الملكين الحبيين لأن حكمهما كان بركة نادر أن حظيت بها أسبانيا .

٤ — التنوير يدخل أسبانيا

قصة التنوير في أسبانيا مثال لقوة عرضة للمقاومة تصطدم بحجم ثابت لا يقبل الحركة . فالحلق الأسباني ، ووفاءه لإيمانه الوثني ووفاء كتبه بالدم ، كان يصد كل رياح الهرطقة أو الشك عاجلاً أو آجلاً ، ويرفض كل دخيل من الزى أو العادات أو الاقتصاد . ولم يجذ الفكر الدخيل غير قوة اقتصادية واحدة — هي التجار الأسبان الذين كانوا يتعاملون مع الأجانب كل يوم ، ويعرفون أي قوة وثراء حققهما ونظراؤهم في إنجلترا وفرنسا . وكانوا راغبين في استيراد الأفكار إذا استطاعت أن تضعف من السلطة التي ورثها النبلاء والأكابر على أرض أسبانيا وحياتها وعقلها . وقد علموا أن الدين فقد سلطانه في إنجلترا ، وسمع بعضهم بنيوتن ولوك ، لا بسل أن جبون قدر له أن يجد بعض من يقرؤنه في أسبانيا (١٩) .

وبالطبع هبت أقوى رياح التنوير من فرنسا . وكان النبلاء الفرنسيون الذين تبعوا فليپ الخامس إلى مدريد قد مستهم الزندقة التي أخفت رأسها أيام لويس الرابع عشر ، ولكنها انتشرت أيام الوصاية . وفي ١٧١٤ أسس

بعض الدارسين الأكاديمية الملكية الأسبانية محاكاة للأكاديمية الفرنسية ؛
ونسرلغان ما بدأت وضع معجم لغوى ؛ وفي ١٧٣٧ اضطلعت صحيفة
« دياريو دى لوس لتراتوس دى أسبانيا » بمنافسة « الجورنال دى سبافان »
الفرنسية . وكان الدوق ألبا الذى أشرف على الأكاديمية الملكية عشرين عاماً
(١٧٥٦ - ٧٦) شديد الإعجاب بمجان - جاك روسو ^(٢٠) . وفي ١٧٧٣ -
أكتب بثمانية جنيهات ذهبية (لوى دور) لتمثال فولتير الذى كان يصنعه
بيجال . كتب إلى دالامبير يقول « أننى وقد قضى على بثثقيف عقلى سراً
أعتمد هذه الفرصة للشهادة علانية بعرفانى وإعجابى بالرجل العظيم الذى كان
أول من دلى على الطريق ^(٢١) » .

وحظى كتاب روسو « إميل » بإعلان مجانى حين أحرق في أحتفال
رسمى بكنيسة من كنائس مدريد (١٧٦٥) ^(٢٢) . وعاد شباب من الأسبان
الذين عرفوا بباريس كالمركيز دى مورا الذى عشق جولى دلسبيناس إلى
أسبانيا يحملون شيئاً من آثار الشكوكية التى التقوا بها فى الصالونات . وهربت
إلى أسبانيا نسخ من أعمال فولتير أوديلرو أو رينال ؛ فأيقظت بعض العقول
المحددة . وكتب صحفى أسبانى فى ١٧٦٣ يقول « كان من أثر الكتب المؤذية
الكثيرة التى راجت بين الناس ؛ ككتب فولتير وروسو وهلفتيوس ؛ أن كثر
فتور الإيمان فى هذا البلد ^(٢٣) » . وكان بابلو أولافيدى يجهر بالأفكار
الفولتيرية فى صالونه بمدير (حوالى ١٧٦٦) ^(٢٤) . وحوث رفوف «الجمعية
الاقتصادية لأصدقاء السلام» أعمالاً لفولتير وروسو وبيل ودالامبير ومونتسكيو
وهوبز ولوك وهيوم ^(٢٥) . وذكر الأبيه كليمان الذى جاب أرجاء أسبانيا
عام ١٧٦٨ أنتشار اللامبالاة بالدين أنتشاراً واسعاً ، لا بل الكفر بالعقيدة ،
المستتر وراء مراعاة الطقوس الكاثوليكية فى الظاهر ^(٢٦) . وقد أبلغ ديوان
التفتيش فى ١٧٧٨ أن كبار موظفى البلاط يقرءون لجماعة الفلاسفة
الفرنسيين ^(٢٧) .

وكان من الأهمية بمكان للتاريخ الأسبانى أن يصبح بدرو أباركا ،
كونت أراندا ، خلال رحلة قام بها فى فرنسا ، صديقاً لفولتير . وقد نحكم

على علاقاته من نشاطه اللاحق سفيراً لأسبانيا لدى فرساي ، وقد اختلط في غير تجرح بالموسوعيين في باريس وقامت بينه وبين دالامبير صداقة ملؤها الإعجاب به ، وعبر فرنسا ليزور فولتير في فرنیه . وكان يصرح بولائه للكنيسة في أسبانيا ، ولكنه هو الذي أقنع شارل الثالث بطرد اليسوعيين ، وبأرشاده انضم شارل إلى صفوف « المستبدين المستنيرين » الذين كان يتطلع إليهم جماعة الفلاسفة باعتبارهم خير معسوان لهم في نشر التعليم والحرية والعقلانية .

٥ - شارل الثالث ١٧٥٩ - ٨٨

١ - الحكومة الجديدة

حين وصل من نابلي كان يناهز الثالثة والأربعين . ورحب به الجميع إلا اليسوعيين^(٢٨) الذين ساءهم بيع أسبانيا لمستوطناتهم في برجواي إلى البرتغال (١٧٥٠) ، وفيما عدا هذا كسب جميع القلوب بإعفاء الناس من الضرائب المتأخرة ، ورد بعض الامتيازات التي فقدتها الأقاليم في ظل سياسة المركزية التي انتهجها فليپ الخامس . وقد جلت موت زوجته ماريّا أماليا بالحزن سنة حكمه الأولى لأسبانيا . ولم يتزوج بعدها قط وإنه لما يشرف آل بوربون الأسبان في القرن الثامن عشر أنهم ضربوا الملوك أوربا المثل في الوفاء لأزواجهم والثبات على حبهم .

وقد رسم دبلوماسي بريطاني صورة بريطانية لشارل الذي كانت له مواجهات مع الانجليز في نابلي .

و للملك مظهر غريب سواء شخصه أو زيه . فهو ضئيل القامة ولون بشرته شبيه يلون المحنة ولم يفصل له سترة طوال هذه السنين الثلاثين ، لذلك يبدو في سترته وكأنها اتركيبية ، وصدريته وسراويل ركوبه من الجلد عادة ، وعلى ساقيه طماق يقيهما من البلل . وهو يخرج للرياضة كل يوم من أيام السنة غير عابئ بمطر أو ريح^(٢٩) .

(م ٨ ٢ قصة الخصاره ج ١٠)

ولكن إيرل برستول - أردف في ١٧٦١ ، « إن للملك الكاثوليكي مواهب جيدة ، وذاكرة مواتية ، وسيطرة غير عادية على نفسه في جميع المناسبات . وقد بات يتشكك في الناس لكثرة ما خدعوه . وهو يفضل دائماً أن ينال موافقة الآخرين على رأيه باللين ، وله من طول الأناة ما يجعله ينصح محدثه المرة بعد المرة دون أن يستعمل سلطته . ومع ذلك فرغم سياء اللطف العظيم البادى عليه استطاع أن ييث الرهبة في قلوب وزرائه وحاشيته . » (٣١)

ولم يكن في تقواه الشخصية ما يندر بأنه سيهاجم اليسوعيين أو يضطجع بالإصلاحات الدينية . كان يخلف إلى المقداس كل يوم . وقد أدهش عدوا إنجليزياً « وفاؤه الأمين العنيد بكل معاهداته ومبادئه وإرتباطاته » (٣١) وكان يخصص جزءاً كبيراً من كل يوم من أيام الأسبوع (عدا الأحد) لشئون الحكم . يستقيظ في السادسة ، ويزور أبنائه ، ويفطر ، ويعكف على العمل من الثامنة إلى الحادية عشرة ، ويجتمع بوزرائه ، ويستقبل كبار القوم ويتناول غداءه مع غيره ، ويخصص عدة ساعات للصيد ، ويتعشى في التاسعة والنصف ، ويطعم كلابه ، ويتلو صلواته ، ثم يمضي إلى فراشه . ولعل الصيد كان وقاء صحيا قصداً به أن يصرف عنه الاكتئاب الموروث في الأسرة .

وبدأ ببعض الأخطاء الخطيرة . ذلك أنه لجهله بأسبانيا التي لم يرها منذ كان في السادسة عشرة اتخذ اثنين من الايطاليين كانا قد أخلصا في خدمته بنابلس مساعدين أثيرين لديه : المركيز دي جريمالدي في السياسة الخارجية ، والمركيز دي سكللاتشي في الشؤون الداخلية .

وقد وصف إيرل برستول سكللاتشي هذا بأنه « غير ذكي . أنه مولع بالعمل ولا يشكو أبداً من كثرتة رغم تنوع إدارات الحكومة التي تركز فيه . . . وأعتقد أنه غير قابل للارتشاء ، ولكنني لا أريد أن أكون مسئولاً بهذا القدر عن زوجته » (٣٢) ولم يحب جرائم مدريد ولا رواثعها الخبيثة ولا ظلمتها ، ومن ثم فقد نظم لها شرطة نشيطة وفرقة لتنظيف شوارعها ، وأثار

العاصمة بخمسة آلاف مصباح . وأباح الاحتكارات لتزويد المدينة بالزيت والخبز وغيرهما من الضروريات . وحدث أن الجفاف رفع الأسعار ، فطالبت الجواهر برأس سكللاتشى . وقد أغضب رجال الدين بلاوائح حدث من امتيازاتهم وسلطتهم . وفقد المئات من المؤيدين حين صادر الأسلحة الخبأة . وأخيرا أثار ثائرة الشعب بمحاولته تغيير زى الشعب . فقد أقنع الملك بأن العباءة أو الكاب الطويل الذى يخفى البدن والقبعة العريضة ذات الحافة المقلوبة التى تخفى كثيرا من الوجه ، يسهل إخفاء السلاح ويعوقان الشرطة عن التعرف على المجرمين . ومن ثم حظرت سلسلة متعاقبة من المراسيم الملكية الكاب والقبعة ، وزود رجال الضبط بالمقصات الكبيرة يقصون بها العباءات المخالفة حتى يصلوا بها إلى الطول القانونى (٣٣) . وكان فى هذا من التحكم فوق ما يطيقه المدرديون الأباة . فثاروا فى أحد الشعانين ، ٢٣ مارس ١٧٦٦ ، واستولوا على مخازن الذخيرة ، وأطلقوا السجناء ، وتغلبوا على الجنود والشرطة ، وهاجموا بيت سكللاتشى ، وحصبوا جريمالدى ، وقتلوا الحرس الولوى الذين يحرسون القصر الملكى ، وجابوا الشوارع يرفعون رءوس هؤلاء الدخلاء الممقوتين على الرماح متوجة بقبعات عريضة الحواف . وظل الرعاع يومين يواصلون التقتيل والنهب . وهنا أذعن شارل ، وألغى المراسيم ، وأعاد سكللاتشى إلى إيطاليا محروسا . وكان فى غضون ذلك قد اكتشف مواهب الكونت أراندا ، وعينه رئيسا لمجلس قشتاله . فجعل أراندا العباءة والصمبريرة Sombrero أى القبعة العريضة الحافة الزى الرسمى للبلاد . وكان فى هذا المعنى الجديد المتضمن مازهد الناس فى ارى القديم ، ومن ثم اتخذ معظم أهل مدريد الزى الفرنسى .

كان أراندا سليل أسرة عريقة غنية فى أراجون . رأيناه يتشرب التنوير فى فرنسا ، كذلك ذهب إلى بروسيا حيث درس التنظيم العسكرى ثم عاد إلى أسبانيا متشوقا إلى العمل على أن يصل وطنه إلى مستوى تلك الدول الشمالية . وأفرط أصحابه الموسوعيون فى الجهر باغتيابهم لتقلده السلطة ، وأحزنه أنهم بذلك زادوا مهمته صعوبة ، (٣٤) وود لو أنهم درسوا

الدبلوماسية من قبل . وقد عرف الدبلوماسية السياسية بأنها فن إعادة تنظيم قوة مختلف السلطات ، ومواردها ، ومصالحها ، وحقوقها ، ومخاوفها وآمالها ، حتى إذا سمحت المناسبة استطعنا أن نهدي من هذه القوى ، أو نفرق بينها ، أو نهزمها أو نتحالف معها ، وذلك رهن بكيفية خدمتها لمصالحنا وزيادتها لأمننا » (٣٥) .

وكان الملك في حالة نفسية مواتية لإصلاحات الكنيسة لتوجسه من أن الاكليروس شجعوا الثورة على سكللاتشى سرأ (٣٦) . وكان قد أذن للمطبعة الحكومية في أن تطبع عام ١٧٦٥ مقالا غفلا من اسم الكاتب عنوانه *Tratado de la regalia de l'amortization*.

تشكك في حق الكنيسة في جمع الثروة العقارية ، وزعم أن الكنيسة ينبغي أن تكون خاضعة للدولة في جميع الأمور الزمنية . وكان المؤلف هو كوندية بدرو رودريجز دى كومبومانيس ، وكان عضواً في مجلس قشتالة . وكان شارل قد أصدر عام ١٧٦١ أمراً يشترط موافقة الملك على نشر الأوامر أو الرسائل البابوية في أسبانيا ، وفي تاريخ لاحق ألغى هذا الأمر . ولكنه عاد فجدده في ١٧٦٨ . وأيد الآن أراندا وكومبومانيس في سلسلة من الإصلاحات الدينية شكلت من جديد وجه أسبانيا الفكرى طوال جيل مثير .

٢ - الإصلاح الدينى الأسبانى

لم يكن في نية المصلحين الأسبان أن يقضوا على الكاثوليكية في أسبانيا—ربما باستثناء أراندا . وكانت الحروب الطويلة التى خاضتها البلاد لطرد العرب (كالكفاح الطويل لتحرير إيرلنده) قد جعلت الكاثوليكية جزءاً من الوطنية وكثفتها إلى درجة إحالتها إلى إيمان قدسته تضحيات الأمة تقديساً لا يتيح التحدى الناجح أو التغيير الجذرى . وكان أمل المصلحين أن يخضعوا الكنيسة لإشراف الدولة ، وأن يحرروا عقل أسبانيا من رهبة محكمة التفتيش . وقد بدأوا بمهاجمة اليسوعيين .

كانت جماعة اليسوعيين قد ولدت بأسبانيا في عقل اغناطيوس لويولا

وتجاربه ، وكان نفر من أعظم قادتها من أسبانيا . وكما حدث في البرتغال ، وفرنسا ، وإيطاليا ، والنمسا اضطلعت الجماعة بالتعليم الثانوى ، وزودت الماوك والملكات بآباء الاعتراف ، وشاركت في تشكيل السياسات الملكية . وقد أثار سلطانها المتسع غيرة الأكليروس الكاثوليكي غير الرهباني ، وأحيانا عداؤه . وكان بعض هؤلاء يؤمنون بأن سلطة المحامع المسكونية تعلو على سلطة البابوات ، أما اليسوعيين فقد دافعوا عن سمو سلطة البابوات على سلطة المحامع والملوك . وشكك رجال الأعمال الأسبان من أن اليسوعيين المشتغلين بتجارة المستعمرات يبيعون بأسعار أقل من التجار المحترفين بفضل ما يتمتعون به من إعفاءات كنسية من الضرائب ، وقرروا أن هذا يقلل من الإيرادات الملكية . وآمن شارل بأن اليسوعيين مازالوا يشجعون مقاومة هنود براجواى لأوامر الحكومة الأسبانية (٣٧) : وروعه أن يطلعه أراندا وكامبومانيس وغيرهما على خطابات أدعوا أنهم وجدوها بين رسائل اليسوعيين ، وقد صرح أحد هذه الخطابات الذين زعموا أن كاتبه هو الأب ريكي قائد الطائفة اليسوعية ، بأن شارل ابن غير شرعى وينجب أن يحل محله أخوه لويز . وقد رفض الكاثوليك وغير المؤمنين على السواء صحة هذه الخطابات (٣٩) ، ولكن شارل ظنها صحيحة وانتهى إلى أن اليسوعيين يأتمرون لحله ، وربما لقتله (٤٠) . ولحظ أن محاولة — زعموا أن اليسوعيين كانوا ضالعين فيها — بذلت لاغتيال يوسف الأول ملك البرتغال (١٧٥٨) ، فصحت نيته على أن يحذو حذو يوسف ويطرده الطائفة من مملكته .

وحذره كامبومانيس من أن خطوة كهذه لن يتاح لها النجاح إلا بالاستعدادات المستورة تتبعها ضربه فجائيه مدبرة ، وإلا استطاع اليسوعيين الذين كانوا يحظون بتبجيل الشعب أن يثيروا ضجه مؤذية في الأمة وممتلكاتها جميعا . وعملا بأقترح أراندا أرسلت رسائل مختومة ممهورة بتوقيع الملك في مطلع عام ١٧٦٧ إلى الموظفين في جميع أرجاء الإمبراطورية مشفوعة بالأمر بعدم فضها إلا في ٣١ مارس في أسبانيا ، وفي ٢ أبريل في المستعمرات ،

وَألا كان الموت عقاب المخالفين . وفي ٣١ مارس أُستيقظ اليسوعيون الأسبان ليُجندوا بيوتهم ومدارسهم يطوقها الجنود ، ويجندوا أنفسهم معتقلين . وأمروا بالرحيل في هدوء ، غير مصطحبين سوى ما يطبقون حملة ، أما سائر ممتلكات اليسوعيين فقد صادرتها الدولة . ومنح كل مبعد معاشا صغيرا يوقف أن عارض أى يسوعى في طرده . ثم أخذوا في عربات تحت الحراسه العسكرية إلى أقرب ميناء وأركبوا السفن إلى إيطاليا . وبعث شارل بكلمة إلى البابا كلمنت الثالث عشر يخبره أنه « ينقلهم إلى الأراضي الكنسية ليظلوا تحت أشرف قد استه الحكيم العاجل وأنى أرجو من قد استكم إلا تعتبروا هذا القرار إلا احتياطا مدنيا لا غنى عنه ، لم أأخذ إلا بعد البحث الناضج والتفكير العميق^(٤١) » .

فلما حاولت أولى السفن التى كانت تحمل ستمائة من اليسوعيين ، أن تنزلهم في تشيفيتافكيا ، رفض الكردينال توريجيانى ، السكرتير البابوى ، السماح لهم بالرسو محتجا بأن إيطاليا لا تستطيع بهذه السرعة المفاجئة أن تعنى بهذا العدد الكبير من اللاجئين^(٤٢) . وظلت السفينة الأسابيع تجوب البحر المتوسط باحثة عن ميناء مضياف بينما يعانى ركابها البائسون من رداءة الجو ومن الجوع والمرض . وأخيرا سمح لهم بالنزول في قورسقه ، وبعد حين أستوعبتهم الولايات البابوية في جماعات سهلة القيادة . ولقى اليسوعيون في غضون هذا النفي المماثل من نابلى ويارما وأمريكا الأسبانية والفلبين . وناشأ كلمنت الثالث عشر شارل الثالث أن يلغى هذه المراسيم التى سيصعق العالم المسيحى كله لا محالة لما فيها من مباغطة وقسوة . فأجاب شارل « أنى لرغبى في أن أعفى العالم من فضيحة كبرى سأظل ما حييت مخبئا في قلبى سر المؤامرة النكراء التى أقتضت هذه الصرامة . ويأبغى لقد استكم أن تصدقوا كلمتى ، فسلامة حياتى تفرض على الصمت العميق^(٤٣) » .

ولم يفصح الملك قط عن الأدله التى أقام عليها مراسيمه . وفي التفاصيل ، التناقض والغموض ما يجعل المرء عاجزا عن الحكم عليها . وقد اعترض

دالامبير على الطريقة التى نفى بها اليسوعيون ، ولم يكن بصدق لهم . ففى ٤ مايو ١٧٦٧ كتب إلى فولتير يقول :

« ما رأيك فى مرسوم شارل الثالث الذى طرد اليسوعيين على هذا النحو المفاجئ ؟ ألا ترى ، رغم إقتناعى بأن لديه مبررات كافية ووجيهة ، بأنه كان ينبغى أن يفصح عنها لا أن يحبسها فى « قلبه الملكى » ؟ إلا ترى أنه كان ينبغى له أن يسمح لليسوعيين بتبرير أنفسهم ، لا سيما لأن الجميع وأثقون أنهم ما كانوا يستطيعون هذا ؟ وألا ترى أيضا أن من الظلم البين لهم أن يتركوا جميعا لموتوا جرعا بينما الواجب على أخ علمانى واحد ، ربما يقطع الكرب الآن فى المطبخ ، أن يقول كلمة بطريقة أو بأخرى فى الدفاع عنهم ؟ . . . إلا يبدو لك أنه كان مستطيعا أن يتصرف بتعقل أكثر فى تنفيذ أمر هو رعم كل شيء أمر معقول^(٤٤) » ؟

أكان طردهم اجراء محببا لدى الشعب ؟ بعد عام من إستكمال هذا الطرد وفى عيد القديس شارل ، طلع الملك على شعبه من شرفة قصره ، فلما سأهم جريا على عادة مألوفه عندهم أى منحة يرغبون فى أن يهبهم صاحبوا « بصوت واحد » أن يسمح لليسوعيين بالعودة ، وأن يلبسوا رداء الأكليروس غير الرهبانى — فأبى شارل ، ونفى رئيس أساقفة طليطلة متهما أياه بأنه المحرض على الإلتماس الذى أشتبه فى أنه يهدف إلى التوفيق^(٤٥) . ولما طاب البابا فى ١٧٦٩ إلى أساقفة أسبانيا رأيهم فى طرد اليسوعيين ، وافق عليه أثنان وأربعون ، وعارضه ستة ، ولم يبد ثمانية رأيا فى الأمر^(٤٦) . وأغلب الظن أن الكهنة من غير الرهبان كانوا مغتطين باعفائهم من منافسة اليسوعيين لهم . ووافق الآخوة الأوغسطينيون فى أسبانيا على الطرد ، ثم أيدوا بعد ذلك مطالبة شارل الثالث بفض جماعة اليسوعيين بجملتها^(٤٧) .

أما ديوان التفتيش فلم يكن فى الأمكان إتخاذ إجراء معجل كهذا معه ، فقد كان أعمق من جمعية اليسوعيين تغلغلا فى رهبة وتقاليد الشعب الذى عزز إلى الديوان الفضل فى صيانة الأخلاق والاحتفاظ بنقاء إيمانهم — بل حتى

تقاء دماهم . وحين ولى شارل العرش كان الديوان يسيطر على عقل أسبانيا برقابة صارمة ساهرة . فأى كتاب تظن به الهرطقة الدينية أو الإنحراف الخلقي يقدم إلى الفاحصين ، فإذا رأوم خطرا بعثوا بتوصياتهم إلى مجلس ديوان التفتيش ، وللمجلس سلطة الأمر بمصادرة الكتاب وعقاب مؤلفه . وكان الديوان يصدر دوريا فهرسا بالكتب المحرمة ، وكان اجراز كتاب منها أو قراءته دون إذن كنسى جريمة لا يغفرها إلا ديوان التفتيش ، وقد يعاقب مرتكبها بالجرم . وكان على القساوسة خصوصا فى الصوم الكبير أن يسألوا جميع المغترفين بلذوبهم أن كانوا يملكون أو يعلمون أن أنسانا يملك كتابا محظورا . وكل مقصر فى الإبلاغ عن أنشاك للفهرس يعتبر مذنبا كمنهكه ، وما كان لأية روابط أسرية أو علاقات ودية أن تعفيه من العقاب (٤٨) .

ولم ينجز وزراء شارل فى هذا المضمار سوى إصلاحات صغيرة . وفى ١٧٦٨ حد من سلطة الديوان فى رقابة المطبوعات باشتراط الحصول على التصديق الملكى على جميع المراسيم المحرمة للكتب قبل تنفيذها . وفى ١٧٧٠ أمر الملك محكمة الديوان بأن تقتصر على الهرطقة والإرتداد دون غيرهما ، وإلا تسجن إنسانا ما لم يثبت ذنبه على نحو قاطع . وفى ١٧٨٤ أمر بأن تعرض عليه اجراءات الديوان الخاصة بكبار النبلاء ، وأعضاء مجلس الوزراء والموظفين الملكيين ، لمراجعتها . ثم عين رئيسا عاما للديوان أبدى موقفنا أكثر تحمرا بأزاء خلافات الفكر (٤٩) .

وكان لهذه الاجراءات المتواضعة بعض الأثر ، لأن الرئيس العام لديوان التفتيش قرر فى حزن أن الخوف من اللوم الكنسى على قراءة الكتب المحرمة يكاد يصبح فى خبر كان (٥٠) ، وكان وكلاء الديوان بعد ١٧٧٠ بوجه عام أقل غلوا ، وعقوباته أرحم من ذى قبل . ومنح التسامح الدينى للبروتستنت فى عهد شارل الثالث ، وللمسلمين فى ١٧٧٩ ، وأن لم يمنح لليهود (٥١) . وفى عهد شارل الثالث احتفل بأحراق المنحرفين أربع مرات ، آخرها عام ١٧٨٠ فى أشبيلية حين أحرقت عجوز أتهمت بالسحر ، وأثار إعدامها

هذا من النقد في كل أرجاء أوروبا^(٥٢) ما مهد الطريق لالغاء ديوان التفتيش الأسباني في ١٨١٣ .

ومع ذلك ظلت حرية الفكر إذا أعرب صاحبها عنها حتى في عهد شارل الثالث تعاقب قانونا بالموت . ففي ١٧٦٨ أتهم بابلو أولافيدى أمام ديوان التفتيش بغيازته صورا بليثه في بيته بمدريد ، وربما كانت نسخا من عرايا بوشيه ، لأن أولافيدى كان قد جاب فرنسا حتى فرنیه . ثم رمى بتهمة أخطر في ١٧٧٤ ، هي أنه لم يسمح بأقامة أديرة في اقصى انخوذجيه التي أنشأها في سيرا مورينا ، وأنه حظر على الكهنة تلاوة القداس في غير يوم الأحد أو طلب الصدقات . وأحاط ديوان التفتيش الملك بأن هذه الجرائم وغيرها قد أثبتت بشهادة ثمانين شاهدا . وفي ١٧٧٨ استدعى أولافيدى لمحاكمته وأتهم بتأييده نظرية كوبرنيك الفلكية وتراسله مع فولتير وروسو . فرجع الرجل عن أخطائه وتصالح مع الكنسية ، وصودرت كل أملاكه ، وحكم عليه بالحبس في دير ثمانية أعوام . وفي ١٧٨٠ تداعت صحته . وسمح له بالاستشفاء بمياه منتجع معدنى في قنلونييه ، ومنها فر إلى فرنسا . حيث أستقبله أصحابه الفلاسفة في باريس استقبالا الأبطال . ولكنه لم يقض في منفاه بضع سنوات حتى أستبد به الحنين إلى مغانيه الأسبانية . فألف كتابا مشربا بروح التقوى عنوانه « الإنجيل المنتصر أو الفيلسوف المهدي » وعليه أذن ديوان التفتيش بعودته^(٥٣) .

ونلاحظ أن محاكمة أولافيدى جرت بعد سقوط أراندا من رئاسة مجلس قشالة وفي أخريات حكم أراندا أنشأ مدارس جديدة يقوم بالتدريس فيها أكليروس غير رهباني لملء الفراغ الذي خلفه اليسوعيون ، وأصلح عمله بإحلال نقود من نوع جيد وتصميم أرفى محل العملات المملوكة (١٧٧٠) . على أن إحساسه بأستنارته الفائقة جعله يمضي الزمن نزقا متغطرسا وقحا . فبعد أن جعل سلطة الملك مطلقة سعى إلى تقييدها بزيادة نفوذ الوزراء . وفقد القدرة على الرؤية المتناسية وتقدير الأمور في أوضاعها الصحيحة ، وحلم بإخراج أسبانيا بعد جيل واحد من كتلتها المظلمة إلى تيار الفلسفة

الفرنسية . وأعرب في جرأة مغالية عن أفكاره المهرطقة ، حتى لكاهن اعترافه . ومع أن الكثير من رجال الأكليروس غير الرهبان أيدوا بعض إصلاحاته الكنسية لما فيها من نفع للكنسية^(٥٤) ، فإنه أخاف عددا أكبر بالكشف عن أمله في حل ديوان التفتيش جملة^(٥٥) . وأشد كره الناس له حتى أنه لم يجرؤ على الخروج من قصره دون حرس . وراح يكثر من الشكوى من ثقل أعباء وظيفته حتى أخذه شارل آخر الأمر عند كلمته فأوفده سفيرا إلى فرنسا (١٧١٣ - ٨٧) وهناك تنبأ بأن المستعمرات الانجليزية في أمريكا ، التي بدأت ثورتها آنذاك ، ستصبح في الوقت المناسب من أعظم دول العالم^(٥٦) .

٣ - الاقتصاد الجديد

سيطر على الوزارة بعد رحيل أراندا ثلاثة من الرجال الأكفاء . فخلف نخوزيه مونيئو ، كونت فلوريدا بلانكا ، جريمالدى وزيراً للشئون الخارجية (١٧٧٦) ، وسيطر على مجلس الوزراء حتى عام ١٧٩٢ . وقد تأثر بالفلاسفة الفرنسيين كما تأثر أراندا ولكن بدرجة أقل . وأرشد الملك في اجراءات لتحسين الزراعة والتجارة والتعليم والعلوم والفنون ، ولكن الثورة الفرنسية أخافته فانتكس محافظا ، وقاد أسبانيا إلى أول تحالف ضد فرنسا الثورة (١٧٩٢) . أما بدرو دى كامبومانيس فقد ترأس مجلس قشتالة خمس سنين ، وكان المحرك الأول في الإصلاح الاقتصادى . وأما جسبار ملكور دى خوفللايوس ، أرفع الأسبان في جيله^(٥٧) ، فقد عرفته الجماهير أول ما عرفته قاضيا رحيما نزيها في أشبيلية (١٧٦٧) ومدير (١٧٧٨) . وجاء أكثر نشاطه في الحكومة المركزية تاليا لعام ١٧٨٩ ، ولكنه أسهم إسهاما قويا في السياسية الاقتصادية أيام شارل الثالث بكتاب ألفه في الإصلاح الزراعى (١٧٨٧) . وقد أذاع اقتراحه مراجعة القانون الزراعى ، وهو الاقتراح الذى كتبه برشاقة أسلوب كاد يدانى بها رشاقة أسلوب شيشيرون ، شهرته في أوروبا طولا وعرضا . هؤلاء الثلاثة ، بالإضافة إلى أراندا ، كانوا أباء التنوير الأسباني والاقتصاد الجديد . ويرى دارس انجليزى ، بوجه عام ، أن النتيجة الطيبة التى حققوها تضارع ما تحققت فى مثل هذا

الزمن القليل في أى بلد آخر ، ولا ريب في أن تاريخ أسبانيا لا يحوى فترة يمكن مقارنتها بحكم شارل الثالث^(٥٨) .

كانت العقبات التى اعترضت الاصلاح في أسبانيا لا تقل خطرا في الاقتصاد عنها في الدين . فقد بدأ تركيز الملكية الثابتة في الأسر الشريفة أو الجماعات الكنسية ، واحتكار « المستا » لإنتاج الصوف ، حاجزين في وجه التغيير الاقتصادى لاسبيل إلى التغلب عليهما . وكان ملايين الأسبان يفخرون بحياة الكسل التى يحيونها ، ولا ينجحون من التسول ، وكانوا لا يثقون في التغيير لأنه خطر يهدد التبطل^(*) . وكان المال يخزن في خزائن القصور والكنائس بدلا من استثماره في التجارة أو الصناعة . وكان طرد المغاربة واليهود والموريسكو قد أزال كثيرا من مصادر تحسين الزراعة وتطوير التجارة . وقد نجم عن صعوبات الاتصال والنقل الداخلي أن تخلف داخل البلاد قرنا عن برشلونه واشبيلية ومدريد .

على أن فريقا من صادقى النية — نبلاء وقساوسة وأفرادا من طبقة العامة رجالا ونساء — كونوا رغم هذه المعوقات « جمعية اقتصادية لأصدقاء السلام » لدراسة وتشجيع التعليم والعلوم والصناعة والتجارة والفنون . فأنشأوا المدارس والمكتبات ، وترجموا الأبحاث الأجنبية وقدموا الجوائز على المقالات والأفكار ، وجمعوا المال لمشروعات وتجارب اقتصادية تقدمية . وقد أدانوا تكديس الأمة للذهب باعتباره أثرا مذكرا بالركود ، وذلك اعترافاً منهم بتأثير الطبيعيين الفرنسيين وآدم سميث . وأكد واحد منهم : « ان الأمة التى تملك معظم الذهب هى أفقر الأمم ٠٠٠ كما أثبتت أسبانيا^(٦١) . ورحب خوفلانوس بـ « علم الاقتصاد المدنى » باعتباره « علم الدولة الحقيقى » . وكثرت المقالات الاقتصادية . وكان مقال كاميو مانيس عن الصناعة الشعبية إلهاما للآلاف ومنهم الملك .

(*) قرر قانون أراجونى أن يزود كل نبيل من طبقة الهيدلج كلا من أبنائه بمعاش لأنه « لا يليق بالنبل أن يشتغل » (٥٩) .

وبدأ شارل باستيراد الغلال والبذور للأقاليم التي اندثرت فيها الزراعة. وحث المدن على أن تؤجر أراضيها المشاع غير المزروعة للفلاحين بأقل إيجار عملي . وأنشأ فلوريدا بلايكا ببعض إيرادات التاج من دخول الرتب الكنسية الشاغرة أرصدة دينية في بلنسية وملقا لأقراض المال للمزارعين بفائدة منخفضة . ولكي يحد شارل من إزالة الغابات وتعرية التربة أمر جميع الكومونات بأن تزرع كل سنة عدداً محدداً من الأشجار . ومن هنا ذلك الاحتفال السنوي بـ « يوم الشجرة » الذي ظل في نصفي الكرة تقليداً صحياً أيام شبابنا . وقد شجع اغفال الأوقاف القديمة ، وثبط وقف الجديد منها ، وبهذا يسر تجزئة الضياع الكبيرة إلى ملكيات للفلاحين . ثم اختزلت امتيازات احتكار أغنام المستأخرين حاداً وأبيع زرع مساحات كبيرة من الأرض كانت من قبل حكراً للرعي . واستقدم المستعمرون الأجانب لتعمير المناطق الخفيفة السكان ، مثال ذلك أن أولافيدى أنشأ (١٧٦٧ وما بعدها) في إقليم سيرا مورينا بجنوب غربي أسبانيا ، الذي كان إلى ذلك الحين متروكاً للصيادين والوحوش ، أربعاً وأربعين قرية وإحدى عشرة مدينة مأهولة بالوافدين الفرنسيين أو الألمان ، وأصبحت هذه المستوطنات مشهورة برخاتها . وشقت القنوات الطويلة لربط الأنهار وري مساحات واسعة من الأرض كانت من قبل جرداء قاحلة . ثم شقت شبكة من الطرق الجديدة كانت في فترة خير الطرق في أوروبا (٦٢) ، فربطت القرى والمدن في تيسير يعين على سرعة المواصلات والنقل والتجارة .

ومدت الحكومة يد العون للصناعة . ورغبة في إزالة الوصمة التي الصقت بها التقاليد بالعمل اليدوي ، أعلن مرسوم ملكي أن لاتعارض بين الأعمال الحرفية وشرف المكانة الاجتماعية ، وأن الحرفيين يصبح منذ الآن اختيارهم للوظائف الحكومية . وانشئت المصانع النموذجية : للمنسوجات في وادي الحجارة وسقوبية ، وللقبعات في سان فرناندو ، وللحرائر في طلبيره ، وللصيني في بوين رتيرو ، وللزجاج في سان إلفونسو ، وللزجاج والأثاث الخشبي الفاخر وقطع النسيج المرسوم في مدريد . وشجعت المراسيم الملكية تطور

الإنتاج الرأسمالي على نطاق واسع ، لاسيما في صناعة النسيج . فكان في وادي الحجارة عام ١٧٨٠ ثمانمائة نول تستخدم أربعة آلاف نساج ، وأدارت شركة واحدة في برشلونه ستين مصنعا تضم ١٦٢٠ نولا نساج القطن ، وكان في بلنسية أربعة آلاف نول تنسج الحرير ، وأخذت تنافس تجارة ليون في الحرير لما حظيت به من امكانات التصدير . وفي ١٧٩٢ كان في برشلونه ثمانون ألف نساج ، ولم يفقها في انتاج الأقمشة القطنية غير أقاليم إنجلترا الوسطى .

وكانت أشبيلية وقادس تتمتعان منذ عهد بعيد باحتكار تجميع الدولة للتجارة مع الممتلكات الأسبانية في الدنيا الجديدة ، فانهى شارل الثالث هذا الامتياز وسمح لختلف الثغور بالاتجار مع المستعمرات ، ثم أبرم بعد التفاوض مع تركيا معاهدة (١٧٨٢) فتحت الموانئ الإسلامية للسلع الأسبانية . وكانت النتائج مجزية لجميع الأطراف . وازداد ثراء أمريكا الأسبانية سريعا ، وارتفع دخل أسبانيا من أمريكا ثمانمائة في المائة في عهد شارل الثالث ، وتضاعفت تجارة صادرها ثلاث مرات (٦٣) .

وتطلبت أنشطة الحكومة المتسعة دخولا أكبر . وقد أمكن الحصول عليها إلى حد ما باحتكار الدولة لبيع البراندى ، والتبغ ، وورق اللعب ، والبارود ، والرصاص ، والزئبق ، والكبريت ، والملح . وفي بداية العهد كانت هناك ضرائب مبيعات نسبتها خمسة عشر في المائة في قتلونيا ، وأربعة عشر في قشتالة . وقد وصف خوفلاناوس ضرائب المبيعات بحق إذ قال « إنها تفاجيء ضحيته ... عند ميلادها ، وتطاردها وتعترضها حين تدور ، ولا تغفل عينها عنها أبدا أو تدعها تغفل منها حتى تقضى عليها . » (٦٤) وفي عهد شارل الثالث الغيت ضريبة المبيعات في قتلونيا ، وفي قشتالة خفضت إلى اثنين أو ثلاثة أو أربعة في المائة (٦٥) . وفرضت ضريبة متدرجة معتدلة على الدخول . وضمنا للمزيد من المال بتشغيل مدخرات الشعب ، أقنع فرانسيسكو دى كاباروس الخزانة بأن تصدر سندات حكومية تقل فائدة . فلما هبطت هذه السندات إلى ثمانية وسبعين في المائة من قيمتها الاسمية ،

أسس (١٧٨٢) أول مصرف قومي أسباني — بنكودي سان كارلوس — استهلك السندات بقيمتها الاسمية وأعاد الثقة المالية بالدولة .

وأثمر حسن الإدارة وروح الأقدام زيادة محسوسة في ثروة الأمة في جملتها . وكان أكثر الطبقات انتفاعا هي الوسطى ، لأن منظماتها هي التي أعادت تشكيل الاقتصاد الأسباني . ففي مدريد كون ٣٧٥ من رجال الأعمال خمس تقابات تجارية كبرى سيطرت على معظم تجارة العاصمة . ونستطيع الحكم على مبلغ ثرائها من استطاعتها أن تقرض الحكومة عام ١٧٧٦ ثلاثين مليون ريال (٦٦) .

وقد جذبت الحكومة بوجه عام ظهور طبقة رجال الأعمال هذا باعتباره أمراً لاغنى عنه لتحرير أسبانيا من الاعتماد الاقتصادي والسياسي على دول ذات اقتصاد أرقى . ولم تحظ البرولتاريا الناشئة ، هنا شأنها في تلك الدول ، بتضيق مذكور في الثراء الجديد . وارتفعت الأجور لاسيما في قتلونية حيث شكوا الأغنياء من صعوبة العثور على الخدم والاحتفاظ بهم (٦٧) ، ولكن يمكن القول بوجه عام أن الأسعار ارتفعت بأسرع من ارتفاع الأجور ، وإن الطبقات العاملة كانت فقيرة في ختام العهد فقرها في مطلعها . وقد لاحظ إنجليزى حساب بلنسية في ١٧٩٧ ذلك التناقض بين (ثراء . . التجار ، وأصحاب المصانع ، ورجال الدين ، والعسكريين ، والسادة من ملاك الأرض و « الفقر ، والبهؤس ، والأسئال » التي ترى في كل شارع (٦٨) . وعليه فقد رحبت الطبقات الوسطى بالتنوير Luees الآتي من فرنسا وإنجلترا في حين كان موظفوهم الذين ملأوا الكنائس ولثموا المزارات يعزون أنفسهم بالنعمة الإلهية وبآمال الفردوس .

واتسعت المدن في ظل الاقتصاد الجديد . وكان يعيش في المراكز البحرية الكبرى — برشلونه وبلنسية وإشبيلية وقادس — سكان يتفاوتون من ٨٠.٠٠٠ إلى ١٠٠.٠٠٠ (١٨٠٠) . وكان يسكن مدريد (في ١٧٩٧) ١٦٧.٠٠٠ ، بالإضافة إلى ٣٠.٠٠٠ من الأجانب . وحين ولي شارل الثالث العرش كانت المدينة تشتهر بأنها أقدر عواصم أوروبا . وكان الناس من سكان

الأحياء الفقيرة لا يزالون يفرغون قمامتهم في الشوارع معتمدين على الريح أو المطر لتبديدها ، فلما حظر شارل هذه العادة رموه بالطغيان . قال « إن الأسباب أطفال ييكون حين يحممون^(٦٩) » . وقد أقام موظفوه رغم هذا نظاما لجميع القمامة وللصرف ، ونظم الزبالون لجمع النفايات لاستخدامها سمادا^(٧٠) ، وبإبدل جهد لمنع التسول ولكنه باء بالفشل ، ورفض الشعب السماح للشرطة بالقبض على المتسولين — لاسيما المكفوفين منهم الذين شكوا نقابة قوية فيما بينهم .

وأصلح شارل من أمر عاصمته عاما بعد عام . فجىء لها بالماء من الجبال إلى سبعمائة نافورة ، حملة منها ٧٢٠ سقاء في شقة وعناء لتوزيعه على بيوت المدينة . وأضيئت الشوارع بمصابيح الزيت من الغسق إلى نصف الليل طوال شهور ستة في الخريف والشتاء ، وكان أكثر الشوارع ضيقا ملتويا يتبع دروبا عتيقة متعرجة ويتوارى من شمس الصيف ، ولكن بعض الشوارع المشجرة العريضة الجميلة شقت ، وتمتع الشعب بالبساتين الفسيحة والمماشى الظليلة . وكان أحبا إلى الناس (باسيوديل برادو) أو متنزه المرج ، الذي لفتت هواءه النوافير والأشجار ، وفضله العشاق للاستطلاع ولقاءات الغرام . وهناك في ١٧٨٥ بدأ خوان دى فيلانوفا تشييد متحف البرادو . وهناك في أى يوم تقريبا كانت تجرى أربعمئة مركبة ، وفي أى عشية كان يتجمع ثلاثون ألف مدریدی . وحظر عليهم التغنى بالأغاني البديثة ، أو الاستحمام عراة في النوافير ، أو عزف الموسيقى بعد منتصف الليل ، ولكنهم كانوا يستمتعون بأصوات النساء الرخيمة وهن ينادين على البرتقال والليمون والبندق . ذكر الرحالة أن المشهد الذى كان يرى كل يوم على البرادو في أخريات القرن الثامن عشر كان يعدل ما يرى في مدن أخرى في الفترة نفسها في الآحاد والعطلات فقط^(٧١) ، وأصبحت مدرید آنشد ، كما عادت في عصرنا هذا ، من أجمل مدن أوربا .

لم ينجح شارل الثالث في السياسة الخارجية نجاحه في الشؤون الداخلية . وبدأ أن ثورة المستعمرات الإنجليزية في أمريكا تتيح فرصة الانتقام للخسائر التى منيت بها أسبانيا في حرب السنين السبع ، فحث أراندا شارل على تقديم

العون للثوار ، فبعث لهم الملك سرا بـمليون جنيه (يونيو ١٧٧٦) . وأفضت هجمات القراصنة الإنجليز على السفن الإسبانية آخر الأمر إلى إعلان أسبانيا الحرب على إنجلترا (٢٣ يونيو ١٧٧٩) . واستعادت قوة أسبانية مينورقه ، ولكن محاولة الأسبان الاستيلاء على جبل طارق بائت بالفشل . واتخذت العدة لغزو إنجلترا ، ولكن الغزو عطلته العواصف (البروتستنتية) وفي صلح فرساي (١٧٨٣) سحبـت أسبانيا مطالبـتها بجبل طارق ولكنها استعادت فلوريدا .

وأحزن الملك في سنـيه الأخيرة إخفاقه في استرداد وحدة الأراضي الأسبانية وكانت الحروب قد أتت على شطر كبير من الثروة التي انتهـجها الاقتصاد الجديد . ولم يستطع وزراؤه الأكفاء أن يـنـغـاـبـوا قط على قوتين شديديتين من قوى المحافظة — كبار البلاء بضياعهم الشاسعة ، والاكليروس بما لهم من مصلحة راسخة في سداجة الشعب . أما شارل نفسه فنـدر أن تلـبـذـب في ولائه الأصـيل للكنسية . ولم يعجب به شعبه قط إعجابه حين يراه — وقد لقي موكبا دينيا — يعطى مر كبته للأسقف حامل القربان ثم ينضم إلى الموكب سائرا على قدميه . وأكسبه ورعه المحبة التي افتقدها من الشعب وهو الغريب الوافـد من إيطاليا — في العقد الأول من حكمه . فلما وافته منيته (١٤ ديسمبر ١٧٨٨) ، بعد أربعة وخمسين عاما حكم فيها نابلي وأسبانيا ، كان كثيرون يرون فيه أبر ملوك أسبانيا إن لم يكن أعظمهم . وقد تجلت فطرته الطيبة الرقيقة حين سأله الأسقف القائم على خدمته وهو على فراش الموت هل غفر لأعدائه جميعاً ، فقال متسائلا « كيف انتظر جواز المرور هذا قبل أن أغفر لهم ؟ لقد غفرت لهم أجمعين في اللحظة التالية للإساءة (٧٢) » .

٦ — الخلق الأسباني

أى طراز من الناس كان أسبان القرن الثامن عشر هؤلاء ؟ الأجماع على أنهم كانوا قوما أفاضل إذا قيسوا بنظرائهم في إنجلترا أو فرنسا . وكان لهم من تدينهم الشديد ، ومن شجاعتهم وإحساسهم بالشرف ، ومن تماسكهم ونظامهم الأسريين ، عوامل تصحيح قوية لحساسيتهم الجنسية وكبرياتهم

العدوانية ، حتى مع تكريسهم شوفينية مشبوبة في مسائل العرق والدين . وقد أعاق الانتخاب الجنسي الشجاعة لأن النساء الأسبانيات وهن يطلبن الحماية كن يمنحن أرق ابتساماتهن للرجال الذين يواجهون الثيران في الحلبة أو الشوارع ، أو الذين يبادرون برفض الإهانة والثأر لأنفسهم ، أو الذين يعودون من الحرب مكملين بغار الانتصار .

ولانت الفضائل الجنسية بتدفق الأفكار والعادات الفرنسية . وكانت الصبايا يحرسن حراسة مشددة ، وكان رضا الوالدين (بعد ١٧٦٦) شرطاً قانونياً للزواج ، ولكن النساء في المدن الكبيرة كن بعد الزواج ينغمسن في الغزل والمعابثة وأصبح « الفارس التابع » ملحقاً ضرورياً للسيدة العصرية ، وازداد الفجور (٧٣) . وابتدعت جماعة صغيرة تدعى « الماخو » و « الماخا » مظهراً فذاً من مظاهر الحياة الأسبانية . وكان الماخو رجلاً من الطبقة الدنيا يلبسون كالعنادير ، ويرتدون العباءات الطويلة ، ويطيلون شعورهم ، ويغطون رؤوسهم بقبعات عريضة الحافة ، ويدخنون السيجار الكبير ، وكانوا على استعداد دائم للعراك ، يعيشون عيشة بوهيمية على نفقة خليلاتهم — الماخا — كلما أمكن ذلك . ولم يعبأوا بالقانون في اتصالاتهم الجنسية ، وكان للماخا في كثير من الحالات زوج يعولها بينما تعول هي خليلها الماخو ، ويعرف نصف العالم الماخا ، كاسية أو عارية من فرشاة جوياء .

أما الفضيلة الاجتماعية فكانت عالية المستوى نسبياً . لقد وجد الفساد السياسي والتجاري ، ولكن ليس على النطاق الواسع المعروف آنثن في فرنسا أو إنجلترا ، ذكر رحاله فرنسي أن « الأمانة الأسبانية مضرب الأمثال وتبجلى واضحة في العلاقات التجارية » (٧٤) . فكانت كلمة السيد الأسباني مستنداً أدبياً ساري المفعول من اشبونة إلى سانت بطرسبرج . وكثيراً ما كانت الصداقة في أسبانيا أبقى من الحب . أما البر بالفقراء فهو فور . ففي مدريد وحدها كانت المؤسسات الدينية توزع كل يوم ثلاثين ألفاً من قصاع الحساء المغذى على الفقراء (٧٥) . وأسس الكثير من المستشفيات والملاجيء الجديدة ،

ووسع الكثير من القديم منها أو حسن . وكان جل الأسبان كرماء رحماء إلا مع المهرطقين والثيران .

وكان قتال الثيران ينافس الدين والجنس والشرف والأسرة محلاً لحب الأسبان . وكان الدفاع عن هذه المعارك ، شأنه شأن ألعاب المبالدة في روما القديمة ، يقوم على أساسين ، أن الشجاعة يجب أن تربي في الرجال ، وأن الثيران لا بد أن تموت قبل أن تؤكل . وقد حرم شارل هذه المعارك ، ولكنها استؤنفت بعد موته بقليل . وكان مهرة المصارعين الفرسان ومغامروهم معبودى الطبقات كلها . وكان لكل منهم أنصاره ، فدوقة ألبا تؤثر كوستيلاريس ودوقة أوزونا تؤثر روميرو ، وقسم الحزبان مدريد كما قسم جلوك ويتشيني باريس . وراهن الرجال والنساء بأرزاقهم على مصير الثيران ، وعلى كل شيء آخر تقريباً . وكان القمار محرماً بالقانون ولكنه شائع ، لا بل كانت البيوت الخاصة تدير أمسيات للقمار وكانت المضيفات يقبضن رسوم اللعب .

وتخلت ملابس السادة شيئاً فشيئاً عن العباءة السوداء المقبضة والياقة الصلبة التي تزيها الجليل السابق ، واستبدلت بها الزى الفرنسى — وهو السترة الملونة والصدرة الطويلة من الساقان أو الحرير ، وسراويل الركوب ، والجوارب الحريرية الطويلة ، والحذاء ذو المشبك ، يتوج هذا كله باروكة وقبعة مثلثة الأركان . أما المرأة الأسبانية فألفت أن تجعل من مفاتها سرّاً غامضاً مقدساً تلفها في صدرات من الدنتلا وتنورات طويلة ، ذات أطواق موسعة أحياناً . وتستعمل براقع من قماش الطرح إخفاء لعيونهن التي يود المعجب الأسباني لو أغرق روحه في أعماقها المظلمة . وكانت السيدة في القرن السابع عشر نادراً ما تكشف عن قدميها لأنظار الرجال . أما الآن فقد قصرت الجونلة إلى بضع بوصات فوق الأرض ، واستعوض عن الحفين المستويين بحذاء مدبب على الكعب . وقد أُنذر الوعاظ بأن تعرية النساء لأقدامهن على هذا النحو غير المهذب إنما يزيد نار الرجال المتقدة اشتعالاً . ولكن النساء ابتسمن ، وزين أحذيتهم ، ونشرن تنوراتهن ، وروحن بمراوحهن

حتى في أيام الشتاء . وكانت ازابللا فارنيزى تملك ذخيرة من ١٦٢٦ مروحة زين بعضها برسوم لرسامين ذوى شهرة قومية .

وكانت الحياة الاجتماعية مقيدة في كل شيء إلا المراقص . فاجتنبت المجتمعات في الأمسيات النقاش الجاد مؤثرة عليه الألعاب والرقص والغزل . وكان الرقص غراماً كبيراً في أسبانيا ، وقد أفرخ ألواناً أشتهرت في أوربا . فكانت « الفاندانجو » ترقص على ميزان ثلاثي بالصاجات ، أما السجيديللا فيؤديها زوجان أو أربعة أزواج من الراقصين ، بمصاحبة الصاجات وبالغناء عادة ، وقد اتخذت رقصة مشتقة منها تسمى البولير وشكلها حوالى ١٧٨٠ ، وسرعان ما اكتسبت شعبية مجنونة . وفي رقصة الكونترادانزا كان صف من الرجال يواجه صفاً من النساء في تقدم وتأخر متناوبين ، وكأنما يرمز هذا إلى تكتيك الحرب الأبدية بين المرأة والرجل ، أو كان أربعة أزواج يؤلفون ويحيطون مربعاً في رقصة فخمة تدعى الكونترا دانزا كوادرادا — أى الكدريل . وكانت حفلات الرقص المقنع تجتذب أحياناً ٣,٥٠٠ من الراقصين المتحمسين ، وكان القوم في المرافق يرقصون حتى مطلع الفجر .

وجعلت هذه الرقصات الحركة شعراً حياً وحافزاً جنسياً . قيل إن المرأة الأسبانية التى ترقص السجيديللا كان في رقصها من الإغراء ما يخرج البابا ومجمع الكرادلة بأسره عن وقارهم ^(٧٦) . وقد وجد كازانوفا نفسه شيئاً يتعلمه في أسبانيا فقال :

« حين أوشك الليل أن ينتصف بدأت أعنف الرقصات وأكثرها جنونا وهى الفندانجو ، التى ظننت فى سذاجتى اننى طالما شهدتها ، التى فاقت (هنا) أشد تصوراتى جموحا فى إيطاليا وفرنسا يحرص الراقصون على تجنب الإيماءات التى تجعل هذه الرقصة أكثر الرقصات شهوانية . ويخطو الزوجان — راقص وراقصة — ثلاث خطوات فقط ، ثم يرتميان فى مختلف الأوضاع الفاجرة وهما يصاحبان الموسيقى بالمصاحبات ويعرضان قصة العشق كلها من مولده إلى ختامه ومن أول تهيبه إلى آخر نشوه . فلم أملك لشدة انفعالى إلا أن أصبح عالياً . » ^(٧٧)

وقد عجب من سماح ديوان التفتيش برقصة مثيرة إلى هذا الحد ،
فقيل له أنها « محرمة تحريما باتا » ، ولولا أن الكونت اراندا اذن بها لما جرؤ
أحد على رقصها .

وارتبطت بالرقص ألوان من الموسيقى الأسبانية كانت من أحبها إلى
الشعب ، مثال ذلك أن الكانتى فلامنكو أو الغناء العجري (الفلمنكى)
استخدم نغمة شاكية عاطفية كان كل المغنين العجبر يصاحبون بها
« السجيديللا جيتانا » . ولعل هذه الأغاني الشعبية كانت أصداء لألحان
مغربية ، أو لعلها عكست النوعية المكتتبة للدين والفن الأسبانيين ، أو العجز
المسخط عن الوصول إلى جسد المرأة ، أو انقشاع الوهم عقب الوصال .
وقد وفدت نغمة أبهج بوفود الأوبرا الإيطالية (١٧٠٣) وأغاني فازينللى .
ولكن « الخصى » العجوز فقد الحظوة في عهد شارل الثالث بعد أن ظل
يشدو بأغانيه طوال عهديه ، وقد أنزله شارل عن عرشه بهذا السطر « أن
الديوك المخصية لا تصلح إلا للأكل »^(٧٨) . واتصل النفوذ الإيطالى بمجىء
سكارلاتى ، وانتصر مرة أخرى بمجىء بوكيرينى الذى قدم فى ١٧٦٨ ،
وسيطر على موسيقى البلاط على عهد شارل الثالث وشارل الرابع ، ومكث
بأسبانيا حتى وافاه الأجل (١٨٠٥) .

وبحركة عكس هذه الحركة وفق فنشنتى مارتى أى سولار ، بعد أن
حقق لنفسه الشهرة فى أسبانيا ، فى أن يخرج الأوبرا الإيطالية فى فلورنسه ،
وفينا ، وسانت بطرسبرج ونافست صوناتات أنطونيو سولر على
الهاربسكورد صوناتات سكارلاتى ، وحول دون لويز ميسون « التونادا »
أو السولو الصوتية ، إلى « التوناد يلو » فاصلا من الغناء بين فصول
المسرحية . وفى ١٧٩٩ أنهى أمر ملكى حكم الموسيقى الإيطالية فى أسبانيا
يحظر أداء أى تمثيلية ما لم تكتب باللغة القشتالية ويمثلها ممثلون أسبان^(٧٩) .

والخلق الأسبانى لا يمكن صبه فى قالب متماثل واحد . فالروح الأسبانية
تتفاوت بتفاوت المشهد الطبيعى من ولاية إلى ولاية ، وكان الأسبان المتفرنسون
الذين تجمعوا فى مدريد طرازا يختلف كل الاختلاف عن المواطنين الذين

تجمدوا في العادات الأسبانية . ولكننا قد نستطيع بعد أن نغض النظر عن الأقليات الدخيلة أن ننتبه في الشعب الأسباني طبعاً أصيلاً متفرداً . فقد كان في الأسباني كبرياء ولكن في قوة صامته لا تستمد الكثير من الشوفينية أو القومية ، كانت كبرياء الفردية ، واحساساً مصمماً بالكفاح المنفرد ضد الأذى الدنيوى أو الإهانة الشخصية أو الهلاك الأبدى . ولمثل هذه الروح كان يمكن أن يتبدى العالم الخارجى أمراً ذا أهمية ثانوية لا يستحق القلق أو الكد في سبيله ، فلا أهمية إلا مصير النفس في الصراع مع الإنسان والبحث عن الله . إذن فما أتعفه مشكلات السياسة ، والسباق على المال ، والاعلاء من قدر الشهرة أو المنصب ، وحتى انتصارات الحرب لا يجد يكملها ما لم تكن انتصارات على أعداء الدين . أما وقد ضربت جذور الأسباني في صميم هذا الدين ، فقد كان في استطاعته أن يقابل الحياة بهدوء روائى ، وبإيمان بالقضاء والقدر ينتظر في اطمئنان ثواب الجنة بعد الممات .

٧ — العقل الأسباني

حين قبل لويس الرابع عشر ما عرضه آخر ملوك الهابسبورج في أسبانيا من الايصاء بتاجه لحفيد الملك العظيم ، صاح سفير أسباني بفرساي في ابتهاج « لم يعد الآن وجود لجال البرانس ! » ولكن تلك الكتل الرهيبة لم تترشح عن موقفها عقبة كؤودا في سبيل التنوير الفرنسى ، ورمزا للمقاومة التي ستلقاها محاولة قلة مخلصه أن تصبغ العقل الأسباني بالصبغة الأوربية .

وقد فاجأ كاميو مانيس الشيوخ بمقال في التعليم الشعبى (١٧٧٤ — ٧٦) ، جعل من التوسع في التعليم الشعبى أساساً لا غنى عنه لحيوية الأمة ونموها . ولم ير بعض كبار رجال الدين وملوك الأرض معنى لإزعاج الشعب بمعرفة لا لزوم لها قد تفضى في النهاية إلى الهرطقة الدينية أو الثورة الاجتماعية . ولكن خوفيلانوس الذى لم يثنه هذا الاعتراض كافح لنشر الإيمان بالتعليم ، وكتب يقول « كثيرة هي الجداول المؤدية إلى الرخاء الاجتماعى ، ولكنها كلها تنبع من منبع واحد هو التعليم العام . ^(١) وكان يعلل نفسه بأن التعليم

سيعلم الناس أن يفكروا ، وإن التفكير سيحررهم من سلطان الخرافة والتعصب ، وإن العلم الذى يطرره أمثال هؤلاء سيستخدم موارد الطبيعة لقهر المرض والفقر . وتقبل بعض كراثم النبيلات هذا التحدى ، والفن Junta de Damas لتمويل المدارس الإبتدائية . وانفق شارل الثالث مبالغ كبيرة فى إنشاء المدارس الأولية المجانية . وشارك أفراد غير رسميين فى تأسيس الأكاديميات لدراسة اللغات أو الأدب أو التاريخ أو الفن أو القانون أو الطب .

وكان طرد اليسوعيين ملزماً بإعادة تشكيل المدارس الثانوية وميسراً لها . وأمر شارل بتوسيع مقررات العلوم فى هذه الكليات ، وبتحديث كتبها المدرسية ، وبالسماح للعلمانيين بالتدريس فى أقسامها . وأعان الكليات بالمنح والهبات ، وقرر المعاشات للبارزين من المعلمين^(٨١) . ونصحت الجامعات بتدريس فيزياء نيوتن وفلسفة ديكارت وليبنز فى مناهجها . ورفضت جامعة سلمنقه النصيحة بحجة أن « مبادئ نيوتن ٠٠٠ وديكارت لاتشابه الحقيقة الموحى بها بالقدر الذى تشابهها به مبادئ أرسطو^(٨٢) » ، ولكن معظم الجامعات الأسبانية قبلت التوجيه الملكى ، وكانت جامعة بلنسية الآن (١٧٨٤) ، بطلابها البالغ عددهم ٢٤٠٠ ، أكبر المراكز التعليمية وأكثرها تقدماً فى أسبانيا . وأدخلت عدة طوائف دينية « الفلسفة الحديثة » فى كلياتها . وحث قائد الرهبان الكرملين الحفاة ، المعلمين الكرملين على قراءة أفلاطون وأرسطو وشيشرون وفرنسيس بيكن وديكارت ونيوتن وليبنز ولوك وفولف وكوندياك . هنا لم يكن للقديسين حكم . ودرست جماعة من الرهبان الأوغسطينيين هوبز ، وأخرى هلفيتوس . وكانت مثل هذه الدراسات تلاحق دائماً بردود تفندها ، ولكن كثيراً من المؤمنين الغيورين فقدوا إيمانهم وهم يفندون دعاوى أعدائه .

من ذلك « حادثة » راهب فذ اشتهر يوم كان شارل لا زال شاباً ، ذلك هو بنيتو خيرونيمو فيخواى مونتيجرو الذى انفق الأعوام السبعة والأربعين الأخيرة من عمره (١٧١٧ - ٦٤) فى دير بندكتى باوفيدو،

ولمخ ذلك استطاع أن يدرس بيكن وديكارت وجاليليو وبسكال وجاسندي ونيوتن وليبنز ، ورأى في عجب وخجل كيف عزلت أسبانيا بعد سرفانتس عن التيارات الكبرى للفكر الأوربي . فأرسل من قلايته ، بين عامي ١٧٢٦ و ١٧٣٩ ، سلسلة من ثمانية مجلدات سماها Teatro critico وهو لا يعنى نقد المسرح ، بل الامتحان الدقيق للأفكار . وقد هاجم فيها المنطق والفلسفة اللذين يدرسان في أسبانيا في أيامه ، وامتدح دفاع بيكن عن العلم الاستقرائي ، وتلخص كشوف العلماء في كثير من المجالات ، وهزأ بالسحر والكهانة والمعجزات الزائفة ، والجهل بالطب ، والخرافات الشعبية ، ووضع قواعد للوثوق بالتاريخ نسفت الأساطير القومية الساذجة في غير راحة ، وطالب بنشر التعليم بين جميع الطبقات ، ودافع عن حياة أكثر حرية وعلنية للنساء في التعليم والمجتمع .

واجتمع حول كتبه شرذمة من الإعداء يتهمون وطنيته وينددون باقتحاماته . واستدعاه ديوان التفتيش أمام محكمته ، ولكنها لم تهتد إلى هرطقه صريحة لا في شخصه ولا في كتابه . وفي ١٧٤٢ استأنف حملته بأول مجلدات خمس عنوانه « رسائل متفحهة مستطلعة » . وكان يكتب بأسلوب جيد . مقرا بالتزام كل مؤلف التزاما أدبيا بأن يكون واضحا ، واستطاب الجمهور تعليمه وشجاعته فتكاثر الطلب على « التياترو » و « الرسائل » حتى بلغ ما طبع منهما خمس عشرة طبعة حتى عام ١٧٨٦ . ولكنه لم يستطع قطع دابر الخرافة في أسبانيا ، فظلت الساحرات والعفاريت والشياطين تملأ الجو وتخيف العقول ، ولكن كان جهده بداية السير على الدرب . ومن مفاخر طاقته أن يقوم بهذا الجهد راهب لزم قلايته المتواضعة دون أن يزعجه أحد حتى أوفته منيته وهو في الثامنة والثمانين (١٧٦٤) .

وأكليريكي آخر هو الذي كتب أشهر كتاب نثرى في أسبانيا في القرن الثامن عشر . وكما حرص البندكتيون على ألا يلحق بفيخواي أذى ، فكذلك حمى اليسوعيون قسيسا منهم كان أهم إنتاجه نقدا لاذعا للمواعظ . وكان خوزيه فرانسيسكو دى ايزلا هو نفسه وأعظا بليغا ، ولكن أضحكته

أول الأمر ، ثم أزعجته ، الحيل الخطابية والأوهام الأدبية ، والتمثيل والتهريج الذى يجلب به بعض الوعاظ أنباه الشعب ودراهمه فى الكنائس والميادين العامة . وفى ١٧٥٨ سخر سخرية لاذعة بهؤلاء المبشرين فى « قصة عن الراهب جيرونندو الواعظ المشهور » . يقول الأب ايزلا إن الراهب جيرونندو :

« ألف أن يبدأ عظامه بمثل أو نكته سوقيه أو شذرة غريبة أنتزعت من سياقها فبدت لأول وهلة غير منطقية أو تجديفا أو كفرا حتى إذا ترك جمهوره لحظة مترقبا فى عجب أنهى عبارته وطلع بتفسير أحال كل ما قاله إلى ضرب من التفاهة الحقيرة . من ذلك أنه كان يعظ ذات يوم عن سر الثالوث فاستهل عظته بقوله « ألى أنكر إن الله موجود كوحدة فى الجوهر وثالوث فى الذات » ثم توقف لحظة . وتلفت السامعون بالطبع حولهم . . . متسائلين ما عسى أن تكون خاتمة هذا التجديف المهرطق . وانخيرا ، وبعد أن ظن الواعظ أنه قبض على ناصيتهم ، وأصل الحديث قائلا : « كذلك يزعم الأبيونيون ، والمارسيونيون ، والاريوسيون ، والمانويون ، والسوسينيون ، ولكنى أثبت ضلالهم كلهم من الأسفار المقدسة ، والمجامع ، وآباء الكنيسة^(٨٣) » .

وبيعت ثمانمائة نسخة من كتاب « الراهب جيرونندو » خلال يوم من صدوره . وهاجمه الرهبان الوعاظ زاعمين أنه يشجع على احتقار رجال الدين . وأستدعى أيزلا أمام محكمة التفتيش ، وأدين كتابه (١٧٦٠) ، أما هو فلم يعاقب . ثم انضم إلى أخواته اليسوعيين فى المنفى ، وأصيب فى الطريق بالشلل . وقضى ختام عمره فى بولونيا عائشا على المعاش الضئيل الذى منحته آياه الحكومة الأسبانية .

أما الشعر فكان يقرضه كل أسباني ملم بالكتابة . وقد اجتمع فى ١٧٢٧ فى مباراة شعرية (عام ١٧٢٧) ١٥٠ متنافسا . واضاف خوفيلانوس الشعر والدراما لضروب نشاطه الأخرى فقيها ومربيا ورجل دولة . وأصبح بيته

في مدريد ماتى لرجال الأدب وقد ألف الهجائيات على طريقة جوفينال ،
موبخا الفساد الذى وجدته في الحكومة والقانون ، وتغنى بمناهج الحياة الريفية
الآمنة المطمئنة شأن كل ساكن للمدن . ونظم نقولا فرنانديز دى موراتن
شعرا ملحميا تناول مغامرات كورتيز ، ويقول العارفون أن — هذه القصيدة
« أرفع قصيدة من نوعها أنجبتها أسبانيا في القرن الثامن عشر^(٨٤) » .

وكانت الأشعار المرححة المهذبة التى نظمها ديجو جونزالز ، الراهب
الأوغسطينى ، أحب إلى الشعب من قصيدته التعليمية « مراحل الإنسان
الأربع » التى إهداها إلى خوفيللانوس . كذلك اتخذ دون توماس دى
أيريبارتى إى أوروبيزا إتجاها تعليميا في قصيدته « في الموسيقى » ، وكان
خيرا منها « قصصه الخرافية » (١٧٨٢) التى طعنت مغامر العلماء وأكسبته
شهرة لم تنزل حية إلى اليوم . وترجم بعض مآسى فولتير وملاهى مولير .
وسخر من الرهبان « الذين يتسلطون على السماوات وعلى ثلثى أسبانيا » ،
وقد حاكمه ديوان التفتيش فانكر آراءه ، ومات بالزهرى وهو في الحادية
والأربعين (١٧٩١)^(٨٥) .

وفي ١٧٨٠ أعلنت الأكاديمية الأسبانية عن جائزة تمنح لقصيدة تمجد
الحياة الرعوية . فقال إيريارتى الجائزه الثانية ولم يغفر قط لصاحب الجائزة
الأولى ، لأن خوان ميلانديز فالديس مضى قدما ليصبح كبير الشعراء
الأسبان في ذلك العهد . وتودد خوان إلى خوفيللانوس ، وحصل بنفوذه
على كرسي الأنسابات في جامعة سلمنقه (١٧٨١) وهناك إقنع الطلاب
أولا ، ثم الكلية ، بدراسة منهج أكثر إقتحاما ، بلغ إلى حد قراءة لوك
ومونتسكيو . وألف في أوقات فراغه فيما بين المحاضرات مجلدا من الأغاني
والشعر الرعوى — هو استحضارات حية لمشاهد الطبيعة في أبيات بلغت من
الركة وكمال الصقل ما لم تقرأه أسبانيا منذ أكثر من قرن . وكان للرضى الذى
أسبغه عليه خوفيللانوس الفضل في ترقيته إلى منصب القضاء بسرقسطه وإلى
محكمة القضاء العالى في بلد الوليد ، وأضرت السياسة بشعره . فلما نفي
خوفيللانوس (١٧٩٨) أقصى ميلانديز أيضا . فجرد قلمه للتنديد بغزاة

أسبانيا الفرنسيين ، وخص منهم جوزف بوناپرت ، ولكنه عاد إلى مدريد في ١٨٠٨ ، وقبل وظيفة تحت رئاسة جوزف بوناپرت ، وصدم أسبانيا بقصائد يتملق بها ساداته الأجانب . وفي حرب التحرير التي خلعت جوزف نهب الجنود الفرنسيون منزل الشاعر . وهاجمه هو نفسه الغوغاء الغاضبون ، فهرب لحياته من أسبانيا . وقبل أن يعبر اليبدا سوا إلى فرنسا قبل آخر بقعه من التراب الأسباني (١٨١٣) . وبعد أربع سنوات مات فقيرا مغمورا في موندلييه .

وكان ينبغي أن يكون لأسبانيا كتاب مسرح أكفاء في هذا العهد ، لأن الملوك البوربون كانوا ميالين للمسرح . وقد عملت على أضمحلاله ثلاثة عوامل : إيثار إيزابللا فارنيزي القوى للأوبرا ، وفليب الخامس لفارينالي ، ومن ثم اعتماد المسرح على الجمهور الذي كان أكثر ما يستحسنه هو « الفارص » ، والمعجزات ، والأساطير والشقشقات اللفظية ، وجهد كتاب الدراما الجادون لحبس تمثيلياتهم داخل « الوحدات الارسطاطالية » في الحركة والمكان والزمان . وكان أحب كتاب المسرحية إلى الشاب في ذلك القرن هو رامون فرانسيسكو دي لاكروز ، الذي كتب نحو أربعمئة فارص صغير يهجو فيها عادات الطبقتين الوسطى والدنيا وأفكارهما وحديثهما ، ويصور مع ذلك ذنوب الجماهير وحمقاتهم يعطف غافر . أما خوفيللانوس ، « رجل أسبانيا الجامع » فقد جرب الكوميديا ، وظفر باستحسان الجمهور والنقاد جميعا بملمهاته « المحرم المكرم » (١٧٧٣) : وفحواها أن سيداً أسبانيا يرفض مرارا وتكراراً أن يبارز غريماً ثم يقبل التحدى أخيراً بعد الحاح ، ويقتله في معركة عادلة ، ثم يحكم عليه بالاعدام قاض يتبين أنه أبوه . وقد أستهدف خوفيللانوس ، وهو المصالح على الدوام ، من تمثيليته هذه الوصول إلى التخفيف من القانون الذي اعتبر المبارزه جريمة كبرى .

أما الحملة الداعية إلى الوحدات الارسطاطالية فقد تزعمها الشاعر نيقولا فرنانديز دي موراتن : وواضلها حتى تكللت بالنجاح ابنه لياندرو . وقد أبهجت خوفيللانوس أشعار هذا الفتى الباكرة ، فحصل له على وظيفة في

السفارة الأسبانية بباريس . وهناك صادق جولدوني ، فوجهه إلى كتابة التمثيليات . وأغدق الحظ هباته على صورتين الابن : فأوفد على نفقة الدولة ليدرس المسارح في ألمانيا وإيطاليا وإنجلترا . وحين عاد إلى أسبانيا منح وظيفة شرفية أتاحت له الفراغ اللازم للعمل الأدبي . وقدمت ملهاته الأولى لمسرح في مدريد عام ١٧٨٦ ، ولكن عرضها عطل أربع سنوات ريثما يفرغ المديرون والممثلون من الجدل في استطاعة تمثيلية تتبع قواعد أرسطو والتمثيلية الفرنسية أن تجتذب جمهوراً أسبانياً . وقد نجحت نجاحاً معتدلاً . وانقلب موراتين مهاجماً ، ففي تمثيلته الكوميديا الجديدة (١٧٩٢) سخر من الملامى الشعبية سخرية تقبل الجمهور بعدها الدرامات التي تدرس الخلق وتنير الحياة . وأشاد القوم بموراتين موليرا أسبانيا ، وسيطر على مسرح مدريد حتى غزا الفرنسيون أسبانيا عام ١٨٠٨ . وقادته ميوله الفرنسية وسياسته التحزبية كما قادت ميلانديز وجويا إلى التعاون مع حكومة جوزف بوناپرت ، فلما سقط جوزف لم ينج موراتين من السجن إلا بشق النفس . ولجأ إلى فرنسا . ومات أخيراً بباريس في ١٨٢٨ . وهى السنة التي مات فيها بيوردو الرسام جويا الذى نفى نفسه عن وطنه مختاراً .

٨ — الفن الأسباني

ما الذى يمكن توقعه منه بعد اجتياح أسبانيا فى حرب الوراثة لأسبانية الطويلة ؟ لقد سلبت الجيوش الغازية الكنائس ، ونهبت المقابر ، وأحرقت الصورة ، وربطت خيولها فى المزارات المقدسة . ثم جاء غزو جديد بعد الحرب ، وخضع الفن الأسباني طوال نصف قرن للنفوذ الفرنسى أو الإيطالى فلما انشئت أكاديمية سان فرناندو عام ١٧٥٢ لإرشاد شباب الفنانين ومساعدتهم ، جاهدت لتقر فى أذهانهم مبادئ كلاسيكية جديدة غريبة كل الغرابة عن الروح الأسبانية .

وكافح الباروك كفاحاً عنيفاً فى سبيل البقاء ، وكان له ما أراد فى المعمار

والنحت . فانتصر في الأبراج التي أضافها فرناندو دي كازيس أي نوبا (١٧٣٨) إلى كتدرائية سنتياجودى كومبر ستيل ، وفي الواجهة الشمالية التي شيدها فنتورا روديجيز (١٧٦٤) لهذا الصرح ذاته تذكراً للقديس يعقوب حامى أسبانيا وقد زعمت إحدى الأساطير المحيية الشعب أن تمثالا للعدراء مقاماً على عمود في سرقسطه دبت فيه الحياة وتكلم مع القديس يعقوب . في ذلك الموقع شيدت التقوى الأسبانية « كنيسة عدراء العمود » ، ولتلك الكنيسة صمم رودريجيز هيكلًا هو مقصورة من الرخام والفضة يضم تمثال العدراء .

وأقيم قصران مشهوران في عهد فليپ الخامس . فقد اشترى على مقربة من سقوية أرض دير ومزرعته الملحقة ، ووكل إلى فليپو يوفارا التورينى أن يشيد على هذه البقعة قصر سان الدفونسو (١٧١٩ وما يليها) ، وأحاط المباني بحدائق وست وعشرين نافورة تنافس نافورات فرساي . وعرفت هذه المجمعرة بلاجرانغا ، وقد كلفت الشعب ١٠٠٠٠٠ ر ٤٥ كراون . ولم تكتمل حتى دمرت النار ليلة ميلاد عام ١٧٣٤ « القصر » الذى كان المقر الملكى بمدير يد منذ عهد الأمبراطور شارل الخامس وانتقل فيليب إلى بوين رتيرو التي شيد فيها فليپ الثانى قصرًا فى ١٦٣١ . فظل هذا المقر الرئيسى للملك طوال ثلاثين عاما .

وصمم يوفارا قصرًا ملكيا آخر عوضا عن « القصر » المحترق — يضم المساكن والمكاتب وحجرات الاجتماع ومصلى ومكتبة ومسرحا وحدائق — لو شيد لفاق فى فخامته أى قصر ملكى عرف يومها ، وكان النموذج وحده يحوى من الخشب كمية تكفى لبناء بيت . ولكن يوفارا عاجلته المنية قبل أن يبدأ البناء (١٧٣٦) . ورفضت إيزابلا فارنيزى تصميمه لفداحة تكاليفه ، فشيد خلفه جوفانى باتستا ساكىتى التورينى القصر الملكى (١٧٣٧ — ٦٤) القائم بمدير يد اليوم — وطوله ٤٧٠ قدما ، وعرضه ٤٧٠ قدما ، وارتفاعه ١٠٠ قدم . هنا حل طراز النهضة المتأخرة محل الباروك : فكانت الواجهة ذات أعمدة دورية وايونية ، يتوجها درابزين انتشرت عليه تماثيل ضخمة

للملوك أسبانيا القدامى . وحين صحب نابليون أخاه جوزف لملك في هذا القصر قال وهما يصعدان السلم الفخم « ستكون أفضل مني منزلاً »^(٨٦) . وقد انتقل شارل الثالث إلى هذا الصرح الهائل عام ١٧٦٤ .

أما النحت الأسباني ففقد بعض صرامته وجموده متأثراً بالفن الفرنسي والإيطالي ، وخلع الضحك على ملاكه (السيرافيم) والرشاقة على قديس أو قديسين . وكانت موضوعاته دينية على الدوام تقريباً ، لأن الكنيسة كانت تدفع للنحاتين أعلى الأجور . من ذلك أن رئيس أساقفة طليطلة أنفق ٢٠٠,٠٠٠ دوقاتية على حجاب المذبح الشفاف الذي أقامه نارسيوتومي (١٧٢١) خلف خورس الكتدرائية : وهو مجموعة ملائكة من رخام يطفون على سحب من رخام ، وكان في ممشي الكنيسة المسقوف فتحة جعلت الرخام وضاء ومنه اتخذ حجاب المذبح اسمه . وعاشت الواقعية القديمة في تمثال « جلد المسيح »^(٨٧) الذي نحته لوزيز كارمونا — وهو تمثال من الخشب ، رهيب بما فيه من آثار ضرب وجروح دامية . وأجمل منه تماثيل الإيمان ، والرجاء ، والمحبة ، التي نحتها فرانسكو فرجارا الابن لكتدرايات كوينسا (١٧٥٩) . وقد عدها سبان — برموديز ، فازارى أسبانيا ، أروع ما انتجه الفن الأسباني .

وأعظم الأسماء في فن النحت الأسباني في القرن الثامن عشر كان اسم فرانسكو زاركيللو إى الكراز . مات أبوه ومعلمه ، وكان نحاتا في كابوا ، وفرانسكو في العشرين وخلفه العائل الأول لأمه وأخته وستة إخوه . وكان الفتى أفقر من أن يستأجر الموديلا ، لذلك كان يدعو المارة ، بل المتسولين ليشاركوه غداءه وليرسمهم ، وربما كانت تلك هي الطريقة التي عثر فيها على الأشخاص لرائعته « العشاء الأخير » المحفوظة الآن في « دير يسوع » بمرسيه . وبمساعدة أخته اينيس التي كانت ترسم وتعمل نموذجاً له ؛ وأخيه خوتريه ، الذي كان ينحت التفاصيل ، وأخيه القسيس باتريسيو ، الذي كان يلون الأجسام والثياب ، انتج فرانسكو في سني عمره الأربع والسبعين ١٧٩٢ تماثلاً فيها الكبير وفيها الصغير ، بعضها ذو حيل لاطعم لها كعباءة.

من المخمل المطرز فوق تمثال للمسيح ، بعضها مؤثر بتقواه البسيطة تأثيرا حمل مدريد على أن تعرض عليه مهام مجزية لتزيين القصر الملكي . ولكنه فضل البقاء في وطنه مرسية الذي شيعه عند وفاته عام ١٧٨١ في مشهد جليل .

أما التصوير الأسباني في القرن الثامن عشر فكان يرزح تحت كابوس أجنبي مزدوج لم يفر منه حتى حطم جويا كل القيود بفنه الجارف الذي لم يسبق له نظير . جاءت أول الأمر موجة فرنسية بمجىء ران ورينيه وميشيل — آنج هواس ، ولوى — ميشيل فائلو . وقد أصبح هذا مصور البلاط لفليب الخامس ، ورسم لوحة هائلة للأسرة المالكة بأكملها ، بالبواريك والجونلات المطوقة ، وغيرها (٨٨) . ثم أقبل قطيع من الإيطاليين الذين يفيضون حيوية فانفينللى ، واميجونى ، وكورادو .

ووصل جامباتستا تيبولو وأبناؤه إلى مدريد في يونيو ١٧٦٢ . وعلى سقف غرفة العرش في القصر الملكي الجديد رسموا صورة جصيه شاسعة « تمجيد أسبانيا » ، احتفالا بتاريخ الملكية الأسبانية وقوتها وفضائلها وتقراها وأقاليمها : فيها الأجسام الاسطورية الرمزية متوازنة في الهواء ، والنيريدات والتريتونات والزفيرات ، والجن المحنج ، والأطفال الدمان ، والفضائل الرذائل محلقة في الفضاء المنور ، وأسبانيا ذاتها متربعة على العرش وسط ممتلكاتها ، ممجدة بكل صفات الحكومة الصالحة . وعلى سقف غرفة الحرس رسم تيبولو « اينياس تقوده فينوس إلى معبد الخلود » . وعلى سقف الحجرة الملحقة بمخدع الملكة رسم ثانية « انتصار الملكية الأسبانية » . وفي ١٧٦٦ كلف شارل تيبولو بأن يرسم سبع لوحات لمذبح كنيسة القديس بسكال بأراشيز ، واستخدم المصور في أحداها وجه حسناء أسبانية ليمثل حمل العذراء غير المدنس ، ولا تزال الصورة تتألق . في البرادو . وأدان كاهن الملك ، الأب خوالين دى إلكناما في فن تيبولو من وثنية وفجاعات لأنها دخيلة على روح أسبانيا . وتاب تيبولو ، ورسم صورة قوية سماها انزال المسيح عن الصليب (٨٩) ، وهى تأمل في الموت تنيره الملائكة

الواعدة بالقيامة وأرهقت هذه الجهود الجبار الهرم ، فمات في مدريد عام ١٧٧٠ وقد بلغ الرابعة والسبعين . وبعد قليل أزيلت لوحات مذبح اراونجيز وكلف أنطون روفائيل منجز برسم لوحات بدلها .

وكان منجز قد وفد على مدريد في ١٧٦١ وهو في الثالثة والثلاثين ، ففى قوى واثق من نفسه أمر ناه . ولم يكن شارل يشعر قط بارتياح لمراى غيوم تيبولو المنورة — فأنس الآن فى هذا الألمانى المقحام الرجل المطلوب لتنظيم العمل الفنى اللازم للقصر . وفى ١٧٦٤ عين منجز مديرا لأكاديمية سان فرناندو ، وسيطر على التصوير الأسبانى فى فترات اقامته بأسبانيا . وقد أساء ترجمة الطراز الكلاسيكى إلى سكون لادم فيه ولا حياة ، وأغضب بذلك تيبولو الشيخ وجويا الشاب . ولكنه كافح كفاحا نافعا لينهى اسراف الرُحرفة الباروكية وشطحات خيال الروكوك . ومن أقواله أن الفن يجب أن يسعى أولا إلى « أسلوب طبيعى » بمحاكاته الأمانة للطبيعة ، وعندها فقط يستهدف الأسلوب السامى « الذى انتهجه الاغريق . فكيف السبيل إلى هذا التسامى ؟ بإقصاء الناقص وغير المتصل بالموضوع ، بالربط بين الكمالات الجزئية التى توجد هنا وهناك فى أشكال مثالية يتصورها خيال مدرب مع تجنب كل ضروب الاسراف .

وافتح منجز انتاجه برسم أرباب أولب على سقف مخدع الملك ، وزين مخدع الملكة بصورة مماثلة . وربما ادرك منجز أن صاحبي الجلالة ، لم يتبعاه تماما حتى جبل أولب ، لذلك رسم رافدة مذبح للمصلى الملكى ، « ميلاد المسيح » و « انزال المسيح من الصليب » . وكان يضى نفسه فى العمل « ولا يأكل إلا قليلا ، وبات عصبي المزاج ، وانهارت صحته ، وخيل اليه أنه واجد البرء فى روما . ومنحه شارل أجازة مدها منجز إلى أربعة أعوام . وفى فترة اقامته الثانية بأسبانيا أضاف مزيدا من الرسوم الجصية إلى القصور الملكية فى مدريد وارانجيز . ولكن صحته تداعت مرة أخرى ، فالتمس من الملك الاذن له بالتقاعد فى روما . ومنحه الملك الطيب طلبته ، وأجرى عليه معاشا متصلا من ثلاث آلاف كراون فى العام .

ولكن ألم يكن في أسبانيا آنشد فنانون وطنيون يرسمون ؟ أجل كانوا كثيرين ولكن اهتمامنا الذى تضاعف مع بعد الشقة والزمان خلفهم على هامش الشهرة الخافية . كان هناك لويز ميلنديز للذى كاد يعدل شاروان في صور الطبيعة الصامتة (الطيور والفواكه) ويحتفظ متحف البرادو بأربعين منها ، ومتحف بوسطن بمثال منها فاتح للشهية ، ولكن اللوفر يزهما جميعا بصورة ذاتية رائعة . وهناك لويز باريت أى الكازار ، الذى بارى كاناليتو في تصوير مناظر المدينة كما ترى في لوحته Puerta de Sol — أكبر ميادين مدريد ، وأنطونيو فيلادامات ، الذى شهد له منجز بأنه أكفأ مصورى العصر الاسبان ، وفرانسيسكو بايو إى سوبياس ، الرقيق المتجهم المخلص لفنه ، الذى نال الجائزة الأولى في الأكاديمية عام ١٧٥٨ ، وصمم قطع النسيج لمنجز ، وأصبح صديقا ، وعدوا ، وصهرا لجويا .

٩ — فرانسيسكو دى جويا أى لوسيبنتس

أ — نشأته

اتخذ فرانسيسكو اسم قديس حام شأن جميع الصبيان الايبيريين ، ثم اسم أبيه خوزيه جويا ، واسم أمه أورجاسيا لوسيبنتس — أى ربة اللطف والنور . وكانت تنتمى إلى طبقة الهيدلج (أدنى طبقات النبلاء) ومن هنا إضافة « دى » التى أدخلها فرانسيسكو على اسمه . ولد في ٣٠ مارس ١٧٤٦ بفونتينودوس ، وهى قرية أرجونية يسكنها ١٥٠ من الأنفس ولا يزينها شجر — إنما هى تربة حجرية ، وصيف قائف ، وشتاء قارس ، يأتى على الكثيرين ، ويصيب الأحياء بالاكثاب والحشونة .

وراح فرانسيسكو يتلهم بفرشاة الرسم ، فرسم في صباه لكنيسة القرية صورة للعدراء « سيدة العمود » ، حامية أرجون . وفي ١٧٦٠ انتقلت الأسرة إلى سرقسطة ، حيث اشتغل الأب بالطلاء بالذهب ، وأتاح له دخله أن يوفد ابنه لدراسة الفن على يد خوزيه لوزان . ومنع هذا الفنان وخوان راميريز نسخ جويا صور كبار الرسامين القدامى ، وقلد تلوين تيبولو الناعم ،

وتعلم من التشريح قدرا يكفى لرسم صور العرايا المحرمة . وفى رواية أنه شارك - ثم تزعم بعد قليل - فريقا من الشباب الجموح الذين دافعوا عن قريتهم ضد قرية أخرى ، وكيف أن بعض الفتيان قتلوا فى إحدى المعارك ، وكيف فر فرانسيسكو إلى مدريد مخافة أن يقبض عليه .

وفى ديسمبر ١٧٦٣ دخل امتحاناً للالتحاق بالأكاديمية فرسب . وتصفى الأسطورة حياته الصاخبة فى العاصمة ، ولكن لانعلم على التحقيق إلا أن جويأ كان بينه وبين القوانين حب مفقود . وعاد إلى دخول امتحان المسابقة فى ١٧٦٦ ورسب . وربما كان هذا الرسوب المتكرر من حسن حظه : فقد أفلت من وصاية منجز الأكاديمية ، ودرس الصور التى كان تيبولو يرسمها فى مدريد ، ثم أرسى أسس أسلوب فذ تغلب عليه شخصيته . وتروى الأسطورة بعد ذلك أنه انضم إلى فريق من مصارعى الثيران وسافر معهم إلى روما فى تاريخ مجهول . ولقد كان دائماً شديد الحماس لمصارعى الثيران الراكبين (التوريادور) ومرة وقع باسم دى لوس تورس . كتب إلى موارنين فى شيخوخته يقول « كنت فى شبابه مصارع ثيران ، لا أهرب شيئاً وسينى فى يدي »^(٩١) . وربما قصد بهذا أنه كان من أولئك الصبية المغامرين الذين يصارعون الثيران فى الشوارع . على أية حال وصل إلى إيطاليا ، لأنه فى ١٧٧٠ فاز بالجائزة الثانية فى مسابقة بأكاديمية الفنون الجميلة فى بارما . وتحكى الأسطورة أنه تسلىق قبة كاتدرائية القديس بطرس وسطاً على دير ليخطف راهبة . وأكثر من هذا احتمالاً أنه كان يدرس صور ماناسكو الذى ربما كان لتلوينه القاتم ، وأجساده المعذبة ، ومناظر محكمة تفتيشه ، من الأثر العميق فى نفسه مافاق الأوضاع الهادئة الكلاسيكية التى أوصى بها منجز فى أسبانيا .

وفى خريف ١٧٧١ نلتقى به فى سرقسطة التى عاد إليها ليزين مصلى فى الكاتدرائية « الكنيسة الكبرى لسيدة العمود » .

وقد أجاد التصوير ، وكوفئ بخمسة عشر ألف ريال نظير جهده استغرقه ستة أشهر ، واستطاع الآن أن يعول زوجه إذا تزوج . وعامل القرب

(م ١٠ - قصة الحضارة ، ج ٤٠)

في تقرير اختيارنا شريك الحياة ، وهكذا تزوج (١٧٧٣) خوزيفاً بايو ، وكان فيها ريعان الشباب ، ولها شعر ذهبي ، ومكانها في متناوله . وقد استخدمها نموذجاً ، ورسم صورتها مراراً ، وصورتها المعلقة في البرادو تظهرها متعبة بتكرار الحمل ، أو محزونة لخianat فرانسيسكو لها (٩٢) .

ثم نقل إلى مدريد (١٧٧٥) . وكلفه منجز (١٧٧٦) — بتوصية من من بايو على الأرجح — بأن يرسم لوحات قماشية كبيرة تصلح رسوماً تخطيطية (كرتونات) للمصنع الملكي للنسيجيات الذي أنشأه فليب الخامس على غرار مصنع الجوبلان . وغامر جويوا الآن برفض خطير ، فاتخذ قراراً شكل مستقبله . ذلك أنه أغفل ميل منجز إلى الميثولوجيا الكلاسيكية وتاريخ الأبطال ، فرسم على اتساع كبير وبألوان ناصعة الناس الذين يفتمون إلى طبقته وعصره — رسم كدهم وحبهم ، ومهرجاناتهم وأعيادهم ، مصارعاتهم مع الثيران ولعبهم بطائرات الورق ، أسواقهم ورحلاتهم الخلوية وألعابهم ، وإلى هذه الواقعية أضاف في جرأة أشياء تخيلها ولكنه لم يرها قط . أمام منجز فقد ارتفع إلى مستوى الموقف : فلم يذم هذا الخروج على التقاليد الأكاديمية ، وشعر بنبض الحياة يسرى في الأسلوب الجديد ، وأعطى هذا المتمرد مزيداً من التكاليفات . وأنتج جويوا خلال خمسة عشر عاماً خمسة وأربعين كرتوناً أساسياً لعمامه ، بينما راح ينتقل إلى مجالات أخرى بثقة متزايدة . واستطاع الآن أن يأكل ويشرب مطمئناً . كتب إلى صديقه زاباترا « أن دخلي يتراوح بين اثني عشر ألفاً وثلاثة عشر ألف ريال في السنة » .

على أن نوعاً من البكتريا تطفل على هذا النجاح الذي أصابه ولسنا نعرف مصدر الزهري الذي إبتلى به جويوا ، ولكننا نعرف أنه مرض مرضاً خطيراً في أبريل ١٧٧٧ (٩٣) . وأيلي منه شيئاً شيئاً ، ولكن لعل المرض كان له بعض الأثر في التشاؤم الذي شاب فنه ، وربما في فقد السمع في ١٧٩٣ . على أنه تمالك صحته في ١٧٧٨ بالقدر الذي أتاح له المشاركة في مشروع وضعه شارل الثالث ليذيع في خارج أسبانيا بالنسخ المطبوعة عن الكلشيات ذخائر الفن الأسباني . ولهذا الغرض نسخ جويوا ثمان عشرة

لوحة لفيلاسكيد ، ومن هذه النسخ صنع محفورات ، وكانت هذه مهارة جديدة عليه . وظل مناقشه حينما مترددا فجأ . ولكن من هذه البداية تطور ليصبح من أعظم الحفارين بعد رمبرانت . وسمح له بأن يقدم نسخته بشخصه إلى الملك ، وفي ١٧٨٠ سجل واحدا من مصورى البلاط . وقبل الآن في الأكاديمية آخر الأمر . وحوالى ١٧٨٥ رسم لوحة شارل الثالث الشهيرة . التى بدا فيها الملك لا بسا حلة الصيد . مهيا للقتل ، ولكنه هرم . مكدود ، متقوس الساقين محدودب الظهر ، هنا ضحى جويا كعادته بالرضى فى سبيل الصدق .

راستقدم جويا أمه وأخاه كاميلو بعد موت أبيه ليعيشا معه ومع خوزيفا والأطفال . وقبل شتى التكاليفات ليعول هذه الأسره المتكاثرة : فرسم لوحة جصية فى كنيسة سان فرانسسكو الجراندى ، وصورا دينية لكاية كالاترافا بسامنته ، ومشاهد من الحياة اليوميه لمنزل دوق أوزونا الريفى . ثم رسم لوحات للأشخاص اكونها أربح فرع فى مهنته . فرسم عدة لوحات لا وزونا^(٩٤) ، واحدة للدوق وأسرته — يبدو فيها الاطفال شديدى التصلب وأخرى الدوقه أوزونا بثلاثة أرباع طولها^(٩٥) — وهى معجزة من الوان الزيت تستحيل حريرا ومخرمات .

وربما كان جويا سعيدا عام ١٧٨٤ . ففى ذلك العام ولد له خافيد ، وهو الابن الوحيد الذى قدر له أن يبقى حيا بعد موت أبيه . وأزيح الستار عن الصور الجصية التى رسمها الكنيسة القديس فرنسيس الكبير فى احتفال رسمى . وأثنى عليها مشاهدوها كأروع لوحة فى ذلك العهد . وكان الملك وكل حاشيته حضورا ، وقد شاركوا فى الشاء . وحوالى ١٧٨٧ رسم جويا لوحة المركز دى بونتيجوس . وهى الآن من أنفس ما تملكه قاعة الصور القومية فى واشنطن . وبعد عام عاد إلى رسم الطبيعة فى لوحته La Pradera de San Isidro^(٩٦) . وتمثل حقلا غصص بالمتزهين يحتفلون بعيد القديس نحامى مدريد العظيم بالركوب والتمشى والجلوس والأكل والشرب والغناء

والرقص على شواطئ ما نزاناريس المعشية . وهى لا تعدو أن تكون تخطيطا ، ولكنها آية من آيات التصوير .

ولم يزد عمر جويا على الثالثة والأربعين حين مات شارل (١٧٨٨) ولكنه حسب نفسه قد شاخ . وكان قد كتب فى ديسمبر من العام إلى زياتر يقول « لقد شخت ، وملاأت التجاعيد وجهى حتى أنك لن تستطيع التعرف على « لولا أنفى الأفطس وعيناي الغائرتان »^(٩٧) . وما كان فى استطاعته التنبؤ بأنه مازال أمامه فسحة فى الأجل تمتد أربعين سنة ، وبأن أكثر مغامراته شططا وأروع إنتاجه مستكنان فى مستقبل أيامه . لقد تطور فى بطنه والآن سيكرهه الغرام والثورة على أن يتابع السير وإلا كان من المغرقين . فارتفع مع الأحداث ، وأصبح أعظم فنان فى جيله .

(ب) غرام

وقد شغله ١٧٨٩ رسم صور للملك والملكة الجديدين احتفالا بدخولهما مدريد رسميا فى ٢١ سبتمبر . وكان « فيليبي » بن شارل الثالث البكر ، قد أقصى عن وراثة العرش أعتبه ، قال العرش للأبن الثانى الذى وصفه مؤرخ غير متعاطف بأنه « نصف معتوه »^(٩٨) لا أكثر . وكان شارل الرابع ساذجا حسن الظن بالناس ، فيه من الطيبة ما يكاد يغرى الأشرار بالشر . وكان قد انصرف إلى حياة القنص والأكل والأنجاب لافتراضه أنه مقصى عن وراثة العرش ، بحكم كونه الأبن الثانى . أما وقد بات الآن بدينا لبين العريكة ، فإنه أستسلم راضيا لزوجته ماريا لويز البارمية ، وتجاهل — أو جهل — فسقها مع عشاقها ، ورقى عشيقها ما نويل دى جودوى رئيسا للوزارة (١٧٩٢ — ٩٧) .

وكانت الملكة الجديدة قد داعبت الأفكار التحررية قبل ولايتها للعرش ، وقد شجع شارل الرابع فى أول سنى حكمه فلوريدا بلانكا ، وخوفيللانوس ، وكامبومانيس (وكلهم رستهم جويا) على المضى فى برنامج إصلاحاتهم . غير أن سقوط الباستيل روع شارل الرابع وفلوريدا بلانكا فارتدت الحكومة

إلى رجعية سياسية أعادتها إلى التعاون الكامل مع الكنيسة باعتبارها أقوى معقل للملكية . وأهمل الكثير من القوانين التقدمية التي سنت في عهد شارل الثالث ، وأستعاد ديوان التفتيش بعض سلطاته ، وأوقف إستيراد الأدب الفرنسي ، وحظرت جميع الصحف إلا صحيفة مدريد اليومية الرسمية ، وأقصى عن البلاط خوفيللانوس وكامبومانيس وأراندا . وابتهج الشعب بانتصار إيمانهم الذي يعتزون به . وفي ١٧٩٣ أنضمت أسبانيا إلى الحرب التي خاضتها الملكيات ضد فرنسا الثائرة .

في وسط هذا الممعمان حالف الحظ جويا . ففي أبريل ١٧٨٩ عين « رساما للحجرة » فلما مرضت خوزيفا وأشار الطبيب بهواء البحر علاجا لها صحبها جويا إلى بلنسية (١٧٩٠) حيث كرمه القوم كأنه فيلاسكويز أسبانيا الجديد . ووأضح أن الطلب أشد عليه من أقصى أسبانيا إلى أقصاها ، لأننا نجده في ١٧٩٢ في قادس ضيفا على سبستيان مارتينيز . وفي طريق عودته أصيب في أشبيلية بالدوار والشلل الجزئي ، فعاد إلى صديقه في قادس ، وظل نهما للقلق طوال فترة نقاهة غير قصيرة .

فأى مرض هذا الذي شكنا منه ؟ لقد وصفه بايو وصفا غامضا يقوله أنه « ذو طبيعه رهبة جدا » . وخامره الشك في أن جويا سيرأ منه يوما ما^(٩٩) . وكتب رياتر صديق جويا الوفي في مارس ١٧٩٣ : « لقد جلب على جويا هذا المأزق إفتقاره إلى التدبر . ولكن لأبد من مواساته بكل الشفقة التي يتطلها مصابه^(١٠٠) . » وقد فسر دارسون كثيرون هذا المرض بأنه من أعقاب الزهري^(١٠١) ولكن آخر تحليل طبي رفض هذا الرأي وشخصه بأنه التهاب أعصاب تلافيف الأذن^(١٠٢) . أيا كان الأمر فإن جويا كان فاقد السمع حين عاد إلى مدريد في يوليو ١٧٩٣ ، وكذلك ظل إلى يوم مماته . وفي فبراير ١٧٩٤ كتب خوفيللانوس في يوميته « كتبت إلى جويا ، فرد بأنه كان عاجزا حتى عن الكتابه نتيجة السكتة الدماغية التي أصيب بها^(١٠٣) » . ولكن الشلل زال شيئا فشيئا ، وما وافي عام ١٧٩٥ حتى كان في جويا من العافية ما أغراه بالوقوع في الحب .

وكانت تريزا كاتيانا ماريا ديل بيلار الدوقة الثالثة عشرة من سلالة ألبا الشهيرة . وكان أبوها قد تشرب الفلسفة الفرنسية ، فرباها على مبادئ متحررة ، وتلقت تعليمها هيا لها عقلا يقظا وإرادة عنيدة . فلما بلغت الثالثة عشرة تزوجت الدوق خوزيه دى توليدو أوزوريو ، ذوق ألبا البالغ من العمر تسعة عشر ربيعا . وكان الدوق رقيق الجسد معلولا ، فلزم بيته أكثر الوقت وأغرق نفسه فى الموسيقى . ورسمه جويا جالسا إلى البيانو أمام نوتة لهايدن . وكانت الدوقة متغطرة جميلة شهوانية . وقد لاحظ رحالة فرنسى أنه « ليس فى رأسها شعرة لا تثير الشهوة »^(١٠٤) ، وكانت تشبع رغباتها دون قيد من فضيلة أو نفقة أو طبقة . وأقنت فى بيتها شخصا معتوها ، وراهبا أعور ، وزنجية صغيرة أصبحت ربيبته المفضلة . ولكن كان وراء هذه المغامرات الجريئة نفس سمحة كريمة ، ولعلها أنعطفت نحو جويا لأنه كان أصم تعسا بقدر ما مالت إليه لأنه يستطيع أن يخلدها بفرشاته .

ولا بد أنه رآها مرارا قبل أن تقف ليرسمها . لأنها كانت تحوم داخل البلاط وخارجه وتثير الأقاويل بمغازلاتها وبعداها الجريء للملكية . وأول صورة تحمل تاريخا رسمها لها تبدو فيها بطولها كله . وقد لفت قسماتها النحيفة الحارة فى لمة من الشعر الأسود . ويمناها تشير إلى شىء على الأرض . فإذا تأملنا الصورة قرأنا عليها بوضوح هذه العبارة « إلى دوقة ألبا دى جويا ١٧٩٥ »^(١٠٥) . وهنا إيماءة إلى صداقة قائمة فعلا . وليست الصورة من روائع جويا . ويفضلها كثيرا تلك التى رسمها فى العام نفسه لفرانسيسكو بايو الذى كان قد مات لتوه . وفى نوفمبر خلفه جويا مديرا لمدرسة التصوير بالأكاديمية .

ومات دوق ألبا فى يونيو ١٧٩٦ . وأعتكفت الدوقة فترة حداد وجيزة فى ضيعتها الريفية بسانلوكار ، بين أشبيلية وقادس . وليس من المؤكد أن جويا رافقها ، ولا علم لنا إلا بغيابه عن مدريد من أكتوبر ١٧٩٦ إلى إبريل ١٧٩٧ . وبتدوينه فى كراستين رسوما لبعض ما رأى فى سانلوكار . ومعظم الرسوم تبدو فيها الدوقة تستقبل الضيوف ، أو تربت الزنجية ، أو تشد شعرها فى نوبة غضب ، أو تتقبل (بينما تنقل الخادمة المبوللة)^(١٠٦) ، أو يغشى

عليها في نزهة ، أو تعبث مع منافس أو آخر ممن ينافسون جويا على يديها الملاطفتين . وتدل الرسوم التخطيطية على غيرته المتصاعدة ، وتبدو فيها أيضا امرأة أخرى - تخرج عارية من الحمام ، أو ترقد على الفراش نصف كاسية أو تضع الرباط على ساق بديعة التكوين ، ولعل جويا انغمس كالذوقة في انحرافات الحب . ومع ذلك فالراجح أنه في سانلوكار رسم أعظم ما يفخر به من صورها (١٠٧) - في زى « مانخا » وقحة ترتدى ثوبا أسود في صفرة ، بخزام من القرمز والذهب حول خصرها النحيل ، وطريحة سوداء فوق رأسها ، وفي يدها (وهي في حد ذاتها من آيات التصوير) خاتمان يحمل أحدهما اسم « ألبا » والآخر « جريا » ، وتشير سبابتها إلى اسمه ، وتاريخ ١٧٩٧ ، مكتوبين على التربة الرملية تحت قدميها . وكان يرفض دائما بيع هذه اللوحة .

وكانت مغامرة غرامه المزدهر قد صورت حين رجع جويا إلى مدريد . وتتهمها بعض رسوماته « الكابريكو » (١٧٩٧) بالاستسلام الفاجر لأشتات من ذكور يفتقرون إلى اللياقة . وقد أتهمها جودوى باغواء وزير الحربية وكتب إلى الملكة يقول أن ألبا وكل إنصارها ينبغي أن يدفنوا في حفرة كبيرة (١٠٨) . . وحين ماتت الذوقة (٢٣ يوليو ١٨٠٣) وهي بعد في الأربعين ، أرجفت مدريد أنها سممت ، وعطف الناس عليها لأنها خلفت قدرا كبيرا من ثروتها الضخمة لخدمها . كذلك أوصت براتب سنوى يبلغ ٣,٦٠٠ ريال لخافير بن جويا . وأمر الملك بالتحقيق في موتها - وعين جودوى رئيسا للمحققين -- وزج بالطبيب وبعض أتباع الذوقة في السجن ، وألغيت وصيتها ، وحرم خدمها من أنصبتهم التي أوصت لهم بها ، وسرعان ما تزينت الملكة بأجمل جواهر ألبا (١٠٩) .

(ج) قصة المجد

كان جويا قد إستقال عام ١٧٩٧ من منصبه مديرا للتصوير في الأكاديمية ، فقد أعجزته كثرة شواغله الآن عن التدريس . وفي ١٩٧٨

أختير لزخرفة قبة كنيسة سأن أنطونيودي لا فلوريدا وقلب قوصراتها ،
ومع أنه أثار غضب الأكليروس بتصويره الملائكة بأطراف شهوانية ،
إلا أن الكل تقريباً أجمعوا على أنه نقل إلى تلك الفراغات المقدسة ، في صورة
الهام ، حياة شوارع مدريد ودمها . وفي ٣١ أكتوبر ١٧٩٩ عين « مصور
البلاط الأول » براتب قدره خمسون ألف ريال في العام . ورسم في (١٨٠٠)
أشهر لوحاته قاطبة وهي « شارل الرابع وأسرته » (١١٠) — وهي كشف
قاس عن بلاهة الأسرة المالكة ، ونحن نقشعر حين نتخيل منظر هذه المجموعة
من الأبدان المنتفخة والأرواح القميئة إذا جردوا من ثيابهم البراقة — وتلك
براعة في الأشعاع والتألق ندر أن بزها رسام في تاريخ الفن . ويروى التاريخ
أن الضحايا أعربوا عن كامل الرضى عن اللوحة (١١١) .

وفي ركن من اللوحة رسم جوياء نفسه . وعليها أن نغفر أنانية صورته
الذاتية الكثيرة ، ولا ريب في أن بعضها كان دراسات تجريبية استخدم فيها
مرآة ، شأنه فيها شأن ممثل يتدرب على التعبير بسحنته أمام المرآة ، وأثنان
منهما رائعتان . وخيرها (اللوحة الأولى من الكابريكو) يبدو فيها في الخمسين ،
أصم ولكن في كبرياء ، له ذقن عدواني ، وشففتان شهوانيتان وعيون فظة ،
وشعر ينمو فوق أذنية ويكاد يصل إلى ذقنه ، وتتوج هذا كله قبة حريرية
فأخرة تعلو رأسه الضخم كأنها تحدد لجميع نبلاء الدنيا المحظوظين . وبعد تسعة
عشر عاماً من رسمه هذه اللوحة ، وبعد أن نجا من ثورة « رمى القبة » ،
وفتح قميصه عند عنقه ، وكشف عن نفسه في مزاج ألطف ، لم تزل به
كبرياؤه ، ولكن فيه من الثقة الكبيرة بنفسه ما يربأ به عن التخديبات (١١٢) .

وكان رسم الأشخاص أقوى نواحي فنه . ومع أن معاصريه كانوا
يعلمون بأنه لن يتملقهم ، فأنهم خضعوا في لحظة لحكم فن راودهم الأمل في أنه
سيحمل ذكراهم قروناً طوالاً سواء كانت الذكرى مبعث صيت ذائع أو عار
يخزيهم . ولدينا علم بثلاثمائة نبيل وثمانية وثمانين عضواً في الأسرة المالكة
جلسوا أمامه ليرسمهم ، وقد بقيت من هذه الصور مائتان . ومن أفضلها
صورة لفردينان جيجارويه ، السفير الفرنسي ، وقد أتى بها صاحبها إلى

باريس ، وإقتناها اللوفر في ١٨٦٥ ، وإليها يرجع بعض الفضل في بعث شهرة جويا في فرنسا . وأروع ما رسم من صور الأطفال صورة دون ما نويل أوزوريو دي زونيغا ، المحفوظة بمتحف المتروبوليتان للفن بنيويورك ، هنا إدرك جويا فيلاسكيز . وقد ضارع فيلاسكيز ثانية في كوكبة النساء اللاتي صورهن ، وأنتظمت صورهن أشتاتا ، فيها النحيلات مثل « الطفلة الملكية ماريا يوزيفا » ، وفيهن المرأة الساحرة الخلابة مثل السنيورا جارثيا (١١٣) ، والممثلة المكتبة « لا تيرانا (١١٤) » .. جمال مصور ولكنه يخفى مكانه للشخصية .

أما أكثر نساء جويا سفورا فهي « الماخا » الواقعة التي رقدت حوالى (١٧٩٨) خالية من كل زينة يرسم لها « الماخا العارية » ؛ ثم كاسية في اغراء يرسم لها « الماخا في ثيابها » وهاتان اللوحتان الصنوان تجتذبان من رواد البرادو عددا غميرا كالذى تجتذبه الموناليزا من رواد اللوفر . والماخا العارية ولوحة فيلاسكيز « فينوس في المرأة » هما الصورتان العاريتان الوحيدتان في التصوير الأسباني ، لأن رسم العرايا في الفن الأسباني كان عقابه السجن سنة ومصادرة المنقولات والننى . وقد غامر به فيلاسكيز في حماية فليب الرابع ، وجويا في حماية جودوى الذى وافق جويا على تفضيل الشدين الكبيرين والحصر النحيل والشفاه الممتلئة . « وماخا » جويا لم تكن صورة لدوقة ألبا رغم ما تواتر عنها ، كذلك لم تكن الكاسية التي رسمها جويا لتحل محل العارية حين جاء الدوق الغاضب (كما تروى الأسطورة) وفي عينيه نذير المباراة . ولكن اللوحتين اشتريتهما الدوقة أو أعطيتا لها ، وانتقلتا بعد وفاتها إلى مجموعة جودوى .

وبينما كان جويا يمد أسرته بالمال الذى يكسبه من تصوير الأشخاص ، راح يتسلى (١٧٩٦ - ٩٧) بمحفورات وصور مائبة نشرها في ١٧٩٩ على أنها « نزوات » .. ثلاث وثمانون صورة لعقل أرزن فيه خشونة وغضب ، تصف في هجاء قائم وعناوين ساخرة عادات جياه وأخلاقه ونظامه . وألمع هذه السلسلة هي رقم ٤٣ : وهي تصور

رجلا استسلم للنوم على مكتبه بينما العفاريت تحوم حول رأسه : وعلى المكتب عبارة تقول « حلم العقل يبعث العفاريت » . وقد فسر جويا هذا بأن « الخيال إذا هجره العقل أفرخ العفاريت ، وإذا اتحد بالعقل كان خالق الفنون ومبدع أعاجيبها ^(١١٤) » . وهذه طعنة للمخرفات التي أظلمت عقل أسبانيا ، ولكنها كذلك وصفت لنصف فن جويا . فلقد كانت الأحلام المرعبة لا تبرحه ، « ونزواته » على الأنحص تمتلئ بمناظرها المروعة . هناك ترى جسد الإنسان وقد انحط إلى عشرات الأشكال الوارمة ، المعجفاء ، الكسيحة ، الوحشية ، والبوم والقطط تنظر إلينا شزرا ، والذئاب والنسور تجوس خلصة ، والساحرات يطرن في الهواء ، والأرض تبعثت فيها الجماجم وعظام السيقان وجثث الأطفال حديثي الولادة حديثي الموت . وكأنما قفز خيال هيروديموس بوش المريض عبر فرنسا متخطيا القرون ايدخل عقل جويا ويشيع فيه الفوضى .

أكان جويا عقلانيا ؟ كل ما نستطيع أن نقواه هو أنه فضل العقل على الخرافة . ففي أحد رسومه صور شابة مكلمة بالغار ممسكة بميزان تطارد طيوراً سوداء بالسوط ، وتحتم الصورة كتب جويا « أيها العقل المقدس لا تبق على أحد ^(١١٦) » . وفي رسم آخر رهبان يجردون أنفسهم من أرديتهم ^(١١٧) ؛ وقد ركب على جسد راهب يصلي وجه مجنون ^(١١٨) . وصور « محكمة ديوان التفتيش ^(١١٩) » مشهداً كثيلاً من ضحايا مساكين تحاكمهم سلطة باردة الشعور . وصور يهودياً مقيداً بالأغلال في زنزانة التفتيش ، وكتب هذا التعليق « أي زاباتا ، أن مجدك سيدوم إلى الأبد ^(١٢٠) » . أكان هذا صدى لكتاب فولتير « أسئلة زاباتا » ؟ وقد رسم تسعاً وعشرين لوحة لضحايا التفتيش يعانون شتى العقوبات ^(١٢١) . وفي آخرهم رسم إنساناً مبهجاً فوق هذا العنوان « الحرية المقدسة ! » ^(١٢٢) ومع ذلك ظل إلى يوم مماته يرسم علامة الصليب على وجهه في ورع . ويدعو المسيح والقديسين ويتوج رسائله برسم الصليب ، وربما كانت هذه كلها آثاراً متخلفة من عادات كونها في صباه .

د - ثورة

أكان جويًا ثائراً ؟ كلا . لا بل أنه لم يكن حتى جمهورياً . وليس في فنه أو كلامه علامة تدل على أنه يرغب في الاطاحة بالملكية الأسبانية . وقد ربط شخصه وحظه بشارل الثالث ، وشارل الرابع ، وجودوى ، وجوزف بونابرت ، وعاشر نبلاء البلاط في سرور وابتهاج . ولكنه خبر الفقير من قبل ، وما زال يراه من حوله ، ونفوره لإملاق الجماهير وماترتب عليه من جهل وخرافه ، وتقبل الكنيسة للفقير الجماعي نتيجة طبيعية لطبيعة البشر وفوارقهم . وقد نخلد نصف فنه الأغنياء ، أما النصف الآخر فكان صرخة تطالب بانصاف الفقراء ، واحتجاجا على همجية القانون وديوان التفتيش والحرب . كان موالياً للملكية في لوحاته الشخصية ، كاثوليكيًا في صوره ، متمرداً في رسومه ، ففيها أعرب بقوة تكاد تكون وحشية عن مقتته للظلامية والظلم والحماقة والقسوة . ويمثل رسم منها رجلاً ممدداً فوق مخدعه وعنوان الرسم « لأنه اكتشف حركة الأرض » . ورسم آخر يصور امرأة وضعت في المقطرة لأنها « أبدت عطفها على قضية التحرير » .

ومن هؤلاء الأسبان الذين ستموا أنفسهم تحريرين ؛ يبدو أنهم كانوا أول حزب سياسي استعمل ذلك الاسم . وقد عنوا به التدليل على شوقهم إلى الحرية - حرية العقل من الرقابة ، وحرية الجسد من الانحطاط ، وحرية الروح من الطغيان . وكانوا قد تالقوا في عرفان « التنوير » الوافد من حركة التنوير الفرنسية . ورحبوا بدخول قوة فرنسية في أسبانيا (١٨٠٧) ، والواقع أن نصف السكان رحبوا بها جيشاً للتحرير ؛ ولم يسمع احتجاج حين استقال شارل الرابع وتوج ولده فرديناند السابع تحت حماية جنود مورا . وقد رسم جويًا صورة للحاكم الجديد .

والكن مزاج الشعب ومزاج جويًا تغيرا حين استدعى نابليون شارل الرابع وفرديناند السابع إلى بايون وخلعهما ؛ ونفى أحدهما إلى إيطاليا

والآخر إلى فرنسا ، ونصب أخاه جوزف ملكا على أسبانيا . وتجمع حشد غاضب أمام القصر الملكي . وأمر مورا جنده بأن يخلو الميدان ، ففر الجمع ، ولكنه عاد إلى الاحتشاد حتى بلغوا عشرين ألفا في ميدان مايور . فلما زحف الجنود الفرنسيون والمماليك نحو الميدان أطلقت عليهم النيران من النوافذ والبواكي ، فاشتد غضبهم ، واقتحموا البيوت وراحوا يقتلون أهلها دون تمييز . ودارت بين الجند والجماهير معركة امتدت طوال النهار ، هو يوم مايو الأشهر (٢ مايو ١٨٠٨) ، وسقط مئات الرجال والنساء صرعى ، وشهد جويا من موضع قريب موت شطراً من المذبحة (١٢٣) . وفي ٣ مايو أعدم ثلاثون من السجناء الذين قبض عليهم الجند بواسطة فرقة لإطلاق النار ، وأعدم كل أسباني أمسك متلبساً ببندقية في يده . وهبت أسبانيا الآن كلها تقريبا ثائرة على الفرنسيين ، وسرت « حرب تحرير » من إقليم لأقليم ، ولطعخت الطرفين بما اقترفا من فظائع وحشية وشهد جويا بعضها ولم تبرحه ذكراها حتى يوم مماته . وفي ١٨١١ كتب وصيته مخافة أن يتفاقم سوء الحال . وفي ١٨١٢ ماتت خوزيفا . وفي ١٨١٣ استولى ولنجتين على مدريد ، وعاد فرديناند السابع إلى عرشه .

واحتفل جويا بانتصار أسبانيا برسم لوحتين من أشهر لوحاته (١٨١٤) (١٢٤) . إحداهما « يوم مايو » أعاد فيها بناء مارآي أو سمع أو تخيل من المعركة الناشبة بين جماهير مدريد وجنود الفرنسيين والمماليك . فوضع المماليك في القلب ، لأن اشتراكهم في القتال هو الذي أثار أبلغ استنكار في الذاكرة الأسبانية . ولا داعي للسؤال هل كانت الصورة تاريخاً صحيحاً ، فهي فن رائع قوى ، ابتداء من تدرجات الألوان التي توهم على جواد المملوك الجند وانتهاء بوجوه الرجال الذين روعهم ووحشهم الاختيار بين أن يقتلوا أو يقتلوا . وأنصع حتى من هذه اللوحة اللوحة الأخت « الرمي بالنار في الثالث من مايو » - وفيها فرقة لحماة البنادق الفرنسيين يعدمون السجناء الأسبان . وليس في فن جويا ما هو أبلغ وقعاً في النفس من التباين بين الرعب والتحدى في الشخصية الوسطى في تلك المذبحة .

والآن وقد بات جويًا أرملاً ، أصم ، مكرهاً على الصمت ، فقد انكفأ إلى فنه وهو ما يزال « مصور الحجرة الملكية » ذا المعاش المقرر ، ولكنه لم يعد أثيراً لدى البلاط . ولعل أقوى محفوراته قد حفرها في ١٨١٢ ، وهي « العملاق » (١٢٥) - وتمثل هرقول بوجه كاليبان ، جالساً على حافة الكرة الأرضية ، كأنه مارس يستريح بعد حرب ظافرة . وكان طوال الفترة من ١٨١٠ يرسم رسوماً تخطيطية صغيرة ثم يحفرها ويطبّعها ، وقد سهاها « العقابيل القتالة » لحرب أسبانيا الدموية مع بونابرت ، وغيرها من النزوات . ولم يجرؤ على نشر هذه الرسوم الخمسة والثمانين ، ولكن أوصى بها لولده ، الذي باعها ابنه لأكاديمية سان فرناندو ، والتي نشرتها عام ١٨٦٣ بعنوان « كوارث الحرب » .

وهذه الرسوم التخطيطية ليست مشاهد عادية للمعارك يستعفى القتل فيها في ثوب البطولة والمجد ، إنما هي لحظات من الرعب والقسوة تنسى خلالها ضوابط الحضارة الهزيلة في حميا الصراع ونشوة الدماء . هنا بيوت تحترق وتنهار على ساكنيها ، ونسوة يهرعن إلى المعركة بحجارة أو رماح أو بنادق ، هنا نساء تهتك أعراضهن ، ورجال يشدون إلى أعمدة أمام فرق ضرب النار ، ورجال طاحت سيقانهم أو أذرعهم أو رؤوسهم ، وجندى يحب الأعضاء التناسلية لرجل (١٢٦) وجثث تخورق فوق جذوع أو أطراف الشجر الحادة ، ونساء ميتات مازان قابضات على أطفالهن الرضع ، وأطفال يرقبون في هلع قتل آبائهم ، وأكديس من الموتى يقذف بهم في الحفر ، والنسور تستمتع بالتهام الموتى من الآدميين . وتحت هذه الصور أضاف جويًا تعليقات ساخرة . « هذا ما ولدت له » (١٢٧) ، « هذا رأيته » (١٢٨) ، « لقد حدث هكذا » (١٢٩) ، « ليدفنوا الموتى ويلزموا الصمت » (١٣٠) . وفي النهاية أعرب جويًا عن يأسه وأمله . فالصورة رقم ٧٩ تمثل امرأة تموت بين الحفارين والكهنة ، وعنوانها « الحق يموت » ، ولكن الصورة رقم ٨٠ تظهرها وهي تشع ضياء ، وتساءل « أتبعث حياة مرة أخرى ؟ » .

هـ - الجدار

في فبراير ١٨١٩ اشترى بيتاً ريفياً على الضفة الأخرى لنهر مانزاقا ريس . كانت الأشجار تظلمه ، ومع أنه كان عاجزاً عن سماع شللو الغدير الذي حفر به ، فإنه استطاع أن يحسّ الدرس المستفاد من جريانه الهادئ المطمئن . وكان جيرانه يسمون بيته « بيت الأصم » . ولما كان خافراً قد تزوج واستقل ببيته ، فقد صحب جوريا معه دوناً لونا دياوايس ، خليلة ومديرة لبيته . وكانت امرأة سليطة اللسان قوية البدن . ولكن جورياً كان في حصن حصين من لسانها السليط . وأتت معها بطفلين - صبي هو جييرمو ، وفتاة صغيرة مريحة تدعى ماريا ديل روزاريو . وقد أصبحا عزاء الحياة الفنان في شيخوخته .

واقعد كان في أمس الحاجة لهذا الحافظ الصحي لأن عقله كان على شفا الجنون . على هذا النحو فقط نستطيع أن نفهم « الرسوم الزنجية » التي غطى بها كثيراً من جدران البيت الذي كان مستشفاه . وراح يرسم بالأسود والأبيض في الأغلب ، وكأنه يعكس ظلام عقله . ولم يعط حدوداً معينة للأجساد التي رسمها وكأنه وفي لغموض رؤاه . ولكنه استعمل ألواناً جصية حسنة ليثبت بسرعة على الحائط صور حلم سريعة الزوال . وقد رسم على جدار جانبي طويل « رحلة سان ايزيدرو » وهو العيد الذي رسمه منهجاً عام ١٧٨٨ قبل إحدى وثلاثين سنة ولكنه الآن أصبح مشهداً كثيباً لمتعصبين متوحشين مخمورين . وجمع على الجدار المقابل أشخاصاً أفطع حتى من هؤلاء في « سبت الساحرات » وهن يتعبدن لنيس أسود ضخيم على نحو رهيب لأنه شيطانهن وإلاههن الأمر . وفي أقصى الحجرة ارتفعت أبشع صورة في تاريخ الفن ، صورة ساترن يفترس ابنه - مارد يفترس طفلاً عارياً ، أكل رأسه وذراعه وأخذ يلتهم الذراع الباقية وهو يرش الدم من حواه (١٣١) . وربما كانت الصورة رمزاً مجنوناً للأمم مجنونة تأكل بنيتها في الحرب . هذه رؤى رجل تعذبه أطياف الموت المروعة فهو يرسمها في جنون ليطردها من ذاته ويثبتاً على الجدار .

وفي ١٨٢٣ هربت ايوثاديا إلى بوردو بولديها خوفاً من الاعتقال

بسبب نشاطها الماسونى . وقرر جويا أن يلحق بهم بعد أن ترك وحيداً مع الجنون الذى رسمه على جدرانہ . واكنه لو رحل يغير إذن من الملك لفقد حقه فى الراتب الرسمى الذى كان يتقاضاه بوصفه عصور الحجرة ، فالتمس أجازة شهورا للاستشفاء بمياه بلومبيير ، فمنح الأجازة . ونقل ملكية بيته لحفيده ماريانو ، وفى يونيو ١٨٢٤ يمم شطر بوردو ، وليوثاريا ، وماريا ديل روزاريو .

وبات حبه لحفيده ماريانو العاطفة المشوبة المتسلطة عليه كما دنت منيته . فأوصى بمعاش سنوى للصبي وعرض دفع النفقات إذا أتى خافيير بماريانو إلى بوردو . ولم يستطع خافيير الحضور ولكنه أرسل زوجته وابنه ، فلما وصلا عانقهما جويا فى انفعال انهار بسببه واضطر إلى ملازمة الفراش . وكتب إلى ابنه يقول : « يا عزيزى خافيير ، إنما أردت أن أخبرك بأن هذه الفرحة كلها كانت فوق ما احتمال . . . أدعوالله أن يتيح لك أن تأتى وتأخذها وعندها تفيض كأس سعادتى (١٣٢) » . وفى صباح الغد احتبس صوته وشل نصف بدنه . وطال احتضاره ثلاثة عشر يوما وهو ينتظر بصبر نافذ مجيء خافيير دون جدوى . ومات فى ١٦ ابريل ١٨٢٨ . وفى ١٨٩٩ نقل رفاته من بوردو إلى مدريد ودفن أمام مذبح كنيسة سان انطونيو دى لافلوريدا ، حيث رسم قبل ساعة عام تحت القبة آلام الحياة الأسبانية وأحزانها وأفراحها وقصص حبها .



الفصل الثاني عشر

وداعا إيطاليا

١٧٦٠ - ١٧٨٩

(١) جولة وداع

لو سمحنا لأنفسنا بنظرة واحدة أخرى إلى إيطاليا لوجدناها حتى في هذه القيلولة الظاهرية دافئة بالحياة . فسرى تورين تحتضن الفيرى ، ولوكانت تنشر موسوعة ديدرو ، وفلورنسة تزدهر ثانية تحت حكم الدوق الكبير ليوبولد ، وميلان تصالح القانون بفضل بيكاريا وبافيا وبولونيا تهزان طربا لتجارب فولتا وجلفاني ، والبندقية تعاني من سلوك كازانوفا ، ونابلي تتحدى البابوية ، وروما متورطة في مأساة اليسوعيين ، وعشرات من مرابي الموسيقى تصدر الأوبرا ومهرة العازفين ليهذثوا صدر الأقطار المتوحشة عبر الالب . وسنلتقى في إيطاليا بمائة ألف أجنبي قدموا إليها ليدرسوا كنوزها وليصطلوا بشمسها . ففي هذا العهد وفد عليها جوته بعد أن أرهقه نبلاء قمار ليجدد شبابه ويروض ربة شعره .

كان انطباع جوته الأول وهو منحدر من الالب إلى فينتسيا ترد نتينا (سبتمبر ١٧٨٦) تأثره بالهواء المعتدل والجو المشرق الذي « يضيف غاية البهجة على مجرد الوجود بل حتى على الفقر »^(١) ثم هذه الحياة الطليقة : « فالأهالي دائماً خارج بيوتهم وهم نحاول بالهم لا يفكرون في شيء . إلا في أن يحبوا » . وظن أن التربة المثمرة لا بد أن تجود على هؤلاء القوم البسطاء بحاجاتهم المتواضعة دون ابطاء ، ولكن الفقر وعدم وجود الوسائل الصحية في المدن الصغيرة افزاعة :

« حين سألت النادل عن مكان (لقضاء الحاجة) أشار لي على الفناء قائلا « ممكن ، تحت ، في الحوش » . فسألته « أين ؟ فقال في لهجة ودية « في أي

مكان ، كما تشاء » . . . فكل الافنية الامامية والاعمدة تلوئها الأقدار ، لأن القوم يقضون حاجاتهم بطريقة طبيعية جدا » (٢) .

على أن التكيف الحسى جعله يسلم بالأمر الواقع شيئا فشيئا .

وكانت البندقية تستمتع بانحلالها اللطيف ، فحوالى ١٧٧٨ وصف كارلو جوتسى فى مبالغة تغار على الفضيلة ما بدا له أنه انحلال عام فى الأخلاق :

« إن منظر النساء وقد انقلبن رجالا ، والرجال نساء ، وكلهم نسانيس ، وكلهم غارقون . . . فى دوامة الموضه ، يفسدون ويغوون بعضهم بعضا بلهفة كلاب الصيد تجرى وراء رائحة الفريسة ، ويتنافسون فى شهواتهم وسرفهم المدمر . . . ويحرقون البخور . . . ليزيابوس (٣) .
(إله الشهوة) »

وفى ١٧٩٧ ألقى الاوم على الفلسفة فى هذا الانهيار :

« أن الدين ، ذلك الكابح الصحى لشهوات البشر . . . قد أصبح هزوا بين الناس . ولست أملك إلا الإيمان بأن المشنقة مفيدة للمجتمع ، لأنها أداة لعقاب الجريمة وردع من تحدثه نفسه بالإجرام . ولكن فلاسفتنا العصرين نددوا بالمشنقة زاعمين أنها تحيز ظالم وهكذا زادوا جرائم القتل على الطريق العام والسرقات وأعمال العنف مائة ضعف .

« وقد أكدوا لنا أن ابقاء النساء فى بيوتهن لرعاية بنينهن وبناتهن . . . والأشراف على خدمة الأسرة واقتصادها ، إنما هو تحيز بال وهمى . وللتوانطلقت النساء من بيوتهن معربدات كالباحوسيات ، صائحات « الحرية . . . الحرية . . . » وغصت الشوارع بهن . . . وأسلمن أثناء ذلك عقولهن الطائشة إلى الموضات والبدع التافهة ، والملاهى ومغامرات الحب ومظاهر الدلال وسائر السفاسف . . . أما الأزواج فلم يؤتوا من الشجاعة ما يمكنهم من مقاومة هذا التدمير لشرفهم ومالهم وأسرههم ، وخافوا من أن يشهر بهم ويرموا بهذه الكلمة الرهيبة ، كلمة « التحيز » . . . فقد وصفت مكارم الأخلاق ،
(م ١١ — قصة الحضارة ج ٤٠)

والحشمة ، والعفة ، بأنها تحبز وحين أكرهت جميع هذه التحيزات المزعومة على الهروب ظهر الكثير من النعم الكبرى والبركات العظمى . كالكفر ، والاطاحة بالاحترام والتوقير ، وقلب العدالة رأساً على عقب وتشجيع المجرمين والرثاء لهم ، والخيالات الملتهبة ، والأحاسيس المرهقة ، والغرائز البهيمية ، والانهماك في جميع اللذات والشهوات ، والترف العائى والتفاليس والخianات الزوجية^(٤) . »

ولكن أسباب الانحلال الرئيسية كانت بالطبع اقتصادية وحربية ؛ ذلك أن البندقية فقدت ثراءها الذى أتاح لها الدفاع عن قوتها وعلى النقيض منها ازدادت قوة غريمتها النمسا البشرية ازدياداً مكنها من السيطرة على كل المداخل البرية إلى بحيرات البندقية ، ومن خوض بعض حملاتها الحربية على أرض الجمهورية المحايدة العاجزة .

وفى ٩ مارس ١٧٨٩ انتخب لودوفيكومائن لرئاسة الجمهورية — وكان بذلك آخر الأدواج المائة والعشرين الذين تعاقبوا على كرسى رئاسة البندقية فى استمرار رائع منذ عام ٦٩٧ . وكان رجلاً ذا ثراء طائل وشخصية هزيلة ، ولكن ما كان فى طوق الفقر أو الشجاعة أن يردا عنه مأساته . ذلك أن الباستيل سقط بعد أربعة أشهر ، وتسلمت عبادة الحرية على خيال فرنسا ، وحين أقبل هذا الدين مع فيالق نابليون اكتسح كل ايطاليا تقريباً تحت رايته وبقوة نشوته . وفرض الكورسيكى الظافر يظاهرة ثمانون ألف جندى على ملكة الادرياتيكي حكومة مؤتمته أملاها بنفسه (١٢ مايو ١٧٩٧) محجاً بأن القوات النمساوية قد استعانت عليه بأرض البندقية ، ومتهما البندقية بأنها ساعدت أعداءه سرّاً . فى ذلك اليوم أعطى الدوج مانن قلنسوة الرئاسة لأحد أتباعه بعد أن استقال ، وأمره قائلاً « نخذها بعيداً عني فإن نحتاج اليها ثانية^(٥) » وبعد أيام مات . وفى ١٦ مايو احتلت الجنود الفرنسية المدينة . وفى ١٧ أكتوبر وقع بونابرت فى كاميو فورميو معاهدة نقلت البندقية وكل الأقاليم التى تمتلكها تقريباً إلى النمسا فى مقابل تنازلات من النمسا لفرنسا فى البلجييك وضمفة الرين اليسرى . وحدث هذا بالضبط

بعد ألف ومائة عام من انتخاب أول دوج لحكم بحيرات البندقية والدفاع عنها .

أما بارما فكانت محمية أسبانية ، ولكن دوقها ، الدون فيليبي ، ابن فيليب الخامس وايز ابىالا فارنيزى ، تزوج لويزا اليزابث ابنة لويس الخامس عشر ، وقد عود نفسه عاداتها المسرفة وجعل بلاطه فرمايا مصغرة . وأصبحت بارما مركزاً للثقافة تختلط فيه أساليب الحياة العالمية فى بهجة ومرح . يقول كازانوفا « لقد خيل إلى اننى لم أعد عائشاً فى ايطاليا ، فكل شىء بدا منتمياً للجانب الآخر من الألب » ولم يكن المارة يتكلمون إلا الفرنسية والأسبانية^(٦) . وقام وزير مشتير يدعى جيوم دوتيو باصلاحات حافزة للدوقية . هنا كانت تنتج مصنوعات من أبداع أنواع النسيج والبلور والقاشانى .

أما ميلان فقد شهدت توسعا صناعيا ينبىء فى تواضع بما بلغت من تفوق اقتصادى فى ايطالية اليوم . ذلك أن الحكم النمساوى أرخى قبضته على قدرات الأهالى وإقدامهم . وتعاون الكونت كارل يوزف فون فرميان ، حاكم لومبارديا ، مع الزعماء الوطنيين على تحسين الإدارة ، وحدد من السلطة الظالمة التى كان يمارسها البارونات الأقطاعيون والإولييجركيون فى المدن . وظهرت طائفة من أحرار الاقتصاد يتزعمهم بيترى فرى ، وتشيزارى بونيزانا دى بيكاريا ، وجوفانى كارلى ، أعتنقت مبادئ الفريوقراطيين ، وألغوا المكوس على التجارة الداخلية ، وأنهموا نظام الالتزام الضرائبى ، ووزعوا العبء بفرض انضرائب على الأملاك الكنسية . ونمت صناعة النسيج حتى أنتظمت فى ١٧٨٥ تسعا وعشرين شركة تشغل ١٣٨٤ نولا . ومسحت الأراضي ، ومولت الدولة مشروعات الري ، وأشتغل الفلاحون بهمة صادقة . وفى السنوات الإحدى والعشرين فيما بين ١٧٤٩ و ١٧٧٠ إرتفع سكان الدوقية من ٩٠,٠٠٠ إلى ١٣٠,٠٠٠^(٧) . فى فترة انتعاش ميلانو هذه بنى مجتمعها التياترو الاسكالا (١٧٧٦ - ٧٨) ، الذى إتسع لـ ٣٦٠٠ متفرج تحيط بهم زخارف فاخرة كزخارف القصور ، وأحتوى تسهيلات

للموسيقى ، والسمر ، والأكل ، ولعب الورق ، والنوم . وفوق هذا كله صهر بجاً للمياه صمم لاطفاء أى حريق . هنا ظنر تشيا روزا وكيروبيني بانتصارات مدوية .

وكان العصر عصر البطولة لكورسكا . لقد كانت تلك الجزيرة الحبلية الصغيرة مثقلة بأحداث التاريخ . فالفيثيقيون القادمون من آسيا الصغرى أقاموا مستعمرة فيها حوالى ٥٦٠ ق . م . ثم قهرهم الأثروريون ، الذين قهرهم القرطاجنيون ، الذين قهرهم الرومان ، الذين قهرهم الروم البيزنطيون ، الذين قهرهم الفرنجة ، الذين قهرهم المسلمون ، الذين قهرهم إيطاليوتسكانيا ، الذين قهرهم البيزاويون ، الذين قهرهم الجنويون (١٣٤٧) . ومات فى ذلك القرن ثلثا السكان من الطاعون الأسود . وفى ظل الحكم الجنوى انحدر الكورسيكيون الذين أرهقهم الوباء وغارات القراصنة ، والذين حرمت عليهم المناصب الكبرى وأثقلت كواهلهم بضرائب لا يطيقونها ، وانقلبوا إلى نخال أشبه بالتوحش لم يحترم فيها قانون غير قانون الثورات العنيفة . . وأخفقت الثورات التى إندلعت بين الحين والحين لما أبتلى به القوم من غداوات طاحنة وما أفقدوا من العون الأجنبى . أما جنوه ففى سبيل الدفاع عن حياتها ضد الحيوش النمساوية استنجدت بفرنسا لتعينها على حفظ النظام فى كورسكا . واستجابت فرنسا مخافة أن يستولى البريطانيون على الجزيرة ويستخدموها قلعة يتسلطون منها على البحر المتوسط ، فاحتلت الجنود الفرنسية أياتشو وغيرها من الحصون الكورسيكية (١٧١٩ - ٤٨) . ولما بدا أن الأمن قد أستتب انسحب الفرنسيون ، وعاد سلطان جنوة إلى سابق عهده ، وبدأت ثورة باولى التاريخية .

وقد سبق بأسكالى دى باولى هذا بطولات غاريبالدى بقرن كامل . وقد وصفه اللورد شاتام بأنه « واحد من هؤلاء الرجال الذين لم يعد الناس يعثرون عليهم إلا فى صفحات بلوتارخ^(٨) » . ولد (١٧٢٥) أبنا لثائر كورسيكى وتبع أباه إلى المنفى ، ودرس فى نابلى على يد الاقتصادى المتحرر جينوفيزى ، وخدم فى جيش نابلى ، ثم عاد إلى كورسيكا (١٧٥٥)

وأختير ليقود تمردا على جنوه . وبعد عامين من القتال أفلح في طرد الجنوبيين من الجزيرة إلا بعض مدنها الساحلية فلما ولى رئاسة الجمهورية الجديدة بالانتخاب (١٧٥٧ — ٦٨) أظهر في ميدان التشريع والإدارة نبوغا لا يقل عن نبوغه في إستراتيجية الحرب وتكتيكها . فقد وضع دستورا ديمقراطيا ، وقمع الثورات ، وألغى حقوق أمراء الأقطاع الظالمة ، ونشر التعليم ، وأسس جامعة في عاصمته كورتى .

وأضطرت جنوه لعجزها عن قهره إلى بيع الجزيرة لفرنسا (١٥ مايو ١٧٦٨) بمليونى فرنك . ووجد باولى الآن نفسه يقاتل جنودا فرنسيين يعززون بالأمداد المرة بعد المرة . وكان سكرتيه ومساعدته فى ذلك الوقت كارلو بونابرى ، الذى ولد له ابن سماه نابليون بياتشور فى ١٥ أغسطس ١٧٦٩ . فلما قهر الفرنسيون باولى فى بونتينوفو (مايو ١٧٦٩) طلق هذا النضال الذى لا أمل فيه ولجأ إلى انجلترا ، وهناك منحته الحكومة معاشا ، وأذاع بوزوبل اسمه ، وكان جبرسون واحداً من أصدقائه . على أن الجمعية الوطنية لفرنسا الثورة استدعته من منفاه ، وأشادت به « بطلا وشهيدا للحرية » وعينته حاكما على كورسيكا ، (١٧٩١) . ولكن المؤتمر الفرنسى حكم بأن فى ميوله اليقوبية قصورا ، فأرسل لجنة لجامعة ، وخفف الجنود البريطانيون لنجدته ، ولكن القائد البريطانى أستولى على الجزيرة وأعاد باولى إلى انجلترا (١٧٩٥) . ثم جرد نابليون قوة فرنسية لتطرد البريطانيين (١٧٩٦) ، ورحب أهل الجزيرة بالفرنسيين باعتبارهم موفدين من قبل « الكورسيكى » ، وانسحب البريطانيون ، وخضعت كورسيكا لفرنسا .

أما توسكانيا فقد إزدهرت تحت حكم كبار الأدواق الهابسبورج الذين خلفوا آل مديتشى (١٧٣٨) . وبعد أن إتخذ حاكمها الأسمى فرانسوا اللورىنى النمسا مقرا له لزواجه من ماريا تريزا ، فوض الحكم إلى مجلس وصاية يرأسه زعماء وطنيون نافسوا الميلانيين الأحرار فى أصلاحتهم الاقتصادية ، فقد حققوا حرية التجارة الداخلية فى الغلال (١٧٦٧) قبل أن يبذل طورجو محاولة كمحاولتهم فى فرنسا بسبع سنين . وحين مات فرانسوا

وأعدائه على السواء . وقد أسدى له يوزف النصيحة من فيينا قائلاً :
« دعهم يغشونك أحياناً ، فهذا خير من أن تعذب نفسك عذاباً متصلًا
لا غناء فيه » . (١٠) فلما غادر ليوبولد فلورنسه ليخلف يوزف امبراطوراً
(١٧٩٠) انتصرت قوى الرجعية في تسكانيا وأدان البابا بيوس السادس
ريكي في ١٧٩٤ وأودعه السجن (١٧٩٩ - ١٨٠٥) حتى سحب هرطقاته .
ورد قدوم حكومة نابليون (١٨٠٠) الأحرار إلى سابق سلطانهم .

وهرول جوته إلى روما عبر تسكانيا . استمع إليه وهو يكتب في أول
نوفمبر ١٧٨٦ :

« وأخيراً وصلت إلى عاصمة العالم العظيمة هذه . . وكأنما طرت طيراً
فوق جبال النيرول . إن شوقى لبلوغ روما كان شديداً . . حتى كان التفكير
في التخلف في أى مكان ضرباً من الخيال ، وحتى فلورنسا لم أمكث فيها
سوى ثلاث ساعات . والآن ، كما أخالنى سأظفر بالهسدوء مدى الحياة ،
فلنا أن نقول إن حياة جديدة تبدأ حين يرى الإنسان بعينه كل ما لم يسمع
أو يقرأ عنه من قبل إلا قليلاً . وأنا الآن أرى جميع أحلام شبابه تتحقق
أمام عيني » .

وأى خليظ يدير الرؤوس كانت روما القرن الثامن عشر وهى تشغى
بالشحاذين والنبلاء ، بالكرادلة والحصيان المغنين ، بالأساقفة والبلغايا ،
بالرهبان والتجار ، باليسوعيين واليهود ، بالفنانين والمجرمين ، بالفتاك
والقديسين ، وبالسباح يبحثون عن الآثار نهراوعن الغوانى ليلا . وهنا ،
وعلى إثنى عشر ميلا من أسوار المدينة ، مدرجات وثنية وأقواس نصر ،
وقصور ونافورات من عهد النهضة ، وثلاثمائة كنيسة وعشرة آلاف قسيس
، ١٧٠,٠٠٠ نسمة . ومن حول الفاتيكان قلعة المسيحية الكاثوليكية ، عاش
صنف من الرعاع كانوا أشد ماعرف العالم المسيحي ضيقاً وتمرداً وعداءاً
للأكايروس . وكانت الكراسات البديثة المهاجمة للكنيسة يطاف بها في الشوارع ،
والمهرجون يقلدون في سخرية في الميادين العامة أقدم مراسم القديس .
ولعل فنكلمان وهو الرجل الحى الرقيق كان يبالغ قليلاً حين قال :

« في النهار يسود روما هدوء معتدل ، أما في الليل فإن الشيطان ينطلق من عقاله . ونتيجة للحرية الكبيرة التي تسود هنا ، ولعدم وجود أى نوع من أنواع الشرطة ، يتصل الشجار وضرب النار وإطلاق الصواريخ والألعاب النارية في جميع الشوارع الليل كله . . . والجواهر عاصية لا تخضع لسلطان ، وقد أعيا الحاكم كثرة النفي والشنق (١١) » .

كانت روما مدينة تتسم بطابع العالمية أكثر حتى من باريس . . . يختلط فيها الفنانون والطلاب والشعراء والسياح بالأخبار والأميرات في الصالونات وقاعات الفن والمسارح .

هنا كان فنكلمان ومنجز يبشران بإحياء الطراز الكلاسيكي ، وهنا كان البابوات المرهقون المحاصرون يكافحون لتهذئة نائرة الجواهر التي طحنها الفقر بالخبز والبركات الروحية ، ولتعطيل السفراء الذين يلحون في إلغاء الطائفة اليسوعية والحفاظ على صرح المسيحية المعقد بأسره من الأنهار تحت وطأة التقدم العلم وهجمات الفلسفة .

ولكن لنمضي قدما مع جيته إلى نابلي . لقد خيل إليه أنه لم يشهد قط مثل هذه الفرحة بالحياة :

« إذا كان في استطاعة المرء وهو في روما أن يعكف من فوره على الدراسة ، فليس في استطاعته هنا أن يفعل شيئا إلا أن يعيش . فأنت تنسى نفسك والعالم ، وأنا عن نفسي أجده شعورا غريبا أن أتنقل مع قوم لا يفكرون إلا في الاستمتاع بالحياة . . . هنا لا يعرف الناس شيئا بعضهم عن بعض . وقلما يلحظون أن غيرهم يسرون أيضا في طريق سيرهم جنبا إلى جنب معهم . وهم يجرون سحابة نهارهم خلفا وأماما في فردوس دون أن يتلفتوا حولهم ، ولو بدأ فكا الجحيم المجاوران ينفتحان ويثوران ، فإنهم يستنجدون بالقديس يتيواريوس (١٢) » .

وكان الدون كارلوس بعد رحيله عن نابلي قاصدا أسبانيا في ١٧٥٩

وفي ١٩ مايو ١٧٦٩ انتخب باجماع آراء الكرادلة الأربعين ، واتخذ اسم كلمنت الرابع عشر ، وكان يومها في الثالثة والستين .

ثم ألغى نفسه واقفاً تحت رحمة الدول الكاثوليكية . ففرنسا ونابلي .
تشبثان بالأقاليم البابوية التي استولتا عليها ، وأسبانيا وبارما تتخذان موقف
التحدي ، وهددت البرتغال بإقامة بطريركية مستقلة عن روما ، بل أن
ماريا تريزا التي كانت حتى ذلك الحين حارة الولاء للبابوية واليسوعيين ولكنها
الآن فقدت سلطانها الذي انتزعه منها ابنها حر التفكير جوزف الثاني ،
ردت على نداء البابا بطلب معونتها بأنها لا تستطيع مقاومة الإرادة الموحدة .
لمثل هذا للعدد الكبير من الملوك والحكام . وأصدر شوازيل الذي كان
مسيطراً على حكومة فرنسا آنذاك تعليماته ليرني بأن يخبر البابا أنه « إذا
لم يستطع التوصل إلى تفاهم مع فرنسا ففي استطاعته أن يعتبر كل علاقاته
بها منتهية »^(٢٤) .

وكان شارل الثالث ملك أسبانيا قد أرسل مثل هذا الانذار النهائي في
٢٢ ابريل . أما كلمنت ، الذي حاول كسب الوقت ، فقد وعد شارل بأنه
عن قريب « سأرفع إلى حكمة جلالته وذكائكم خطة للقضاء المبرم
على الجمعية »^(٢٥) . وأمر مساعديه بالرجوع إلى السجلات وتلخيص تاريخ
جمعية اليسوعيين وإنجازاتها وجرائمها المزعومة . ورفض التسليم بما طالب
به شوازيل من الفصل في النزاع خلال شهرين . وقد اقتضاه الفصل
ثلاث سنين ، ولكنه أذعن في النهاية .

ففي ٢١ يوليو ١٧٧٣ وقع الرسالة البابوية التاريخية ، وقد بدأت
بقائمة طويلة من الجماعات الدينية التي حظرها الكرسي البابوي المقدس
على مدى الأيام ، وذكرت الشكاوى الكثيرة التي رفعت ضد اليسوعيين ،
والجهد الكثيرة التي بذلها مختلف البابوات لعلاج المساويء المزعومة .
« وقد لاحظنا ببالحزن أن هذه العلاجات وغيرها مما استعمل بعد
ذلك لم يكن لها من الفاعلية أو القوة ما يضع حداً لهذه المتاعب والتهم .

والشكاوى^(٢٦) . واختتمت الرسالة بهذه العبارات « وإذ تبين لنا أن جمعية اليسوعيين لم تعد قادرة على أن تؤتي الثمرات الوفيرة والخير العظيم للذين من أجلهما أسست ووافق عليها العدد الكبير من البابوات أسلافنا الذين شرفوها بالكثير من المزايا الجديرة بالإعجاب ، وإذ رأينا أنه من المستحيل تقريباً - بل أنه مستحيل إطلاقاً - على الكنيسة أن تتمتع بسلام صادق متين ما بقيت هذه الطائفة . . . فاننا بعد الفحص المتأن ، ونتيجة لمعرفة الخاصة وبحكم كمال سلطتنا الرسولية ، نحل ونلغي بمقتضى هذه الرسالة البابوية جمعية اليسوعيين . ونبطل ونلغي كل مناصبها ووظائفها وإداراتها ، ودورها ، ومدارسها ، وكلياتها وخلواتها ، وملاجئها وسائر المؤسسات التي تخصها على أي وجه كائنا ما كان وفي أي إقليم أو مملكة أو دولة لما وجود فيها^(٢٧) » .

ثم وعدت الرسالة البابوية بصرف معاشات اليسوعيين الذين لم يرسموا بعد ويريدون العودة لحياة العلمانيين ، وأذن للكهنة اليسوعيين بالانضمام إلى الأكليروس غير الرهبان أو بأي طائفة دينية يوافق عليها الكرسي البابوي . وسمح لليسوعيين المقبولين في الرهبنة والذين تدرؤا أنفسهم ندرا نهائيا مطلقا بأن يبقوا في بيوتهم السابقة شريطة أن يلبسوا رداء الكهنة غير الرهبان ويخضعوا لسلطة الأسقف المحلي .

وفي معظم الحالات ؛ وبأستثناء بعض المبعوثين في الصين ، تقبل اليسوعيون حكم الإعدام هذا الذي أصدره البابا على جمعيتهم بامتنال ونظام ظاهرين .. بيد أن كراسيات غفل من اسم المؤلف طبعت ووزعت دفاعا عن قضيتهم ، وقبض على ريتشي وعدد من معاونيه بتهم لم تثبت عليهم قط بأنهم يتراسلون مع خصوم المرسوم . ومات ريتشي في السجن في ٢٤ نوفمبر ١٧٧٥ بالغاً الثمانية والسبعين .

ولم يعيش كلمنت الرابع عشر إلا عاما واحدا أو يزيد بعد المرسوم . وكثرت الشائعات بأن عقله اختل في شهوره الأخيرة . وقد اجتمعت عليه

شفندمان . . وقد طعنه القاتل الذى اشتبك معه عشرين طعنة ، فلما أقبل الحارس طعن الوغد نفسه . وليس هذا مايجرى به العرف هنا عموماً ، فالقاتل عادة يقصد أقرب كنيسة ، فتى بلغها أصبح فى مأمن تام» (٣١). وكانت كل كنيسة تعطى المحرم الأمان فى حرمها — أى الحصانة من الإعتقال مابقى تحت سقفها .

وحاول القانون كبح الجريمة بتشديد العقوبة أكثر مما حاولها بكهاية الشرطة . فقد نصت قوانين بندكت الرابع عشر الرحيم على عقوبات التجديف بالجلد ، فإذا تكررت الجريمة ثلاث مرات كان عقابها التشغيل خمس سنوات فى سفن الأسرى والعبيد . وكان السطو على دير للراهبات ليلا جنابة كبرى ، إما مغازلة امرأة شريفة أو معانقتها علانية فعقابه التشغيل المؤبد على هذه السفن . وكان تشويه السمعة الخلقية ، حتى إذا لم يحتو غير الصدق يعاقب بالإعدام ومصادره الممتلكات . (ومع ذلك لم يقلل هذا من المقطوعات الهجائية) . ومثل هذه العقوبة فرضت على حمل الطبنجات المخبأة . على أن الجناة كانوا فى كثير من المناطق يتفادون هذه الأوامر بالفرار إلى دولة مجاورة أو بفضل رحمة القاضى ، أو الاحتماء بالكنيسة . ولكن العقوبات كانت تنفذ بصرامة فى حالات عديدة . من ذلك أن رجلاً شتى لإدعائه أنه كاهن ، وآخر لسرقته ثوباً كهنوتياً باعه بفرنك وربع ، وثالث ضرب عنقه لكتابته خطاباً اتهم البابا كلمنت الحادى عشر بعلاقة غرامية مع ماريا كلمنتينا سويسكا (٣٢). وإلى تاريخ متأخر (١٧٦٢) كان السجناء تحطم أجسادهم على دولاب التعذيب ، عظمة بعد عظمة ، أو يسحلون على الأرض فى ذيل حصان مهموز . على أن من واجبنا أن نضيف جانباً أكثر إشرافاً على الصورة ، هو أن بعض الجمعيات الخيرات كانت تجمع المال لدفع غرامات السجناء وتحريرهم . وغدا إصلاح القانون ، سواء من حيث الإجراءات أو من حيث العقوبات ، جزءاً طبيعياً من الروح الرحيمة التى أنجبها أبوان — حركة تنوير إنسانية ، وأخلاقيات مسيحية تحررت من لاهوت قاس .

ومن مفاخر إيطاليا أن يصدر أقوى نداء يدعو لإصلاح القانون فى هذا

البنفرا تيللى . وعين هناك مساعدا لصيدلى الدير ، فتعلم من قواريره ومخابيره . وكتبه من الكيمياء والحيما ما يكفى لاعداد نفسه لاحتراف الشعوذة الطيبة . . . ولما كلف بأن يقرأ حياة القديسين على الرهبان وهم يتناولون طعامهم ، استبدل بأسماء القديسين أسماء أشهر مومسات بلرمو . وجلد عقاباً له ، فهرب من الدير وانضم إلى عالم المجرمين السفلى ، ودرس فن الأكل دون بدل العرق . واشتغل قواداً ومزوراً ومزيفاً للنقود ، وقارئاً للبحث ، وساحراً ، ولصاً ، وأفلح عادة فى إخفاء آثاره بمهارة عجزت معها الشرطة عن إدانته إلا بالوقاحة .

فدما رأى نفسه مشبوها على نحو يضايقه ، أنتقل إلى مسينا ، وعبر إلى ريدجو كالأبريا ، وجرب الفرص التى تتيحها نابلى وروما . وتكسب فترة بادخال لمسات على نسخ الصور وبيعها على أنها من صنعه . ثم تزوج لورنتسا فيلكيانى ، وأثرى ببيع جسدها . وأنتحل اسم المريكز دى بلجرينى ، وأخذ نبيلته المكسبة إلى البندقية ومرسليا وباريس ولندن . ثم دبر أن تمسك زوجته بين ذراعى كويكرى ثرى ، وعاشا على المال الذى ابتزاه نتيجة للخطأ شهورا . ثم غير اسمه إلى الكونت دى كاليوسترو ، وتنكر بشوارب ولبس حلة كولونيل بروسى ، وسمى زوجته من جديد بالكونتيسة سيراфина . ثم عاد إلى بلرمو ، وقبض عليه بتهمة التزوير ، ولكن أفرج عنه تحت الحاح منذر بالشر من أصحابه الذين روعوا القضاء .

وإذ بلغت سيراфина لكثرة تداولها . فقد أخذ يطبق ما تعلم من كيمياء فجهز وباع العقاقير التى ضمن إزالتها التجاعيد وتأجيجها لنار العشق . ولما عاد إلى إنجلترا أتهم بسرقة قلادة من الماس وقضى فترة فى السجن ثم انضم إلى جماعة الماسون وانتقل إلى باريس ، وادعى أنه الرئيس الأكبر للماسون المصريين . وأكد لعشرات السذج أنه عثر على الأسرار القديمة لاعادة الشباب ، الذى يمكن تحقيقه بعلاج يمتد أربعين يوما تستعمل فيه المسهلات والمعرقات وغذاء من الحذور ، والحجامة ، والتبصوفية^(٣٤) . وكان كلما أفتضح أمره فى مدينة مضى إلى غيرها ، واتصل بأسرها الفنية

بتفنيط عشوائى الأجدية ، باعتبار هذا اللقب تشريفا يفيد فى أبهر الراهبات وتحدى حكومات أوربا . ولد لمثل ومثلة فى البندقية عام ١٧٢٥ ، وظهرت عليه منذ طفولته امارات النشاط الذهني . تتلمذ لاحتراف القانون ، وزعم أنه نال الدكتوراه فى جامعة بادوا وهو فى السادسة عشرة . وعلينا فى كل خطوة من « مذكراته » الشائقة أن نكون على حذر من شطط خياله ، ولكنه يقص قصته بصراحة يدين بها نفسه لإدانة تحملنا على تصديقه حتى ونحن نعلم أنه يكذب .

وبينا كان فى بادوا حقق أول غزواته — وهى بتينا ، « فتاة جلوة فى الثالثة عشرة » وأخت لمعلمه الكاهن الطيب جوتسى . فلما مرضت بالجدرى عنى بها كازانوفا وأصيب بالمرض . ويزعم فى روايته أن أعمال الرحمة التى كان يقوم بها كانت تعدل غزواته الغرامية . وحين ذهب فى شيخوخته إلى بادوا لآخر مرة ، « الفيتا عجوزا ، مريضة ، فقيرة ، وقد ماتت بين ذراعى » . (٣٧) وكل عشيقاته تقريبا يصورهن مغرمات به إلى النهاية .

على أنه عانى من فقر مذل رغم درجته القانونية . مات أبوه ، وكانت أمه تمثل فى مدن بعضها وصل فى بعده حتى سانت بطرسبورج ، وتنسأه عادة . وكسب بعض المال من عزف الكمان فى الحانات والشوارع . ولكنه وهب القوة كما وهب الوسامة والشجاعة . فلما أصيب السناتور البندقي زوان براجادينو (١٧٤٦) بالنقطة وهو يهبط السلم ، احتمله ياكوبو بين ذراعيه وأنقذه من سقطة فجائية . وبعدها بسط عليه السناتور حمايته فى مآزق كثيرة وزوده بالمال لزيارة فرنسا وألمانيا والنمسا . وفى ليون انضم إلى الماسون الأحرار ، وفى باريس « أصبحت رفيقا ، ثم رئيسا للطائفة » . (ونحن نلاحظ فى شيء من الدهشة قوله « فى زمنى لم يكن فى فرنسا من يعرف كيف يبالغ فى الأسعار ») (٣٨) .

وفى ١٧٥٣ عاد إلى البندقية ، وسرعان ما لفت نظر الحكومة باحترافه حكمة السحر والنجيم . وبعد عام أبلغ محقق رسمى مجلس الشيوخ عنه فقال :

لقد أفلح في التسلل إلى قلب الشريف زوان براجادينو وابتز ماله ابتزازا باهظا وقد أخبرني بنديتو بيزانو أن كازانوفا بسبيله إلى أن يصبح فياسوفا قبلانيا وأنه يحاول التكسب بالحجج الزائفة يموه بها في مهارة على عقول ضحاياها وقد أمكنه اقناع براجادينو بأن في استطاعته استحضار ملاك النور لينفعه . (٣٩)

ويضيف التقرير أن كازانوفا قد بعث إلى أصحابه بكتابات تشي بحقيقته مفكرا ملحدا . ويقول كازانوفا « لقد وقر في نفسي سيدة تدعى مدام ممنو أننى أعلم ولدها مبادئ الإلحاد (٤٠) » .

« أن التهم التي وجهت إلى تتعلق بالكرسى (البابوى) المقدس ، والكرسى المقدس وحش ضار من الخطر أن تمسه . وكانت هناك ظروف معينة . . . جعلت من الصعب عليهم حبسنى في السجون الكنسية التابعة لمحكمة التفتيش ، ولهذا السبب تقرر في النهاية أن تناط محكمة تفتيش الدولة بمحاكمتى (٤١) » .

ونصحه براجادينو بالرحيل عن البندقية ، ولكن كازانوفا أبى . وفي الغداة قبض عليه ، وصودرت أوراقه ، وحبس دون محاكمة في البيومبي « ألواح الرصاص » وهو اسم أطلق على سجن الدولة البندقي نسبة إلى ألواح الرصاص المسقوف بها .

« حين جن الليل استحال على أن أنمض عيني لأسباب ثلاثة : أولها القيحان ، وثانيها الطنين الرهيب الذى تحدثه ساعة كتدرائية القديس مرقس التى كانت تدق وكأنها في حجرتى ، وثالثها ألوف البراغيث التى أغارت على بدنى تعضنى وتلدغنى وتسمم دمنى بحيث أصابتنى انقباضات عنيفة بلغت حد التشنجات » (٤٢) .

وحكم عليه بالسجن خمس سنين ، ولكنه هرب بعد أن ظل رهين محبسه خمسة عشر شهرا (١٧٥٧) بفضل سلسلة معقدة من الحيل

والمخاطرات والأهوال أصبحت روايته لها جزءا من « عدة نصبه » في كثير من الأقطار .

فلما عاد ثانية إلى باريس اشتباك في مبارزة مع فتى يدعى الكونت نيكولا دلانور دوقرن وأصابه بجرح ، ثم شفاه بمهرهم « سحرى » ، وكسب صداقته . فقدمه إلى عمه له غنية تسمى مدام دورفيه ، كانت شديدة الإيمان بقوى السحر ، مؤمنة أن تستعين بها على تغيير جنسها . واستغل كازانوفا سذاجتها ، ووجد فيها وسيلة خفية للثراء .

« لاني لا أستطيع وقد شخت الآن أن أرجع ببصرى إلى هذا الفصل من حياتى دون أن أحر خجلا » (٤٣) . وهذا اتصل على مدى فصول كثيرة أخرى من كتابه . وأضاف إلى دخله بالغش فى لعب الورق ، وتنظيم يانصيب للحكومة الفرنسية ، وبالحصول على قرض لفرنسا من الأقاليم المتحدة . وفى الرحلة من باريس إلى بروكسل « قرأت كتاب هلفتيوس « فى الروح » طول الطريق » . (٤٤) (وسيقدم للمحافظين مثالا مقنعا من إنسان حر التفكير انقلب رجلا فاسقا وان كانت المرحلة التالية هى العكس فى أغلب الثان) . وكان فى كل محطة يلتقط خلية ، وفى كثير من المحطات يجد خلية سابقة ، وبين الحين والحين يقع مصادفة على ذرية له لم يقصد انجابها .

وزار روسو فى مونمورانسى ، وفولتير فى فرنيه (١٧٦٠) وقد سبق أن استمتعنا بشطر من ذلك الحديث الخاص بينهما . وإذا جاز لنا أن أن نصدق كازانوفا ، فانه اغتتم الفرصة ليوبخ فولتير على فضحه سخافات الميثولوجيا الشعبية :

كازانوفا : هياك نجحت فى القضاء على الخرافة ، فإذا تحل محلها ؟

فولتير . يعجبني هذا ! حين أخلص البشرية من وحش ضار يفرسها ، أنسألى ماذا أحل محله ؟

كازانوفا : ان الخرافة لا تفترس البشرية ، بل انها على العكس
ضرورية لوجودها .

فولتير : ضرورة لوجودها ! ذلك تجديف مخيف . اننى أحب البشر ،
وأود أن أراهم أحرارا سعداء مثلى . والخرافة والحرية لا يمكن
أن يسيرا يدا بيد . أتظن أن العبودية تؤدي إلى السعادة ؟

كازانوفا : ان ماتريده إذن هو سيادة الشعب ؟

فولتير : معاذ الله ! يجب أن يكون للجواهر ملك يحكمها .

كازانوفا : فى هذه الحالة تكون الخرافة ضرورية ، لأن الشعب لن يعطى
رجلا هو مجرد لإنسان حق حكمه . . .

فولتير : أريد ملكا يحكم شعبا حرا ، ويلتزم قبله بشروط متبادله تمنع
أى ميل من جانبه للاستبداد .

كازانوفا : يقول أديسون أن هذا الملك . . . يستحيل وجوده . وأنا
متفق مع هوبز . فعلى المرء أن يختار من الشرين أقلهما ضررا .
والأمة التى تحررت من الخرافة هى أمة من الفلاسفة ، والفلاسفة
لا يعرفون كيف يطيعون . . وما من سعادة ترجى لشعب
لا يسمح ويذل ويظل مصفدا بالقيود .

فولتير : هذا شنيع ! وأنت فرد فى الشعب ! . . .

كازانوفا : ان العاطفة المسيطرة عليك هى حبك للبشرية . وهذا الحب
يعميك . أحب البشرية ، ولكنى أحبها كما هى . فالبشرية
ليست قابلة للمزايا التى تود أن تغدقها عليها ، فهذه المزايا
لن تزيدها إلا تعاسة وانحرافا

فولتير : يؤسفنى أن يكون لك هذا رأى السيئ فى اخوانك
فى الإنسانية (٤٥) .

وكان كازانوفا يشق طريقه أينما ذهب إلى بيت من البيوت الارستقراطية ،

لأن الكثير من النبلاء الأوربيين كانوا ماسونا ، أو روزيكروشين أو مدمنين على علوم السحر . وهو لم يقتصر على ادعاء العلم الغيبي في هذه الميادين ، بل أضاف إلى دعواه القوام المشوق . والوجه المتميز (وإن لم يكن وسيا) والتمكن من اللغات . وتأکید الذات الخداع ، ومعينا من القصص والفكاهات ، وقدرة خفية غامضة على الكسب في لعب الورق أو ألعاب الكازينوات . وكان حينما ذهب يساق عاجلا أو آجلا إلى السجن أو حدود البلاد . واضطر بين الحين والحين إلى الاشتباك في مبارزة ، ولكنه كالأمة في مراحل تاريخها لم يخسر قط .

وأخيرا غلبه الحنين إلى وطنه . وكان حرا في السفر أينما شاء في إيطاليا إلا في البندقية . والتمس الاذن مرارا بالعودة ، وأخيرا منحه ، وفي ١٧٧٥ عاد إلى البندقية . واستخدمته الحكومة جاسوسا ، وكان نصيب تقاريره الإهمال لاحتوائها على الكثير جدا من الفلسفة والقايل جدا من المعلومات ، فرفت . وانتكس إلى عادات صباه وكتب هجاء للشريف جريمالدي ، فأمر بأن يرح البندقية وإلا واجه السجن مرة أخرى في « ألواح الرصاص » ه ففر إلى فينا (١٧٨٢) . ثم إلى سببا ، ومنها إلى باريس .

وهناك التقى بالكونت فون فالدهشتين . الذي أحبه فدعاه إلى العمل أميناً لمكتبته في قلعة دوكس بيوهيميا . وكانت فنون كازانوفا في العشق والسحر وخفة اليد قد وصلت إلى نقطة تقلصت فيها عائداتها ، فقبل الوظيفة براتب ألف فلورن في العام . فلما وصل وتسلم منصبه ، أحزنه أن يكتشف أنه اعتبر خادما . وأن يتناول غدائه في قاعة الخدم . وفي دوكس انفق أعوامه الأربعة عشر الأخيرة من عمره . وهناك كتب « تاريخ حياتي » « أولا لتخفيف هذا الركود المميت الذي يقتلني في بوهيميا الحاملة هذه . . . وقد استطعت بالكتابة عشر ساعات أو اثني عشرة كل يوم أن أمنع الحزن الأسود من نهش قباي المسكين واتلاف عقلي » (٤٦) . وقد زعم الصديق المقنق في روايته . وهي في كثير من الحالات تتفق والتاريخ في الجزء والسخرية . بيد أننا كثيرا ما نفتقر إلى إثبات صحة روايته ،

ولعل ذاكرته تداعت بينما قوى خياله . ولا نملك إلا القول بأن كتابه من أكثر مخلفات القرن الثامن عشر فتنة واستهواء للقارئ .

وقد عمر كازانوفاً حتى ناح على موت النظام القديم فقال : « إيه يا فرنسا العزيزة الجميلة ! - البلد الذى كانت الأمور فى تلك الأيام تجري فيه رخاء رغم أوامر الاعتقال الملكية ، ورغم السحرة ورغم فقر الشعب ! أى فرنسا العزيزة ، إلام انتهى أمرك اليوم ؟ لقد أصبح الشعب ملكاً عليك ، الشعب الذى هو أشرس الحكام قاطبة وأشدّهم ظغيانا » (٤٧) .

وهكذا فى آخر أيامه ، وهو ١٧٩٨ يونيو ، اختتم حياته فى تقوى أتته فى أوانها . « لقد عشت فيلسوفاً ، وهأنذا أموت مسيحياً » (٤٨) . لقد حسب الفسق فلسفة ، ورهان بسكال مسيحية .

٥ - فنكلمان

ولننظر الآن إلى رجل مثالى على سبيل المقابلة بين الاضداد .

وهذا الرجل الذى كان أعظم الشخصيات أثراً فى تاريخ الفن فى هذا العهد لم يكن فنانياً بل دارساً كرس حياته الناضجة لدراسة تاريخ الفن ، وحرك موته الغريب روح أوروبا المثقفة . ولد فى ٩ ديسمبر ١٧١٧ بمدينة ستندال فى براندنبورج . وكان أبوه الاسكاف يأمل فى أن يحترف ابنه حرفته ، ولكن يوهان رغب فى درس اللاتينية . وقد أدى نفقات تعليمه الباكر بالغناء . ثم تقدم سريعاً مدفوعاً بشوقه واجتهاده . فكان يعلم التلاميذ الذين تنقصهم الكفاية ، ويشتري الكتب والطعام . فلما كف بصير معلمه كان يوهان يقرأ له ، وراح يلثم مكتبة أستاذه . وأجاد تعلم اللاتينية واليونانية ، ولم يكن ميالاً إلى اللغات الأجنبية الحديثة . وحين سمع بأن مكتبة يوهان ألبرت فابريكوس الدارس الكلاسيكى الشهير ستباع بالمزاد لوفاته ، سار ١٧٨ ميلاً من برلين إلى همبرج ، واشترى روائع الكتب اليونانية واللاتينية ، وحملها على كتفه عائداً إلى براين (٤٩) . وفى ١٧٣٨ دخل جامعة هاله طالب لاهوت ، ولم يكن به شغف باللاهوت ، ولكنه اغتتم الفرصة

لدراسة العبرية . وبعد أن تخرج كسبه قوته بتعليم التلاميذ الخصوصيين وقرأ مرتين كل قاموس بيل « القاموس التاريخي والنقدى » . ولعل هذه القراءة خلفت بعض الأثر على إيمانه الدينى . وفى عام واحد قرأ الألياذة والاولديسة ثلاث مرات من أولهما لآخرهما باليونانية .

وفى ١٧٤٣ قبل دعوة ليكون مديرا معاونا لمدرسة بزيهاوزن فى التمارك ، برتب قدره ٢٥٠ طالرا فى العام . وكان فى النهار يعلم « أطفالا جرب الرءوس أبجديتهم ، بينما كنت ... أتحرق شوقا لمعرفة « الجميل » ، وأردد تشبيهات من هومر » ^(٥٠) . وكان فى المساء يدرس لتلاميذه الخصوصيين ليحصل على نفقات مسكنه وطعامه ، ثم يعكف على الروائع الكلاسيكية حتى منتصف الليل وينام حتى الرابعة ، ثم يعود إلى روائعه الكلاسيكية ثانية ، ثم يخرج متعبا ليدرس . وقبل بابتهاج دعوة وجهها إليه الكونت فون بون بوناو ليكون مساعدا لأمين المكتبة فى قصره الريفى بنوتهنز ، قرب درسدن ، لقاء السكن وخمسين إلى ثمانين طالرا فى العام (١٧٤٨) . هناك ألفى المتعة البالغة فى مجموعة من أضخم مجموعات الكتب فى ذلك العصر .

ومن كانوا يختلفون إلى هذه المكتبة الكردينال أركنتو ، القاصد البابوى فى بلاط ناخب سكسونيا . وقد راعه علم فنكلمان وحماسته ، ونحوه وشحوبه . فقال له « ينبغى أن تذهب إلى إيطاليا » . وأجاب يوهان أن هذه للرحلة غاية مشتهى قلبه ، ولكن موارده تعجز عن نفقتها . ودعاه القاصد لزيارته بدرسدن ، فذهب إليه مرات . وقد أبهجه تفقه اليسوعيين الذين التقى بهم فى بيت القاصد وأدبهم . وعرض عليه الكردينال باسيونى — وكان يقتنى ٣٠,٠٠٠ مجلد فى روما — وظيفة أمين مكتبته هناك ، لقاء السكن والمعيشة وسبعين دوقاتية ، ولكن الوظيفة لا يمكن أن يشغلها غير كاثوليكي . ووافق فنكلمان على الدخول فى الكاثوليكية . وإذا كان قد أعرب من قبل عن إيمانه بأنك « بعد الموت ليس هناك ما يخيفك ، ولا ما تؤمل فيه » ^(٥١) فإنه لم يجد صعوبات لاهوتية فى هذا التحول ، وكل صعوباته كانت اجتماعية . وقد كتب إلى صديق لأمه يقول « ان حب

المعرفة ، وهذا الحب وحده . هو الذى يستطيع إغرائى بالاستماع إلى الاقتراح الذى عرض على «^(٥٢)» .

وفى ١١ يوليو ١٧٥٤ . فى مصلى القاصد بدرسدن ، أعلن إيمانه الجديد ، واتخذت الترتيبات لرحلته إلى روما . ولأسباب شتى مكث فى درسدن عاما آخر ، ساكنادارسا مع الرسام — النحات — الحفار آدم اويزن . وفى مايو ١٧٥٥ نشر فى طبعة محدودة لم تتجاوز خمسين نسخة أول كتبه «^(٥٣) خواطر فى تقليد الآثار اليونانية فى الرسم والنحت » . وقد وصف فيه الآثار التى جمعت فى درسدن ، ورأى بالإضافة إلى هذا الوصف أن فهم اليونان للطبيعة كان أسنى من الفهم العصرى لها . وهذا هو السر فى التفوق الهليني فى الفن . ثم اختتم بقوله «^(٥٤) إن سبيلنا الوحيد إلى العظمة ، بل إلى العظمة التى لا تحاكى . . . هو بمحاكاة القدماء » . ومن رأيه ان رفائيل دون جميع الفنانين المحدثين هو الذى حقق هذا الهدف الاسمى . وكان هذا الكتيب علامة بداية للحركة الكلاسيكية الجديدة فى الفن الحديث . وقد لقي قبولا طيبا ، وأجمع كلويشتوك وجوتشيد على الاشادة بعلمه وأسلوبه . وحصل الأب راوخ . كاهن الاعتراف الخاص بفردريك أوغسطس ، لفنكلمان من الملك الناخب على معاش من مائتى طالر لكل من العاملين التالين ، وأعانه بثمانين دوقة لرحلته إلى روما . وأخيرا ، فى ٢٠ سبتمبر ١٧٥٥ ، انطلق فنكلمان إلى إيطاليا فى صحبة يسوعى شاب . وكان قد بلغ السابعة والثلاثين .

(*) أنظر «^(٥٥) باتر » فى مقاله الرائع عن فنكلمان «^(٥٦) لعله كان يحس بعراقة ما وبشئ أشبه بالفخامة الوثنية فى المذهب الكاثوليكي الرومانى . وهو فى انصرافه عن البروتستنتية لمعقدة التى كانت مبعث سأم له فى نيبابه ، قد يدور بخله أنه بينما كانت روما قد راضت نفسها على النهضة ، فإن المبدأ البروتستنتى فى الفن قد عزل ألمانيا عن تقليد الجمال العظيم » (٥٣) . وكتب جوته فى كتيب عن فنكلمان (١٨٠٤) «^(٥٧) ان المزج الوثنى يشع من جميع تصرفاته وكتاباتة . . . ولا بد أن نذكر بعده عن كل أسلوب مسيحي فى التفكير ، لا بل كرهه العام لهذا الأسلوب ، حين نحاول الحكم على هذا التحول المزعوم فى مذهبه . فالقربقان اللذان انقسم إليهما الدين المسيحي كانا فى نظره أمرا لا أهمية له على الاطلاق » (٥٤) . «^(٥٨) ولا تعنى كلمة «^(٥٩) وثنى » بالضرورة الاتحاد . فطالما أكد فنكلمان إيمانه بالله ، ولكن «^(٦٠) ببله جميع الالهة والامم والمذاهب » . (٥٥)

فلما بلغ روما لقي عنتا في حرك المدينة الذي صادر عدة مجلدات لفولتير من حقايبه ، على أنها أعيدت له بعد ذلك . ووجد سكنا مع خمسة مصورين في بيت على التل الينسي — الذي قدسته ظلال نيقولا بوسان وكلود لوران . والتقى بمنجز ، الذي أعانه بشتى الطرق الكثيرة . واطلق له الكردينال باسيوني الحرية في العمل بمكتبته ، ولكن فنكلمان كان إلى الآن يرفض أى وظيفة ثابتة لرغبته في ارتياد فن روما . فحصل على إذن بزيارات متكررة لبلفيدير الفاتيكان وأنفق الساعات أمام تماثيل أبولو ، وهرقول النصفي ، واللاوكون ، واتخذت أفكاره شكلا أوضح بعد تأمله في هذه المنحوتات . وزار تيفولى وفراسكاتى وغيرهما من الضواحي ذات الاطلال القديمة . وأكسبه حبه للفن القديم صداقة الكردينال الساندرو الباني ، وأعطاه الكردينال أركنتو مسكنا في البلاتسو ديلا كانسليريا — وهو المقر البابوى ، وفي مقابل هذه المنحة أعاد فنكلمان تنظيم مكتبة القصر . وأصبح الآن في سعادة غامرة . قال « لقد كان الله مدينا لي بهذا ، فاني قاسيت كثيراً جداً في شبابي » ^(٥٧) . وكتب إلى صديق في ألمانيا كما كان يكتب عشرات الزوار الكبار :

« كل شيء صفر إذا قورن بروما ! لقد ظننت فيما مضى أنني درست كل شيء دراسة كاملة ، وهأنذا ادرك بعد مجيئى أنني لم أعرف شيئا . لقد أصبحت هنا أصغر مما كنت يوم خرجت من المدرسة إلى مكتبة بوناو . فإذا شئت أن تتعلم كيف تعرف الرجال ، فهذا مكانك ، هنا رؤوس ذات مواهب لا حد لها ، رجال أوتوا قدرات فائقة ، وآيات في الطابع الرفيع الذي خلعه اليونان على تماثيلهم . . . وكما أن الحزبة التي يتمتع بها الناس في الدول الأخرى ليست إلا ظلا إذا قيست بحرية روما — وهو ما قد تخاله مفارقة — كذلك تجد في هذه المدينة أسلوبا مختلفا في التفكير . فروما في اعتقادى هي المدرسة العليا للعالم ، وأنا أيضا امتحنت فيها وهذبت » ^(٥٨) .

وفي أكتوبر ١٧٥٧ غادر روما قاصدا نابلى مزودا بخطابات تعريف .

وسكن هناك ديرا ولكنه كان يتناول طعامه مع رجال كتانوكي وجالياني ،
وزار مدنا عابقة باريج التاريخ القديم — بوتسولي ، وبايا ، وميزينوم ،
وكاوماي — ووقف مدهوشا أمام هياكل بايستوم المهيبة . وفي مايو ١٧٥٨
قفل إلى روما محملا بذخائر العلم والآثار . في ذلك الشهر استدعى إلى
فلورنسه ليصنف ويوصف المجموعة الضخمة من الجواهر ، والمحفورات ،
والخرائط ، والمخطوطات التي خلفها البارون فليب فون ستوش . وشغلته
المهمة قرابة عام وكادت تهدم صحته . ومات أركنتو أثناء ذلك ، واجتاح
فردريك الأكبر أرض سكسونيا ، وفقد فنكلمان مسكنه في الكانسليريا
ومعاشه من الملك الناخب التعس . ونحف ألباني لنجدته إذ قدم له أربع
حجرات وعشرة أسكوزات في الشهر لقاء العناية بمكتبته . وكان الكردينال
نفسه أثريا متحمسا ، وفي كل أحد كان يركب مع فنكلمان لتصيد
التحف القديمة .

وأضاف فنكلمان جديدا إلى سمعته بإصداره كتيبات عميقة في هذه
الموضوعات المفردة « في جمال الأعمال الفنية ، ملاحظات على عمارة
القدماء ، وصف لتمثال هرقل النصفى في البلفدير ، دراسة الآثار الفنية » .
وفي ١٧٦٠ حاول ترتيب رحلة إلى اليونان مع الليدي أورفورد ، زوجة
أخى هوراس ولبول ، ولكن الخطة أخفقت . كتب يقول « ما من شيء
في الدنيا تقى إايه بحرارة كهذه الرحلة . وما كنت لاضن بأصبع من
أصابعي تقطع ، لا بل وددت أن أجعل من نفشى كاهنا لسبيل (إلهة
الطبيعة) لو استطعت أن أشهد هذا البلد في فرصة كهذه » (٥١) أما كهنة
سبيل فكان الشرط فيهم أن يكونوا نخصيانا ، ولكن هذا لم يمنع فنكلمان
من التنديد بأمر قديم للحكومة الرومانية يشترط تغطية الأعضاء الداخلية
لابوللو والاردكون وغيرهما من التماثيل في البلفدير بمازر من المعدن ،
وقد أعلن في « إنه لم يشرع في روما طوال عهدها مثل هذه السنة الغبية » .

وكان للاحساس بالجمال من السلطان عليه ما ألغى تقريبا كل وعى فيه
بالجنس . فإذا شعر بتفضيل جمالي فإن تفضيله يؤثر جمال جسم الذكر المكتمل

الرجولة عن حلاوة المرأة الهشة العابرة . ويبدوا أن تمثال هرقل النصفى (التورسو) قد أثر فيه أكثر مما أثرت خطوط جسد فينوس مديتشي الناعمة الملفوفة . وقال كلمة طيبة في الخنثى — على الأقل في التمثال الذى شهده فى فيللا بورجيزى^(٦١) . وقال مؤكدا « لم أكن فى حياتى عدوا للجنس الآخر ، ولكن أسلوب حياتى أبعدنى عن كل اتصال به . ولعلى كنت أتزوج ، وأكبر ظنى انه كان واجبا على أن أفعل ، لو أننى عدت إلى زيارة وطنى الأول ، أما الآن فإن هذا لا يكاد يخطرلى ببال »^(٦١) . وفى زيهاوزن كانت صداقته لتلميذه لامبريشت تقوم مقام التعلق بالمرأة ، وفى روما عاش مع رجال الكنيسة ، وندر أن التقى بالشباب من النساء . وذكروا « إنه كان يتناول العشاء فى السبت فترة طويلة مع فتى من روما ، نحيل وسيم الطلعة ، فارغ القامة ، يتحدث معه عن الحب . »^(٦٢) وقد « رسمت بناء على طلبه صورة لمغن جميل من الحصيان »^(٦٣) ثم إنه أهدى للشريف الفتى البارون فريدرش راينهولد فون برج « رسالة فى القدرة على الاحساس بالجمال » ، « وقد وجد القراء فيها وفى خطباته لبرج لغة الحب لا لغة الصداقة ، وهى فى الواقع كذلك »^(٦٤) .

وفى ١٧٦٢ و ١٧٦٤ عاد إلى زيارة نابلى . وقد قدم للدارسين الأوربيين فى « خطاب عن آثار هوكولانيوم » (١٧٦٢) و « تقرير عن أحدث كشوف هوكولانيوم » (١٧٦٤) أول معلومات منظمة وعلمية عن الكنوز التى تم الحفر عنها فى تلك المدينة وفى بومبى . وكان الآن معترفا به أعظم حجة فى الفن الكلاسيكى القديم . وفى ١٧٦٣ عين بالفايكان فى وظيفة « أثرى الحجرة الرسولية » وأخيرا ، فى ١٧٦٤ ، نشر المجلدات الضخمة التى كان يؤلفها ويحياها بالصور طوال سنوات سبع Geschichte der Kunst des Alterthums « تاريخ الفن القديم » . وقد احتوى الكتاب على أخطاء كثيرة رغم ما أنفق فى إعداده من وقت وجهد ، واثنان من هذه الأخطاء كانا خدعتين قاسيتين . ذلك أن صديقه منجز كان قد درس رسمين هما وليدا خيال منجز وزعم

لإنهما نسختان دقيقتان لصور أثرية . وأدرج فنكلمان الصورتين في كتابه ، واستعمل الرواسم وأهدى الكتاب كله لمنجز . وتضمنت المترجمات التي ظهرت سريعا في الفرنسية والإيطالية كل الأخطاء تقريبا ، مما أشعر فنكلمان بالحنز . فكتب إلى بعض أصحابه « إننا اليوم أحكم مما كنا بالأمس . ليتنى أستطيع أن أريك كتابي « تاريخ الفن » وقد نقح تنقيحا كاملا ووسع توسيعا كبيرا ! لم أكن قد تعلمت الكتابة بعد حين شرعت في تأليفه فلم تكن الأفكار مترابطة بدرجة كافية ، وفي مواضع كثيرة افتقار إلى الانتقال من السابق إلى اللاحق - وهو ملاك الفن الأسمى . » ^(٦٥) ومع ذلك أنجز الكتاب عملا غاية في العسر - هو إجادة الكتابة في الفن . وقد رفعه حبه الشديد لموضوعه إلى مستوى الأسلوب الجميل .

ولقد اتجه حرفيا إلى تاريخ الفن لا إلى تاريخ الفنانين ، وهو موضوع أيسر مأخذا بكثير . وبعد أن مسح مسحا متعجلا الفن المصري والفينيقي واليهودي والفارسي والاتروري ، أطلق العنان لحماسته الفياضة في ٤٥٠ صفحة تناولت فن اليونان القديم . وفي فصول ختامية ناقش الفن اليوناني في عهد الرومان . وكان توكيده دائما على اليونان لأنه كان مقتنعا بأنهم عثروا على أسس صور الجمال : في رهافة الخط لا في لمعة اللون ، في تمثيل الأنماط لا الأفراد ، في طبيعية الأجسام ونبيلها ، في انضباط التعبير العاطفي ، في هدوء المظهر وصقله ، في اطمئنان القسّمات حتى في الحركة ، وفوق هذا كله في النسبة والعلاقة المتسقتين بين الأجزاء المتميزة في كل موحد توحيدا منطقيا . لقد كان الفن الإغريقي في رأي فنكلمان هو عصر العقل مجسما .

وقد ربط تفوق الفن الإغريقي بالاحترام العظيم الذي كان الإغريق يكتونه لامتياز الجسد في الجنس . « كان الجمال امتيازاً يقضى إلى الشهرة ، لأننا نجد تواريخ الإغريق تذكر أولئك الذين تميزوا به » ^(٦٦) ، على نحو ما تفعل التواريخ الآن . ذكر كبار الساسة والشعراء والفلاسفة . وكانت هناك مباريات في الجمال عند الإغريق كما كانت مباريات للألعاب الرياضية . وعند فنكلمان أن الحرية السياسية ، وتزعّم اليونان لعالم البحر المتوسط

قبل حرب البلوبونيز ، هذان أفضيا إلى مركب من العظمة والجمال ، وانتجا « الطراز الفخم » في فيدياس وبوليكليتس ، وميرون . وفي المرحلة التالية أدخل الطراز الفخم الطريق للطراز « الجميل » أو طراز « الرشاقة » ، فأدخل فيدياس مكانه لبراكستليس ، وبدأ الاضمحلال . وكانت حرية الفن جزءاً من الحرية اليونانية ، وتحرر الفنانون من القواعد الصارمة وجرءوا على خلق أجساد مثالية لا توجد في الطبيعة . فلم يقلدوا الطبيعة إلا في التفاصيل ، وكان العمل الفني كله مجموعة كمالات لا توجد في أي شيء طبيعي إلا جزئياً . لقد كان فنكلان رومانتيكياً يبشر بالشكل الكلاسيكي .

ولقي كتابه القبول في أوروبا بأسرها باعتباره حدثاً في تاريخ الأدب والفن . وأرسل إليه فردريك الأكبر دعوة (١٧٦٥) للحضور إلى برلين مشرفاً على المكتبة الملكية وإدارة الآثار . ووافق فنكلان نظير ألني طالر في العام ، وعرض فردريك ألفاً فقط ، وأصر فنكلان على موقفه ، وذكر فردريك بقصة المغني الحصى الذي طالبه بمبلغ ضخم نظير أغانية ، فشكا فردريك من أنه يطلب أكثر مما يكلفه خير قواده ، فكان رد المغني « إذن فليكلف قائده بالغناء » .

وفي ١٧٦٥ عاد فنكلان لزيارة نابلي ، هذه المرة في صحبة جون ولكز الذي كان قد جعل أوروبا تدوى بتحديه للبرلمان ولجورج الثالث . وبعد أن جمع المزيد من المعلومات عاد إلى روما وأكمل كتابه الهام الثاني « آثار قديمة غير منشورة » (١٧٦٧) . وكان أصدقاءه من الأحبار قد شكوا من كتابته « تاريخه » بالألمانية التي لم تكن إلى ذلك الحين أداة كبرى من أدوات الدرس فأبهجهم الآن باستعماله الإيطالية ، وانتشى المؤلف السعيد ، الجالس بين كرديناين ، بقراءة جزء من كتابه في كاستل جاندولفو على كلمنت الثالث عشر وجمع غفير من الأعيان . على أنه أتهم بحيازته كتباً مهرطقة وأبدائه ملاحظات مهرطقة ، (٦٨) ولم يحصل من البابوية قط على المنصب الذي شعر بأنه جدير به .

(م ١٣ - قصة الحضارة ج ٤)

وقرر أن يزور ألمانيا (١٧٦٨) ربما مؤملاً أن يحصل فيها على مورد يمكنه من رؤية بلاد اليونان . ولكن استغراقه الشديد في الفن الكلاسيكي وأساليب الحياة الإيطالية أفقده اللذة في وجوده بأرض الوطن ، فتجاهل مناظرها الطبيعية وساء معمارها وزخارفها الباروكية . وكان يردد مائة مرة لرفيق رحلته «^(٦٩) لنعد إلى روما» وقد احتفى به القوم في ميونخ ، وأهدوه جوهرة أثرية رائعة . وفي فيينا أعطته ماريا تريزا مداليات غالية ، ودعته الامبراطورة والأمير فون كاونتز للإقامة هناك ، ولكنه مالبث أن قفل إلى إيطاليا في ١٨ مايو وهو لم يكمل يغيب عنها شهرا واحدا .

وفي تريستا تعطل انتظاراً لسفينة يستقلها إلى انكونا . وأثناء أيام الانتظار هذه تعرف إلى مسافر آخر يدعى فرانثيسكو أركانجيلي . وكانا يتمشيان معاً ويشغلان حجرتين متجاورتين في الفندق . وسرعان ما أراه فنكلمان المداليات التي تلقاها في فيينا . على أنه — على قدر علمنا — لم يره كيسه المملوء بالذهب . وفي صبيحة ٨ يونيو ١٧٦٨ دخل أركانجيلي حجرة فنكلمان ، ووجده جالساً إلى منضدة ، فألقى أنشودة حول عنقة ، ونهض فنكلمان واشتبك معه ، فطعنه أركانجيلي خمس مرات وفر هارباً . وضمّد طبيب جروحه ولكنه قال أنها مميتة . وتناول فنكلمان الأسرار المقدسة ، وأملّى وصيته ، وأعرب عن الرغبة في أن يرى مهاجمه ويصفح عنه ، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة في الرابعة بعد الظهر . وقد خلدت تريستا ذكراه بتمثال جميل .

وقبض على أركانجيلي في ١٤ يونيو . فاعترف بجريمته ، وفي ١٨ يونيو صدر عليه هذا الحكم : « عقاباً على جريمة القتل التي اقترفتها على جسد يوهان فنكلمان . . قضت محكمة الجنايات الامبراطورية بأن . . . تحطم حياً على دولاب التعذيب ، من رأسك إلى قدميك حتى تفارق روحك بدنك » وكذلك صنع به في ٢٠ يوليو .

كانت عيوب فنكلمان وثيقة الصلة بالجغرافيا . فلأنه لم يحقق قط أمله في زيارة اليونان في ظروف كانت ستتيح له الدرس المستفيض للآثار القديمة ،

كان يفكر في الفن اليوناني وكأنه الفن اليوناني الروماني كما وجدته في المتاحف والمجموعات والقصور في ألمانيا وإيطاليا ، وفي اطلال هركولانيوم وبومبي . وتفضيله النحت على التصوير ، وتمثيل الأنماط لا الأفراد ، والهدوء لا التعبير عن العاطفة ، وإيثاره النسبة والتناسق ، ومحاكاة القدامى دون الابتكار والتجريب . كل هذا فرض على الدوافع الخلاقة في الفن عدة قيود أسفرت عن الانتقاص الرومانتيكي على ما في الأشكال الكلاسيكية من الصرامة الباردة . وقد أعماه التركيز على اليونان والرومان عن حقوق الطرز الأخرى وإمكاناتها ، وكان يرى — كما رأى لويس الرابع عشر — إن رسوم الحياة اليومية التي انتجتها الأراضي الواطئة ليست إلا من قبيل « الجروتسك » .

ومع ذلك كان انجازه رائعا . فقد أحدث انتفاضة في كل دنيا الفن والأدب والتاريخ الأوربي بتمجيده لليونان . ولقد جاوز حدود النزعة الشبيهة بالكلاسيكية التي نزعته إليها إيطاليا النهضة وفرنسا لويس الرابع عشر إلى الفن الكلاسيكي ذاته . ونبه العقل الحديث إلى ما في النحت اليوناني من كمال ناصع مطمئن . وجعل من فوضى مئات التحف الرخامية والبرونزية والصور والمجوهرات والعملات آثار علمية . وكان تأثيره على أفضل العقول في الجيل التالي هائلا . فقد ألهم لسبيخ ، ولو بالاعتراض على آرائه ، وشارك في انضاج ميردر وجوته ، ولعله لولا الإلهام الذي انبعث من فنكلمان لما توج بيرون شعره بالموت في بلاد اليونان . وقد أعان هذا الهلنستي الغيور على تشكيل مبادئ منجز ونورفالدسن الكلاسيكية الحديثة ، وتصوير جاك — لوى دافيد الكلاسيكي الحديث . يقول هيجل « يجب أن يعد فنكلمان واحدا من أولئك الذين عرفوا في ميدان الفن كيف يخلقون أداة جديدة للروح الإنسانية » (٧١) .

٦ — الفنانون

لم تكن إيطاليا في حاجة إلى حث يأتيها من فنكلمان ، لأنها كانت تكرم أربابها ، وكان فيها المتراكم يقوم في كل جيل بمهمة المدرسة التي تدرب مئات الفنانين من أقطار كثيرة . من ذلك أن كارلو ماركيوني صمم فيللا

الباني الفخمة (١٧٥٨) التي جمع فيها الكردينال الباني بارشاد فنكلمان مجموعة عالمية الشهرة من المنحوتات القديمة — لا تزال غنية رغم طول العدوان عليها . (فقد سرق نابليون ٢٩٤ من تحفها لفرنسا ، وربما كان هذا هو العلة في قول إيطالي مأثورة في تلك الأيام : ليس كل الفرنسيين لصوصا ، بل عدد عديد منهم) .

وانجبت البندقية أكثر كبار المصورين الإيطاليين في تلك السنين ، وقد ورث ثلاثة منهم أسماء مشهورة . أولهم أليساندرو لونجي بن بييترو ، الذي أبرز عبقرية قومه بصور شخصية رقيقة منها صورتان لجولدوني . (٧١) ولقد رأينا من قبل دومنيكو تيبولو يصحب أباه إلى أوجزبورج ومدريد ، ويعرض في تواضع تخصصه على عامة الشعب . ففي مضيقة فيللا فالمارنا استهل إنتاجه المستقل بصور المشاهد اليومية في حياة الريف ، فصوره « الفلاحين يستجمعون » أشبه بالقصيدة الرعوية ، تصور أدواتهم وقد سقطت عنهم ، وتصور استرخاءهم في دعة واطمئنان . وبعد أن مات أبوه في أسبانيا عاد دومنيكو إلى البندقية وأطلق العنان لأسلوب الواقعية الساخرة الذي اتخذته لنفسه . (٧٢)

وثالث هؤلاء هو فرانشيسكو جواردي ، صهر جامباتسنا تيبولو ، الذي تعلم التصوير من أبيه ، وأخيه ، وكانا ليتو . وقد فاته التقدير في جيله ، ولكن لوحته « فيدوتي » لفتت أنظار النقاد ببراعتها في التقاط ونقل لطائف الضوء وتقلبات الجو ، وربما أوحى ببعض الإلهامات للتأثرين الفرنسيين . ولم ينتظر تحذير كونستابل الذي قال « تذكر أن الضوء والظل لا يقفان ساكنين أبدا » (٧٣) . ولعل أحب الساعات إليه كانت ساعة الشفق ، حين تمحي الخطوط وتختلط الألوان وتغيم الأطياف ، كما في صورته « الجوندول على البحيرة » (٧٤) وكأنما صممت أجواء البندقية ومياها لتهيء هذه المناظر المضطربة المنصهرة . وقد ذكروا أن جواردي كان أحيانا يحمل مرسمه في زورق ويسير به على القنوات الصغرى ليلتقط مناظر لم تبتذل بطول لاف الناس لها . وكان يرسم الناس بغير عناية ، وكأنه شعر بأنهم ليسوا سوى

تفاصيل سريعة الزوال إلى جوار المعمار المكين والبحر والسماء الدائمين رغم ما يطرأ عليهما من تغير . ولكنه كان قادراً على تصوير الناس أيضاً ، فتراهم يزحمون البياتسيتا في لوحة « المهرجان »^(٧٥) ، أو يسرون في ثياب فاخرة في « ضالة فيلارمونيتشي »^(٧٦) الكبرى . وكان أنحore جوفاني يعد أثناء حياتهما مصوراً أفضل منه . وكانا ليتوا أعظم من كليهما ، أما اليوم فان جواردي يعد بالبقاء بعد ان تحبو شهرة الاثنين .

وعاد انطون روفائيل منجز من أسبانيا عام ١٧٦٨ ، وسرعان ما أصبح قطب التصوير في روما . ولم يشك أحد في تفوقه على معاصريه من الفنانين . كانت الرؤوس المتوجة تسعى إلى ريشته ، وتسعى إليها دون جدوى أحيانا . وكان فنكلمان يلقبه برافائيل عصره ، وأشاد بأوجته الرهيبة « جبل بارناس » « رائعة » خائفة بأن ينحني أمامها حتى رافائيل^(٧٧) ، وضمن كتابه « تاريخ الفن القديم » تقديراً عظيماً لصديقه^(٧٨) .

وأروع الصور التي رسمها منجز في هذه الفترة صورته الذاتية (١٧٧٣) (٧٩) ويبدو فيها وهو ما يزال قوياً وسيماً أسود الشعر معتزاً بنفسه في الخامسة والأربعين . وبعد أن أقام فترة ثانية في أسبانيا عاد (١٧٧٧) ليقضي ما بقي له من أجل في إيطاليا . وواصل نجاحه ، ولكن موت زوجته (١٧٧٨) حطم روحا كانت من قبل شديدة المرح . واجتمعت عليه شتى الأسقام فأضعفته ، وأجهز عليه التجاؤه إلى المشعوذين والعلاجات السحرية . ومات عام ١٧٧٩ وهو في الحادية والخمسين . وأقام تلاميذه لذكراه نصباً في البانتيون ، إلى جوار تمثال رافائيل . واليوم لا تجد من يجمل ذكراه من النقاد مهما صغر شأنه .

٧ - الموسيقى

كانت موسيقى الكنيسة قد اضمحلت مع تحول الحياة شيئاً فشيئاً بعيداً عن الدين ، ووصلتها العدوى من الأشكال الأوبرالية . وكانت موسيقى الآلات تزكو ، من جهة بفضل التحسين الطارئ على البيانو ، ولكن أهم

من ذلك لشعبية الكمان (الفيولينه) المتزايدة . وغزا كبار العازفين من أمثال يوفيانى وفيوتى وناردينى أوربا بقوس الكمان . وطاف موتزيو كلمنتى ، الذى غادر ايطاليا ليعيش فى انجلترا عشرين سنة ، بالقدارة عازفا على الأرض والبيانو ، ونافس موتسارت فى فيينا ، ولعله أفاد من قول موتسارت تعليقا على عزفه أن هذا العزف آلى أكثر مما يجب . وكان أنجح معلم للبيانو فى القرن الثامن عشر ، وقد أرسى أسلوب القرن التاسع عشر فى تكنيك البيانو بسلسلة تمارينه ودراساته الشهيرة « خطوات إلى بارناس » موطن ربات الفنون Muses اللاتى اشتقت منهن الموسيقى اسمها . وورث جاتيانو بونيانى تفنن أستاذه تارتينى فى عزف الكمان وأسلمه إلى تلميذه جوفانى باتستا فيوتى ، الذى عبر أوربا من أولها لآخرها ظافرا . ومازال فى استطاعة أذاننا المؤثرة لتقديم أن تستمتع بكونشرتو كمان فيوتى فى مقام الصغير .

أما لويجى بوكيرينى فقد رحل كما رحل الكثير من الايطاليين عن بلد اكتظ بالموسيقين ليلتمس جمهورا من المستمعين فى الخارج . وقد سحر أسبانيا من ١٧٦٨ حتى مماته فى ١٨٠٥ بآلة التشيللو كما سحرها من قبل فارنيللى بصوته وسكارلاتى ببيانته القيثارى (الهاريسيكورد) . وعلى مدى جيل كامل كانت مؤلفاته الآلية تنافس مؤلفات موتسارت فى ظفرها بالاشادة والاطراء من شتى الدول ، وكان فردريك ولیم الثانى ملك بروسيا ، وهو نفسه عازف تشيللو ، يفضل رباعيات بوكيرينى على رباعيات موتسارت^(٨٠) . وقد ألف خلال سنيه الاثنتين والسنتين خمسا وتسعين رباعيه وترية ، وأربعا وخمسين ثلاثية ، وأثنى عشرة خماسية للبيانو ، وعشرين سمفونية ، وخمسة كونشرتوات لتشيللو ، وأوراتوريوين ، وبعض الموسيقى الدينية . ويعرف نصف العالم حركته « المنويت » وهى حركة من احدى خماسياته . ولكن يجب أن يعرف العالم كله الكونشرتو بمقام B الشديد الانخفاض الذى ألفه للفيولونتشيللو والأوركسترا .

واستسلمت أوربا دون مقاومة (فيما عدا باريس مرة أخرى) للغناء الايطالى الجميل « الملعلع » (البيل كانتو) . فن أكثر من عشر من مدن

الحذاء السحري تدفقت مغنيات الأوبرا من أمثال كاترينا جابر بيللي والمغنين
الخصيان أمثال جسيبارو باكيروتي عبر الألب إلى فيننا وميونخ وليبرج
ودرسدن وبرلين وسانت بطرسبورج وهمبورج وبروكسل ولندن وباريس
ومدريد . وكان باكيروتي آخر الخصيان المشهورين في عالم الغناء ، وقد
نافس فن فارنيللي جيلا بأكمله . واسترق أسماع لندن أربعة أعوام ، ومازال
اطراء الاتجيز له يتردد في « يومية »^(٨١) فاني بيرني ، وفي كتاب أبيها « تاريخ
الموسيقى العام »^(٨٢) .

وتبع المؤلفون الموسيقيون وقادة الأوركسترا الايطاليون المغنين .
فألف بييترو جوليبي مافتي أوبر ، وتنقل بين نابلي ودرسدن وبرنزويك
ولندن ليقودها . وقد انحدر الينا ذكر موسيقى آخر من نابلي هو نيكولا بيتشيني ،
ولكنه ذكر شهرته منافسة لم يرغب فيها مسع جلوك في باريس ، ولكن
جاليانى وصفه بأنه « رجل شريف جداً »^(٨٣) . وقد ظلت أوبراته الهازلة
حقدا كاملا للبدعة السائدة في نابلي وروما ، لابل إن أوبرا برجوليزي
« الخادمة التي انقلبت ربة البيت » لم تحظ بمثل الشعبية التي حظيت بها أوبرا
بيتشيني (١٧٦٠) . وكان جوميللي ، وبرجوليزي ، وليو ،
وجالوني قد لحنوا « أولبميادي » التي ألفها متاستازيو ، فنهج بتشيني في جهم
وبزهم كلهم بإجماع الرأي . وفي ١٧٧٦ قبل دعوة إلى باريس ، أما الحرب
الضارية التي تلت ذهابه إلى هناك فلا بد أن تنتظر دورها الجغرافي ، ولكن
بتشيني سلك من أولها لآخرها مسلكا غاية في الجمالة ، مبقيا على صداقته
مع منافسيه جلوك وساكيني رغم أن المتشيعين لها هددوا حياته .^(٨٤) فلما
أخرقت أحداث الثورة الفرنسية هذه الأوبرا الهازلة عاد بتشيني إلى نابلي .
وهناك حددت اقامته في منزله أربع سنوات لتعاطفه مع فرنسا ، وكانت
أوبراته تقاطع بصيحات السخرية حتى توقف تمثيلها ، وعاش في فقر يشين
وطنه . وبعد أن فتح نابليون ايطاليا دعى إلى باريس مرة أخرى ١٧٩٨ ،
ومنحه القنصل الأول وظيفة شرفية متواضعة ، ولكن أصابته بالشلل
حطمته جسداً وروحاً ، ومات في باريس عام ١٨٠٠ .

أما أنطونيو ساكيني فقد ولد لأب كان صياد سمك في بوتسولي ، وكان يدرب ليحلف أباه حين شمه فرانشسكو دورانتى يغنى ، فانطلق به إلى نابلي تلميذاً ومحسوباً له . وقد احتفى الجمهور بأوبراه «سميراميدى» في التياترو أرجنتينو بروما احتفاءً أبقاه مع ذلك المسرح سبع سنين مؤلفاً للأوبرات . وبعد أن أقام ردهاً في البندقية خرج ليغزو ميونخ وشتوتجارت ... ولندن ١٧٧٢ . وصفق الجمهور لأوبراته هناك ، ولكن الدسائس المعادية أضرت بشعبيته ، وأتلفت عاداته الفاجرة صحته . ولما انتقل إلى باريس أخرج رائعته Oedipe a Colone (١٧٨٦) التي احتلت خشبة الأوبرا طوال ٥٨٣ عرضاً في السنوات السبعة والخمسين التالية ، وفي وسعنا أن نسمعها إلى اليوم على الهواء من حين لحين . وقد اقتبس عدة اصلاحات مما أدخله جلوك ، وأقاع عن أسلوب الايطاليين في جعل الأوبرا تلفيةاً من الألحان ، وفي أوديبى تسيطر القصة على الألحان ، وتضنى الكوارس التي استلهمها من أوراتوريوات هندل الحلال والعظمة على الموسيقى والموضوع كليهما .

واتصل الغزو الغنائى بأنطونيو سالييرى ، عدو موتسارت وصديق بيتهوفن الشاب . ولد قرب فيرونا ، وأرسل وهو فى السادسة عشرة إلى فيينا (١٧٦٦) ، وبعد ثمانى سنوات عينه يوزف الثانى مؤلفاً موسيقياً للبلاط ، وفى ١٧٨٨ رئيساً لفرقة المنشدين . فى هذه الوظيفة فضل مؤلفين آخرين على موتسارت ، ولكن القصة التي زعمت أن هذه المعارضة سببت لإنهيار موتسارت ليست إلا خرافة^(٨٥) . فبعد موت موتسارت صادق سالييرى الابن وأعان على تطوره الموسيقى . وقد قدم بيتهوفن عدة مؤلفات لسالييرى ، وقبل إقتراحاته بتواضع لم يعهد فيه .

أما « ألمع نجم فى سماء الأوبرا الإيطالية خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر^(٨٦) » فهو جوفانى بانيزيللو . كان أبنا لجراح بيطرى فى تارانتو ، وقد أعجب معلموه اليسوعيون بصوته أعجاباً حملهم على إقناع أبيه بأن يوفده إلى معهد دورانتى الموسيقى فى نابلى (١٧٥٤) . فلما إتجه إلى تلحين الاوبرات وجد جماهير نابلى شديدي الحب لبتشينى ، لذلك قبل دعسوة وجهتها إليه كاترين الكبرى . وفى سانت بطرسبرج ألف (١٧٨٢) Il barbiere di Siviglia

(حلاق أشبيلية) ، وقد كتب لها من النجاح الخالد في أوروبا كلها ما جعل الجمهور يلعن أوبرا عرضها في نفس الموضوع بروما (٥ فبراير ١٨١٦) الموسيقي روسيني لأنها تطفل غير كريم على أرض حرام لبازيللو الذي كان لا يزال على قيد الحياة . وتوقف بازيللو بفيينا في طريق عودته من روسيا عام ١٧٨٤ فترة أتاحته له تأليف اثنتي عشرة « سمفونية » ليوزف الثاني ، وإخراج أوبرا Il ne Teodoro تيودور الملك « سرعان ما ظفرت بقبول عم كل أوروبا . ثم عاد إلى نابلي رئيساً لفرقة الممثلين لفرديناند الرابع . وأقنع نابليون فرديناند بأن « يعيره » بازيللو ، فلما وصل المؤلف إلى باريس (١٨٠٢) أستقبل أستقبالا بلغ من الفخامة والبهاء ما أثار عليه عدااء الكثيرين . وفي ١٨٠٤ قفل إلى نابلي تحت حماية جوزف بوناپرت ومورا .

ويجب أن نلاحظ في مرورنا مبلغ الصبر والأناة التي كان هؤلاء الإيطاليون يعدون بهما مستقبلهم المهني . فبازيللو درس تسع سنين في معهد دورانتى الموسيقي « دي سان أو نوفربو » ، وتشياروزا درس إحدى عشرة سنة في معهد سانتا ماريا دي لورينو ، ثم في نابلي . وبعد أن تتلمذ دومنيكو تشياروزا طويلاً على يد ساكيني وبتشيني وغيرهما ، أخرج أول أوبرا له « rtravaganze del conte «إسراف الكونت» وسرعان ما استمع الناس لأوبراته في فيينا ودرسدن وباريس ولندن . وفي ١٧٨٧ ذهب بدوره إلى سانت بطرسبورج حيث أبهج قلب القيصرة المزواج بأوبرا كايوباتره . وحين دعاه ليوبولد الثاني ليخلف سالييري رئيساً للممثلين بفيينا ، أخرج هناك أشهر أوبراته وهي « الزواج السري » (١٧٩٢) . وقد بلغ سرور الأمبراطور بها حداً جعله يأمر بعد أناتها بتقديم العشاء لجميع الحاضرين . ثم أمر بإعادة الأوبرا كلها^(٨٧) . وفي ١٧٩٣ دعى ثانية إلى نابلي « رئيساً للممثلين » لفرديناند الرابع . فلما خلع جيش من جيوش الثورة الفرنسية الملك (١٧٩٩) رحب تشياروزا بالحدث ترحيباً حماسياً ، فلما رد فرديناند إلى عرشه حكم على تشياروزا بالإعدام . ثم خفف الحكم إلى النفي . ويمم المؤلف شطر سانت بطرسبورج ، ولكنه مات في الطريق بالندقية (١٨٠١) . واحتوت خلفاته التي تركها بالإضافة إلى العديد من الكنتاتات ، والتداسات ،

والاوراتوريوات ، نحو ست وستين أوبرا كانت تلقى استحسانا أكثر بكثير ما ظفرت به أوبرات موتسارت ، وهي حتى في وقتنا هذا يجب أن تعد في مرتبة تالية لأوبرات موتسارت فقط في أوبرا القرن الثامن عشر الهازلة .

وإذا كانت الميلوديا هي لب الموسيقى ، فالموسيقى الإيطالية إذن إسمى الموسيقىات . كان الألمان يفضلون التناغم متعدد الأصوات (الهارمونيا البوليفونية) على الخط الميلودي البسيط . وفي هذه الناحية ظفرت إيطاليا بنصر آخر على ألمانيا حين أخضع الألماني موتسارت البوليفونية للميلودية . ولكن الإيطاليين غلبوا الميلوديا تغلبا جعل أوبراتهم أقرب إلى أن تكون سلسلة من الأغاني الرخيمة أكثر منها درامات موسيقية كالتى قصد إليها أوائل مؤلفى الاوبرا الإيطاليين (حوالى ١٦٠٠) في محاولتهم منافسة فن الأغريق الدرامى . وهكذا نرى دلالة الحركة في الأوبرا الإيطالية ، بل دلالة الكلمات في حالات كثيرة ، تضيع وسط بهاء الأغنية وروعها وكان هذا جميلا ، ولكن إذا كان الفن كما اعتدنا أن نراه هو استبدال النظام بالفوضى للكشف عن المغزى أو الدلالة ، فإن الاوبرا في الأيدى الإيطالية قصرت دون بلوغ أسمى إمكاناتها ، وقد إعترف بهذا بعض الإيطاليين مثل جوميللى وترايبتا ، وجهدوا لصب الموسيقى والتمثيلية في كل موحد ، ولكن ذلك الأنجاز كان عليه أن ينتظر أوبرات جلوك ليحقق أنصع صورته . وهكذا توقف في بندول الحياة الغزو الإيطالى لأوروبا بالميلوديا ، حين أخرج جلوك عام ١٧٧٤ فى باريس « افحيينى فى أوليدى » التى أخضعت الموسيقى للتمثيلية . ولكن الصراع بين الميلوديا والدراما أتصل ، وكسب فاجنر معركة للدراما ، وأستولى فردى على عنائهم جديده للميلوديا . وليت النصر الكامل لا يتحقق لأى من الفريقين .

٨ - الفيسيرى

لم ينبج هذا العصر رجالا على شاكلة دانتي ، ولكن كان هناك بارينى فى الشعر وفيلانجيري فى النثر ، وألفيري فى الدراما والنثر والشعر .

ولقد شق جوزيبي بارينى طريقه صعداً من الفقر ، وكسب قوته بنسخ

المخطوطات ، ودخل دنيا النشر (١٧٥٢) بديوان صغير من « الشعر المنشور » واحترف القسوسية وسيلة للعيش ، وحتى بعد هذا اضطار لكسب قوته بأعطاء الدروس الخصوصية لأن إيطاليا أكتظت بالقساوسة . وأرهف الفقر قلمه فاتجه إلى الهجاء . تأمل في حياة الكثير من نبلاء الايطاليين العاطلة المترفة فخطر له أن يصف يوما نموذجيا في حياة شريف ذى « دم أزرق » . وفي ١٧٦٣ أصدر أول جزء سماه (الصباح) ، وبعد عامين أضاف (الظهر) ، ثم أكمل الجزء الثالث الذى لم يعشن لينشره (المساء) و (الليل) ، وهى فى مجموعها تؤلف هجائية ضخمة سماها « اليوم » Il giorno وأبدى الكونت فونى فيرميان نبلا حقيقيا بتعيينه القس الشاعر محررا لجازيته ميلان ، واستأذا للآداب البحتة فى « السكولا بالاتينا » ورحب بارينى بالثورة الفرنسية ، وكافأه نابليون بمضوية مجاس مدينة ميلان . والقصائد الغنائية التى نظمها بين ١٧٥٧ و ١٧٩٥ تعد من عيون الأدب الايطالى الصغيرة . ولا يصلنا بالترجمة إلا صوت خافت منه ، كما نسمعه فى هذه السوتيفته التى توحى بأن كاتبها عاشق لا قسيس :

إيه أيها الكرى الرحيم ، يامن تشق بجناحك الرقيق
طريقك الهادى متعجلا فى الليل البهيم
وتترأى بالأحلام الكثيرة السريعة
للنفس المضناة على فراشها الساكن :
اذهب إلى حيث تضع « فيليس » رأسها اللطيف
ونحدها النضر على الوسادة المساذة ،
وبينما يرقد جسدها روع روحها
برؤيا جسم كئيب خلقتة بسحرك ،
وليكن شـيـد الشبه بى ،
شوه الشحوب وجهه ،
حتى تستيقظ وقد هزها الحنان على .

إنك لو تفضلت على بهذا الصنيع
لجدلت لك إكليلا مزدوجا من الزهر
ووضعت في سكون على مذبحك (٨٨)

ولنصف إلى هذه الباقة من الزهر زهرة من التنوير الإيطالي هي فقرة من
كتاب جايتانو فيلانجيري « على التشريع » La scienza della Legislazione
(١٧٨٠ - ٨٥) ، استوحاها من بكاريا وفولتير .

« ما ينبغي أن يكون الفيلسوف مخترعاً للمذاهب بل رسولا للحقيقة ،
ومادامت الشرور التي ابتليت بها البشرية قائمة بغير شفاء ، ومادام مسموحاً
للخطأ والتحيز بأن يخلدا هذه الشرور ، ومادامت الحقيقة مقصورة على القلة
وعلى المميزين ، محجوبة عن معظم النوع الإنساني وعن الملوك ، فسيظل
واجب الفيلسوف أن يبشر بالحقيقة ، وأن يحافظ عليها ويشجعها ، وينيرها .
وحتى إذا كانت الأضواء التي ينشرها لا تفيد في جيله وقومه ، فإنها لاشك
ستفيد في بلد وجيل آخرين . فالفيلسوف — ذلك المواطن في كل مكان
وزمان — أمامه الدنيا كلها وطناً ، والأرض مدرسة ، والأجيال القادمة
تلاميذ . » (٨٩)

وقد تلخص العهد كله في الفيري : فالانتقاض على الخرافة ، وتمجيد
الأبطال الوثنيين ، والتنديد بالاستبداد ، والاشادة بالثورة الفرنسية ، والنفور
من شططها والصيحة المطالبة بتحرير إيطاليا — كل هذا مضافاً إلى قصة غرام
حرام ووفاء نبيل . وقد سجل هذه الحياة المشبوهة في « حياة فيتوريو
الفيري . . . مكتوبة بقلمه ، موصولة إلى ما قبل موته بخمسة أشهر . وهي
من أعظم التراجم الذاتية ، لا تقل كشفاً عن نفس صاحبها عن « اعترافات »
روسو . ويستهلها بعبارة يلقي القاريء أمامها السلاح : « إن حديث المرء
عن نفسه ، وأكثر منه الكتابة عن نفسه — إنما هو دون أدنى شك وليد المحبة
الفائقة التي يحبها المرء لذاته ، وبعدها لا يتوارى الكاتب خاف قناع من
التواضع ولا تند غنه أماراة على عدم الأمانة :

« ولدت في مدينة أسنى ببيدمونت في ١٧ يناير ١٧٤٩ لأبوين شريفيين .
ثريين محترمين . وأنا أذكر هذه الظروف على أنها ظروف سعيدة للأسباب
التالية . فقد خدمني شرف المولد خدمة كبرى ، . . لأنه مكنتني من أن أذم
النبالة ذاتها دون أن أتهم بالدوافع الدنيئة أو بدافع الحسد ، وأن أميط اللثام
عن حماقاتها ، ورذائلها ، وجرائمها . . . أما الثراء فعصمني من قبول الرشوة ،
وأطلق حريتي في خدمة الحق دون سواه » (٩٠) .

ومات أبوه وهو طفل ، وتزوجت أمه ثانية . وانطوى الغلام على نفسه ،
وأطال التفكير ، وفكر في الانتحار في الثامنة ولكنه لم يهتد إلى أى طريقة
مريحة . وتكفل به خال له وأرسله وهو في التاسعة ليتلقى العلم في أكاديمية
تورين . وهناك تولى خادم خاص خدمته والسيطرة عليه بالعنف . وحاول
معلموه أن يحطموا إرادته كأول مرحلة في تنشئته رجلاً ، ولكن طغيانهم
ألهب كبرياءه وشوقه إلى الحرية « إن درس الفلسفة . . . كان من النوع الذي
ينوم الطالب وهو واقف منتصباً » (٩١) . على أن موت خاله تركه المتصرف
في ثروة عريضة وهو بعد في الرابعة عشرة .

وبعد أن حصل على موافقة ملك سردينيا التي كانت شرطاً للسفر خارج
البلاد بدأ في ١٧٦٦ جولة في أوروبا استغرقت ثلاثة أعوام . ووقع في غرام
نساء شتى ، وعشق الأدب الفرنسي والدستور الإنجليزي . ودمرت قراءته
لمونتسكيو وفولتير ورسو لاهوته الموروث ، وبدأت كراهيته للكنيسة
الرومانية — مع أنه بالأمس فقط لثم قدم كلمنت الثالث عشر « شيخ لطيف
ذو جلال وقور » . (٩٢) وفي لاهاي شغف حباً بامرأة متزوجة ، فابتسمت
ثم انصرفت عنه ، وعاد يفكر في الانتحار ، وكان العهد عهد فرتر ،
والانتحار فكرة شائعة في الجو . ثم عاد ليكتشف أن الفكرة أشد جاذبية
تطلعاً منها تنفيذاً ، فرجع إلى بيدمونت ولكنه شقى في جو ملؤه الخضوع
السياسي والديني شقاء حمله على استئناف أسفاره (١٧٦٩) .

وجاب الآن أرجاء ألمانيا والدنمرك والسويد — حيث أحب الطبيعة كما
يقول وأحب الناس وحتى الشتاء . ومنها إلى روسيا ، فاحتقرها لأنه لم ير في

كاترين الكبرى إلا مجرمة متوجة ، ورفض أن يقدم لها . ولم يسغ بروسية
فردريك خيرا من إساغته روسيا ، فهرول إلى هولنده التي انتهجت نهج
الجمهورية في بسالة ، وإلى إنجلتره التي كانت تحاول أن تعلم جورج الثالث
أن يخلى بينه وبين شئون الحكم . وقد أغوى زوجة رجل إنجليزي ،
وبارز ، وجرح . ثم أصيب بعدوى الزهري في أسبانيا (٩٣) ، وعاد إلى
تورين للعلاج (١٧٧٢) .

وفي ١٧٧٤ تماثل للشفاء بالقدر الذي أتاح له الدخول في ثاني مغامراته
الغرامية الكبرى ، مع امرأة تكبره بتسع سنين . وتشاجرا ثم افترقا .
وأزاحها من أحلامه بكتابة تمثيلية سماها « كليوبطرة » ، وأي شيء أكثر
إثارة من عضوية في حكومة ثلاثية ، وملكة ، ومعركة ، وصل ؟ وأخرجت
التمثيلية بتورين في ١٦ يونيو ١٧٧٥ « وسط تصفيق الاستحسان ليلتين
متعاقبتين » ، ثم سحبها لإجراء تعديلات فيها . وأخذ الآن يتحرق شوقاً
إلى الشهرة غاية في النبل والسمو . واعد الآن قراءة بلوتارخ وعيون الأدب
اللاتيني ، ودرس اللاتينية من جديد ليغوص في مآسي سنيكا ، وفي هذه
القراءات وجد موضوعات وأشكالا لدراماته . وعزم على استعادة الأبطال
والفضائل القديمة كما استعاد فنكلمان الفن القديم .

وفي غضون هذا (١٧٧٧) كان يكتب رسالته « في الطغاة » . ولكنها
احتوت من التهم الحادة للدولة والكنيسة ما جعله ينكص عن نشرها ، فلم تر
النور إلا في ١٧٨٧ . فقد كانت ملهبة بغيرة أشبه بالغيرة الدينية :

« ليس الفقر الطاحن . . . ولا عطل الأرقاء الذي تردى فيه إيطاليا ،
كلا ، فإ هذه هي الدوافع التي وجهت عقلي إلى الشرف الرفيع الحق ،
شرف تجريد قلبي للهجوم على الامبراطوريات الزائفة . ذلك أن الهاضار بالهاجم هو لا ،
ظل يسوط ظهري منذ نعومة أظفاري . . . ان روحى الحرية لن تجد سلاما
أو راحة حتى أكتب صفحات قاسية لهدم الطغاة » (٩٤) .

وهذا تعريفه للطغاه :

« كل الذين توسلوا بالقوة أو الحيلة — أو حتى بإرادة الشعب أو النبلاء — إلى القبض التام على أطراف الحكم ويعتقدون أنهم فوق القانون ، أو هم كذلك . . . والطغيان هو الصفة التي يجب أن تنعت بها . . . أى حكومة يستطيع فيها الشخص المنوط بتنفيذ القوانين أن يضعها أو يقضى عليها أو ينتهكها أو يفسرها أو يعرقل سيرها أو يوقفها وهو فى مأمن من العقاب » (٩٥) .

وعند الفيرى أن الحكومات الأوربية كافة مستبدة باستثناء الجمهورية الهولندية والملكيّتين الدستوريّتين فى إنجلتره والسويد . وقد أشاد بالجمهورية الرومانية متأثراً فى ذلك بمكيا فيلى ، وراوده الأمل فى أن الثورات ستقيم جمهوريات فى أوربا عما قليل . ورأيه أن خير ما يستطيع أى وزير لطاغية مستبد أن يفعله هو أن يشجعه على ألوان من الطغيان تبلغ من الشطط ما يسوق الشعب إلى الثورة (٩٦) . والثورة فى سنها الأولى معدورة إذ لجأت إلى العنف . لتمنع عودة الاستبداد إلى الحياة :

« وبما أن الآراء السياسية كالآراء الدينية لا يمكن تغييرها تغييراً كاملاً أبداً دون استعمال الكثير من العنف ، لذلك كانت كل حكومة جديدة مضطرة لسوء الحظ إلى أن تعنف إلى حد القسوة ، بل تظلم أحياناً حتى تقنع أو ربما تكره أولئك الذين لا يرغبون فى التجديد ولا يفهمونه ولا يحبونه ولا يرتضونه » (٩٧) .

ومع أن الفيرى نفسه كان نبيلاً ، ولقبه الكونت دى كورتيميليا ، فإنه أدان الارستقراطية الوراثة لأنها شكل من أشكال الطغيان أو أداة من أدواته . وأدان بالمثل جميع الأديان المنظمة ذات السلطان . وقد سلم بأن « المسيحية أسهمت بقدر غير قليل فى تلطيف العادات الشائعة بين جميع الناس » ، ولكنه أشار إلى « الكثير من أعمال الوحشية الغبية الجاهلة » التى

ارتكبا الحكام المسيحيون « من قسطنطين إلى شارل الخامس » (٩٨) .
ويمكن القول عموماً :

« إن الدين المسيحي يكاد لا يتفق والحرية . . . فالشعب ، ومحكمة
التفتيش والمطهر ، والاعتراف ، والزواج الذى لا انفصام له ، ورهبانية
الكهنة — هذه هى الحلقات الست فى السلسلة المقدسة التى تقيد السلطة
الزمنية (الدولة) بقيود أوثق حتى لتزداد على الأيام ثقلاً وامتناعاً على
التحطيم » (٩٩) .

ويبلغ من مقت الفيرى للاستبداد أنه نصح باجتناّب الخلف أو الزواج
اطلاقاً فى الدولة المستبدة . وبدلاً من أن ينجب أطفالاً ، أخرج فى خصوبة
إيطاليا مائة أربع عشرة مأساة بين ١٧٧٥ ، و ١٧٨٣ ، كلها بالشعر المنشور ،
وكلها كلاسيكية بناءً وشكلاً ، وكلها يشجب الطغيان بسخط خطابى ،
ويمجد الحرية باعتبارها أشرف من الحياة . فترى ميوله فى « البازى »
مع محاولة المتأمرين الأطاحة بلورنتسو وجوليانودى مديتشى ، وفى « بروتس
الأول » و « بروتس الثانى » لم يعف من اللوم تاركوين وقيصر ، وفى « فليبو
كان بكل قلبه مع كارلوس ضد ملك أسبانيا ، ولكنه فى « ماريا ستواردا
(ماري ستوارت) وجد فى رؤساء العشائر الاسكتلندية من الطغيان أكثر
حماة فى الملكة الكاثوليكية . فلما انتقد على انخضاعه التاريخ لفكرته دافع عن
نفسه بقوله :

« سيسمع الناس أكثر من لسان خبيث يقول . . . أننى لا أصور شيئاً
إلا الطغاة فى صفحات مفرطة الطول لا لطف فيها ، وأن قلمي الدموى المنقوع فى
السم يضرب دائماً على نعمة واحدة رتيبة ، وأن ربة شعرى الفظة لاتنهض
نساناً من العبودية الشريره ، بل تثير ضحك الكثيرين . ولكن هذه
الشكاوى لن تحول روحى عن هدف يمثل هذا السمو ، ولاتغوق فى مهما
كان ضعيفاً غير كفى لتلبية حاجة بهذه الشدة . لا ولن يكون نصيب كلامى
أن تبدده الرياح إذا ولد رجال صادقون بعدنا يؤمنون بأن الحرية لاغنى
عنها للحياة » (١٠٠) .

وقد أولع بكونتيسة ألبانى ولعا لم يفقه إلا ولعه بالحرية وكانت ابنة جوستاف أدولف - أمير شتولبرج - جديرن فزرجت (١٧٧٣) الأمير تشارلز ادوارد ستيوارت ، المطالب الشاب بعرش بريطانيا ، الذى سمي الآن نفسه كونت ألبانى . وقد انغمس هذا الذى كان فتى أنيقاً جداً يوم كان « الأمير الحلو تشارلى » فى الشراب ومصاحبة الحليلات لينسى هزائمه . ولم يعقب هذا الزواج الذى رتبه البلاط الفرنسى ، وكان زواجا شقيماً . ويبدو أن الكونتيسة ذاتها لم تكن مبرأة من العيوب . وقد التقى بها الفيرى فى ١٧٧٧ ، ورثى لها ، ثم أحبها . ولكى يكون قريباً منها ، حرأ فى مساعدتها وتتبع تقلبات حظها دون أن يتكبد مشقه الحصول على إذن ملكى لكل خطوة عبر الحدود ، تحلى عن موطنه بيدمونت ، ونزل عن معظم ثروته وضيعته لأخته ، ثم انتقل إلى فلورنسه ١٧٧٨ . وكان الآن فى التاسعة والعشرين من عمره .

واستعجبت الكونتيسة لغرامه برقه وحذر مراعيه كل أصول اللياقة العامة . وفى ١٧٨٠ حين أمست حياتها فى خطر من جراء عنف زوجها السكير ، اعتكفت فى دير ، ثم فى بيت زوج أختها فى روما . كتب الفيرى يقول « بقيت فى فلورنسه كأنى يتيم مهجور ، وعندها اقتنعت كل الاقتناع اننى بدونها لم أكن أوجد ولو نصف وجود ، لأننى الفيتنى عاجزا كل العجز تقريباً عن القيام بأى عمل جيد^(١٠١) » . وما لبث أن ذهب إلى روما ، حيث سمح له برؤية محبوبته بين الحين والحين ، ولكن زوج أختها قاوم جهوده فى الحصول على قرار بإبطال زواجها ، مسترشداً فى ذلك برأى القساوسة . (ومن هنا دفاعه الملتونى عن الطلاق « ديللا تيرانيدي^(١٠٢) ») . وأخيراً منعه زوج أختها من زيارة الكونتيسة ، فغادر روما ، وحاول أن يرفه عن نفسه بالأسفار والخيال - التى كانت « غرامه الثالث » ، بعد الفنون و« سيدتى النبيلة » . وفى ١٧٨٤ حصلت على انفصال شرعى ، فانتقلت إلى كولمار فى الألزاس . وهناك لحق بها الفيرى ، وبعدها عاشا

في رباط غير زوجي حتى أتاح لها موت زوجها . وقد كتب ألفييري عن حبه في نشوة تذكرنا بما كتبه دانتى في « الحياة الجديدة » .

« هذا الحب المموم — الحب الرابع والأخير ، . . كان يختلف عن علاقاتي الغرامية الثلاث السابقة . ففيها لم أجد نفسي منفعلاً بأي عاطفة ذهنية توازن وتمتزج بعاطفة القلب . نعم كان هذا الحب أقل عنفاً وحرارة ولكنه كان أكثر استمراراً وأعمت تغلغلاً في الشعور والوجدان . وبلغ من قوة عاطفتي أنها . . . سيطرت على كل انفعال ونخاطر في ، ولن تنطفئ في داخلي أبداً إلا بانطفاء الحياة نفسها . وقد وضح لي . . . أنني وجدت فيها امرأة حقه ، لأنها بدلا من أن تصبح كسائر النساء العاديات عقبة في طريقي إلى الشهرة الأدبية — امرأة تقدم الاهتمامات النفعية وترخص . . . أفكار المرء — وجدت فيها التشجيع والعزاء والقُدوة الحسنة في كل عمل صالح . وإذا تبينت هذا الكنز الفريد وقدرته حق قدره ، فأنى بذلت لها ذاتي باستسلام مطلق . ولا ريب في أنني لم أكن مخطئا في هذا ، لأنني الآن وقد مضى على حبي لها أكثر من اثني عشر عاما . . . يزداد حبي لها كلما ذبلت تلك المفاتن العابرة (وهي ليست نفسها الباقية) بحكم الزمن . ولكن عقلي وقد تركز فيها يسمو ويرق ، ويزداد حسنا كل يوم ، وأما عقلها هي فأنى أجرؤ على القول بأن هذا يصدق عليها ، وأن من حقها أن تستمد مني العون والقوة (١٠٣) .

وبهذا الحافز مضى يكتب المزيد من المآسي ، وبعض الملاحم ، وشيئا من الشعر بين والحين والحين . وكان قد كتب خمس قصائد غنائية بعنوان America libra . وفي ١٧٨٨ انتقل الحبيباني إلى باريس ، حيث أشرف ألفييري على نشر مطبعة بومارشين في كبل على الراين لأعماله . وحين سقط الباستيل هل ألفييري للثورة وكله حماسة متقدة للحرية وقال أنها فجر عصر أسعد للبشر . ولكن سرعان ما قزز شطط الثورة وسرقها روحاً كان تصورهما للحرية أرسقراطياً ، روحاً تطالب بالتححرر من الغوغاء والأغليبات ومن البابوات والملوك على حد سواء . ففي ١٨ أغسطس ١٧٩٢ غادر هووالكونتييه

باريس بما استطاعا حمله من مقتنياتهما في مركبتين فأوقفهما عند أبواب المدينة حشد يسألها عن حقهما في مغادرتها . يقول ألفييري « قفزت من المركبة بين الغوغاء ، ملوحاً بجوازات سفرى السبعة وأخذت أصبح وأحدث ضجة . . وهو دائماً السبيل إلى التغلب على الفرنسيين (١٠٤) » . وواصل الرحلة راكبين إلى كاليه وبركسل ، وهناك نعى إليهما أن السلطات الثورية في باريس أمرت بالقبض على الكونتيسة . فهرعا إلى إيطاليا ، واستقرا في فلورنسه . وكتب ألفييري الآن Misogallo مضطرباً بنار الحقد على فرنسا و « حشد عبيدها أبناء السفاح » (١٠٥) .

وفي ١٧٩٩ استولى جيش الثورة الفرنسية على فلورنسه فلجأ ألفييري والكونتيسة إلى فيللا في ضاحية حتى رحل الغزاة . وقد أضعفه وأشابه انفعال هذه السنين ، فأعتقد في ختام ترجمته الذاتيه التي كتبها عام ١٨٠٢ وهو بعد في الثالثة والخمسين أنه شاخ . وأوصى بكل ممتلكاته للكونتيسة ثم مات بفلورنسه في ٧ أكتوبر ١٨٠٣ ودفن في كنيسة سانتا كروتشى . وهناك أقامت له الكونتيسة أثرا ضخما من صنع كانوفا ، وقد مثلت فيه إيطاليا تنوح فوق المقبرة . وقد ضمت إلى حبيبها هناك في ١٨٢٤ .

وتكرم إيطاليا ألفييري باعتباره Il Vate d'Italia نبي الأحياء الذي حررها من الأغلال الأجنبية والكنيسية . وكانت دراماته على ما فيها من حدة ورتابة تقدما منشطا خلف وراءه المآسى العاطفية التي كانت تقدم للمسرح الإيطالي قبله . ومن تمثالياته « فليبو » و « شاول » و « ميرا » أعدت روح إيطاليا نفسها لما تزينى وجاريبالدى .

ولم يقتصر نشر الطغاة Della tirannide في الخارج على كيل (١٧٨٧) وباريس ، بل طبع في ميلانو (١٨٠٠) وغيرها من المدن الإيطالية في ١٨٠٢ و ١٨٠٣ و ١٨٠٥ و ١٨٠٩ و ١٨٤٨ و ١٨٤٩ و ١٨٦٠ ، وأصبح لإيطاليا ما كان لفرنسا وإنجلترا وأمريكا كتاب يبين « حقوق الإنسان » (١٧٩١) . وكان ألفييري بداية الحركة الرومانسية في إيطاليا ، بيرونا قبل بيرون ، يبشر بتحرير العقول والدول من أغلالها . وبعده كان لزاما على إيطاليا أن تتحرر .

الفصل الثالث عشر

حركة التنوير في النمسا

١٧٥٦ - ٩٠

١ - الامبراطورية الجديدة

إذا توخينا الدقة في التعبير قلنا أن كلمة « النمسا » إنما تدل على أمة ، وقد تدل تجاوزاً على الامبراطورية التي تزعمها النمسا . فمن الناحية الشكلية كانت هذه الامبراطورية حتى عام ١٨٠٦ هي الامبراطورية الرومانية المقدسة ، التي انتظمت ألمانيا وبوهيميا وبولنده والمجر وأجزاء من إيطاليا وفرنسا . بيد أن الأهداف القومية أضعفت من الولاء للامبراطورية إلى حد لم يبق معه الآن (١٧٥٦) من هذه الأقطار سوى إمبراطورية نمساوية مجرية تضم النمسا وستيريا وكارنتيا وكارنيولا والتيرول والمجر وبوهيميا ومطرانيات كولونيا وترير وماينز الكاثوليكية ، وأشتاتا متباينة من إيطاليا ، ثم منذ ١٧١٣ الأراضي الواطئة النمساوية - التي كانت أسبانية فيما مضى - وهي على التقريب بلجيكا الحالية .

أما المجر التي كان يسكنها قرابة خمسة ملايين من الأنفس فكان يسودها نظام إقطاع فخور . فأربعة أخماس الأرض يملكه النبلاء المجريون ويفلحه الأقنان ، ولم يقع عبء الضرائب إلا على الفلاحين وأهل المدن الألمان أو الصقالبة . وكانت الامبراطورية الجديدة قد ولدت شرعياً في ١٦٨٧ ، حين تخلى النبلاء المجريون عن حقهم القديم في اختيار ملكهم واعترفوا بأباطرة الهابسبورج ملوكاً عليهم . ودعت ماريا تريزا كبار النبلاء المجرين إلى بلاطها متبعة استراتيجية البوريون ، وأعطتهم المناصب والألقاب والأنواط ، وهدأتهم حتى قبلوا القانون الإمبراطوري قانوناً لأملأهم وفيينا عاصمة لهم . وكلفت الامبراطورة في استجابة سمحة لوكاس فون هاد برانت بعمل

تصميمات للمباني الحكومية في بودا ، وبدأ العمل في ١٧٦٩ ، ثم جدد في ١٨٩٤ ، فأعطى العاصمة القديمة بناء من أروع المباني الملكية في العالم . وشيد أغنياء النبلاء المحررين القصور الريفية الفخمة على الدانوب أو في خلواتهم الجبلية منافسين في ذلك الملكة ، فبنى الأمير بال استرهاقي مقراً لأسرته في ايزنشتات (١٦٦٣-٧٢) وبنى الأمير ميكلوس يوزف استرهاقي بطراز النهضة على نحو ثلاثين ميلاً قاعة استرهاقي الجديدة (١٧٦٤ - ٦٦) التي ضمت ١٢٦ حجرة للضيوف ، وردهتين كبيرتين للاستقبالات وحفلات الرقص ، مجموعة غنية من التحف ، وعلى مقربة منها مكتبة بها ٧٥٠٠ مجلد ومسرح به أربعائة مقعد . ومن حول القصر حول مستنقع شاسع إلى حدائق زينت بالمغارات والمعابد والتماثيل ، وجهزت بالصوبات وأشجار البرتقال والأرض المخصصة للوحوش والطيور البرية . يقول رحالة فرنسي « هذه القلعة لا يضارعها أي مكان في فخامتها - ربما باستثناء فرساي » . وإليها أقبل المصورون والمثالون والممثلون والمغنون والعازفون ، وهنا ظل هايدن جيلاً كاملاً يقود فرقته ويؤلف موسيقاه ويتوق للانطلاق إلى عالم أرحب .

أما بوهيميا - وهو اليوم القسم التشيكي من تشيكوسلوفاكيا - فلم تحظ بمثل هذا التوفيق في عهد ماريا تريزا . وكانت قد انسحبت من التاريخ بعد حرب الثلاثين وقد حطم روحها القومي حكم أجنبي وعقيدة كاثوليكية فرضت على شعب عرف يومًا يان هوس وجيروم البراغي . وعانت الملايين الثمانية التي تسكنها من جراح الحرب في الصراع المتكرر الذي دارت رحاه بين بروسيا والنمسا ، وانتقلت عاصمتها التاريخية من يد إلى يد مراراً وتكراراً ، إذا كانت ملكتها الغربية تنتقل من هزيمة إلى نصر إلى هزيمة . واضطرت بوهيميا إلى أن تقنع باستقلال في الثقافة والذوق ، فنشأت مؤلفيها الموسيقيين أمثال جيورج بندا ، وتفردت براغ باستقبالها الحار لأول عرض لأوبرا موتسارت « دون جوفاني » (١٧٨٧) ، التي لم تصب بعد ذلك في فيينا غير إطراء فاطر كان أشبه بالدم منه بالمديح .

وأما في الأراضي الواطئة النمساوية فقد كان كفاح النبلاء المحليين

للاحتفاظ بسلطتهم التقليدية أنجح منه في بوهيميا، وسكيدر أيام « الامبراطور
الثائر » الأخيرة . وقد كان لتلك الأقاليم السبعة — باربانت (التي ضمت
بروكسل ، وأنتورب ، ولوفان) ، ولكسمبورج ، وفلاندر ، وهابنوت ،
ونامور ، وبلدرز — تاريخ عريق جليل ، وكان النبلاء الذين حكموا
رعاياهم الملايين الأربعة شديدي الحرص على الامتيازات التي ثبتت لامتحان
قرون كثيرة . وعرض المجتمع العصري أزياءه ، وقامر بمكاسبه ، وشرب
أحياناً المياه المعدنية كما شرب الأنبل في سبا في أسقفية لييج المجاورة ، وكان
زهرة ذلك المجتمع في هذا العصر الأمير شارل — جوزف دلين ، الذي وهبته
بروكسل للعالم في ١٧٣٥ . وقد قام على تعليمه عدة آباء من الرؤساء الكاثوليك
« لم يؤمن بالله منهم غير واحد » ، أما هو نفسه فكان « متديناً أسبوعين »^(١)
في هذا البلد المفرق في الكثرة . وقد أبلى بلاء حسناً في حرب السنين السبع
ونخدم يوزف الثاني مستشاراً وصديقاً حميماً ، والتحق بالجيش الروسي
في ١٧٨٧ ؛ ثم رافق كاترين الكبرى في « مسيرتها » إلى القرم ، وبنى لنفسه
قطراً ريفياً فاخراً وفاعة للفنون قرب بروكسل ، وكتب أربعة وثلاثين مجلداً
من « المنوعات » ؛ وأثار الإعجاب في النفوس — حتى نفوس الفرنسيين —
بطباعه المهدبة ، وأضحك أندية أوروبا العالمية الطابع بظرفه وخفة دمه
المشربة بالفلسفة .

هذه الإمبراطورية المعقدة ؛ الممتدة من الكربات إلى الرين ؛ هي التي
دانت أربعين سنة لإمرأة من عظيمات نساء التاريخ .

٢ — ماريا تيريزا

وأينها من قبل في الحرب ، وفيها لم تسلم إلا لفردريك وأبلى في السياسة
الحربية ، وفي اتساع النظرة والحاح الهدف ، وفي الشجاعة تواجه الهزيمة .

(*) « كانت مدام دي لوكزيني . . . قادرة على الاصغاء ، وهو أمر ليس بالسهولة التي
يحسبها الكثيرون ، ولم يعرف أحق قط كيف يفعل » (٢) .

قال فردريك عنها في ١٧٥٢ « إذا استثنينا ملكة المجر وملك سرينيا (شارل إيمانويل الأول) الذى انتصرت عبقريته على تعليمه الردىء ، لم نجد فى ملوك أوربا وأمرائها كلهم غير معتوهين مشهورين ^(٣). لقد فاقها فى فن الحكم الزابث الأولى ملكة إنجلترا من قبلها ، وكاترين الثانية قيصرة روسيا من بعدها ، ولم يفقها ملكات غير هاتين . وكانت فى رأى فردريك « طموحا محبة للثأر » ^(٤). ولكن أكان يتوقع منها ألا تحاول استرجاع سيبازيا التى اغتصبها ؟ أما الأخوان جونكور فرأيا فيها « ذهنا متوسطا جيدا يرافقه قلب محب ، واحساسا سلميا بالواجب ، وقدرات مذهلة على العمل ، وحضورا قويا وجاذبية غير عادية . . . أما حقيقة لشعبها » ^(٥) . وكانت غاية فى اللطف مع كل من لم يهاجم امبراطوريتها أو إيمانها ؛ وعلى سبيل المثال نذكر استقبالها الحار لأسرة موتسارت فى ١٧٦٨ ^(٦) . وكانت أمّا فاضلة ، ورسائلها لأبنائها نماذج فى الرقة والمشورة الحكيمة ، ولو استمع إليها يوزف لما مات إنسانا فاشلا ، ولو اتبعت ماري أنطوانيت نصيححتها لكان من الجائز أن يعفى رأسها من الجيلوتين .

لم تكن ماريا تريزا ملكة « مستبدة مستنيرة » . فهى لم تكن مستبدة . وفى رأى فولتير « أنها وطدت ملكها فى جميع القلوب بدمائة طبع وشعبية لم يؤتهما غير قلة من أسلافها ، وقد ألغت المراسم والقيود من بلاطها . . . ولم ترفض مقابلة إنسان ، ولم يبرح شخص حضرتها غير راض » ^(٧). ولم تكن قط مستنيرة بالمعنى الذى يقصده فولتير ، فقد أصدرت المراسم المتعصبة ضد اليهود والبروتستنت ، وظلت كاثوليكية صادقة إلى النهاية . وشهدت فى هلع تسرب الشكوك الدينية إلى فيينا من لندن وباريس ، وحاولت أن تصد هذا التيار بتشديد الرقابة على الكتب والدوريات ، ومنعت تدريس الإنجليزية « لطابع هذه اللغة الخطر من حيث مبادئها الدينية والحلقة المفسدة » ^(٨) .

ومع ذلك لم تنجح تماما من تأثير ذلك العداء للاكليروس الذى كان يكره مستشاروها وابنها . فقد ذكروا لها أن ممتلكات الاكليروس الاقليمية

وغيرها من أسباب الثراء تنزايد بسرعة نتيجة لتلميح الكهنة للمرضى المشرفين على الموت بأن في استطاعتهم التكفير عن آثامهم واسترضاء الله بالايصاء ببعض الثروة للكنيسة ، فإذا سارت الأمور على هذا المنوال فلا بد أن يأتى قريباً ذلك اليوم الذى تصبح فيه الكنيسة — التى هى فعلاً دولة داخل الدولة — سيدة على الحكومة . وكانت أديرة الراهبات والرهبان تتكاثر فتقصى الرجال والنساء عن الحياة الناشطة وتعفى المزيد من الثروة من الضرائب . وكانت الصبايا يغرین بنذر أنفسهن للرهبنة قبل أن يبلغن السن التى يدركن فيها مغزى التكريس مدى الحياة وقد بلغ تساطد الاكليروس على التعليم حداً تشكل معه كل عقل نام على أن يدين بولائه الأعلى للكنيسة لا للدولة . واستسلمت الملكة لهذه الحجج استسلاماً حملها على الأمر ببعض الاصلاحات الهامة . فحظرت وجود الكنسيين عند كتابه الوصايا . وانقصت عدد المؤسسات الدينية ، وأمرت بفرض الضرائب على جميع الثروة الدينية . وحرمت النذر للرهبنة قبل سن الحادية والعشرين . وحظرت الكنائس والاديرة إيواء المجرمين بمقتضى « حق اللجوء » . وأمرت بالألا يعترف بأى منشور بابوى فى المملكة النمساوية قبل أن يحصل على تصديق الامبراطورة . وأخضع ديوان التفتيش لاشراف الحكومة ، لا بل انه فى الواقع ألغى . وأعيد تنظيم التعليم تحت إدارة جرهارت فان سفيث (طبيب الملكة) والأب فرانتس راوتشر اوخ ، وأحل العلمانيون محل اليسوعيين فى كثير من كراسى الأساتذة ^(٩) ، وأخضعت جامعة فيينا للإدارة العلمانية وإشراف الدولة ، وروجع المنهاج فيها وفى غيرها بهدف التوسع فى تعليم العلوم والتاريخ ^(١٠) . وهكذا سبقت الامبراطورة التقية إلى حد ما الاصلاحات الكنسية التى سيقوم بها ابنها الشكاك .

وكانت مثلاً فى الفضيلة فى زمن نافست فيه قصور الدول المسيحية الأستانة فى تعدد الزوجات . ولعل الكنيسة كانت مستخدمة اياها حجة وبرهاناً على فضل التمسك بالعقيدة لولا أن أغسطس الثالث ملك بولنده ولويس الخامس عشر ملك فرنسا وكلاهما كاثوليكي كان أشره العشاق

استكثارا من النساء . ولم تقتد ارسطراطية فيينا بها . فقد فر الكونت اركو إلى سويسره مع خليلته ، وهربت الكونتيسة إسترها تسي إلى فرنسا مع الكونت فون در شولنبورج ، وكان الأمير فون كاونتز يصحب خليلته في تلك الفترة في مركبته ، فلما عاتبته الامبراطورة قال لها « سيدتى ، لقد أتيت لأتحدث عن شئونك لا عن شئوني ^(١١) » ونظرت ماريا تريزا باشمزاز إلى هذا التحال ، وأصدرت مراسم قاسية لفرض الوصية السادسة على الشعب ، وأمرت بتطويل تنانير النساء في أسفلها وقمصانهن في أعلاها ^(١٢) . ونظمت جيشاً من ضباط العفة خولت لهم القبض على أى امرأة يشتبه في احترافها البغاء ، وشكا كازانوفا من أن « تعصب الامبراطورة وضيق عقلها جعل الحياة شاقة على الأجانب بوجه خاص ^(١٣) » .

ويرجع الفضل في كثير من نجاحها إلى وزرائها الأكفاء . فقد قبلت ارشادهم وكسبت اخلاصهم ، وظل الأمير فون كاونتز منوطا بالشئون الخارجية رغم فشل سياسته في « قلب الأحلاف » ، وقد أخلص في خدمة الامبراطورية أربعين عاماً . وغير لودفيج هاوجفتز من الإدارة الداخلية ، وأعاد رودلف شوتك تنظيم الاقتصاد ، هؤلاء الرجال الثلاثة أدوا للنمسا ما أداه ريشليو وكولبير من قبل لفرنسا ، والواقع أنهم خلقوا دولة جديدة ، أقوى بما لا يقاس من المملكة المختلة النظام التى ورثها ماريا تريزا .

بدأ هاوجفتز بإعادة بناء الجيش الإمبراطورى ، وكان يعتقد أن هذا الجيش انهار أمام الانضباط البروسى لأنه كان مؤلفا من وحدات مستقلة يجمعها ويقودها نبلاء شبه مستقلين ، واقترح وأنشأ جيشاً ثابتاً قوامه ١٠٨,٠٠٠ محارب يخضعون لتدريب موحد واشراف مركزى ، ولكى يتول هذا الجيش أوصى بفرض الضرائب على النبلاء والكهنة كما تفرض على العامة ، واحتج النبلاء والكهنة ، وتصدت لهم الامبراطورة بشجاعة وفرضت عليهم ضريبة ملكية وضريبة دخل . وامتدح فردريك عدوته إدارية كفاءاً ، « لقد نظمت ماليها تنظيها لم يبلغه أسلافها قط ، ولم تقتصر على تعويض

تعويض ما فقدته بالنزول عن أقاليم الملكى بروسيا وسردينيا بالإدارة الحسنة بل أنها زادت من دخلها زيادة كبيرة^(١٤) . وواصل هاوجفنز جهوده لتنسيق القانون ، وتحرير القضاء من تسلط النبلاء ، ولاخضاع أمراء الاقطاع لإشراف الحكومة المركزية . وأذيع في ١٧٦٨ قوانين موحدة .

وكان شوتك يجاهد أثناء ذلك لييث النشاط في الاقتصاد الحامل . فالصناعة كانت تعرقل مسيرتها الاحتكارات التي حابت النبلاء ، ولوائح النقابات الحرفية التي ظلت سارية حتى ١٧٧٤ ، على أن لنز كان بها رغم هذا مصانع للصوف تضم ٢٦,٠٠٠ عامل ، وتفوقت فيينا في صناعة الزجاج والخزف والصيني ، وتصارت بوهيميا سائر أقطار الامبراطورية في عمليات التعدين . وكان في النمسا والمجر مناجم منتجة ، ففي غاليسيا رواسب ملحية كبيرة ، وكانت المجر تستخرج من الذهب كل عام ما قيمته سبعة ملايين جولدن . وحمى شوتك هذه الصناعات بالرسوم الجمركية ، لأنه كان لزاما أن يتحقق للنمسا ، المشتبكة في حروب متكررة ، اكتفاء ذاتي في السلع الضرورية ، فالتجاره الحرة كالديمقراطية ترف لايتأتى إلا في الأمن والسلام .

ومع ذلك ظلت الامبراطورية زراعية إقطاعية . ذلك أن الامبراطورة شاتها في ذلك شأن فردريك ، لم تجرؤ وهي تواجه الحرب على المجازفة بالتفسخ الاجتماعي الذي قد يحدث نتيجة لمهاجمة الاشراف الراسخين في امتيازاتهم . وقد ضربت المثل الطيب بالغاء القنية في أراضيها ، وفرضت على أعيان المجر المتطرسين مرسوما يخول للفلاح أن يتنقل ويتزوج ويربى أبناءه كما يشاء ، وأن يستأنف أحكام سيده الاقطاعي أمام محكمة المقاطعة^(١٥) . على أن طبقة الفلاحين في المجر وبوهيميا كانت رغم هذه المساكنات في فقر قريب من فقر فلاحى روسيا . وكانت الطبقة الدنيا في فيينا تعيش في فقر تقليدى ، بين القصور الباذخة والأوبرات المتقنة والكنائس الضخمة توزع الأمل على البشر .

وكانت فيينا بادئة في منافسة باريس وضواحيها في الأبهة الملكية . فكان قصر شونبرون (الربيع الجميل) الواقع خارج المدينة مباشرة يحوى ٤٩٥ فدانا من الحدائق ، مخططة (١٧٥٣ - ٧٥) على غرار فرساي ، بسيارات شاهقة مستقيمة ، ومخارات غريبة وبرك متناسفة ، وتمائيل بديعه من نحت دونر وبير ومعرض وحوش وحديقة نباتات ، وعلى رابية في خافية « جلورييت » بناها في ١٧٧٥ يوهان فون هوهنبرج - مبنى مقنطر معمدني طراز رومانيسكى خالص . أما قصر شونبرون ذاته ، وهو مجمع ضخم من ١٤٤١ حجرة ، فقد صممه يوهان برنهارت فشر فون أرلاخ في ١٦٩٥ ، ولكنه ترك ناقصاً في ١٧٠٥ . فكلفت ماريا تريزا نيكولوبا كاسي بتصميمه من جديد ، واستؤنف العمل فيه عام ١٧٤٤ وأكمل عام وفاة الامبراطورة (١٧٨٠) . وكان في داخله قاعة كبرى طولها ١٤١ قدماً لها سقف روكوكي الطراز رسمة جريجوريو جوليامي (١٧٦١) . وكان قصر شونبرون مقراً للبلاط من الربيع إلى الخريف .

وبلغ عدد أفراد الحاشية الآن ٢٤٠٠ . واقتضت رعاية الخيل والمركبات استخدام مائتين وخمسين سائسا وخادما . وبلغت جملة نفقة صيانة القصر وملحقاته ٤,٣٠٠,٠٠٠ جولدن في العام^(١٦) . أما الملكة ذاتها فقد مارست القصد في النفقة واعتذرت عن بهاء قصرها بضرورته لمراسم الحكم الملكى . وعوضت عن بذخ حاشيتها بسخاها في أعمال البر . ذكرت مدام دستال في معرض حديثها عن النمسا بعد جيل « إن عناصر البر هناك تنظم بكثير من الترتيب والسخاء ، فالإحسان الخاص العام يصرف بروح سامية من العدل . . . وكل شيء في هذا البلد يحمل طابع حكومة أبوية حكيمة متدبنة^(١٧) » .

ولم يكد يوجد أثر للتسول رغم فقر الشعب ، وكانت الجرائم قليلة نسبيا .^(١٨) ووجد أفراد الشعب مسراتهم البسيطة في التزاور ، واللقاء والاختلاط في الميادين ، والابتعاد في البساتين الوارفة الظلال والتمشى في

طريق البراتر الذى يحفه الشجر ، والتنزه فى الريف ، أو — فى أدنى طبقاتهم — الطرب لمراى المعارك الضارية تنظم بين حيوانات تتصور جوعا . وأجمل من هذا الرقصات لا سيما المنويت التقليدية ، ففي هذه الرقصة نادرا ما كان الرجل والمرأة يتلامسان ، فكل حركة تحكمها التقاليد والقاعدة ، وتؤدي بانضباط ورشاقة . أما الموسيقى فكان نصيبها فى حياة فيينا من الكبر بحيث تطالبنا بتناولها فى فصل خاص بها .

وبالقياس إلى هذا كله كان الأدب ضعيفا فجاء . فلم يكن للنمسا التى سيطرت عليها المقدسات نصيب فى حركة « شتورم فوند درانج » التى أثارت ألمانيا . ولم تكن ماريا تيريزا راعية للعلم ولا للأدب البحت . ولم يكن فى فيينا صالونات أدبية ، ولم يختلط المؤلفون والفنانون والفلاسفة بالنساء والنبلاء والساسة كما فى فرنسا . لقد كان مجتمعا ساكنا ، فيه ما فى أساليب العيش القديمة المحسوبة من سحر وراحة ، أنقذ من ضجيج الثورة وعجيجها ولكن أعوزته فتنة الأفكار المتحدية . وكانت صحف فيينا الخاضعة لرقابة دقيقة عوائق غبية للفكر ، ربما باستثناء « الفيينر تسايتونج » التى أسست فى ١٧٨٠ . أما مسارح فيينا فكان ديدنها الأوبر للارستقراطية والبلاط ، أو الملامى الغليظة لعامة الشعب . كتب ليوبولد موتسارت يقول إن « شعب فيينا فى جملته لا يشعر بالحب لأى شىء جاد أو معقول ، بل ان أفراده لا يفهمونه . وفى مسارحهم البراهين الوفيرة على أن الهراء المطلق دون غيره هو الذى يرضيهم — كالرقصات والمنوعات المسرحية الخفيفة (البرلسك) والتهريجيات وحيل الأشباح وألاعيب الشيطان »^(١٩) . ولكن بابا موتسارت كان قد خيب أمله استقبال فيينا لولده .

هذا الخليط من الممثلين والموسيقيين والعامة والأقنان والبارونات ورجال البلاط والكنيسة حكمته الأباطورة العظيمة بسهر الأم واهتمامها الشديد . وكان زوجها فرانسوا اللورينى قد توج إمبراطورا فى ١٧٤٥ ، ولكن مواهبه وجهته إلى التجارة لا الحكم . فنظم الصناعات ، وزود الجيوش النمساوية بالحلل والخيول والسلاح ، وباع الدقيق والعلف لفردريك

بينما كان هذا مشتبكا في حرب مع النمسا (١٧٥٦) (٢١)، وترك إدارة الامبراطورية لزوجته . على أنه في الأمور الزوجية كان يتشبت بحقوقه ، وقد أنجبت له الامبراطورة التي أحبته رغم خياناته ستة عشر طفلا (٢١) . ورببتهم في محبة وصرامة ، وأكثر من تعنيفهم ، وأعطتهم من جرعات الفضيلة والحكمة ما جعل ماري أنطوانت تتهيج بالفرار إلى فرساي ، أما يوزف فكان يتسلى بالفلسفة . ودبرت الخطة بمهارة لتحصل على مراكز مريحة لأبنائها الآخرين ، فجعلت ابنتها ماريا كارولينا ملكة على نابلي ، وابنتها ليوبولد دوقا أكبر لتسكانيا ، وابنها فرديناند حاكما على لبارديا . وكبرت نفسها لاعداد ولدها البكر يوزف للاضطلاع بالتبعات الجسام التي ستخلفها له ، وراقبت في قلق تطوره أثناء التعليم والزواج ، وزعزع الفلسفة وخطوب الحب ، حتى أتى الوقت الذي رفعت في نشوة من المحبة والتواضع وهو في الرابعة والعشرين ليتربع بجوارها على عرش الامبراطورية .

٣ — يوزف في مرحلة النمو :

١٧٤١ — ٦٥

كانت قد وكلت اليسوعيين بتعليمه ، ولكنها في سبق لأفكار روسو طلبت أن يعلم كما لو كان يلهو . (٢٢) فلما ناهز الرابعة شكت من أن « ولدي يوزف لا طاقة له على الطاعة » (٢٣) ولا غرو فالطاعة ليست لهوا . ذكر السفير البروسي حين كان يوزف في السادسة « لقد كون فكرة مغرورة عن منصبه » ولجأت ماريا تريزا إلى التهذيب وفرض التقوى ، ولكن الصبي وجد الطقوس الدينية مملة ، وأنكر الأهمية التي يعلقها الناس على العالم فوق الطبيعي . فحسبه العالم الذي يعيش فيه ويرث جزءا منه . وما لبث أن سئم اتباع العقائد السنية واكتشف ما في فولتير من فتنة . وفيما عدا ذلك لم يكن يهتم اهتماما يذكر بالأدب ، ولكنه شغف بالعلوم والاقتصاد والتاريخ والقانون الدولي . ولم يتخلص قط مع الزمن من غطرسة صباه

وكبريائه ، ولكنه ترعرع وأصبح فتى وسيما يقظا لم تباعد أخطاؤه بعد بينه وبين أمه . فكان في أسفاره يكتب لها رسائل تفيض رقة بنوية حارة .

فلما بلغ العشرين عين عضوا في مجلس الدولة (شتاتسرات) . ولم يلبث (١٧٦١) أن وضع ورقة تحمل أفكاره في الإصلاح السياسي والديني وقدمها إلى أمه ، وظلت هذه الأفكار جوهر سياساته إلى نهاية حياته . وقد أشار على الامبراطورة بأن تنشر التسامح الديني في ربوع مملكتها ، وتقلص سلطة الكنيسة ، وتخفف عن الفلاحين أعباء الاقطاع ، وتسمح بحرية أكبر في انتقال السلع والأفكار .^(٢٤) وطلب إليها أن تقلل من نفقة البلاط ومواسمه ، وتزيد من نفقة الجيش . وقال إن على كل عضو في الحكومة أن يعمل ليستحق راتبه ، وإن من الواجب فرض الضرائب على الاشراف . شأنهم شأن سائر الشعب .^(٢٥)

وكان أثناء ذلك يتعلم جانبا آخر من الحياة . ذلك أن لويس الخامس عشر كان قد عرض حفيدته ايزابللا البارسية عروسا تصلح للدوق الأكبر ، كجزء من اتفاق عكس الاحلاف . وبدا أن الحظ حالف يوسف : فايزابللا فتاة في الثامنة عشرة جميلة ذات خلق طيب باستثناء ميلها للاكتئاب . وفي ١٧٦٠ جاءت عبر الألب في قافلة يجرها ثلاثمائة جواد . واحتفل بالزفاف في مهرجان باذخ ، وسعد يوسف بأن يجد بين ذراعيه مخلوقا بهذا الحسن . ولكن ايزابللا كانت عميقة الإيمان باللاهوت الذي تلقته ، ولم تجد لذة في كل الهبات التي حبتها بها الحياة ، بل تآقت إلى الموت . كتبت إلى أخيها في ١٧٦٣ تقول « أن الموت رحيم ، ولم أفكر فيه يوما أكثر مما أفكر فيه الآن . وكل شيء يوقظ في الرغبة في أن أموت سريعا . علم الله كيف أتمنى أن أترك حياة تهينه تعالى كل يوم . . ولو كان مسموحا للمرء أن يقتل نفسه لما ترددت في ذلك . »^(٢٦) وفي نوفمبر ١٧٦٣ أصيبت بالجدري ، ولم يبد منها أي تشجيع للأطباء الذين حاولوا شفاءها ، فما انقضت خمسة أيام حتى ودعت الحياة . أما يوسف الذي أحبا حبا عميقا فلم يفق قط من هذه اللطمة :

وبعد شهور أخذه أبوه إلى فرانكفورت — على — المين ليتزوج ملكا على الرومان — وهى الخطوة التقايدية إلى العرش الامبراطورى . وهناك انتخب فى ٢٦ مارس ١٧٦٤ (وكان الشاب جوته بين الجمع الحاضر) ، وفى ٣ أبريل توج . ولم يستمتع بالمراسم المطولة ، والخدمات الدينية ، والخطب ، وشكا فى خطاب لأمه من « الهراء والحقاقت البالية التى كان لزاما علينا أن نستمع إليها طول اليوم . انه يقتضىنى جهودا جبارة أن أمنع نفسى من مصارحة هؤلاء السادة بمبلغ ما فى عملهم وكلامهم من بلاهة . » ولم يكف خلال هذا كله عن التفكير فى الزوجة التى فقدوها . « على أن أبدو فى غاية الابتهاج رغم ما يعتصر قلبي من ألم . . . اننى أحب الوحدة . . ومع ذلك يجب أن أعيش بين الناس . . وعلى أن أثرثر طوال النهار وأفوه بأحاديث كلها لغو وتفاهة^(٢٧) » . ولابد أنه أحسن إخفاء مشاعره ، لأن أخاه ليوبولد قرر أن « ملكنا — ملك الرومان — ساحر دائما ، رائق المزاج دائما ، مرح ، كيس ، مؤدب ، وهو يكسب جميع القلوب^(٢٨) » .

فلما عاد إلى فيينا أبلغ بضرورة زواجه ثانية ، ذلك أن استمرار الحكومة المنتظم اقتضى فيما يبدو استمرار أسرة هابسبورج . واختار كاونتز زوجة له هى يوزيفا البافارية ، لأن كاونتز كان يأمل أن يضيف بافاريا إلى ملك النمسا . ووقع يوزف مشروع الزواج الذى وضعه له كاونتز ، وبعث به ، وكتب إلى دوق بارما (والد ايزابيلا) وصفا ليوزيفا قال فيه « إنها مخلوق صغير قصيرة بدينة ، تجردت من سحر الشباب ، على وجهها دما مل وبقع حمراء وأسنان منفرة . . فاحكم بنفسك ما كلفنى هذا القرار . . ألا رفقاى ، ولا يفتر حبك لابن لك قد دفن فى قلبه إلى الأبد صورة معبودته رغم أن له زوجة ثانية^(٢٩) . وقد زف يوزف إلى يوزيفا فى بواكير عام ١٧٦٥ . وحاولت أن تكون له زوجة صالحة ، ولكنه زهد فيها سرا وعلانية . وقاست فى صمت ، ثم ماتت بالجذرى فى ١٧٦٧ . ورفض يوزف أن يتزوج مرة أخرى . وكرس الآن مابقى من حياته للحكم وفيه مزيج محزن من الفتور والانخلاص ، من المثالية والغرور .

٤ — الأم وولدها (١٧٦٥ — ٨٠)

ظلت ماريا تريزا فترة محطمة الجسد والعقل بعد موت الإمبراطور فرانسو الأول (١٨ أغسطس ١٧٦٥) . وشاركت خليلته الحزن عليه ، وقالت لها : « يا عزيزتى الأميرة ، لقد فقدنا كلثانا الكثير » . (٣٠) وقصت شعرها ، وتصدقت بصيوان ثيابها ، ونبذت كل أنواع الحلى ولبست السواد إلى يوم مماتها . وسلمت شئون الحكم ليوزف ورددت حديث الإعتكاف فى أحد الأديرة . على أنها عادت إلى الحياة العامة لخشيته من أن يكون وريثها الطائش غير كفء للحكم ؛ ثم وقعت فى ١٧ نوفمبر إعلاناً رسمياً بالمشاركة فى الحكم . واحتفظت بالسلطة العليا فى الشئون الداخلية للنمسا والمجر وبوهيميا ؛ أما يوزف فتقرر باعتباره إمبراطوراً أن يناط به الشئون الخارجية والجيش ؛ ثم الإدارة والمالية بسلطة أقل ؛ ولكنه فى الشئون الخارجية قبل إرشاد ، كاونتز ، وفى جميع الميادين خضعت قراراته لمراجعة الإمبراطورة . وقد خفف احترامه وحبه لأمه من حدة شغفه بالسلطة . فلما أشرفت على الموت تقريباً بالجدري فى ١٧٦٧ لزم سريرها إلا نادراً ؛ وأذهل الحاشية بعمق قلقه وحزنه . وأخيراً أقنعت هذه الهجمات الثلاث التى أصاب بها المرض الأسرة المالكة الأطباء النمساويين بإدخال التطعيم ضد الجدري .

وأقلق الإبن المحب أمه بالحاح أفكار المطالبة بالإصلاح . ففى نوفمبر ١٧٦٥ أرسل إلى مجلس الدولة مذكرة لابد أنها أفرغت قراءتها :

« رغبة فى الاحتفاظ بالمزيد من كفاءة الرجال القادرين على خدمة الدولة سأصدر أمراً — مهما قال البابا وجمع الرهبان فى العالم — يحرم انقطاع أى من رعاياى للعمل الكنسى قبل . . . سن الخامسة والشرين . فالعواقب الوخيمة — للجنسين — التى كثيرا ماتنجم عن الذور المبكرة خلىق بها أن تقنعنا بنفع هذا الترتيب ، فضلا عن المبررات المتصلة بالدولة .

« وينبغى أن يكون التسامح الدينى والرقابة المعتدلة على المطبوعات ،

والكف عن المحاكاة على الأخلاق وعن التجسس في خصائص الناس — ينبغي أن يكون هذا كله من مبادئ الحكم الأساسية . إن الدين والأخلاق هما ولا شك من بين أهداف الملك الرئيسية . ولكن غيرته يجب ألا تتجاوز الحد إلى عقاب الأجانب وتحويلهم عن دينهم . فالعنف لا جدوى منه في مسائل الدين والأخلاق ؛ إنما الحاجة إلى الاقتناع . أما عن الرقابة فينبغي أن نكون شديدي التنبه لما يكتب ويبيع ولكن تفتيش جيوب الناس وحققاتهم لاسيما الأجانب إجراء متطرف في الغيرة . ومن اليسير أن نثبت أن كل كتاب محرم يوجد الآن في فيينا رغم الرقابة الصارمة على المطبوعات الآن، وفي وسع أى إنسان يغريه هذا التحريم أن يشتريه بمثل ثمنه . .

« ويجب دفع الصناعة والتجارة قدماً بحظر جميع البضائع الأجنبية فيما عدا التوابل ، وبإلغاء الاحتكارات ، وإنشاء مدارس تجارية ، وبالقضاء على الوهم الذى يزعم أن الاشتغال بالتجارة لا يتفق مع النبالة .

وينبغي تقرير حرية الزواج ، حتى مandedوه الآن بالزواج غير المتكافئ . فلا القانون الإلهى ولا الطبيعى يحرمه . فالتحيز وحده هو الذى يوهمنا بأننى أعظم قدراً لأن جدى كان كونتاً ، أو لأننى أملك رقاً وقع عليه شارل الخامس . أننا لانرث من آبائنا غير الوجود البدنى ، إذن فالملك أو الكونت أو البورجوازي أو الفلاح كلهم سواء^(٣١) » .

ولابد أن ماريا تريزا ومستشاريها قد شموا ريح فولتير أو «الموسوعة» في هذه المقترحات . وكان على الأمبراطور الشاب أن يسير الهوينا ، ولكنه تقدم . فنقل إلى الخزانة عشرين مليون جولدن — تقدماً وسندات وأملاكاً — خلفها له أبوه في وصيته ، ثم غير الدين القومى بفائدة أربعة في المائة بدلا من ستة . وباع أراضى الصيد والقنص التى كانت للأمبراطور المتوقى ، وأمر بذبح الخنازير البرية التى كانت هدفا للصيادين وأداة تدمير لمحاصيل الفلاحين . وفتح البراتر وغيره من البساتين للشعب رغم احتجاجات النبلاء ولكن بموافقة أمه^(٣٢) .

وفي ١٧٦٩ صدم الإمبراطورة والبلاط بذهابه إلى نايسى في سيليزيا وقضائه ثلاثة أيام (٢٥ - ٢٧ أغسطس) في مناقشات ودية مع فردريك الأكبر أعدى أعداء النمسا . وكان قد أخذ عن ملك بروسيا فكرة الملك « الخادم الأول للدولة » . وأعجب بانخضاع فردريك الكنيسة للدولة ، والتسامح مع شتى المذاهب والديانات ، وحسد بروسيا على تنظيمها العسكرى واصلاح شرائعها . وقد شعر كلا الرجلين أن الوقت حان لإغراق خلافتهما في اتفاق وقائى ضد قوة روسيا الصاعدة . وكتب يوزف لأمه يقول « بعد العشاء . . . دشنا ودار حديثنا حول فولتير^(٣٣) » . ولم يكون الملك البالغ من العمر آنشد سبعة وخمسين عاما فكرة طيبة عن الإمبراطور ذى الثمانية والعشرين . كتب يقول « لقد اتخذ الملك الشاب مظهر الصراحة الذى ناسبه تماما . . . انه رغب فى أن يتعلم . ولكنه لم يوث من الصبر ما يتيح له أن يعلم نفسه ، ومنصبه الرفيع يجعله سطوحيا والطمع الذى لا حد له ينهش قلبه . . . وله من الذوق ما يكفى لقراءة فولتير وتقدير مزاياه^(٣٤) .

وقد حمل النجاح المنذر بالخطر ، الذى حققته كاترين الثانية فى روسيا ، كاونز على ترتيب اجتماع ثان مع فردريك . والتقى الملك والإمبراطور والأمير فى تويشتات بمورافيا فى ٣ - ٧ سبتمبر ١٧٧٠ . ولا بد أن يوزف تطور تطورا كبيرا خلال ذلك العام ، لأن فردريك كتب الآن إلى فولتير يقول « أن الإمبراطور الذى نشىء فى بلاط متعصب قد نبذ الخرافة ، واتخذ العادات البسيطة رغم أنه ربى فى جو مترف . وهو متواضع رغم ما يحرق له من بخور ، وهو مع شوقه للعظمة والمجد يضحى بأطماعه فى سبيل واجبه البنوى^(٣٥) .

وكان هذان اللقاءان جزءا من تربية يوزف السياسية . وقد أضاف إليها زيارة ممتلكاته وفحصه مشكلاتها وامكانياتها بنفسه . ولم يزرها بوصفه إمبراطورا بل مسافرا من عامة الناس يركب جوادا . وتجنب

المراسم ونزل في الفنادق بدلا من قصور الريف . وحين زار الحجر في ١٧٦٤ و ١٧٦٨ لاحظ فقر الأقتان المدقع وصعق حين رأى في أحد الحقول جثث أطفال ماتوا جوعا . وفي ١٧٧١ - ٧٢ رأى مثل هذا في بوهيميا ومورافيا وكان حينما ذهب يسمع أنباء أو يشهد الأدلة على وخشية الاقطاعيين وجوع الاقتان . وكتب يقول « إن الموقف الداخلي لا يصدق ولا يوصف ، أنه يفطر القلوب^(٣٦) » . فلما عاد إلى فيينا سخط على التحسينات التافهة التي ينويها مستشارو الأباطورة فقال « ان الاصلاحات الصغيرة لن تجدى فتيلا ، إذ لا بد من تغيير الكل » . واقترح البدء بالاستيلاء على بعض الأراضي الكنسية في بوهيميا ليبني فوقها مدارس وملاجئ ومستشفيات . وبعد نقاش طويل اقنع المجلس بأن يصدر (١٧٧٤) قانونا ميسرا يقلل وينظم حجم تشغيل الأقتان (الذي كان البوهيميون يسمونه روبوتا) الواجب عليهم للسيد الاقطاعي وقاوم اقطاعيو بوهيميا والحجر ، وهب الاقتان البوهيميون في ثورة غير منظمة ، فأخضعتهم قوات الجيش . ولامت ماريا تريزا ابنها على هذه الضجة الكبرى فكتبت لعاملها في باريس مرسى دارجنتو :

« ان الأباطور الذي يسرف في شعبيته قد أفرط في الحديث خلال رحلاته المختلفة . . . حول الحرية الدينية وتحرير الفلاحين . وقد أحدث هذا كله الاضطراب في جميع ولاياتنا الألمانية . . . فليس الفلاح البوهيمي وحده هو الذي يخشى منه ، بل المورافي والستيري والنمساوي أيضاً ، لا بل أنهم في قسمنا يجرؤون على التمداد في أشد الوقاحات^(٣٧) » .

وزاد توتر العلاقات بين الابن والأم (١٧٧٢) حين انضم يوزف إلى فردريك وكاترين الثانية في التقسيم الأول لبولنده . فاحتجت على اغتصاب أمة صديقة وكاثوليكية . وبكت حين أقنعها يوزف وكاونتز بعد إلحاح باضافة توقيعها إلى الاتفاق الذي أعطى شطراً من بولنده للنمسا . وقد علق فردريك بنحب « أنها تبكى ، ولكنها تأخذ^(٣٨) » . على أنها كانت مخلصاً في أسفها كما نرى من خطاياها لولدها فرديناند « كم من مرة اجاهدت لاجتناب اشتراكى في عمل يلوث ملكى .

كله ؟ ليت الله يمنحني الاعفاء من تبعته في عالم آخر . إنه يشغل قلبي ، ويعذب ذهني ، ويشيع المرارة في أيامي (٣٩) .

وقد تأملت خلق ولدها في خوف ومحبة . « انه يحب الاحترام والطاعة ، ، ويرى المعارضة شيئاً كريها لا يكاد يحتمل . . . وكثيراً ما يكون غير مراع لشعور الآخرين . . . وحيويته الكبيرة المتزايدة تفضي إلى رغبة عاتية في أن ينال ما يريد بكل دقائقه . . . أن لولدي قلباً طيباً . ومرة أنبته بمرارة :

« حين أموت أخادع نفسي بأنني سأظل حية في قلبك ، بحيث لا تخسر الأسرة والدولة بموتي . . . أن تقليدك (لفردريك) ليس بالأمر السار . فهذا البطل . . . « هذا الفاتح — أله صديق واحد ؟ . . . أية حياة هذه التي تنعدم فيها الإنسانية . أيا كانت مواهبك فليس ممكناً أن تكون جربت كل شيء . حذار من الوقوع في خطيئة الحق ؟ ان قلبك ليس شريفاً إلى الآن ، ولكنه سيكون كذلك . لقد حان الوقت للكف عن التلذذ بكل هذه الملاحظات الظريفة ، هذه الأحاديث الذكية البارعة التي لا هدف لها إلا السخرية من الغير . . . إنك عابث تتظاهر بالعقلانية وأنت في الواقع لست إلا مقلداً عديم التفكير حين تحسب نفسك مفكراً مستقلاً (١) » .

وكشف يوزف عن جانبه من الموقف في خطاب إلى ليوبولد :

« لقد بلغت شكوكنا وعدم ثقتنا هنا قمة لا تستطيع تخيلها . فالواجبات تراكم كل يوم ولا شيء يعمل . وأنا أكدح كل يوم حتى الخامسة أو السادسة لا يتخلل ذلك غير ربع ساعة أتناول فيها الطعام وحيداً ، ومع ذلك لا شيء يحدث . فان أسباباً أتافهة ، ودسائس طالما كنت ضحيتها تسد الطريق ، وكل شيء أثناء ذلك يذهب إلى الشيطان . انني أهديك منصبى بوصفى الابن البكر (٢) » .

وقد احتقر الرجال الذين شاخوا في خدمة أمه . ولم يؤيده غيركاونز ، ولكن في حذر يغيظة .

وأما الأمبراطورة المسنة فقد استمعت إلى أفكار ابنها الثورية في دعر.
وصارحته برأيها :

« إن أهم مبادئك الأساسية هي : ١ — إطلاق الحرية في ممارسة الدين ،
وهو ما لا يستطيع ملك أو أمير كاثوليكي السماح به دون أن يتحمل تبعه ثقيلة .
٢ — القضاء على طبقة النبلاء بانتهاء القنيه . . . ٣ — الدفاع عن الحرية
في كل شيء وهو مبدأ يتردد كثيرا جدا . . . اني بلغت من الشيخوخة
حدا لا أستطيع معه تقبل أفكار كهذه ، وأسأل الله ألا يجربها خلفي أبناً .
أن التسامح الديني . وعدم الاكتراث واللامبالاه هما بالضبط أداة تقويض
كل شيء . فاذا لم يوجد دين غالب فأى ضابط يكبح الجماع ؟ لا ضابط
ولا المشقة ولا دولاب التعذيب . . . إنني أتكلم سياسياً لا كسيحية . فإمن
شيء ألزم وأنفع من الدين . أتريد السماح لكل إنسان بأن يسلك على هواه ؟
وإذا لم يكن هناك عادة ثابتة ، ونخضوع للكنسية ، فأين ترانا نكون ؟
ستكون النتيجة قانون القوة . . . ليس لي من أمنية إلا أن أستطيع حين
أموت الانضمام إلى أسلافي متعزية بأن ابني سيكون عظيماً تقياً كأجداده ،
وأنه سيقلع عن حججه الباطلة ، وعن الكتب الشريرة ، وعن الاتصال بأولئك
الذين أغووا روحه على حساب كل شيء ثمين مقدس ، لا شيء إلا
لإقامة حرية موهومة لا يمكن . . . أن تفضي لغير الخراب الشامل (٤١) » .

ولكن إذا كان ثمة شيء يتوق إليه يوزف فهو حرية الدين . ربما لم
يكن ملاحظاً كما خاله بعضهم (٤٣) ، ولكنه كان قد تأثر تأثيراً عميقاً بأدب
فرنسا . وكانت جماعة من رجال الفكر النمساويين قد ألفت فعلا في
١٧٧٢ حزب التنوير (٤٤) . وفي ١٧٧٢ نشر جورجى بيسييني
المجرى في فيينا مسرحية تردد أفكار فولتير ، وقد قبل الدخول
في الكاثوليكية ارضاءً لماريا تيريزا ، ولكنه ارتد إلى العقلائية
بعد موتها (٤٥) . ولا ريب أن يوزف كان على علم بهذا الكتاب المشهور
المسمى « الوضع الكنسي والقانوني لبابا روما » (١٧٦٣) ، الذي أكد فيه
أسقف كاثوليكي بارز تخفى تحت اسم فيرونيوس ، من جديد سمو المحامع

العامة على البابوات ، وحق كل كنيسة قومية في أن تحكم نفسها . ورأى
الأمبراطور الشاب في ثروة الكنيسة النمساوية الموطدة الأركان عقبة كؤوداً
في طريق التطور الاقتصادى ، وفي سيطرة الكنيسة على التعليم ، المعوق
الأكبر لنضج العقل النمساوى . وفي يناير ١٧٧٠ كتب إلى شوازيل :

« أما عن نخطتك للتخلص من اليسوعيين فأنا موافق عليها موافقة تامة...
ولاتسرف في الاعتماد على أى ، فإن التعلق الوثيق باليسوعيين صفة موروثه
في أسرة الهابسبورج . . . على أن لك صديقا في كاونتز ، وهو ينفذ ما يشاء
مع الأمبراطورة^(٤٦) » .

ويبدو أن يوزف استعمل نفوذه في روما ليوصل كلمته الرابع عشر
إلى الخطوة النهائية ، وقد أجهجه إلغاء البابا للطائفه ١٧٧٣^(٤٧) .

ولو عرفت ماريا تريزا من خطابات ولدها مبلغ انحرافه إلى معسكر
« الفلاسفة » لصعقت . لقد بذلت قصاراها لتمنع حل جمعية اليسوعيين ،
ولكن كاونتز أقنعها بالامتنال لرأى سائر الدول الكاثوليكية . كتبت إلى
صديقه لها تقول « اننى مغمومة يائسة لما أصاب اليسوعيين . لقد أحببتهم
وأكرمهم طوال حياتى ، ولم أر قط فيهم غير كل شىء بناء للروح^(٤٨) » .
وقد عطلت تنفيذ الأمر البابوى بتعيين لجنة الدراسة . وأتيح لليسوعيين
النمساويين الوقت لنقل أموالهم ومقتنياتهم الغالية وأوراقهم من البلد .
وصودرت أملاك اليسوعيين ، ولكن الأمبراطورة حرصت على أن يتلقى
أعضاء الطائفة المعاشات والاثياب وشتى العطايا .

ووسع اغتباط يوزف الواضح بحل جماعة اليسوعيين الهوة بين الأم
وولدها . ففي ديسمبر ١٧٧٣ انهارت تحت وطأة التوتر وتوسل إليها أن تعفيه
من كل مشاركة في شئون الحكم . وأفرعها اقتراح مذهل كهذا ، وكتبت
إليه نداء مؤثرا للمصالحة :

« يجب أن أعترف بأن قدراتى ، ووجهى ، وسمعى ، وخلقى — كلها

تتدهو سريعا وبأن الضعف الذى ارتعت منه طوال حياتى — وهو التردد فى اتخاذ القرارات — يرافقه الآن، تثبيت الهمة والافتقار إلى الحدام الأوفياء فالجفوة منك ومن كاونتز وموت مستشارى المخلصين، والمزوق عن الدين، وتدهور الأخلاق، والبطانة التى تجرى على كل لسان، والتى لا أفهمها — كل هذا يكفى لسحقى. انى أقدم لك كامل ثقى، وأسألك أن تنهى لآى خطأ ارتكبه . . . أعن أما . . . تعيش فى وحدة، وسيقضى عاها أن ترى كل جهودها وأحزانها ذهبت أدراج الرياح. قل لى ما تريد أفعله لك (٤٩) :

وتصالح معها، ووافقت المرأة التى حاربت يوما فردريك وأوقفت تقدمه، مؤقتا على أن تتعاون مع تلميذ فردريك المعجب به. واستخدما معا ثروة اليسوعيين المصادرة فى الإصلاح التعليمى. وفى ١٧٧٤ أصدرتا « نظاما عاما للتعليم » أحدث تنظيما جديدا. أساسيا للمدارس الابتدائية والثانوية. وفورت مدارس متدرجة للتعليم الإلزامى لجميع الأطفال، وسمحت بدخول البروتستانت واليهود طلابا ومعلمين، وقدمت لتلاميذها التعليم الدينى فى كل دين. ولكنها وضعت الاشراف فى أيدي موظفين حكوميين. وسرعان ما أصبحت مدارس الشعب Voikschulen هذه تعد خير المدارس فى أوربا. وانشئت مدارس لتدريب المعلمين، وتخصصت المدارس العليا Hauptschulen فى العلوم والتكنولوجيا، وعلمت المدارس الثانوية Gymnasien اللاتينية والعلوم الإنسانية، وخصصت جامعة فيينا إلى حد كبير للقانون والعلوم السياسية والإدارة، وأدت وظيفة دار الحضانة لموظفى الدولة. واستبدل باشراف الكنيسة على التعليم إشراف من الدولة لا يقل عنه صرامة ودقة.

واستمر التعاون بين الأم وولدها فالغى التعذيب (١٧٧٦). ولكن الاتفاق بينهما حطمته أحداث السنة التالية. ذلك ان يوزف كان ينوى منذ زمن زيارة باريس. لا ليرى «الفلاسفة» ويستدفىء فى الصالونات، بل ليدرس موارد فرنسا وجيشها وحكومتها، وليرى مارى انطوانيت،

وليقوى الروابط التي ربطت ربطا واهيا جدا بين الأعداء القدامى في حلفهما الهش . فلما مات لويس الخامس عشر ، وبدا أن فرنسا على شفا التمزق ، كتب يوزف إلى ليويولد يقول : « اننى قلق على أختى فسيكون عليها أن تلعب دورا شاقاً ^(٥١) » . ووصل إلى باريس في ١٨ ابريل ١٧٧٧ ، وحاول أن يتكتم زيارته فتخفى تحت اسم الكونت فون فلكشتين وأشار على الملكة الشابة المرححة بأن تقلع عن الاسراف والطيش ، وصبغ وجنتها وشفتها ، وأصغت إليه في ضجر . وحاول ولكنه فشل في كسب لويس السادس عشر إلى حلف سرى لكبح توسع روسيا ^(٥٢) . وتحرك بسرعة في أرجاء العاصمة و « لم تمض أيام حتى عرف عنها أكثر مما سيعرف لويس السادس عشر طوال حياته ^(٥٣) » . وزار الأوتيل ديو ولم يخف دهشته لسوء الإدارة غير الإنسانية لذلك المستشفى . وفتن أهل باريس ، وذعرت حاشية فرساي ، حين وجدت أرفع ملوك أوربا يمشى في زى مواطن بسيط ، يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها . ويلتقى بجميع الطبقات دون تكلف . أما عن نجوم الأدب فقد التمس أولا لقاء روسو ويوفون . وحضر أمسية عند مدام نكير ، والتقى بجبون ، ومارمونتيل ، والمركيزه دودفان ، ومما يشرفه أن رباطة جأشها وشهرتها أربكتاه أكثر مما أربكها مقامه الرفيع ، فالعمى يسوى بين الناس لأن الشالات يتكون نصفها من الثياب . وحضر جلسة لبرلمان باريس وأخرى الأكاديمية الفرنسية . وأحس الفلاسفة أنهم وجدوا في النهاية الحاكم المستنير الذى تطلعوا إليه أداة لنشورة سلميه . وبعد أن قضى يوزف شهرا في باريس تركها في جولة بالأقاليم فسافر شمالا إلى نورمنديه ، ثم على الساحل الغربى إلى بايون ، ثم تولوز ، فونيليه فرسلينا ، ثم صعد مع الرين إلى ليون وشرق إلى جنيف . ومر بفرنيه دون أن يزور فولتير ، إذ لم يشأ أن يغضب أمه أو يرتبط جهازا برجل يخاله الشعب النمساوى والملك الفرنسى شيطانا مجسما .

وكان حريصا على استرضاء أمه ، لأن عشرة آلاف مورافى هجروا

الكثلكة في غيبته إلى المذهب البروتستنتي ، وكان رد الفعل من جانب ماريا تريزا - أو مجلس الدولة - على هذه الكارثة اتخاذ اجراءات تذكرنا بغارات الفرسان على بيوت الهجونات أيام لويس الرابع عشر . فقبض على زعماء الحركة وشتنت اجتماعات البروتستنت وجند المتحولون العنيدون في الجيش وفرضت عليهم الأشغال الشاقة وأرسلت نساؤهم إلى الملاجيء . فلما عاد يوزف إلى فيينا قال لأمه محتجا « أن السبيل لإعادة هؤلاء الناس إلى الكثلكة أن تجعلهم جنودا أو ترسلهم إلى المناجم أو تستخدمهم في الأشغال العامة . . . يجب أن أعلن صراحة . . . أن المسئول عن هذا الأمر ، أيا كان ، هو أحقر خدامك ، وهو لا يستحق مني غير الازدراء ، لأنه أحرق وقصير النظر ^(٥٣) » . وأجابت الأميرة بأنها ليست مصادرة هذه المراسيم بل مجلس الدولة ، ولكنها لم تسحبها . وجاء وفد من المورافيين البروتستنت لمقابلة يوزف ، فأمرت ماريا تريزا بالقبض على أفرادهم . وكانت الأزمة بين الأم وولدها تسير إلى طريق مسدود حتى أقنعها كاوتز بسحب المراسيم . فأوقفت الاضطهادات ، وسمح لمعتنقي البروتستنتية بممارسة عبادتهم الجديدة شريطة أن يكون ذلك في هدوء بيوتهم . وتوقف صراع الجيابين برهة .

ثم استؤنف لما مات مكسمليان يوزف ناخب بافاريا في ٣٠ ديسمبر ١٧٧٧ دون أن يعقب بعد حكم طويل رنجي . وفي الصراع على وراثته أيد يوزف الثاني ناخب بالاتين شارل (كارل) تيودور شريطة أن ينزل للنمسا عن جزء من بافاريا ، وأيد فردريك الأكبر شارل دوق تزفايبروكن ، وأعلن أنه سيقاوم أى محاولة من النمسا لتملك أرض بافاريه . وحذرت الامبراطورة ولدها من تحدى ملك بروسيا الذي لم يزل منيعا لم يقهر بعد . ولكن يوزف تجاهل نصيحتهما ، وأيده كاوتز ، وجردت قوة نمساوية على بافاريا . وأمر فردريك جيشه بدخول بوهيميا والاستيلاء على براغ مالم يحل النمساويون عن بافاريا . وقاد يوزف جيشه الرئيسي ليدافع عن براغ ، واقترب الجيشان العدوان ، ولاح أن حربا نمساوية بروسية أخرى وشيكة على سفك

دماء الاخوة . أما فردريك فقد تجنب خوض المعركة منهكاً بذلك السوابق والتوقعات ، واكتفى باطلاق جنوده على المحاصيل البوهيمية ليأتوا عليها ، وأما يوزف فقد تردد في الهجوم لعلمه بشهرة فردريك قائدا للجيش . وكان يأمل أن تخف فرنسا لنجدته ، وأرسل على وجه السرعة نداءات لمارى أنطوانيت . فأرسل له لويس السادس عشر خمسة عشر مليون جنيه ، ولكنه لم يستطع أن يفعل أكثر من هذا ، لأن فرنسا كانت قد وقعت (٦ فبراير ١٧٧٨) حلفاً من المستعمرات الأمريكية الثائرة ، وكان عليها أن تعد نفسها لخوض حرب مع إنجلترا . وأقام يوزف في معسكره نهبا للغنم والقلق بينما نهبت البواسير في طرف ودمل ضخم في الطرف الآخر .

وهنا قبضت مارياتريزا على أزمة الأمور في انتفاضة أخيرة من انتفاضات الإرادة ، وأرسلت إلى فردريك سرا عرضا للصلح (١٢ يوليو) . ووافق فردريك على التفاوض ، وأذن يوزف لأمه ، وتوسط لويس ملك فرنسا وكاترين قيصرية روسيا في النزاع . وانتهى الأمر بمعاهدة تشن (١٣ مايو ١٧٧٩) التي عزت يوزف بأربعة وثلاثين ميلا مربعا من بافاريا ، ولكن شارل تيودور استأثر بكل مابقى من تلك الإمارة الناجبة ، وهكذا توحدت بافاريا وبالاتينات ، واتفق على أن تحصل بروسيا على بايروت وانسباخ بعد موت حاكمهما الأبر . وادعى كل فريق أنه المنتصر .

هذه الأزمة الثالثة بين فردريك المسن والإمبراطورة المسنة قضت عليها . وكانت لا تتجاوز الثالثة والستين عام ١٧٨٠ ، ولكنها كانت بدينة مصابة بالربو ، أضعف قلبها حربان وستة عشر حملا فضلا عن الهم المقيم . وفي نوفمبر حاصرها مطر غزير وهي راكبة عربية مكشوفة ، فأصابها سعال خبيث ، ولكنها أصرت على أن تقضى الغد تعمل في مكتبها . وقد قالت مرة « إننى ألوم نفسي على الوقت الذى أنفقه فى النوم » (٥٤) وقضت أيام مرضها الأخيرة جالسة على كرسي إذ استحال عليها تقريبا أن تتنفس وهي راقدة . واستدعى يوزف أخوته وأخواته إلى جوارها ، وقام على رعايتها في محبة . وطلق الأطباء كل أمل في شفائها فارتضت أن تتناول الأسرار الأخيرة . وفي ساعاتها

الأخيرة قامت وتعثرت من كرسيتها إلى سريرها . وحاول يوزف أن يريحها فقال « إن جلالتك في سيئ » . فأجابت « نعم ، ولكنه وضع مناسب للموت فيه . » وماتت في ٢٩ نوفمبر ١٧٨٠ .

٥ - المستبد المستنير : ١٧٨٠ - ٩٠

بعد أن حزن يوزف حزناً صادقاً على أم أدرك الآن مبلغ عمظتها ، شعر بأنه حر في أن يكون نفسه ، وأن يبدأ بتنفيذ أفكاره المتفتحة في الإصلاح . كان الحاكم المطلق لانمسا والمحرر وبوهيميا والأراضي الواطئة الجنوبية ، وكان أخوه ليوبولد مطيعاً له في تسكانيا ، وأخته ماري أنطوانيت معبنة له في فرنسا . وأحس احساساً عميقاً بالفرص التي واثته في قمة حياته وذروة سلطته .

فأى رجل كان يومئذ ؟ لقد بلغ الأربعين ، وما زال في ربيع الحياة وكان وسيماً جداً حين يغطي رأسه الأصابع بباروكة . وقد وهب عقلاً يقظاً نشيطاً نشاط شبه محموم ، متمشياً مع جيله ، ولكن هداه شيئاً إلمامه بالتاريخ وخلق البشر . وكان دائم الإحساس بشمع الوقت ، لذلك لم يخطئ إلا بسبب التسرع والعجلة ، وقلما أخطأ عن سوء قصد . وتروى القصص الكثيرة عن رفاهة حسه بخطوب غيره واستعداده لرفع المظالم التي يمكن رفعها^(٥٥) . وقد أباح للشعب الالتقاء به على قدر ماسمحت به واجباته . وكان يعيش عيشة البساطة ويرتدى من الثياب ما يرتديه أى جندي ، ويتجنب الظهور في ثياب الملوك الفاخرة . وكان مبرأ كفردريك من مخاللة الحليلات ، ولم يكن له «أصدقاء لإغريق » ، وكان عمله غرامه الذي استغرقه . وكان كفردريك يبذل من الجهد في عمله أكثر مما يبذل أى مساعد له . وكان قد أعد نفسه إعداداً صادقاً أميناً للقيام بتبعاته ، فلم يسافر للمتعة والظهور ، بل للملاحظة والدراسة وفحص صناعات الكثير من الاقطار وفنونها وبيوتها الخيرية ومستشفياتها ومحاكمها ومؤسساتها البحرية والحربية ، ونظر بعينه هو إلى شعوب مملكته وطبقاتها ومشكلاتها . فصحت نيته الآن ، على قدر ما وسع رجلاً واحداً ،

على تحقيق أحلام الفلاسفة . « ما كنت قد ارتقيت العرش ، ولبست أعظم تاج في العالم ، فقد جعلت الفلسفة المشرع لإمبراطوريتي » ^(٥٦) ونظر الفلاسفة في كل أرجاء أوروبا إلى المغامرة الحثيثة وكلهم تطلعات صادقة .

وكانت أولى الصعوبات في فرنسا أن يبعد الأعوان الذين يشاركونه حلمه . فأكثر الذين آلوا إليه بالوراثة كانوا من الطبقات العليا التي اختزلت إصلاحاته امتيازاتهم . لقد أيده كاونتز وفان شفيتين ، وشجعه اثنان من المستشارين الخصوصيين — هما كوالتنبورج وجيار — واثنان من اساتذة جامعة فيينا هما — مارتيني وزوننفيلس — ، ولكن الأعوان الأدنى مرتبة من هؤلاء لم يكونوا سوى بيروقراطيين تجمدوا في المألوف من العادات ، واستراحوا إلى الموروث من التقاليد ، وقاوموا التغيير تلقائياً . وراح يوزف في عجلة لا تسمح بالمجاملة يعامل هؤلاء الأعوان معاملة الخدم ، ويربكهم بحشد من الأوامر ، ويطلب إليهم إبلاغه عن أى خطأ جسيم يرتكبه مساعدوهم ^(٥٧) ، ويفرقهم بالاستبيانات . ويطالبهم . بجهد لا يفتر كجهده . ووعدهم هم وأراملهم بمعاشات يستحقونها بعد خدمة عشرين سنين ، فشكروه ، وأنكروا أساليبه ، وسدروا في كبريائهم . وأفضت ثقة يوزف بعدالة أهدافه إلى ضيقه بكل نقد أو نقاش . وكتب إلى شوازيل (الذى كان الآن ينعم بالتقاعد) « عشت أسعدما أستطيع إننى لم أكّد أعرف السعادة ، وسوف أشيخ قبل أن أكمل الطريق الذى رسمته لنفسى » ^(٥٨) . ولكن أجله قصر عن أن يدرك سن الشيخوخة .

وقد نبذ كل تفكير في الديمقراطية ، فقد أحس أن أفراد شعبه غير مستعدين لإصدار الحكم الصائب في السياسة ، وأنهم باستثناءات قليلة سيعتقون أى آراء يتسلمونها من سادتهم أو كهنتهم . وحتى الملكية الدستورية بدت له غير مباشرة بخير ؛ فبرلمان كالبرلمان الانجليزى سيكون مجتمعاً مغلقاً من كبار ملاك الأرض والأساقفة الذين يتحدون أى تغيير جذرى . وكان من المسلمات في رأى يوزف أن الملكية المطلقة دون غيرها هى القادرة على تحطيم جدار العادات وكسر أغلال التعصب وحماية الضعفاء السذج من الأقوياء الماكريين .

ومن ثم تناول كل مشكلة بشخصه ، وأصدر توجيهات نظمت كل مناحى الحياة . ورغبة في تشجيع الامتثال لأوامره أنشأ نظام جاسوسيه أفسدت عليه حسناته . وكان من مقومات حكمه المطلق أن يجند بالإلزام جيشا دائما كبيرا لا يعتمد على أمراء الأقليم ، يغذيه بالتجنيد الإلزامى العام ، ويخشنه بالتدريب البروسى . وراوده الأمل فى أن يقوى هذا الجيش من صوته فى المسائل الدولية ، وأن يلزم فردريك حدوده ، وربما أعانه على التهام بافاريا وطرده الترك من البلقان المجاورة (ولاعجب فقد كان فى نفس فيلسوفنا شئ من شهوة التملك) . ثم عين لجنة من الفقهاء لإصلاح القوانين وتنسيقها ، وبعد أن قضت اللجنة ست سنوات من العمل الشاق نشرت قانونا مدنيا جديداً للإجراءات القضائية . فخففت العقوبات ، وألغيت عقوبة الإعدام . (فى إنجلترا المعاصرة كانت مائة جريمة لا تزال تعتبر من الجرائم الجسيمة) . ولم تعد الشعوذة ولا السحر ولا الارتداد جرائم يعاقب عليها القانون . وحرمت المبارزة ؛ واعتبر قضاء المبارز على غريمه فى مبارزة جريمة قتل . وجعل الزواج عقداً مدنياً ، وأحل الزواج بين المسيحيين وغير المسيحيين ، وقضى بإمكان الحصول على الطلاق من السلطة المدنية . أما القضاة فلا يعينون إلا بعد تدريب خاص وبعد اجتيازهم امتحانات عسيرة ، وألغى الكثير من المحاكم الكنسية . وتقررت مساواة جميع الأشخاص أمام القانون ، وصعق النبلاء حين عرض أحد أفرادهم فى المشهرة وحكم على آخر بكنس الشوارع .

وألغيت القنيه بسلسلة من المراسيم ، ١٧٨١ - ٨٥ . وكفل للجميع حق تغيير المسكن أو المهنة ، وحق التملك ، وحق الزواج بالرضى المتبادل ، وأعد محامون خصوصيون لحماية الفلاحين فى حرياتهم الجديدة . وفقد البارونات حق محاكمة مستأجريهم جنائيا ، ولكن تخاشيا لضعف الإنتاج فى ضياع البارونات ، أجزى للسادة أن يقتضوا أقنانهم السابقين بعض الخدمات المألوفة .

وشجع يوزف الصناعة الرأسمالية لاقتناعه بأن لوائح الطوائف الحرفية معطلة للتطور الاقتصادى ، ولكنه عارض فى الاستكثار من الآلات مخافة (أن تحرم الألف من أرزاقهم)^(٥٩) . وأعفى العمال الصناعيين من التجنيد ،

ولكنهم تدمروا من انقاصه أيام العطلات المقدسة . ثم رفع من مقام التجار ورجال الصناعة والمصارف وخلع عليهم ألقاب الشرف وأسباب التكريم القومى . وألغى المكوس الداخلية أو خففها ، ولكنه أبقى على رسوم الحماية البحرية المرتفعة على الواردات . ورفع رجال الصناعة الوطنيون الأسعار بعد أن حصلوا على هذا التحصن من المنافسة الأجنبية وانتجوا السلع الرديئة^(٦٠) . وساء بروسيا وسكسونيا وتركيا فرض هذه التعريفات فأوصدت أبوابها في وجه حاصلات الإمبراطورية . وفقد الإلب والودر والدانوب بعض تجارتها . وحاول يوزف أن يزيد حركة التجارة البرية مع ثغور الادرياتيكي بشق طريق جديد هو طريق يوزفينا الذى اخترق جبال الالب الكرنولييه ، وأسس شركة هند شرقية وراوده الأمل في تطوير التجارة مع الشرق وافريقيا وأمريكا بطريق ثغرى فيومى وتريسته الحرين . وفى ١٧٨٤ أبرم معاهدة تجارية مع تركيا ، ولكن بعد ثلاث سنوات أغلقت حربة مع تركيا منافذ الدانوب إلى البحر الأسود وأفلس تجار الدانوب الواحد تلو الآخر .

وتشجيعاً لتداول رأس المال ألغى من القوانين التحريم القديم للفائدة ، وأحل القروض بفائدة ٥٪ ورقى مصرفيا يهودياً إلى رتبة البارونية . وقدم القروض الحكومية والاحتكارات الموقوتة إلى المشروعات الجديدة . واقتبس فكرة الفزيوقراطيين في فرض ضريبة واحدة تقع على الأرض فقط ، وتتفاوت حسب الموقع والخصوبة ، ويؤديها ملاك الأرض كبارهم وصغارهم واقتضى المشروع مسح جميع أراضي الإمبراطورية ، فتم هذا بنفقة بلغت ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ حولدن دفعها الملاك . وقضى القانون الجديد بأن يحتفظ الفلاح بسبعين في المائة من محصوله أو دخله ، ويعطى للدولة اثني عشر في المائة ، ويقسم الباقي بين القروض الاقطاعية والعشور الكنيسية ، وكان قبل ذلك يدفع للدولة أربعة وثلاثين في المائة وللمالك تسعا وعشرين في المائة ، وللكنيسة عشرة في المائة ، ولا يحتفظ لنفسه إلا بسبعة وعشرين في المائة^(٦١) . واحتج النبلاء بأن هذا التقسيم الجديد سيجلب عليهم الخراب ، ونى المجر قاموا بثورة .

وزاد عدد سكان النمسا والمجر وبوهيميا من ١٨٧٠ ٧٠٠,٠٠٠ في ١٧٨٠
٢١٠,٠٠٠,٠٠٠ في ١٧٩٠^(٦٢) . وقرر كاتب معاصر أن الأكواح المبنية بالآجر
أخذت تحمل محل الزرائب الريفية العتيقة ، وأن الآجر يأخذ مكان الخشب في
منازل المدن^(٦٣) . وظل الفقر جاثما على الصدور ، ولكن مرسومًا امبراطوريًا
صدر في ١٧٨١ أنشأ « مؤسسات للفقراء ، يستطيع أى شخص عاجز عن
التكسب أن يطالب بالمعونة منها دون أن يريق ماء الوجه .

ومع أن يوزف كان من الناحية الرسمية « نائب المسيح » والمدافع عن
الكنيسة المسيحية و« حامي فلسطين . . . والايمان الكاثوليكي » ، فقد شرع
بمجرد تقلده زمام السلطة المطلقة في تقليص دور الكنيسة في أراضيه
« المورثة » — أى النمسا والمجر وبوهيميا . ففي ١٢ أكتوبر ١٧٨١ أصدر
مرسوم التسامح ، وبمقتضاه تقرر ت حرية البروتستانت والروم الارثوذكس
في أن يكون لهم معابدهم ومدارسهم واجتماعاتهم ، وفي تملك الأملاك وامتهان
المهن الراقية ، وشغل المناصب السياسية والحربية . وحث الأمباطور
الشعب على تجنب كل دواعى النزاع بسبب الخلافات المذهبية
ومعاملة من ينتمون لطائفة دينية أخرى بالود واللف^(٦٤) . وفي توجيه
أصدره يوزف إلى فان زفيتن كشف في صراحة عن « مصادر إلهامه :
« إن التعصب قضى عليه في امبراطوريتي التي قد يسعدنا أنها لم تضح
بأشخاص مثل كالاس وسرفن . . . أن التسامح هو ثمرة انتشار التنوير
(Les lumieres) الذى شاع الآن في جميع أرجاء أوربا . وهو قائم
على الفلسفة ، وعلى عظماء الرجال الذين أسسوها . . . إن الفلسفة
دون غيرها هي التي يجب أن تكون رائد الحكومات »^(٦٥) .

على أنه كان لهذا التسامح حدود كما كان في مقال فولتير « عن التسامح »
(١٧٦٣) ، فقد نه بعض المستشارين يوزف إلى أن إزالة جميع الضوابط
والقيود ستسفر عن نمو العقائد الجامحة نموًا مفرطًا ، لا بل الإلحاد السافر ،
وأن هذا سيفضي إلى المذاهب المتناحرة والفوضى الاجتماعية وامتهان كل
سلطة . فلما نما إليه أن يضع مثبات من البوهيميين جاهروا بالربوبية (١٧٨٣)
أمر بأن أى رجل يجهر بعقيدته هذه « يجب » دون مزيد من التحقيق أن

يجلد أربعاً وعشرين جلدة على ردفه بسوط من الجلد ثم يصرف .
وتكرر هذه العملية كلما تجدد الجهر بهذه العقيدة^(٦٦) . ورحل بعض
الغلاة من الزبوبيين إلى المستعمرات العسكرية . وسترى في مكان لاحق
إلى أى حد بلغت جهود يوزف في تحرير اليهود .

وكان من نتائج مرسوم التسامح الزيادة السريعة في عدد من جهوا
بالبروتستنتية في المملكة ، من ٧٤,٠٠٠ في ١٧٨١ إلى ١٥٧,٠٠٠ في
١٧٨٦ . ونمت حرية الفكر ، ولكنها ظلت محصورة في الدوائر الخاصة .
أما الماسون الأحرار الذين رسخت أقدامهم في النمسا فقد نظموا في فيينا
(١٧٨١) محفلاً انضم إليه الكثير من المواطنين البارزين ، وقد حماه
الإمبراطور نفسه (رغم ربوبيته المفهومة ضمناً) . قال أحد أعضائه
« كان هدف الجماعة إعمال حرية الضمير والفكر التي احتضنتها الحكومة هذا
الاحتضان الموفق ، ومكافحة الخرافة والتعصب في . . . طوائف الرهبان
التي هي أهم سند لهذه الشرور^(٦٧) . وتكاثرت المحافل الماسونية حتى بلغت
ثمانية في فيينا وحدها ، وأصبح من عجالة العصر أن ينتمي شخص
إليها ، وارتدى الجنسان الشعارات الماسونية ، وألف موتسارت الموسيقى
للمحفلات الماسونية . وبمضي الوقت اشتبه يوزف في اشتغال هذه المحافل
بالتآمر السياسي . ففي ١٧٨٥ أمر بأن تندمج محافل فيينا في محفلين فقط ،
ولم يسمح بأكثر من محفل واحد في عاصمة اقليمية .

وعين يوزف لجنة لتراجع قوانين الرقابة على المطبوعات . وفي ١٧٨٢
نشر النتائج التي انتهت إليها في مدونة جديدة . فحظرت الكتب التي دأبت
على مهاجمة المسيحية أو المحتوية على « عبارات لا أخلاقية وبذاءات قذرة » ،
ولكن حظرت أيضاً الكتب « المحتوية على أخبار المعجزات والأشباح والرؤى
الخرافية وما إلى ذلك مما قد يقضي بعمامة الناس إلى الإيمان بالخزعبلات
ويثير الاشتزاز في نفوس الدارسين »^(٦٨) . وسمح بالمطبوعات المحتوية على
انتقادات أو هجائيات ساخرة حتى لو هاجمت الإمبراطور ، شريطة أن تحمل
اسم المؤلف الحقيقي ، وأن تخضع لقانون القذف . وأبيح للدارسين أن
يقرءوا في المكتبات الكتب المدرجة في فهرس الكتب التي حرمتها الكنيسة

الرومانية . وتعنى الكتب العلمية من الرقابة كلية ، وكذلك الكتب الثقافية ، شريطة أن تؤكد طابعها الثقافى سلطة معترف بها . وأبيح استيراد الكتب المؤلفة بلغت أجنبية وبيعها دون معوق . ووسعت الحرية الأكاديمية . فلما اتهم أربعة عشر طالباً بجامعة انزبروك معلمهم أمام السلطات لأنه زعم أن العالم أقدم من ستة آلاف سنة ، حسم يوزف الأمر بهذه العبارة السريعة الموجزة « يجب أن يطرد الطلاب الأربعة عشر ، لأن أدمغة في فقر أدمغتهم لن تفيد من التعليم^(٦٩) » . وأثارت النظم الجديدة الاحتجاجات الغاضبة من الكهنوت ، فرد يوزف باعطاء فيينا حرية النشر الكاملة (١٧٨٧) . وحتى قبل هذا التحرير أفاد ناشرو فيينا من التراخى في تنفيذ قانون ١٧٨٢ : فأغرقت النشرات والكتب والمجلات النمسا بالفحش أو ما يقرب من الفحش ، وبكشف أسرار الراهبات ، وبالهجمات على الكنيسة الكاثوليكية أو على المسيحية ذاتها .

وأحسن يوزف أن واجبه أيضا أن ينظم الشؤون الكنسية . ففي ٢٩ نوفمبر ١٧٨١ أصدر مرسوماً أغلق عددا كبيرا من أديرة الرهبان والراهبات التى « لاتدير مدارس ولا تعنى بمرضى ولا تشتغل بدراسات » . فأغلق ٤١٣ بيتا دينيا من ٢١٦٣ بيتاً دينيا فى الأقاليم الألمانية (النمسا وستيريا وكارنثيا وكارنيولا) . وأفرج عن ٢٧,٠٠٠ من شاغليها البالغ عددهم ٦٥,٠٠٠ وقررت لهم معاشات ، وأجرى مثل هذا الخفض فى بوهيميا والنمسا . قال يوزف « أن المملكة أشد فقرا وتخلفاً من أن تسمح لنفسها بترف الانفاق على العاطلين^(٧٠) » . أما ثروة هذه المؤسسات المنحلة — التى بلغت نحو ستين مليون جولدن — فقد أعلن أنها ملك للشعب ، وصادرتها الدولة .

وأعلن أن الأديرة الباقية لايجوز لها أن ترث أملاكاً . أما طوائف الرهبان المتسولين فأمرت بأن تكف عن التسول ومنعت من قبول رهبان جدد . وألغيت جماعات الاخوان الدينية . وتقرر أن تسجل جميع الممتلكات الكنسية لدى الحكومة ، التى حرمت بيعها أو تبادلها .

(م ١٦ — قصة الحضارة ، ٤٠)

م واصل يوزف جهوده ليخضع الأساقفة الكاثوليك لاشراف الدولة .
فاشترط على الأساقفة الجدد أن يقسموا يمين الطاعة للسلطات العلمانية .
وتقرر ألا تجاز أى لائحة أو موسوم بابوى فى النمسا إلا بإذن الحكومة .
أما الأوامر البابوية الصادرة فى ١٣٦٢ و ١٧١٣ ، التى دانت المهرطقين
أو الجانسينيين قهمل . على أن يوزف نظم أبرشيات جديدة ، وبنى
الكنائس الجديدة ، وقد الرواتب لإعانة طلاب القسوسية ، وفتح مدارس
لاهوتية جديدة ووضع لها برنامجا يؤكد على العلوم والمعارف العلمانية
كاللاهوت والطقوس سواء بسواء .

وأثارت هذه القوانين الاكليروس الكاثوليكي فى كل أرجاء أوروبا .
ورجا أحبار كثيرون يوزف أن يلغى مراسيمه المعادية للاكليروس . فلما
لم يلق اليهم بالاهددوه بالجحيم ، فابتسم ومضى فى طريقه . وأخيراً
اتخذ البابا بيوس السادس بشخصه ، وكان رجلاً وسيماً مثقفاً رقيقاً
مغروراً ، خطوة غير مألوفة ، إذ غادر إيطاليا (٢٧ فبراير ١٧٨٢)
وعبر الالبين والألب فى الشتاء ووصل إلى فيينا (٢٢ مارس) وقد عقد
النية على الاتجاه برجااء شخصى للإمبراطور ، وكانت هذه أول مرة منذ
١٤١٤ تظاً فيها أقدام أحد البابوات أرض ألمانيا . أما يوزف فقد خرج
من المدينة مع رفيقه فى الشكوكية كاوتنز ليرافقاً الحبر الأعظم إلى الأجنحة
التى كانت تشغلها مارياتريزا . وخلال إقامة البابا كانت الجموع تحتشد .
كل يوم تقريباً أمام القصر الملكى التماساً لبركته . وقد وصفهم بعد ذلك
يوزف بهذه العبارات :

غصت جميع ممرات القصر وسلالمه بالناس ، واستحال على الإنسان
رغم مضاعفة عدد الحراس أن يحصى نفسه من كل الأشياء التى أتو بها
إليه ليباركها : أوشحة كتفيه ، ومسبحات ، وصور . وكان يتجمع
لنيل البركة التى يمنحها من الشرفة سبع مرات فى اليوم حشد من الناس
لا يمكن أن يكون المرء فكرة عن ضخامته إلا إذا رآه . وليس من
المبالغة القول أنه تجمع مرة ستون ألفاً على الأقل . وكان المنظر غاية

في الجمال ، فقد أقبل الفلاحون وزوجاتهم وأبنائهم من مناطق تبعد عشرين فرسخاً . وبالأمس ديست امرأة تحت نافذتي مباشرة (٧١) .

وكان تأثير يوزف بمناشدات البابا البليغة أقل من تأثيره بهذا الدليل على سلطان الدين على العقل البشرى ، ومع ذلك واصل إغلاق الأديرة حتى « حينما كان بيوس في ضيافته (٧٣) . » وحذره البابا تحذير المتنبئ . أنك إن مضيت في مشروعاتك المدمرة للإيمان وقوانين الكنيسة فإن يد الرب ستكون ثقيلة الوطأة عليك ، ستعطلك في مسيرتك ، وستحفر من تحتك هوة تبتلعك وأنت بعد في عنفوانك ، وستضع حداً للملك الذي كان في وسعك أن تجعله ملكاً عظيماً مجيداً (٧٣) . وبعد شهر من أسباب التكريم والاختفاء عاد بيوس حزيناً إلى روما . وعقب ذلك عين الإمبراطور رئيساً لأساقفة ميلان رجلاً يدعى فسكونتي غير مقبول من الإدارة البابوية ، ورفض البابا أن يصدق على التعيين ، وأشرفت الكنيسة والإمبراطورية على القطيعة . ولم يكن يوزف مستعداً لمثل هذه الخطوة العنيفة ، فهرول إلى روما (ديسمبر ١٧٨٢) وزار بيوس وأعلن ولاءه للكنيسة وكسب موافقة البابا على تعيين الدولة للأساقفة — حتى في لبارديه . وافترق الملك والحبر الأعظم على ود . ونثر يوزف ثلاثين ألف سكودي على جماهير روما ، وهتف له القوم بصيحات الشكر « يحى إمبراطورنا » .

فلما عاد إلى نينا واصل حركته الإصلاحية الدينية القائمة على فرد واحد . وبعد أن تحدى البابا كما تحداه لوثر (الذي شبهه به الكثير من البروتستنت وهم معترفون بفضله) ، وبعد أن هاجم الأديرة كما هاجمها هنري الثامن ، شرع مثل كلفن في تطهير الكنائس ، فأمر بإزالة لوحات النذور ومعظم التماثيل ، وبكف المصلين عن لمس الصور وتقبيل الرفات وتوزيع التماثيل . . . ونظم طول الخدمات الدينية وعددها ، والملابس التي تغطي تماثيل العذراء ، وطابع الموسيقى الكنسية ، وتقرر أن تتلى الابتهالات مستقبلاً بالألمانية لا باللاتينية ، وأن تحصل رحلات الحج

والمواكب الدينية على موافقة السلطات المدنية ، وانتهى الأمر بعدم التصريح إلا بموكب واحد — لعيد القربان المقدس ، وأحيط الشعب رسمياً بأنه لا داعى للركوع فى الشوارع أمام أى موكب دينى حتى ولو حمل القربان المقدس ، ويكفى فى هذه المناسبات خلع القبعات . وأخبر أساتذة الجامعات بأنه لا حاجة تدعوهم بعد اليوم إلى أن يقسموا بأنهم يؤمنون بعقيدة حمل العذراء غير المدنس .

ولم يستطع أحد أن يتشكك فى إنسانية أهداف يوزف . فالثروة التى أخذها من الأديرة المستغنى عنها خصصها لإعانة المدارس والمستشفيات والمبرات ، ولصرف معاشات الرهبان والراهبات الذين أخرجوا من أديرتهم ، ولصرف إعانات إضافية لكهنة الأبرشيات الفقراء . وأصدر الإمبراطور سلسلة طويلة من الأوامر للنهوض بالتعليم ، فكان على كل الجماعات المحتوية على مائة طفل بلغوا سن الالتحاق بالمدارس أن تمول مدارس أولية لهم . وتقرر أن يكون التعليم الأولى إلزامياً وعاماً . ووفرت الأديرة أو الدولة مدارس للبنات وأعينت الجامعات فى فيينا وبراغ ولبرج وبست ولوفان ، أما جامعات انزبروك وبرون وجراتز وفرايبورج فحولت إلى معاهد Lycées . لتعليم الطب أو القانون أو الفنون العملية . وأنشئت مدارس للطب من بينها « اليوز فينوم » للطب والجراحة العسكريين . وأخذت فيينا تشق طريقها لتصبح من أرقى المراكز الطبية فى العالم .

٦ — الإمبراطور والإمبراطورية

تضاعفت المصاعب فى وجه مشروعات يوزف الثورية بسبب تنوع ملكه . لقد كان يعرف النمسا جيد المعرفة ، ولكنه لم يدرك رغم أسفاره الشاقة مبلغ تغلغل السادة المجريين فى حياة أمتهم الاقتصادية والسياسية ، ولا أدرك كيف تستطيع وطنية الجماهير المجرية أن تتغلب على المصالح الطبقية . ولقد رفض عند تقلده الملك أن يتبع تقليدا جرى عليه السلف فيذهب إلى برسبورج ليتوج ماكا على الحجر ، لأنه سيطالب فى ذلك الحفل.

بأن يقسم يمين الولاء للدستور المجرى الذى يكرس أنظمة المجتمع الاقطاعية .
ثم أغضب كل مجرى حين أمر بنقل تاج القديس اسطفانوس حامي المجر من
بودا إلى فيينا (١٧٨٤) . وكان قد أحل الألمانية لا المجرية محل اللاتينية
لغة للقانون والتعليم في المجر . وأغضب رجال المال والأعمال المجرين حين
عطنت رسومه الجمركية تصدير محاصيلهم إلى النمسا . ثم أنه صدم الكنيسة
الكاثوليكية بتدخله في طقوسها التقايدية وبسماحه للجماعات البروتستنتية
المجرية بالتكاثر من ٢٧٢ إلى ٧٥٨ في عام واحد (١٧٨٣ - ٨٤) .
ووقعت المجر في فوضى اضطرعت فيها الطبقات والقوميات واللغات
والمذاهب .

وفي ١٧٨٤ قام فلاحو قلاشيا (بين الدانوب والألب الترنسلفانية)
بثورة عنيفة ضد سادتهم الاقطاعيين ، وأشعلوا النار في ١٨٢ قصرا ريفيا
للاشراف وستين قرية ، وقتلوا ٤٠٠٠ مجرى ، وأعلنوا أنهم يفعلون هذا
كله برضى الامبراطور . وعطف يوزف على كرههم للظلم الطويل^(٧٥) ،
ولكنه كان يحاول إنهاء الإقطاع سلميا بالتشريع ، وما كان في وسعه أن
يسمح للفلاحين بتعجيل الأمور بالتحريق والتقتيل . وعليه فقد أرسل جنوده
لقمع الثورة ، وأعدم مائة وخمسون من زعماء الثورة ، وهدأت الثورة . ولامه
النبلاء على الثورة ، ولامه الفلاحون على فشلها . وتهيأ المسرح لثورة قومية
على الامبراطور في ١٧٨٧ .

وفي نوفمبر ١٧٨٠ ذهب يوزف بشخصه ليدرس مشكلات الأراضي
الواطئة النمساوية . فزار تامور ومونز وكورتراى وابير ودنكر وأوستند وبروج
وغنت وأودنارد وانتوب ومالين ولوفان وبروكسل . وقام برحلة جانبية
إلى الأراضي الواطئة المتحدة . . إلى روتردام ، ولاهاى ولايدن وهارلم
وأمستردام وأوترخت وسبا (حيث تغدى مع الفيلسوف رينال) . وقد
راعه التناقض بين رخاء هولنده والركود النسبي في الاقتصاد البلجيكي .
وعزا هذا إلى نشاط رجال الأعمال الهولنديين وفرصهم ، وإلى إقفال نهـر
الشلـت في وجه تجارة المحيط نتيجة لمعاهدة مونستر (١٦٤٨) فعاد إلى

بروكسل وعقد عدة اجتماعات لمحاولة تحسين التجارة والإدارة والمالية والقضاء . وفي يناير ١٧٨١ عين أخته ماريا كرسطينا وزوجها ألبرت دوق ساكسشن حاكمين على الأراضي الواطئة النمساوية .

وأدرك الآن لأول مرة مبلغ التضارب بين إصلاحاته والامتيازات الموروثة التي تمتعت بها الطبقات العليا في هذا البلد التاريخي . فكان إقليم من أقاليمها مثلاً ، وهو برابانت ، يملك مرسومًا للحريات يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر ويعرف بـ « المدخل البهيج » . وكان يتوقع من كل حاكم يدخل بروكسل أن يقسم يمين الولاء لهذا المرسوم ، وجاء في إحدى مواده إنه لو انتهك الحاكم أي مادة منه كان لرعاياه الفلمنكيين الحق في أن يمتنعوا عن أداء أي خدمة له وأن يرفضوا طاعته . وطالبت مادة أخرى الملك بأن يحافظ على الكنيسة الكاثوليكية ، في جميع امتيازاتها وممتلكاتها وسلطاتها الراهنة ، وأن يطبق جميع قرارات مجمع ترنت . وأشبه هذا الدستور كان يتعلق بها الأشراف والاكليروس الأقاليم الأخرى . وعقد يوزف النيسة على ألا يسمح لهذه التقاليد بأن تتحدى إصلاحاته . وبعد أن قام بزيارة قصيرة لباريس (يوليو ١٧٨١) قفل إلى فيينا .

وفي نوفمبر بدأ يطبق مرسوم التسامح الديني على هذه الأقاليم . فجعل الأديرة البلجيكية مستقلة عن البابا ، وأغلق عدداً منها وصادر لإيراداتها . واحتج أساقفة بروكسل وانتورب ومالبن ، ولكن يوزف واصل مسيرته ففرض على « بلجيكا » لوائحه الخاصة بلوحات النذور والمواكب والطقوس الدينية . ثم سحب من الأساقفة حقهم في الإشراف على المدارس قائلاً « إن أبناء لاوى (أي الكهنة) ينبغي أن يكفوا عن احتكار عقول البشر »^(٧٦) . ثم ألغى الامتيازات الخاصة التي طالما تمتعت بها جامعة لوفان . وأنشأ هناك مدرسة لاهوتية جديدة محررة من السيطرة الأسقفية ، وأمر بأن يدرس فيها كل طالب بلجيكي للقسوسية خمس سنين^(٧٧) . وإذا كان تواقاً إلى تحسين حكومة الأقاليم ، فقد استبدل بالمجالس الإقليمية والمجالس الخاصة

الارستقراطية القديمة (يناير ١٧٨٧) مجلسا واحدا للإدارة العامة يرأسه مفوض يعينه الامبراطور ، ثم أحل هيئة قضائية موحدة علمانية محل المحاكم القائمة إذ ذاك ، من اقطاعية وإقليمية وكنسية . وأعلن أن جميع الأشخاص أيا كانت طبقتهم سواسية أمام القانون .

وانضم الاشراف وكثير من البورجوازيين إلى الأكليروس في مقاومة هذه القوانين . ولم يلف من عدائهم تلك الجهود العقيمة التي بذلها يوزف لإعادة فتح الشلت أمام تجارة المحيط . فقد رفضت هولندا الأذن بها ، وشاركتها الرفض فرنسا رغم توسلات ماري أنطوانيت . وفي يناير ١٧٨٧ أخطر مجلس برابانت يوزف بأن لا سبيل إلى إحداث تغييرات في دستور الإقليم القائم إلا بموافقة المجلس ، ومعنى ذلك في الواقع أنهم أخبروه أن حكمه للأراضي الواطئة النمساوية يجب أن يكون ملكية دستورية لا مطلقة . وتجاهل هر الإعلان ، وأمر بتنفيذ مراسيمه . ورفض المجلس الموافقة على الضرائب ما لم تلق اعتراضاتهم الاهتمام . ثم تفجر الهياج في عنف اتسع نطاقه بحيث اضطرت ماريا كرسطينا إلى الوعد بإلغاء الاصلاحات البغيضة (٣١ مايو ١٧٨٧) .

أين كان الامبراطور خلال هذا الجو الهائج المائج ؟

كان يغازل كاترين الثانية دبلوماسيا ، مؤمنا بأن التحالف مع روسيا سيعزل بروسيا ويشد أزر النمسا في حربها مع الترك . وكان يوزف حتى قبل موت أمه قد زار القيصرية في موجيليف (٧ يونيو ١٧٨٠) ومن هناك مضى إلى موسكو وسانت بطرسبرج . وفي مايو ١٧٨١ وقعت النمسا وروسيا تحالفا تعهد فيه الطرفان بأن يخف الواحد لنجدة الآخر إذا هوجم .

فلما خيل إليه أن هذا الاتفاق سيثقل حركة الملك السبعيني فردريك ، عاد من جديد (١٧٨٤) يعرض الأراضي الواطئة النمساوية على الأمير الناخب شارل تيودور بديلا عن بافاريا . وكان العرض مغريا للأمير ، ولكن فردريك استنفر كل طاقاته ليفسد هذه الخطة . فحرك ثورة على

الامبراطور في المجر وبلجيكا ، وحرص دوق ترفايبروكن - الوريث لعرش بافاريا - على مقاومة هذا البدل ، وبعث عملاءه ليقنعوا الأمراء الألمان بأن استقلالهم يهدده التوسع النمساوي . وأفلح في أن ينظم (٢٣ يوليو ١٧٨٥) بروسيا وسكوسونيا وهانوفر وبرونزيك وماينز وهسي كاسل وبادن وساكسي فيمار وجوتا ومكلنبورج وانزباخ وأنهالت في حلف أمراء Furstenbund تعهدوا فيه بمقاومة أي توسع للنمسا على حساب أي دولة ألمانية . واستنجد يوزف ثانية بشقيقته في فرساي ، وألقت ماري انطوانيت تعويلتها على لويس السادس عشر لتكسب تأييده لشقيقها ، ولكن فرجين وزير خارجية فرنسا حذر لويس من الموافقة ، واعترف يوزف بهزيمته أمام الشعب العجوز الذي كان يوماً ما معبود شبابه . ولما تلقى في أغسطس ١٧٨٦ نبأ موت فردريك أعرب عن أسف مضاعف : « بوصفي جندياً يؤسفني رحيل رجل عظيم كان صانع جيل في فنون الحرب ، وبصفتي مواطناً يؤسفني أن موته تأخر ثلاثين عاماً » (٧٨) .

أصبح الآن أمل الأمبراطور الوحيد في توسيع ملكه معقوداً على الانضمام إلى كاترين في حملة لتقسيم أملاك تركيا الأوروبية فيما بينهما . فلما خرجت قيصرية روسيا في يناير ١٧٨٧ لتزور وترهب فتوحها الجديدة في الجنوب دعت يوزف ليلتقي بها في الطريق ويرافقها إلى القرم . ولكنه لم يوافق لتوه على اقتراحها بشن حرب صليبية موحدة ، وقال « إنما أريد سيليرنيا ، والحرب مع تركيا لن تنيلنيها » (٧٩) . ومع ذلك فحين أعلنت تركيا الحرب على روسيا (١٥ أغسطس ١٧٨٧) وجد يوزف نفسه مكرها على خوضها ، فقد ألزمه تحالفه مع كاترين أن يعينها في حرب « دفاعية » . يضاف إلى هذا أن الفرصة أتاحت الآن للنمسا بسبب اشتباك تركيا في الحرب اشتباكاً حرجاً لاسترداد الصرب والبوسنة ، وربما أيضاً للحصول على ثغر على البحر الأسود . وعليه ففي فبراير ١٧٨٨ أرسل جنوده إلى الحرب وأمرهم بأن يستولوا على بلغراد .

ولكن السويديين اعتمدوا هذه الفرصة ليرسلوا قوة تهاجم سانت

بطرسبورج . واستدعت كاترين الجيش من الجنوب ليدافع عن عاصمتها . فلما خف على الترك ضغط الروس ركزوا قوتهم على النمساويين . وحين ذهب يوزف ليقود جيشه رآه وقد أضعفته اللامبالاة وفرار الجند ومرضهم ، فأمر بالتقهقر وعاد إلى فيينا يملؤه اليأس وبجلاء العار . وسلم القيادة إلى لاودن ، وهو من أبطال حرب السنين السبع وأنقذ المارشال العجوز شرف الجيش النمساوى باستيلاءه على بلغراد (١٧٨٩) . ولما فشل هجوم السويد على روسيا عاد جنود كاترين يتدفقون على الجنوب وتباروا مع الأتراك في مذابح رهيبة تركت الأحياء منهم أكثر قليلاً من أعدائهم . وكان يوزف مغتبطاً بأمل النصر العسكري الذي طال ارتقابه ، وإذا ببروسيا وانجلترا والسويد وهولندا تتدخل لمساعدة الترك خوفاً من توسع الروس . ووجد يوزف فجأة أن جميع أوربا اليروتستنتية تقريباً قد اتحدت وأخذت تمتشق الحسام ضده . وعاد ثانية يستنجد بفرنسا ، ولكن فرنسا كانت في ١٧٨٩ مشغولة بالثورة . ووقعت بروسيا التي كان يملك عليها فردريك ولیم الثاني حلفاً مع تركيا (يناير ١٧٩٠) وأرسلت العملاء لإذكاء الثورة على الامبراطور في المجر والأراضي الواطئة النمساوية .

ورحبت المجر بهذه الدساتير لأنها كانت في ثورة سافرة على مراسيم يوزف في التجنيد الإجباري والضرائب وتغيير اللغة والإصلاح الديني . وفي ١٧٨٦ دعا إمريش مالونجي المجرين إلى انتخاب ملك خاص بهم . وفي ١٧٨٨ دبر رميجيوس فرانيو مؤامرة لجعل فردريك ولیم ملكاً على المجر ، وأفشى الكونتان استرهاتسي وكارولي سر المؤامرة للأمبراطور فحكم على فرانيو بالسجن ستين عاماً . وفي ١٧٨٩ وجه مجلس الطبقات المجرى إلى بروسيا نداء لتحرير المجر من سلطان النمسا . ولما بلغ نبأ الثورة الفرنسية للمجر دوت صيحات المطالبة بالاستقلال في أرجاء البلاد . أما يوزف الذي شعر بالموت يسرى في عروقه فلم يعد له من القوة ما يمكنه من الثبات على موقفه . وحشد أخوه ليوبولد على الاستسلام . وفي يناير ١٧٩٠ أعلن ماياقي :

« لقد قررنا أن نرد إدارة المملكة — أي المجر — إلى وضعها في ١٧٨٠ »

لقد أرسينا [الإصلاحات] بدافع الغيرة على الصالح العام مؤمنين أنكم بعد التجربة ستجدونها مبعث سرور لكم ، بيد أننا الآن أقنعنا أنفسنا بأنكم تؤثرن النظام القديم . . . ولكننا نريد أن يظل قانون التسامح نافذا . . . وكذلك قانون الاقنان ومعاملتهم وعلاقتهم بسادتهم » (٨٠) .

وفي فبراير رد تاج القديس اسطفانوس إلى بودا وكان يلقي الترحيب والابتهاج من الجماهير في كل خطوة على الطريق . وهدأت الثورة .

أما الثورة في الأراضي الواطئة النمساوية فقد انطلقت بكل قوتها لأنها شعرت هناك بحرارة الحركة الثورية في فرنسا المجاورة . وأبى يوزف المصادقة على الوعد الذي قطعته شقيقته لمجلس برابانت بإلغاء الإصلاحات التي كرهوها . فأصدر الأمر بتنفيذها وأمر جنوده باطلاق النار على أى حشود تقاومها ، ففعلوا وقتل ستة من القائمين بالشغب في بروكسل (٢٢ يناير ١٧٨٨) وعدد غير معروف في أنتورب ولوفان . ودعا محام من بروكسل يسمى هنرى فان دن نوت أفراد الشعب إلى التسليح والتطوع في جيش استقلال . وأيد الأكليروس النداء تأييداً إيجابياً ، وأضيف إليه حافز لم يكن في الحسبان هو نبأ سقوط الباستيل ، وسرعان ما احتشد في الميدان عشرة آلاف من الوطنيين وعلى رأسهم قادة أكفاء . وفي ٢٤ أكتوبر أذاع إعلان « للشعب البرابانتى » نخلع يوزف الثانى من منصب الحاكم عليهم . وفي ٢٦ أكتوبر هزمت قوة من الوطنيين الجنود النمساويين . واحتل الثوار المدينة تلو المدينة . وفي ١١ يناير ١٧٩٠ أذاعت الأقاليم السبعة قرار استقلالها ، وأعلنت قيام جمهورية الولايات المتحدة البلجيكية . واتخذت اسمها هذا من القبائل البلجيكية التى دونخت قيصر قبل ثمانية عشر قرناً . وأسعد انجلترا وهولندا وبروسيا أن تعترف بالحكومة الجديدة . واستنجد يوزف بفرنسا ، ولكن فرنسا ذاتها كانت مشغولة بنخلع ملكها . وبدأ أن كل العالم القديم الذى عرفه يوزف يتمزق وينهار . ثم إن الموت كان يدعو إليه .

٧ — الموت الأسود

كانت مرارة تلك الأشهر الأخيرة كاملة . فقد كانت المجر وبلجيكا تضطربان بالثورة ، والأتراك يتقدمون ، وجيشه متمرداً ، وشعبه من النمساويين الذين أحبوه يوماً ما انقلبوا عليه منتهكاً لحرمة تقاليدهم ومعتقداتهم المقدسة . وندد به القساوسة ملحداً ، وكرهه النبلاء لأنه حرر أقنانهم ، وتصابيح الفلاحون مطالبين بمزيد من الأرض ، وكان فقراء المدن يتضورون جوعاً ، ولعنت جميع الطبقات الضرائب والأسعار المرتفعة التي سببتها الحرب . وفي ٣٠ يناير ١٧٩٠ ألغى يوزف جميع الإصلاحات التي أمر بها منذ وفاة ماريّا تريزا بعد أن ألقى السلاح مستسلماً ، ولم يبق منها إلا على إلغاء القنية .

ترى لم فشل ؟ لقد قبل بملء الإيمان وبصادق الثقة نظرية جماعة الفلاسفة القائلة بأن الملك الذي يتوافر له التعليم الجيد والنية الحسنة هو خير أداة للتثوير والإصلاح . وقد أوتي التعليم الجيد ، أما النية الحسنة فقد شوهاها حبه للسلطة ، وأخيراً غلبت لهفته على أن يكون فاتحاً حماسته لإجلاس الفلسفة على العرش . كان يفتقر إلى قدرة الفيلسوف على الشك ، وكان من المسلمات لديه صواب وسائله كصواب غاياته . وقد حاول إصلاح الكثير جداً من الشرور في وقت واحد ، وفي عجلة كبيرة ، ولم يستطع الشعب أن يستوعب تعدد قراراته المربك . ولقد كان يأمر بأسرع مما يستطيع أن يقنع ، وحاول أن يحقق في عشر سنين ما يحتاج تحقيقه إلى قرن من التعليم والتغيير الاقتصادي . والشعب أساساً هو الذي نخذه . فقد تعمقت جذوره وترسخت في امتيازاته وأهوائه ، في تقاليد وكنائسه ، إلى حد منعه من أن يعطيه التفهم والتأييد اللذين أصبح حكمه المطلق بدونهما عاجزاً لاحول له في مثل هذه الإصلاحات العسيرة . وآثر أفراد كنائسهم وقساوستهم وعشورهم على ضرائبه وجواسيسه وحروبهم . ولم يستطيعوا وضع ثقتهم في رجل يهزأ بأساطيرهم الحبيبة ، ويفضايق أساقفتهم ، ويذل باباهم .

وطوال هذه السنوات المرهقة بعد ١٧٦٥ كان بدنه متمرداً على إرادته :

فلم تقو معدته على هضم سرعة عدوه ، وقد حذرتة مرارا ودون جدوى
بماجته إلى الراحة . وأنذره الأمير دلين بأنه يقتل نفسه ، وكان عليا بهذا ،
ولكنه قال « وما الذى أستطيعه ؟ أننى أقتل نفسى لأننى لا أستطيع أن أستنفر
الآخرين ليعملوا »^(٨١) . وكانت رثاه مريضتين ، وصوته ضعيفاً مكتوماً ،
وكان يشكو الدوالى وتدميع عينيه ، والحمرة ، والبواسير . . . وقد عرض
نفسه لكل الأجواء فى حربه مع الترك ، وأصابته حمى الربيع كما أصابت
الألوف فى جيشه . وكان لا يقوى على التنفس أحياناً ؛ « أن قلبى يخفق لأقل
حركة »^(٨٢) وفى ربيع ١٧٨٩ بدأ يتقيأ دماً — تقريباً ثلاث أوقيات فى الدفعة
كما كتب لأخيه ليوبولد . وفى يونيو أصيب بالأم عنيضة فى كليتيه . « إننى
أتبع أشد نظم التغذية صرامة فلا آكل لحماً ولا خضراً ولا مستحضرات
ألبان ، وعذائى الحساء والأرز »^(٨٣) ثم طاع له خراج شرجى وكان لا بد من
شقّه هو وبواسيره بمبضع الجراح . وأصيب بالاستسقاء . فدعا ليوبولد
ليحضر ويتسلم شئون الحكم . وقال : لست آسف على التخلي عن العرش .
كل ما يحزننى أن يكون عدد الناس السعداء قلة قليلة كهذه »^(٨٤) . وكتب إلى
الأمير دلين « لقد قتلتى وطنك . كان الاستيلاء على نعت عذابى وخسارة
بروكسل هى موتى . . . اذهب إلى الأراضى الواطئة وأعدّها إلى ملكها ،
فإن لم تستطع فابق هناك . لاتضع بمصالحك من أجلى فأنت أب لأطفال »^(٨٥) .
ثم كتب وصيته وترك الهبات السخية لخدمه ولله « سيدات الخمس اللاتي
أطقن عشرتى »^(٨٦) . وألف قبريته التى قال فيها : « هنا يرقد يوزف ، الذى لم
يستطع أن ينجح فى شىء »^(٨٧) . وتناول فى استسلام أسرار الكنيسة الكاثوليكية
الأخيرة وطلب الموت وفى ٢٠ فبراير ١٧٩٠ استجابت السماء وكان يومها
فى الثامنة والأربعين . واغتبطت فيينا برحيله وقدمت الحجر الشكر لله .

أكان إنسانا فاشلاً ؟ فى الحرب نعم ، بلا جدال . وقد وجد ليوبولد الثانى
(١٧٩٠ — ٩٢) أن من الحكمة رغم انتصارات لاودن أن يبرم الصالح
مع تركيا (٤ أغسطس ١٧٩١) على أساس الوضع السابق للحرب . ولما عجز
عن تهدئة الأشراف المجريين فقد ألغى منح الحرية للأقنان . أما فى بوهيميا
والنمسا فقد احتفظ بمعظم الإصلاحات ولم تلغ مراسيم التسامح ، ولم تفتح

الأديرة التي أغلقت ، وظلت الكنيسة خاضعة لقوانين الدولة . وكان التشريع الاقتصادي قد حرر التجارة والصناعة وحفزهما . وانتقلت النمسا دون ثورة عنيفة من دولة وسيطة إلى أخرى عصرية ، وشاركت في حيوية القرن التاسع عشر الثقافية المتنوعة .

وكان يوزف قد كتب إلى كاونتز يقول « إنني لإقتناعي العميق بنزاهة نياتي أرجو أن يبحث الخلف بعد موتى أعمالي وأهداني قبل أن يحكم علي وسيكون أميل وأنزه ومن ثم أكثر انصافاً لي من معاصري » (٨٨) .

وقد اقتضى هذا البحث الخلف ردحا طويلا ، ولكنه تعلم في النهاية أن يرى فيه — رغم أسفه على أو تقراطيته وتعجبه — أكثر « المستبدن المستنيرين » جرأة وتطرفاً وإن كان أقالهم حكمة . . وبعد أن ولي رد الفعل الذي جاء في عهد مترنيخ ، أعيدت إصلاحات يوزف الثاني واحداً بعد الآخر . ووضع ثوار ١٨٤٨ إكليلا من الزهور على قبره اعترافاً بفضله .



الفصل الرابع عشر

إصلاح الموسيقى

إننا لا نتصور بسهولة يوزف الثاني موسيقيا وهو الرجل المتأهب للمعارك ومع ذلك يقال لنا أنه تلقى « تعليماً موسيقياً دقيقاً شاملاً » وإنه كان صاحب صوت جدير وخيم، وكان يستمع إلى حفلة موسيقية كل يوم تقريباً ، وكان عازفاً ماهراً على الفيولنشيللو والفيولا والكلافير ^(١) . وكان كثير من النبلاء موسيقيين ، وأكثر منهم رعاة للموسيقى . وحذت الطبقات الوسطى حذوهم ، فكان في كل بيت بيان قيثاري (هاربسيكورد) وتعلم كل إنسان أن يعزف على آلة موسيقية ، وعزفت الثلاثيات والرباعيات في الشوارع ، والحفلات الموسيقية في المتنزعات ومن زوارق مضياء على قناة الدانوب في عيد القديس يوحنا . وازدهرت الأوبرا في البلاط وفي مسرح الأوبرا القومي الذي أنشأه يوزف الثاني في ١٧٧٨ .

وارتقت فيينا إلى مقام الصدارة في مطالع القرن التاسع عشر بوصفها العاصمة الموسيقية لأوروبا لأنها جمعت في أخريات القرن الثامن عشر بين تقاليد ألمانيا وإيطاليا الموسيقية المتنافسة . فن ألمانيا جاءت البوليفونية ، ومن إيطاليا الميلوديا ، ومن ألمانيا جاءت الزنجشيل - وهو مزيج من الدراما الهزلية والحوار المنطوق والموسيقى العارضة والأغاني الشعبية ، ومن إيطاليا جاءت الأوبرا الهازلة ، وتحالف الشكلاان في فيينا كما نرى في أوبرا موتسارت «الاختطاف من السراي» . ويمكن القول عموماً أن التأثير الإيطالي غلب الألمانى في فيينا ، فلمد غزت إيطاليا النمسا بالألحان كما غزت النمسا سيملى إيطاليا بالسلاح . وفي فيينا كانت الأوبرا الجادة إيطالية في أكثرها . إلى أن جاء جلوك . وجلوك نشأ على الموسيقى الإيطالية .

١ — كرسنوفر فليالٲ جلوك ١٧١٤ — ٨٧

ولد فى لىراز باخ من أعمال البالاتينات العليا ، لحراج كاثوليكي انتقل بأمرته فى ١٧١٧ إلى نويشلموس ببوهيميا . وتلقى كرسنوفر فى المدرسة اليسوعية بكموتاو تعليماً فى الدين واللاتينية والآداب القديمة والترتيل والكمان والأرغن والبيان القيثارى . فلما رحل إلى براغ ١٧٣٢ تلقى دروساً فى الفيلولنشلو ، وتعيش بالترتيل فى الكنائس ، والعزف على الكمان فى المراقص ، وإحياء الحفلات الموسيقية فى المدن المجاورة .

وكان كل صبي ذكى فى بوهيميا ينجذب إلى براغ ، واستطاع نفر من ألمهم شق طريقهم إلى فيينا . واستهدف جلوك الحصول على وظيفة فى أوركستر الأمير فرديناند فون لوبكوفز . وفى فيينا استمع إلى الأوبرات الإيطالية وأحس جاذبية إيطاليا القوية . وأعجب الأمير فرانشسكو ماتزى بعزمه ، فدعاه إلى ميلان (١٧٣٧) . ودرس جلوك التأليف الموسيقى على يد سامارتى ، وتعلق بالأساليب الإيطالية فى الموسيقى ، وانتهجت أوبراته الأولى (١٧٤١—٤٥) نهج الطرائق الإيطالية ، وقاد حفلاتها الافتتاحية فى إيطاليا . وأتته هذه الخطوات الموفقة بدعوة لتأليف وإخراج أوبرا لمسرح هيماركت فى لندن .

وهناك قدم أوبرا La caduta degiganti (سقطٲة العمالق) (١٧٤٦) . ورفضت مصحوبة بمديح هزيل ، وقال هندل العجوز الفظ أن جلوك لا يعرف « عن الكونترابنٲ أكثر مما يعرف طباخى »^(٢) ولكن الطباخ كان صاحب صوت باص — جهير — حسن ، ولم يكتب لجلوك أن تعتمد شهرته على الكونترابنٲ . والتقى برنى بجلوك وقال فى وصفه « إن له مزاجاً فى شراسة مزاج هندل . ويشوّهه الجدرى تشويها رهيباً .. وله جهمة كريهة »^(٣) . وأذاع جلوك على الجماهير — ربما لموازنة ميزانيته — أنه سيقدم « كونشرتو على ست وعشرين كأس شراب ضبٲت (بملئها إلى مستويات مختلفة) بماء ينبع تصاحبها فرقة موسيقية كاملة (أوركسترا) ، لأن هذه آلة موسيقية جديدة من اختراعه يعزف عليها كل ما يمكن عزفه على كمان أو بيان قيثارى » . ومثل هذه

«الهارمونيكا الزجاجية أو الكؤوس الموسيقية» كانت قد أدخلت في دبلن قبل سنتين . واستحضر جلوك الأنغام بلمس حواف الكؤوس بأصابعه المبللة ، واستهوى الحفل (٢٣ ابريل ١٧٤٦) أصحاب الفضول ، فكرر بعد أسبوع ،

وغادر جلوك لندن قاصدا باريس في ٢٦ ديسمبر وهو مبتئس بهذا النجاح . وهناك درس أوبرات رامو الذي كان قد اتجه إلى الإصلاح يادماج الموسيقى والباليه بالحركة . وفي سبتمبر قاد الأوبرات في هامبورج وأتصل في علاقة غرام مع مغنية إيطالية وأصيب بالزهرى . وكان شفاؤه بطيئا جدا ، حتى إنه حين ذهب إلى كوبنهاجن كان عاجزا عن قيادة الأوركسترا . ثم عاد إلى فيينا ، وتزوج ماريان برجيا (١٥ سبتمبر ١٧٥٠) ابنة تاجر نعى . وقد منحه صداقها الأمن المالى فاتخذ بيتا في فيينا، واختفى عن الأنظار في استجمام طويل .

وفي سبتمبر ١٧٥٤ عينه الكونت مارتشالو دوراتزو قائدا للأوركسترا نظير ألني فلورن في العام ليلحن للبلاط . وكان دوراتزو قد مل الأوبرا الإيطالية التقليدية، فتعاون مع جلوك في دراما موسيقية سميت L'innocenza giustificata (البراءة المبررة) لم تكن فيها القصة مجرد تكتة للموسيقى ، ولا الموسيقى مجرد تجميع الألحان، إنما الموسيقى تعكس الحركة ، والألحان حتى الكوارس — تدخل في الحبكة دخولا فيه شيء من المنطق . وهكذا كانت حفلة الافتتاح (٨ ديسمبر ١٧٥٥) البشير والنتاج الأول للإصلاح الذى يقرن التاريخ بينه وبين اسم جلوك . وقد رأينا في موضع سابق مساهمات بنديتو مارتشالو وجوملى وترايتا في هذا التطوير ، والنداء الذى وجهه روسو وفولتير والموسوعيون لربط أوثق بين الدراما والموسيقى . وكان مناستازيو قد أعان عليه باصراره في إباء على أن الموسيقى يجب أن تكون خادمة للشعر^(٤) . وربما تأثر جلوك بشغف فنكلمان بأحياء المثل الإغريقية فى الفن ، وكان الملحنون يعرفون أن الأوبرا الإيطالية بدأت كمحاولة لإحياء الدراما الكلاسيكية التى أنحضعت موسيقاها للتمثيلية وكان جان — جورج نوفير أثناء ذلك ينادى (١٧٦٠) بالتسامى بالباليه من مجرد الرقص الإيقاعى إلى الإيماء

الدرامى المعبر عن « عواطف كل شعوب الأرض وعاداتهم وتقاليدهم ومراسمهم وأزياتهم^(٥) ». ونسج جلوك هذه العناصر كلها فى شكل أوبراوى جديد بفضل ما أوتى من كيمياء العبقرية العجيبة .

ان من أسرار نجاح المرء أن يغتنم الفرصة إذا سنحت . فما الذى حدا بجلوك إلى هجر نصوص أوبرات متاستازيو ويتخذ رانييرو دالكالتسايجى شاعرا لأوبرا « أورفير وأورديتشى » ؟ لقد ولد الرجلان فى سنة واحدة (١٧١٤) ولكن فى مكانين مختلفين — فقد ولد كالتسايجى فى ليفورنو . وبعد مغامرات فى الحب والمال وفد على على باريس ونشر هناك ترجمة لـ « الشعر الدرامى » لمتاستازيو (١٧٥٥) وقدم لها بـ « رسالة » أعرب فيها عن أمله فى ظهور نوع جديد من الأوبرا — « كل مبهج يكون تخلصا للفاعل بين كورس كبير وبين الرقص والحركة التمثيلية التى يتحد فيها الشعر والموسيقى بطريقة رائعة^(٦) » . فلما انتقل إلى فيينا أثار اهتمام دوراتزو بأفكاره عن الأوبرا ، ودعاه الكونت ليكتب نصا لأوبرا ، فكتب . « أورفير وأورديتشى » . وعرض دوراتزو القصيدة على جلوك ، فرأى فى الحبكة البسيطة الموحدة موضوعا يمكن أن يبتعث كل طاقاته .

وقدمت النتيجة لفيينا فى ٥ اكتوبر ١٧٦٢ . واستطاع جلوك أن يجند لدور أورفيوس أكبر المغنيين الحصريان ذوى الصوت الكونترالتو وهو جاتيانو جواديني . أما القصة فقدمه قدم الأوبرا ، وقد استعملها أكثر من عشرة كتاب لنصوص الأوبرا بين ١٦٠٠ ، ١٧٦١ ، واستطاع جمهور السامعين تتبع الحركة دون أن يفقهوا الإيطالية . واستغنت الموسيقى عن السرد الذى لا يصاحبه العزف ، والألحان الأساسية المعاده ، (da capo) ، والزخارف والمحسنات ، وفيما عدا ذلك نهجت نهج الأسلوب الإيطالى ولكنها سمت الى آفاق غنائية فيها من النقاء ما ندر أن بلغه أحد من قبل ولا من بعد . وصرخة اليأس المنبعثة من أورفيوس بعد أن أفقده الموت حبيبته مرة ثانية ؟ Che farò sanz Euridice « ماذا أفعل بدون أورديتشى » ؟ ما تزال أجمل ألحان الأوبرا قاطبه ، ونحن

حين نسمع هذا اللحن ، ولحن الفلوت الحزين في «رقصة الأرواح المباركة»
تعجب كيف وجد هذا البوهيمي العاصف هذه الرهافة في روحه .

ولم تلق أورفيو استقبالا حارا في فيينا ؛ ولكن ماريا تريزا تأثرت
بها تأثراً عميقاً وأرسلت الى جلوك صندوق سموط محشوا بالدوقاتيات .
وما لبث أن اختبر لتعليم الغناء للارشيدوقة ماريا انطونيا . وكان أثناء
ذلك مكباً هو وكالزابيجي على تأليف أوبرا عندها البعض أكمل ما ألفاه
من أوبرات ، وهي «السيست» . وقد اعلن المؤلف في مقدمة النسخة
المنشورة كتبها كالزابيجي لجلوك مبادئ اصلاحه للأوبرا . قال :

« حين اضطلعت بكتابة الموسيقى لألسيست صممت على أن أجردها
تماماً من كل تلك المساوىء . . . التي طالما شوهت الأوبرا الإيطالية . . .
وقد جهدت لأقصر الموسيقى على وظيفتها الحقيقية وهي خدمة الشعر
بالتعبير وبمتابعة مواقف القصة دون قطع الحركة المسرحية أو خنقها بحشو
لاغناء فيه من التعليقات . ولم أر أن من واجبي أن أمر مرور الكرام
بالقسم الثاني من لحن ما ، ربما كانت كلماته آخر وأهم الكلمات --
لكي اعيد بانتظام . . . كلمات القسم الأول . . . وقد احسست أن
الإفتاحية يجب أن تحيط المتفرجين بطبيعة الحركة التي ستقدم لهم وتكون
-- إن شئت -- خلاصتها . . . وأن الآلات الأوركسترالية يجب أن تدخل
متناسبة مع أهمية الكلمات وقوتها ولا تترك ذلك التناقض الحاد بين اللحن
والسرد في الحوار . . . الذي يشوه بشكل غشوم قوة الحركة وحرارتها . . .
وقد آمنت بأن جهدي الأعظم يجب أن ينصرف الى البحث عن البساطة
الجميلة^(٧) » .

وباختصار ، يجب أن نخدم الموسيقى الدراما وتزيد من حدتها ،
لا أن نجعل منها مجرد تكتة للعروض الصوتية أو الأوركسترالية . وقد عبر
جلوك عن الأمر تعبيراً فيسه غلو بقوله « انني أحاول أن انسى انني
موسيقى^(٨) » . وأن عليه ان يندمج مع كاتب النص في تأليف « دراما

بالموسيقى . « وقصة الست تمتنع قليلا على التصديق ، ولكن جلوك أنقذها بافتتاحية قائمة سبقت بتصوير الحركة المأسوية وأفضت اليها ، وبمشاهد عاطفية مؤثرة بين الست وأطفالها ، وبدعائها لآلهة العالم السفلى في الحن «أرباب ستاكس» ، وبالكورالات الجلييلة والمجموعات الفخمة . واستمع جمهور فيينا لهذه الأوبرا في ستين حفلة بين الافتتاح في ١٦ ديسمبر ١٧٦٧ و ١٧٧٩ . ولكن النقد وجدو فيها اخطاء كثيرة ، أما المغنون فشكوا من انها لم تفسح لهم المجال الكافي لعرض فنهم .

وبدل الشاعر. والمؤلف محاولة ثانية في أوبرا «باريز وهيلانه» (٣٠ نوفمبر ١٧٧٠) . وقد اقتبس كلزابيجي الحبكة من أوفيد الذي جعل من قصة باريز وهيلانه مغامرة غرامية شخصية بدل أن تكون فاجعة دولية . وعرضت الأوبرا عشرين مرة في فيينا ، ومرة في نابلي ، ولم تعرض في غيرها . وتحمل كلزابيجي تبعة هذا الفشل النسبي ، وطلق كتابة النصوص للاوبرات . وراح جلوك يبحث عن تربة أخرى يلتقى فيها بذرته . وأشار عليه صديق في السفارة الفرنسية في فيينا يدعى فرانسوا دوى روليه أن يقدم لجمهير باريس تحية يرحبون بها ، في صورة أوبرا فرنسية يضع موسيقاها مؤلف ألماني . وعملا باقتراحات لديدرو وألجاروتي أشارا فيها بأن تمثيلية راسين « إفجيني » تتيح موضوعا مثاليا للأوبرا صاغ دوروليه التمثيلية نصا لأوبرا وقدمها لجلوك . . ورأى جلوك مادتها متفقة تمام الاتفاق مع ذوقه فعكف على العمل من فوره .

ورغبة في تمهيد الطريق إلى باريس وجه دوروليه خطابا إلى مدير دار الأوبرا نشر في المركز دفرانس أول أغسطس ١٧٧٢ - ذكر فيه أن «مسيو جلوش» كان ساخطا أشد السخط على الزعم بأن اللغة الفرنسية لا تتلائم مع الموسيقى ، وأنه اقترح إثبات العكس بـ «إفجيني في أوليد» . ولطف جلوك من غضب روسو المتوقع (وكان يومها يعيش منزويا في باريس) بأن أرسل إلى المركز خطاباً (أول فبراير ١٧٧٣) أعرب فيه عن أمله في التشاور مع روسو حول « الوسيلة التي أنوى اتخاذها لإخراج مرسيقى

صالحة لجميع الأمم ، وإزالة فوارق الموسيقى الوطنية السخيفة^(٩) . واستكمالا لهذا الإعلان الذى يبلغ الغاية فى البراعة ، استعملت ماري انطوانيت — التى لم تنس استاذها القديم — نفوذها فى دار الأوبرا . ووافق مديرها على اخراج «إفجيني» ، وحضر جلوك إلى باريس ، وألزم المغنين والأوركسترا ببروفات بلغت من الشدة والانضباط حداً ندر ان عرفوه من قبل . وتبين ان صوفى أرنو كبيرة المغنيات متمردة على أوامره فهدد بالإقلاع عن المشروع . وبدا ان جوزف لجرو قد أضعفه المرض إلى حد منعه من تمثيل دور الجبار أنخيل : «أما جانتان فستري» إله الرقص وقتها ، فأراد ان يكون نصف الأوبرا باليه^(١٠) . وشد جلوك شعره ، أو قل باروكته ، وأصر على موقفه ، وانتصر . وكانت حفلة الافتتاح (١٩ ابريل ١٧٧٤) حدث العالم الموسيقى المثير . وقد نحس بما كانت عليه العاصمة الجياشه من هياج إذا قرأنا خطاب ماري انطوانيت لأختها ماريا كريستينا فى بروكسل . قالت :

« انه نصر عظيم ياعزيزتى كريستين ، إن الحماسة تجرفنى ، ولم يعد الناس يتكلمون على شيء غير هذا . وكل الرؤس تجيش نتيجة لهذا الحدث . . . فهناك انشقاكات ونزاعات أشبه بالنزاع الدينى . ومع انى أعلنت فى البلاط أنى فى صف هذا العمل الملهم ، فان هناك تحريات ومناقشات شديدة الحيوية . أما فى المدينة فيبدوا ان الحال أسوأ من هذا^(١١) . »

ورد روسو تحية جلوك باعلانه أن «أوبرا مسيو جلوك قلبت كل أفكاره رأسا على عقب ، وقد اقتنع الآن أن اللغة الفرنسية تستطيع أن تنسجم كأي لغة أخرى مع الموسيقى القوية المؤثرة الحساسة^(١٢) . وكانت الافتتاحية رائعة حتى ان الجمهور فى الليلة الأولى طالب باعادتها ووجه النقد للالحان لأنها مسرفة فى الطول ، ولأنها تقطع سير الدراما ، ولكنها تميزت بعمق مركب فى الشعور تفردت به موسيقى جلوك . وقد قال الأبييه أرنو عن أحدها وهو «أجاممنون» «يمثل هذا اللحن قد يؤسس المرء ديننا^(١٣)» .

ونافس جلوك الآن لويس الخامس عشر المحتضر محوراً لحديث باريس .
وكان بدنه الضخم القوى ووجهه الأحمر وانفه الكبير يشار إليها كلها حينها
ذهب . واصبح طبعه الغضوب موضوعاً لعشرات النوادر . ورمم له جروز
صورة ظهرت فيها طبيعته الطيبة المرححة من خلف خطوط النضال والتوتر .
وراح يأكل كما يأكل الدكتور جونسون ، ويسرف في الشراب إسرافاً
لا يبرزه فيه غير بوزويل ، ولم يتظاهر باحتقار المال ، وكان يبادر
للإشتراك في البناء على عمله . وقد عامل الحاشية وعامة الناس معاملة
واحدة باعتبارهم أدنى منه قدراً ، وكان ينتظر من كبار النبلاء ان يناولوه
باروكتهم ومعطفهم وعصاه ، ولما قدم اليه أحد الأمراء فلم يبرح جلوك
م ه علل سلوكه هذا بقوله « لقد ألف الناس في المانيا إلا يقوم الواحد
منهم إلا لمن يحترمه (١٤) . »

وكان من الأوبرا قد أُنذره بأنه في حالة نجاج « أفجيني وأوليد » ،
فسيضطر جلوك إلى كتابة خمس أوبرات أخرى في تعاقب سريع ، لأن
أفجيني ستطرد جميع الأوبرات الأخرى من المسرح . ولم يرهب الإنذار
جلوك لأنه اعتاد ان يقطع اجزاء من مؤلفاته القديمة ويحشرها في الجديدة
وترجمت له « أورفيو وأوريديتشي » إلى الفرنسيه ، ولما لم يجد مغنيا كفواً
ذا صوت رنان « كونترالتو » في متناوله ، اعاد كتابة دور أورفيو لليجرو
ذى الصرت الصارخ (التينور) . اما صوفي أرنو التي لانت عريكته الآن
فقد لعبت دور أوريديتشي . ونجحت حفلة الافتتاح الباريسية نجاحاً اذفاً
صدره . وجادت ماري انطوانيت ، ملكة فرنسا الآن ، بمعاش قدره
سته آلاف فرنك لـ « عزيزى جلوك » (١٥) . وقفل إلى فيينا ورأسه
يطاول النجوم .

وفي مارس ١٧٧٦ عاد إلى باريس بترجمة فرنسية لأليست ،
أخرجت فلم تلق غير استحسان متوسط في ٢٣ ابريل . أما جلوك الذى
تعود النجاج فقد استجاب لهذه النكسة بكبرياء غاضبة وقال « ليست أليست
من نوع الأعمال التى تسر الجمهور سروراً مؤقتاً ، أو التى تسرهم بلذتها .

فليس لازم عليها سلطان . وأنا أزعـم أنها ستسر السامعين نفس السرور بعد مائتي عام إذا لم يطرأ على اللغة الفرنسية تغيير»^(١٦) . وفي يونيو عاد إلى فيينا ، وسرعان ما بدأ يلحن النص الذي كتبه مارمونتيل من جديد لمسرحية «رولان» التي سبق ان كتب نصها كينو .

وبدأت الآن أشهر المعارك في تاريخ الأوبرا . ذلك أن إدارة الأوبرا كانت أثناء هذا قد كلفت نيكولوبتشيني النابولي بتلحين النص ذاته ، وأن يحضر إلى باريس ويخرجه . وحضر (٣١ ديسمبر ١٧٧٦) ، فلما انبىء جلوك بهذا التكليف أرسل إلى دروليه الذي كان بباريس آنذاك خطابا يضطرم بغضبة أولمبية :

«لقد تلقيت للتو خطابك الذي . . . ناشدني فيه مواصلة تلحين أوبرا «رولان» . ولكن هذا لم يعد ممكناً، لأنني حين سمعت ان إدارة الأوبرا التي لم تجهل اني كنت ألحن رولان كلفت بهذا العمل ذاته مسيو بتشيني ، أحرقت كل ما كتبت منه ، ولعله لم يكن يساوى الكثير . . وأنا لم أعد رجلاً يدخل في منافسة ، وسكون للمسيو بتشيني ميزة كبيرة جداً على لأنه بغض النظر عن كفايته الشخصية وهي بلاشك عظيمة جداً — سيكون له ميزة الجدة . . . وانا واثق ان سياسياً معيناً من معارفي سيقدم الغداء والعشاء لثلاثة ارباع باريس ليكسب له انصاراً»^(١٧) .

ولأسباب ليست الآن واضحة نشر هذا الخطاب . . . الذي كان من الواضح انه خطاب خاص — في «الأنية ليتيرير» عدد فبراير ١٧٧٧ فأصبح عن غير قصد إعلاناً للحرب .

ووصل جلوك إلى باريس في ٢٩ مايو ومعه أوبرا جديدة هي «أرميد» والتقى المؤلفان الغريمان على الغداء ، فتعانقا وتحدثا حديثاً ودياً . وكان بتشيني قد حضر إلى فرنسا دون ان يخطر له انه سيكون بيدقاً في مواءمة حزبية قدرة وتجارة أوبرالية ، وكان هو شخصياً شديد الإعجاب بفن جلوك . ولكن الحرب مضت في الصالونات والمقاهي ، وفي الشوارع

والبيوت ، رغم ما بين الغريمين من مودة ؛ وروى تشارلز برني أنه « مامن باب فتح لزاثر دون أن يوجه اليه هذا السؤال قبل يسمح له بالدخول : سيدى أنت من أنصار بيتشيني أم من انصار جلوك^(١٨) ؟ » أما مارمونتيل ودالامبير ولاهارب فقد تزعموا الحزب المناصر لبيتشيني والأسلوب الايطالى ، وأما الأبيه أرنو فقد دافع عن جلوك فى « اعلان للإيمان بالموسيقى » ، وأما روسو ، الذى كان قد افتتح الحرب بمقاله المناصر للموسيقى الإيطالية « فى الموسيقى الفرنسية » (١٧٥٣) ، فقد ناصر جلوك .

وأخرجت أرميد فى ٢٣ سبتمبر ١٧٧٧ . وكان موضوعها وموسيقاها رجوعا إلى أشكال رسخت قبل اصلاح جلوك ، وقد اقتبست القصة من تاسو ، ومجدت رينالد والمسيحى وأرميدا الوثنية ، وكانت الموسيقى موسيقى لوللى معادة برقة رومانسية ، وأما الباليه فباليه نوڤير فى أروعه ، واءعجب هذا المزيج الجمهور فاستقبل الأوبرا استقبالا حسنا ، ولكن انصار بيتشيني نددوا بأرميدا قائلين إنها ليست سوى صقل للوللى ورامو . وانتظروا فى شوق أوبرا رولان الذى كان يلحنها حامل لوائهم . وأهداها بيتشيني إلى مارى انطوانيت مشفوعة باعتذاراته : لقد كنت فى حاجة لكل شجاعتى وأنا مزدرع ومعزول فى بلد كل شيء فيه جديد على تفت فى عضدى مئات العقبات المعترضة عملى ، ولقد فارقتنى شجاعتى^(١٩) . وكان أحيانا يوشك ان يكف عن النضال ويعود إلى ايطاليا . ولكنه ثابر ، ووجد عزاء فى نجاح حفلة العرض الأولى (٢٧ يناير ١٧٧٨) . وبدأ أن الانتصارين يلغى أحدهما الآخر . وواصلت الحرب السافرة احتدامها . وقد رأتها مدام فيجيه لبرون رأى العين فقالت « كانت ساحة القتال العادية هى حديقة الباليه رويال . فهناك كان انصار جلوك وبيتشيني يتشاجرون مشاجرات بلغ من عنفها انها أفضت إلى مبارزات كثيرة .

وعاد جلوك إلى فيينا فى مارس ، وتخلف فى فرتية ليرى فولتير . ثم صعب معه إلى بيته نصين أولها كتبه نيكولا — فرانسوا جيار وبناه على مسرحية أوربيدس « افجيني فى تاورس » . أما الثانى فسكتبه البارون

جان - باتيست وتشودى عن موضوع الصدى ونارسييس . وعكف على الكتابين فما حل خريف ١٧٧٨ حتى شعر أنه على استعداد لخوض معركة أخرى . وهكذا نجده في نوفمبر في باريس مرة أخرى ، وفي ١٨ مايو ١٧٧٩ قدم في دار الأوبرا أوبرا « افجينى في تاوريد » التي يعدها معظم الطلاب أعظم مؤلفاته الموسيقية . وهى قصة قائمة ، وكثير من موسيقاها شكاة رهيبة ، ونحن نمل أحيانا لنواح افجينى العالى . ولكن حين ينتهى العرض ويسكت سحر الموسيقى والأبيات عقلنا الشكاك ندرك اننا استمعنا إلى دراما عميقة قوية . وقد لاحظ معاصر ان فيها فقرات كثيرة رائعة ، أما الأبييه أرنو فقال « ان فيها فقرة رائعة واحدة فقط ، هى العمل كله (٢١) » . واستقبل الجمهور العرض الأول للأوبرا بحماسة بالغة .

على ان جلوك تحدى الآلة ، فتعجل بتقديم أوبراه الثانية «الصدى ونارسييس» (٢١ سبتمبر ١٧٧٩) . ولكنها فشلت ، فغادر المايسترو باريس في غضبة مضرية معلنا أنه شبع من باريس وأنه لن يكتب مزيدا من الأوبرات . ولو أطل مكثه فيها لسمع « افجينى في تاورند » . أخرى أخرجها بيتشنى بعد عامين من الجهد الشاق . واستقبل الجمهور العرض الأول (٢٣ يناير ١٧٨٠) استقبالا حسنا ، ولكن في الليلة الثانية كانت الأنسة لاجير التي غنت دور افجينى مخمورة بصورة واضحة ، حتى لقد حطمت صوفى أرنو العرض بتلقيها الأوبرا « افجينى في شميانيا (٢٢) » . وانهى هذا الحادث المؤسف الحرب الأوبرالية ، واعترف بيتشنى بهزيمته اعترافا جميلا .

أما جلوك فقد حلم في فيينا بانتصارات أخرى . ففي ١٠ فبراير ١٨٨٠ كتب إلى كارل أوجست دوق ساكسى - فيمار راعى جوته : لقد شخت كثيرا ، وقد بعثت خير طاقات ذهني على الأمة الفرنسية . ولكنى أشعر بدافع باطنى يدفعنى لكتابة شيء لبلدى (٢٣) . ثم لحن بعض أناشيد كلويشتوك التي مهدت الطريق لأجمل الليدات . وفي ١٧٨١ أصيب بالنقطة ، ولكن كان عزاء له استقبال فيينا لأفجينى في تاورس واحياء

«أورفيو والست» . وفي ١٥ نوفمبر ١٧٨٧ بينما كان يستضيف جماعة من أصدقائه تعاطى في جرعة واحدة قدحا من مسكر قوى كان محظورا عليه . وأصابته تشنجات لم تمهله غير ساعات . وحاول بتشيني وهو في نابلي دون جدوى جمع المال لأحياء حفلات موسيقية سنوية تذكارا لمنافسه^(٢٤) . ذلك ان ايطاليا التي كانت تحبذ الميلوديا لم تأبه باصلاحات جلوك : ونهج موتسارت نهج الإيطاليين ، ولا بد أنه صعب لفكرة تسخير الموسيقى للشعر . أما هرذر الذي جاء في ختام هذه الفترة الخلاقة والذي رجع البصر اليها بمعرفة محدودة بباخ وهايدن وموتسارت فقد وصف جلوك بأنه أعظم ملحنى القرن قاطبة (٢٥) .

٢ - يوزف هايدن : ١٧٣٢ - ١٨٠٩

من الأيسر علينا أن نحب هايدن ، فهاهنا رجل لم يتشاجر مع إنسان غير زوجته ، رجل يشيد بمنافسيه كأنهم أصدقاؤه ، رجل أشرب موسيقاه بالمرح ، وكان بمزاجه الفطري عاجزا عن المأساة .

ولم يحبه الحظ شرف المولد . فقد كان أبوه صانع عربات ونقاشا في روراو ، وهي مدينة صغيرة على الحدود بين النمسا والمجر . أما أمه فكانت طاهية لأشراف هاراش وكان أبواه كلاهما من أصل سلافي كرواني لا ألماني . وكثير من الحان هايدن تردد صدى الأغاني الكرواتية . وكان الثانى بين اثني عشر طفلا مات ستة منهم في مستهل طفولتهم . وقد عمسد باسم فرانتس يوزف هايدن ، ولكن كان من المألوف يومها أن ينادى الأطفال باسمهم الثانى .

فلما ناهز السادسة أرسل ليعيش مع قريب يدعى يوهان ماتياس فرانك ، صاحب مدرسة في هاينبورج . هناك كان يومه يبدأ بدروس في الفصل من الساعة السابعة إلى العاشرة ، ويلى ذلك القداس ، ثم الرجوع للبيت لتناول الغداء ، ثم دروس من الثانية عشرة إلى الثالثة ، ثم دروس في الموسيقى . وقد درب على التدين ولم يفقده قط . وكانت أمه تتوق إلى

تخريجه قسيساً ، وأحزنها حزناً عميقاً اختياريه حياة الموسيقى التي لا ضمان لاستقرارها . على أن فرانك شجع ميل الطفل للموسيقى وعلمه كل ما في طاقته أن يعلمه ، وألزمه نظاماً صارماً للدرس . وقد ذكر هايدن في شيخوخته هذا الرجل وغفر له قائلاً « سأكون ما حييت شاكراً لذلك الرجل أنه الزمنى العكوف على العمل وإن إعتدت أن أنال من الجلد أكثر مما أنال من الطعام^(٢٦) » . وبعد أن قضى يوزف عامين مع فرانك أخذه إلى فيينا جبورج رويتر ، مدير فرقة المرتلين في كاتدرائية القديس اسطفانوس ، ورأى رويتر إن صوته « الضعيف الحلو » قد يجد مكاناً متواضعاً في فرقة المرتلين . وهكذا ذهب الغلام الحي المشتاق ليعيش في مدرسة المرتلين « الكانتوربي » الملحقة بالكاتدرائية . وهناك كان يتلقى دروساً في الحساب والكتابة واللاتينية والدين والترتيل والكمان . ورتل في الكاتدرائية وفي المصلى الامبراطورى ، ولكنه كان لا ينال إلا أتفه الغذاء ، فكان يرحب بدعوات للغناء في البيوت الخاصة حيث يستطيع أن يمسأ معدته فضلاً عن إنشاد أغانيه .

وفي ١٧٤٥ انضم إليه في مدرسة المرتلين أخوه ميخائيل الذى كان يصغره بخمس سنين . وحوالى هذا التاريخ بدأ صوت يوزف يصبح أجش ، فعرض عليه أن ينحصى ليحتفظ بصوته السوبرانو ، ولكن أبويه لم يوافقا . واحتفظ به رويتر أطول ما يستطيع ، واخيراً في ١٧٤٨ وجد يوزف نفسه وهو في السادسة عشرة حراً ومفلساً ، لم يؤت من حسن السميت وجاذبيته ما يكسبه رضى الحظ عنه . فقد نقر الجدرى وجهه ، وكان أنفه بارزاً ، وساقاه أقصر مما يناسب جسمه ، ولباسه رثا ، ومشيته لا رشاقة فيها ، ومسلكه خجولاً متردداً . ولم يكن بعد قد حذق العزف على أى آلة ، ولكنه كان في تلك الآونة يقلب الألحان في رأسه .

وعرض عليه زميل في صف المرتلين حجرة على السطح ، وأقرضه أنطون بوخهولتز ١٥٠ فلورينا ردها إليه هايدن الأمين فيما بعد . وكان عليه أن يجلب الماء صعبداً إلى حجرتة العليا كل يوم ، ولكنه حصل على

كلافير (لوحة مفاتيح) قديم ، وبدأ يعلم بعض التلاميذ ، فأعانه هذا على الحياة . وكان في أكثر الأيام يعمل ست عشرة ساعة بل أكثر ، ويعزف على الكمان في كنيسة ، ثم على الارغن في مصلى خاص للكونت هاوجفنز وزير ماريا تريزا ، ويغنى بصوت التينور بين آن وآخر في كئدرائية القديس اسطفانوس . وكان لمناستازيو الشهير شقة في البناء ذاته فحصل هايدن على وظيفة معلم موسيقى لأبنة صديق له ، وعن طريق مناستازيو ألتقى هايدن ببوربورا ، ووافق هايدن على أن يخدم أمير معلمى الغناء هذا على أى وجه شاء مقابل تعليمه التأليف الموسيقى . ثم تلقى دروس التأليف الثمينة ، وكان ينظف حذاء المايسترو ومعطفه وباروكتته ويقوم بمصاحبة بوربورا وتلاميذه على الكلافير . وقد قال هايدن وهو يذكر تلك الأيام فيما بعد « يستطيع الشباب أن يتعلموا منى أن شيئاً يمكن أن يخرج من لا شيء . فكل ما أنا عليه الآن إنما هو ثمرة أوقات الشدة التى عانيتُها (٢٧) » .

وعن طريق أصدقائه الجدد تعرف إلى جلوك وديتزدورف وعدة أفراد من النبلاء . وأخذ كارل يوزف فون فورنبرج (١٧٥٥) لميكث معه طويلاً في بيته الريفى - فيتزيل - بقرب ملك ، هناك وجد هايدن أوركستراً من ثمانية عازفين واتسع بعض الفراغ للتأليف . فكتب الآن أولى رباعياته . ثم إضاف إلى هيكل الصوناتا المكون من ثلاث حركات ، الذى نقله عن كارل فيليب إيمانويل باخ منويتاً ، ودون الحركات الأربع لقطع أربع ، ثم أعطى الرباعية الآلية شكلها الحديث . وعاد إلى فيينا في ١٧٥٦ ولفت أنظار نفر من التلاميذ النبلاء مثل الكونتيسة فون تون . ثم قبل (١٧٥٩) وظيفة مدير الموسيقى للكونت مكسميليان فون مورتزن الذى كان أوركستراه الخاص المؤلف من إثني عشر إلى ستة عشر عازفا يعزف في فيينا شتاء ، وفي فيللا الكونت بلوكافيك ببوهيميا صيفاً . وهذه المجموعة كتب هايدن أولى سمفونياته (١٧٥٩) .

وإذ كان يكسب الآن مائتي فلورين في العام يضاف إليها المسكن والمأكل ، فقد رأى أن في وسعه المغامرة بالزواج . وكان من بين تلاميذه

إبنتان لصانع باروكات ، فأغرم بالصغرى ولكنها ترهبت ، وأقنع الأب هايدن بأن يتزوج شقيقته ماريانا (١٧٦٠) . وكانت في الحادية والثلاثين وهو في الثامنة والعشرين . وتبين أنها مشاغبة متعصبة مسرفة عقيم . يقول هايدن « لا يهمها مثقال ذرة أن كان زوجها فنانا أو إسكافاً (٢٨) » . وبدأ ينظر إلى غيرها من النساء .

وكان يختلف إلى بيت مورتزن إحيانا للاستماع إلى الموسيقى الأمير يال أنطون استرهاتسى . فلما حل مورتزن أوركستراه لإستخدام الأمير هايدن (١٧٦١) مساعداً لمدير الموسيقى في مقره الريفى أيزنشتات في المجر . ونص العقد على أن يتقاضى هايدن أربعمائة فلورن في العام بالإضافة إلى مكان على مائدة الموظفين ، و « يلاحظ بصفة خاصة أنه حين يدعى الأوركستر للأداء أمام جمهور أن يبدو الموسيقيون في بزة رسمية مرتدين الجوارب الطويلة البيضاء والقمصان البيضاء . . وضميرة أوباروكة (٢٩) » . وفي أيزنشتات كان رئيس فرقة المراتلين جريجور فرنر عاكفا على الموسيقى الكنسية ، فجهز هايدن الحفلات وألف لها الموسيقى . وكان يترأس على أربعة عشر موسيقيا وسبعة مغنين وكورس أختير من بين نخدم الأمير . وقد شارك حجم الاوركسترا الصغير ، وطابع المستمعين ، في تقرير نوع الموسيقى الخفيف اللطيف الذى كتبه هايدن لأسرة استرهاتسى . وأكسبته طبيعته الطيبة محبة الموسيقيين ولم يمحض على مجيئه إلى ايزنشتات كثير حتى راحوا يلقبونه « بابا هايدن » رغم إنه لم يجاوز وقتها التاسعة والعشرين (٣٠) . وألف لهم الصوناتات والثلاثيات والرباعيات والكونشرتوات والاغاني والكتتاتات ونحو ثلاثين سمفونية . وكثير من هذه المؤلفات وإن كانت ملكا للأمير حسب نص العقد نشر أو تداوله الناس مخطوطا في فيينا وليبزج ولأمستردام وباريس ولندن ، ولم يحل عام ١٧٦٦ حتى كان اسم هايدن ذائعا دوليا .

فلما مات بال أنطون (١٨ مارس ١٧٦٢) خلفه في رئاسة أسرة استرهاتسى أخوه ميكلوس يوزف الذى يحب الموسيقى محبة لخلته

المرصعة بالماس . وكان يحسن العزف على « الفيولادى بوردونى » . (وهى شكل مختلف من أشكال الفيولادا جامبا) ، وكان سيدا لطيفا هايدين طوال عشرينهما التى إمتدت قرابة ثلاثين عاماً . يقول هايدين « كان أميرى على اللدوام راضيا عن إعمالى فلم احظ منه بمجرد تشجيع الاستحسان الدائم ، ولكن بوصفى قائدا للاوركستر إستطعت أن أجرى التجارب والاحظ ما يحدث منها أثراً وما يضعف هذا الأثر ، وهكذا كنت فى وضع إتاح لى إن أحسن ، وأغير . . وأغامر كما أشاء . لقد كنت مقطوع الصلة بالعالم وما من أحد يشوش على أو يعاذبنى ، فاكهرت على الابتكار (٣١) .

ومات فرنر فى ٥ مارس ١٧٦٦ ، واصبح هايدين رئيسا لفرقة المرتلين . وسرعان ما انتقلت الأسره إلى القصر الجديد « قلعة استرهاتسى » التى كان ميكلوس قد بناها فى الطرف الجنوبى لنويديلر زى فى شمال غربى المجر . وكان الأمير شديد التعلق بهذا القصر حتى إنه كان يسكنه من مطلع الربيع حتى آخر الخريف ، ثم ينتقل شتاء إلى فيينا مصطحباً موسيقيه احيانا . وكان العازفون والمغنون يكرهون هذه العزلة الريفية لاسيما لأنها كانت تفصلهم عن زوجاتهم وابنائهم ثلاثة فصول فى العام ، ولكنهم كانوا يتعاطون اجوراً حسنة ولم يجرؤا على الشكوى . وذات مرة إراد هايدين أن يلمح لميكلوس بأن موسيقية مشتاقون إلى أخذ اجازة ، فألف « سمفونية الوداع » (رقم ٥) وفى ختامها كانت الآلة تلو الأخرى تحتفى من المدونة والعازف يطفىء شمعته ويتناول موسيقاه وآلته ثم يغادر المسرح . وفطن الأمير إلى القصد فرتب رحيل الفرقة إلى فيينا فى وقت قريب .

وسمح هايدين على سبيل الاستثناء بأن يصحب معه زوجته إلى استرهاتسا ، ولكنه لم يقدر هذا الامتياز . ففى ١٧٧٩ وقع فى غرام لويجا بولتسلى ، وكانت مغنية وسطا استخدمتها استرهاتسا مع زوجها عازف الكمان أنطونيو . ويبدو أن هايدين أحس أنه مادامت الكنيسة الكاثوليكية لم تسمح له بتطليق زوجته المتعبة فإن عليها من قبيل الرأفة أن تسمح له بانحرافه أو اثنتين ، ولم يبدل كثيراً من الجهد فى اخفاء علاقته الغرامية هذه . أما أنطونيو فقد بلغ

من الكبر والمرض ما منعه من الاحتجاج الفعال ، وكان يعلم أن الفضل في بقائه في وظيفته راجع إلى إن رئيس فرقته يستطب لويجا . وكانت قد قدمت إلى استرها تسا بـ غلام في الثانية ، وفي ١٧٨٣ ولدت صبيا آخر نسبته الشائعات إلى بابا هايدن ، وتعلق قلب هايدن بالغلامين جميعاً وكان عوناً لهما طوال حياته .

وخلال تلك السنوات الحافلة بالشواغل في استرها تسا لم يتطور هايدن في فن التلحين إلا تطوراً بطيئاً لأنه افتقد الحافز والمنافسة الخارجيين ، فلم ينتج شيئاً يستحق أن يذكر به إلى أن بلغ الثانية والثلاثين — وهي سن كان موتسارت قد أكمل فيها « أعماله الكاملة » باستثناء « الناي السحري » و « القداس الجنائزي » . وقد أنتج هايدن أبداع أعماله بعد بلوغه الخمسين ، وأولى سمفونياته الكبرى حين قارب الستين ، و « الخليقة » حين كان في السادسة والستين . وكتب عدة أوبرات تؤدي في استرها تسا ، ولكن حين دعتة براغ لتقديم أوبرا فيها ، ضمن سلسلة تقرر أن تحتوى على زواج فيجارو ودون جوفاني ، أحجم في رسالة كلها تواضع نبيل (ديسمبر ١٧٨٧) ، قال :

« تريد مني أوبرا هازلة . . . فإذا كان قصدك إخراجها في براغ فاني لا أستطيع أن اسدى إليك هذا الصنيع . ذلك أن أوبراتي لا تنفصل عن المجتمع الذي كتبت له ، وإن تحدث التأثير المقصود منها إذا عزلت عن بيئتها الأصلية . ولكن يكون أمراً آخر أن أشرف بتكليفى بكتابة أوبرا جديدة لمسرحكم . على أنه حتى في هذه الحالة ، سيكون من المغامرة أن أضع نفسى منافساً لموتسارت العظيم . ولو اننى استطعت فقط أن ألهم كل عاشق للموسيقى ، خصوصاً بين العظماء ، بمشاعر تبلغ في عمقها مشاعري ، وفهم واضح كفهمي ، وهم يستمعون إلى أعمال موتسارت الممتنعة على التقليد ، إذن لتبارت الأمم على حيازة هذه الجوهرة الكريمة داخل حدودها . وعلى براغ أن تجاهد للاحتفاظ بهذا الكنز في قبضتها ، ولكن بمكافأته المكافأة اللائقة . واغفال هذا الجزاء كثيراً ما يكون مصدر حزن في حياة عبقري

عظيم ، وتثبيط للمزيد من الجهود والمستقبل الأيام . وانى لأشعر بالسخط لأن موتسارت لم يستخدم إلى الآن فى أى بلاط امبراطورى أو ملكى . عفووا ان كنت قد خرجت عن الموضوع ، فوتسارت رجل عزيز على جداً » (٣٢) .

وكان هايدن نفسه يتوق إلى بلاط تنشر فيه موهبته جناحها على نطاق أوسع ، ولكن كان عليه أن يقنع بالمجاملات الملكية . ووصلته الهدايا من فوديناند الرابع ملك نابلى وفردريك ولیم الثانی ملك بروسيا وماريا فيودروفنا الأرشيدوقة الروسية . وفى ١٧٨١ بعث إليه شارل الثالث ملك أسبانيا علبة سعوط ذهبية مرصعة بالماس ، وسافر السفير الأسباني لدى فيينا إلى استر هاتسا ليقدم إليه هذا الكنز الصغير بشخصه . ولعل لبوكيرنى يداً فى هذه اللقطة ، وكان يومها يقيم فى مدريد ، لأنه اقتبس أسلوب هايدن بحماسة شديدة حتى لقد لقب بـ « زوجة هايدن » (٣٣) . ولما قرر مجلس الكندرائية فى قادس تكليف موسيقى بوضع الاطار الموسيقى لـ « كلمات مخلصنا السبع الأخيرة » وسا التكليف على هايدن ، فاستجاب بأوراتوريو (١٧٨٥) لم يلبث أن أدى فى أقطار كثيرة — فى الولايات المتحدة الأمريكية فى تاريخ مبكر (١٧٩١) . وفى ١٧٨٤ طلب مخرج باريسى ست سمفونيات ، فأثخفه هايدن بست « سمفونيات باريسية » . ووصلته عدة دعوات ليقود الحفلات الموسيقية فى لندن . وشعر هايدن بأنه مربوط باستر هاتسا برباط الولاء كما هو مربوط برباط التعاقد ، ولكن خطاباتاته الخاصة تشى بشوقه المتزايد إلى مسرح أرحب لفنه .

وفى ٢٨ سبتمبر ١٧٩٠ مات الأمير نيكائوس يوزف . ولم يكن الأمير الجديد انطون استر هاتسى ولوعا بالموسيقى ، ففصل كل الموسيقيين تقريباً ، ولكنه احتفظ بهایدن اسماً فى خدمته ، ومنحه معاشاً سنوياً قدره ألف وأربعمائة فلورين ، وسمح له بأن يسكن حيث يشاء . وانتقل هايدن إلى فيينا لتوه تقريباً ، وتلقى الآن عدة عروض ، أعجلها من يوهان بيتر سالومون ،

الذى صرح له بهذه العبارة « لقد جئت من لندن لآخذك معي ، وسنبرم اتفاقنا غدا » . وعرض عليه ٣٠٠ جنيه لقاء أوبرا جديدة ، و ٣٠٠ أخرى نظير ست سمفونيات ، و ٢٠٠ أخرى نظير حق تأليفها ، و ٢٠٠ أخرى نظير عشرين حفلة موسيقية في إنجلترا ، و ٢٠٠ أخرى نظير حفلة موسيقية تحيا فيها لصالح هايدن - ومجموعها كلها ١٢٠٠ جنيه . وكان هايدن يجهل الانجليزية ويخشى عبور المانش . وتوسل إليه موتسارت ألا يضطاع بهذه الأعباء والمغامرات قائلا « يا أبت ، إنك لم تتلق أى تعليم يؤهلك للعالم الواسع ، وأنت لا تتكلم إلا القليل جدا من اللغات ! » وأجاب هايدن « ولكن لغتي مفهومة في العالم كله . » (٣٤) وباع البيت الذى منحه إياه الأمير ميكلوس يوزف في أيزنشتات ، ودبر معاش زوجته وخليته ، ثم انطلق إلى مغامرته الكبرى . وأنفق مع موتسارت الأيام الأخيرة قبل الرحيل ، وبكى موتسارت حين رآه يرحل (لئن أنخشي يا أبتاه أن يكون هذا آخر وداع لنا) .

وغادر هايدن وسالومون فيينا في ١٥ ديسمبر ١٧٩٠ ، ووصلا إلى لندن في أول يناير ١٧٩١ . وكانت أولى حفلات هايدن الموسيقية (١١ مارس) انتصارا له . وختمت صحيفة « المورننج كرونكل » تقريرها عنها بهذه العبارة « لا نستطيع أن نخفى أملنا الوطيد في أن يكون في هذا الترحيب البالغ الذى لقيه منا أعظم عباقرة الموسيقى في جيلنا هذا ما يغريه بأن يتخذ مقامه في إنجلترا . » (٣٥) ونجحت كل الحفلات الموسيقية ، وفي ١٦ مايو أبهج قلب هايدن حفلة أحييت لصالحه ب ٣٥٠ جنيه . وفي ذلك الشهر حضر حفلة تذكارية هندل في كنيسة وستمنستر . واستمع إلى (المسيا) وبلغ « التأثير حد البكاء ، وقال في تواضع (هندل ، أستاذنا جميعا .) » (٣٦) واقترح بيرنى على جامعة أكسفورد أن تمنح هندل الجليلد درجة فخرية ، وقبل الاقتراح ، وذهب هندل إلى الجامعة في يوليو ، وأصبح دكتورا في الموسيقى ، وقاد هناك سمفونيته في مقام G الكبير (رقم ٩٢) وكان قد ألفها قبل ثلاث سنوات ، ولكن التاريخ يعرفها منذ ذلك الوقت بسمفونية

أكسفورد . . وتذكرنا حركتها البطيئة الجميلة بالاغنية الشعبية الانجليزية القديمة « لورد راندول » .

ولقد اتيح لهايدن أن يستمتع بمشهد الريف الانجليزي الذي رأى فيه تمجيدا سماويا للنبات والمطر ، لذلك قبل مغتبطا عقب عودته إلى لندن دعوات لبيوت ريفية . وهناك وفي لندن كسب الكثير من الأصدقاء بترحيبه بالعزف والغناء في حفلات خاصة . واتخذ له تلاميذ متقدمين في الموسيقى ليعلمهم التأليف ، ومن بينهم أرملة وسيمة غنية تدعى يوهانا شروتر . ومع أنه كان في الستين ، فان هالة شهرته أدارت رأسها فعرضت عليه حبها . وقد ذكر هذا الحديث فيما بعد فقال « أغلب الظن أنى كنت متزوجها لو كنت عزبا . » (٣٧) وفي غضون هذا كانت زوجته تلح عليه في العودة . وفي خطاب أرسله إلى لويجا بولتسيللى قال متدمرا (إن زوجتى — الوحش الجهنمى — كتبت لى أشياء بلغت من الكثرة ما أكرهنى على الجواب بأننى لن أعود أبدا .) (٣٨)

وراح يشتغل بهمة رغم ما أثقل ضميره وجيبه من النسوة الثلاث ، فألف الآن ستا (رقم ٩٣ — ٩٨) من سمفونياته اللندنية الأثنى عشرة . ونرى فيها تطورا ملحوظا من إنتاجه فى إيزتشتات واستر هاتسا . ولعل سمفونيات موتسارت قد شحذت فنه ، أو لعل احتفاء انجلترا به قد أخرج خيرا ما فيه ، أو لعل إسماعلة إلى هندل حرك فيه أعماقا لم تمسها بيئته الساكنة الهادئة فى ربى الحجر ، أو لعل علاقاته الغرامية قد رفعتة إلى العواطف الرقيقة كما بعثت فيه الفرحة البسيطة . وشق عليه إن يرح انجلترا ، ولكنه كان مرتبطا بعقد مع الأمير أنطون استر هاتسى الذى أصر الآن على عودة هايدن ليشارك فى المهرجانات الممهدة لتتويج الأمبراطور فرانسيس الثانى . ومن ثم نراه يقتحم المانش ثانية فى أواخر يونيو ١٧٩٢ ، وينتقل من كاليه إلى بروكسل إلى بون ، ويلتقى ببيتهوفن (الذى كان آنثذ فى الثانية والعشرين) ، ويحضر التتويج فى فرانكفورت ، ثم يصل إلى فيينا فى ٢٦ يونيو .

(م ١٨ — قصة الحضارة ج ٤٠)

ولم تشر صحيفة واحدة إلى عودته ، ولا نظمت له حفلات موسيقية ، ولا حفل به البلاط . ولو كان موتسارت موجودا لاحتفى بمقدمه ، ولكن موتسارت كان قد قضى . وكتب هايدن إلى أرملة ، ونطوع باعطاء دروس مجانية لابنه ؛ وحث الناشرين على طبع المزيد من موسيقى موتسارت . ثم ذهب ايعيش مع زوجته في المنزل المحتفظ به الآن متحفاً لهايدن (هايدن — جاسي ١٩) . وأرادته الزوجة إن يكتب لها البيت فرفض . وازدادت مشاجراته معها حدة . وقدم بيتهوفن في ديسمبر ١٧٩٢ ، ايدرس عليه . ولكن العبقرين لم ينسجما معا ، فقد كان بيتهوفن متكبراً مسيطراً ، وكان هايدن يلقبه « المغولى الأكبر » (٣٩) . وقد شغله استغراقه في عمله هو عن تصحيح تمرينات تلميذه بأمانة ، ووجد بيتهوفن سرّاً معلماً آخر ، ولكنه واصل تلقى الدروس عن هايدن . قال الجبار الصغير « لم أتعلم منه شيئاً » (١٠) ، ومع ذلك فكثير من قطعه الأولى تنهج نهج هايدن ، وقد أهدي بعضها لمعلمة الشيخ .

وازداد تقدير القوم لهايدن في النمسا وفي روراو ، فأقام الكونت فون هاراخ في روراو ، عام ١٧٩٢ ، تمثالا لابن البلدة الذي غدا الآن ذائع الصيت ، ولكن ذكرى انتصاراته وصدقاته في إنجلترا كانت لا تزال حارة ، ومن ثم لم يتردد الموسيقى في الموافقة على العرض الثاني الذي قدمه له سالومون بالذهاب إلى لندن وتكليفه كتابة ست سمفونيات جديدة . فغادر فيينا في ١٩ يناير ١٧٩٤ ووصل إلى لندن في ٤ فبراير . وكانت إقامته هذه التي امتدت ثمانية عشر شهراً في إنجلترا نصراً مؤزراً شدد عزمه كنصره الأول . وظفرت المجموعة الثانية من « السمفونيات اللندنية » (أرقام ٩٩ — ١٠٤) باستقبال طيب ، وخرج هايدن من حفلة أحيت لصالحه بدخل صافي قدره ٤٠٠ جنيه . وكان تلاميذه يدفعون له جنيهاً إنجليزياً في الدرس ، وكانت السيدة شروتر تسكن بقربة ، وعاد الأثير المقرب للطبقة الارستقراطية ، فاستقبله الملك وأعداء الملك على السواء ، وأمير ويلز ، وعرضت عليه الملكة مسكناً في ونزر طوال الصيف إذا أطل مقامه في إنجلترا موسماً آخر . ولكنه اعتذر بأن

أمير استرهاتسي الجديد يدعو للعودة ، وأنه لا يستطيع الغياب عن زوجته فترة طويلة كهذه (١) . وكان الأمير أنطون قد مات ، وأراد خلفه الأمير ميكلوس الثاني أن يعيد الحفلات الاوركسترالية في أيزنشتات . وهكذا غادر هايدن لندن في ١٥ أغسطس ١٧٩٥ بعد أن حزم حقائبه وحيوية عامرة بالنقود ويمم شطر وطنه .

وبعد أن زار تمثاله في روراو قدم نفسه لميكلوس الثاني في أيزنشتات ونظم الحفلات الموسيقية لشى المناسبات هناك . على أنه كان يقيم في بيته في أطراف فيينا باستثناء الصيف والخريف . وفي عامى ١٧٩٦ - ٩٧ كان نابليون يسوق النمساويين أمامه في إيطاليا ، وهدد تصاعد المشاعر الثورية في النمسا نظام هابسبورج الملكى ، وتذكر هايدن كيف شدت الحماسة التى أثارها إنشاد النشيد الإنجليزى « حفظ الله الملك » إزر اسرة هانوفر في إنجلترا ، وساءل نفسه إلا يمكن أن يفعل نشيد قومى مثل هذا في شد أزر الامبراطور فرانسيس الثانى ؟ وتقدم صديقه البارون جوتفريد فان زفيتن (ابن طبيب ماريا تريزا) بهذا الاقتراح إلى الكونت فون زاوراو وزير الداخلية . وعين زاوراو ليوبولد هاشكا ليؤلف نصا للنشيد ، واستجاب الشاعر بنشيد « حفظ الله الإمبراطور فرنسيس ، إمبراطورنا الصالح فرانسيس »

ووفق هايدن لهذه الكلمات لحنا لأغنية كرواتية قديمة ، وكانت النتيجة نشيداً قومياً مؤثراً رغم بساطته . وأنشد علانية في عيد ميلاد الإمبراطور في ١٢ فبراير ١٧٩٧ في جميع المسارح الكبرى في مملكة النمسا والمجر . وقد ظل مع بعض التغيير في الفاظه — النشيد القومى النمساوى حتى ١٩٣٨ . وطور هايدن اللحن . مع تنويعات ، ليصبح الحركة الثانية في رباعيته الوترية (٧٦ رقم ٣) .

ثم حاول أن ينافس « المسيا » وهو ما يزال أسيراً لسحر هندل . وكان

سالومون قد قدم له نصا مصنفًا من قصيدة لمتن « الفردوس المفقود » ، وترجم فان زفيتن النص إلى الألمانية ، ولحن هايدن الأوراتوريو الضخم « دى شويغونج » (الخليقة) . وأدى إوراتوريو « الخليقة » أمام جمهور دعى إلى قصر الأمير فون سفارتسبرج في ٢٩ — ٣٠ إبريل ١٧٩٨ . وبلغ احتشاد الجمهور خارج القصر مبلغا إقتضى معه حفظ النظام إستخدام خمسين شرطيا من الخيالة (كما يؤكدون)^(٤١) . ومول الأمير حفلة عامة في المسرح القومى في ١٩ مارس ١٧٩٩ ، ونفح مؤلف الموسيقى بكل دخلها (الذى بلغ أربعة آلاف فلورن) . وحيًا السامعون الموسيقى بحماسة أشبه بالحماسة الدينية ، وما لبث الأوراتوريو أن أستمع إليه الناس في كل مدينة كبرى تقريباً في العالم المسيحى . وأدانت الكنيسة الكاثوليكية اللحن لأنه أخف وأجذل من إن يصلح لموضوع جليل كهذا ، ووافق شيلر بيتهوفن في السخرية من تقليد هايدن لحيوانات جنة عدن ، أما جوته فقد أشاد بالعمل ، وظفر اللحن في بروسيا بعروض في القرن التاسع عشر فاقت في كثرتها أى لحن كورالى آخر .

وقدم فان زفيتن نصا آخر إقتبسة من قصيدة جيمس طومسن « الفصول » . وعكف هايدن عليه بهمة قرابة عامين (١٧٩٩ — ١٨٠١) ، مما أضر كثيراً بصحته . وقد قال « أن » « الفصول » قصمت ظهري » . وحظيت حفلة العرض الأولى باستقبال طيب ، ولكن اللحن لم يثر حماسة واسعة أو دائمة . وبعد أن قباد هايدن « كلمات المسيح السبع الأخيرة » لصالح احد المستشفيات اعتزل حياته النشيطة .

وكانت زوجته قد ماتت في ٢٠ مارس ١٨٠٠ ، ولكنه كان الآن قد بلغ من الكبر حداً لا يتيح له الأستمتاع بحريته وإن لم يمنعه من الاستمتاع بشهرته . فقد إعترف به الناس إماما للمؤلفين الموسيقيين ، وتكاثرت عليه أسباب التشريف من شتى المدن ، ووفد عليه مشاهير الموسيقيين — أمثال كيرويينى ، وآل فير ، واجناز بلييل ، وهوميل — لتقديم واجب الاحترام والأجلال له . ولكن الروماتزم والدوار وغيرهما من الأوصاب أورثته

الاكتئاب وسرعة الغضب والتشبث الرهيب بأهذاب الدين . وحين زاره كاميل بلييل في ١٨٠٥ وجده « ممسكا بمسبحة في يديه ، وأعتقد أنه يقضى أكثر يومه في الصلاة ، وهو لا يقتأ يقول أن نهايته قد دنت . . . ولم نطل المكث معه لأننا رأينا أنه يريد أن يصلى^(٤٢) . في ذلك العام انتشرت شائعة كاذبة زعمت أن هايدن مات . وكتب كيروبينى كنتاتا عن موته ، وخططت باريس لحفلة موسيقية تذكارية يعزف فيها قداس موتسارت الجنائزى ، ثم وصل نبأ بان الشيخ ما زال على قيد الحياة . فلما سمع هايدن بالأمر قال معقبا « إذن لسافرت إلى باريس لأقود القداس الجنائزى بنفسى »^(٤٣) .

وظهر آخر مرة أمام الجمهور في ٢٧ مارس ١٨٠٩ حين رتل « الخليقة » في جامعة فيينا احتفالا بعيد ميلاده السادس والسبعين الوشيك . وأرسل الأمير استرهاتسى مركبته لنقل الرجل العاجز إلى الحفلة الموسيقية . وحمل هايدن على كرسى ذى مسندين إلى القاعة بين جمهور من النبلاء ومشاهير القوم ، ولفت الأميرات شيلانهن حول جسده المرتعش . وجثا بيتهوفن وقبل يده . وغلب التأثر المؤلف العجوز ، ولم يكن بد من اعادته إلى بيته في فترة الاستراحة .

وفي ١٢ مايو ١٨٠٩ بدأت مدفعية نابليون تقصف فيينا . وسقطت قنبلة على مقربة من بيت هايدن فهزته هو وسكانه ، ولكن هايدن قال ليطمئنه « يا أبنائى لا تخافوا ، فحيث يوجد هايدن لن يصيبكم سوء » . وصدق قوله إلا عن نفسه ، فقد حطم القصف جهازه العصبي . فلما استولى الفرنسيون على المدينة أمر نابليون بأن يرابط حرس شرف أمام بيت المؤلف . ورتل ضابط فرنسى عند دخوله لحنا من « الخليقة » بطريقة فيها كثير من الرجولة والسمو حتى أن هايدن عانقه وفي ٣١ مايو قضى نحبه وهو في السابعة والسبعين ، وأقامت كبرى مدن أوروبا كلها الصلوات تذكارا له .

يقتصر انجاز هايدن التاريخى على تطوير الأشكال الموسيقية . وقد أضفى على الأوركستر حيوية جديدة بما أوجده من توازن بين الأوتار وآلات النفخ والنقر . وإذ بنى فوق جهود سامارتينى وشتامز وكارل

فليب ايمانويل باخ : فانه أرسى شكل الصوناتا باعتبارها عرضاً وتفصيلاً وتلخيصاً لموضوعات متعارضة وأعد لموتسارت الموسيقى الخفيفة المسلية المسماة « ديفرتمنتو » باعتبارها أقل شكلية من المتتالية وأنسب القاءات الاجتماعية. وأعطى الرباعية الوترية صورتها الكلاسيكية بإطالتها إلى أربع حركات ، وباعطاء الحركة الأولى «شكل الصوناتا» . وهنا كان على خلفائه أن يستخدموا عدد ونوع الآلات التي استخدمها هايدن ، وقد حقق في كثير من الحالات جمالا مشرقاً رقيقاً يعود إليه بعضنا متخففاً من التعقيدات العسيرة التي نجدها في رباعيات بيتهوفن الأخيرة .

ولاتزال على قيد الحياة تسمع سمفونيات أو عشر من سمفونيات هايدن المائة والأربعة . ولم تكن الأسماء التي تحماها من اختياره ولكنها من وضع المعلقين أو الناشرين . وقد لاحظنا في مكان سابق تطور «السمفونية» (أى الأصوات المجمع) من المقدمة بفضل تجارب سامرتيني وشتامز . وقد سبق كثيرون هايدن في صياغة بناء السمفونية «الكلاسيكية» فلما خرج من استرهابها إلى عالم أرحب لم يكن قد بلغ من الكبر حداً يعجزه عن أن يتعلم من موتسارت كيف يملأ البناء مغزى وعاطفة . وتحدد «سمفونية أكسفورد» مرحلة صعوده إلى مدى أبعد وقوة أعظم، وترينا «السمفونيات اللندنية» هايدن في قمة آفاقه السمفونية . والسمفونية رقم ١٠١ (سمفونية الساعة) مبهجة ، ورقم ١٠٤ لا يقل مستواها عن سمفونيات موتسارت .

ويمكن القول بوجه عام إننا نحس في موسيقاه طبيعة لطيفة سمحة ربما لم تشعر قط بأعماق الحزن أو الحب ، طبيعة اضطرت إلى الانتاج في عجلة لم تسمح بإنضاج الفكرة أو الموضوع أو الجملة . لقد كان هايدن أسعد من أن يبلغ العظمة العميقة ، ولقد تكلم أكثر مما يتيح له التعبير عن الكثير . ومع ذلك فن في هذه الانغام اللعوب ذخيرة من البهجة الصافية الهادئة ، فهنا كما قال « قد يستمتع المتعبون المكثرون ، أو الرجل الذي أثقلته هموم الحياة ، ببعض السلوى والانتعاش » (١) .

وعقب موت هايدن انصرف العصر عن موسيقاه . فلقد عكست أعماله عالما اقطاعيا ثابتا وطيد الأركان ، وبيئة من الأمن والدعة الارستقراطيين ، وكان في هذه الأعمال من المرح والرضى عن النفس ما لا يشبع قرنا ملؤه الثورات والأزمات والنشوات الرومانسية واليأس . ولكن الناس عادوا يقبلون عليه حين امتدحه برامز وكتب دبوسى « تحية اجلال لهايدن » (١٩٠٩) . عندها أدرك الناس أنه إذا كان رفائيل وميكلانجيلو الموسيقي اللذان جاء بعده قد سكبا فكرا أعمق مع تمكن أرهف في مؤلفاتهما الموسيقية ، فانهما لم يستطيعا ذلك إلا لأن هايدن ومن سبقوه صاغوا الأشكال التى تلقاها فهما الرائع . قال هايدن « انى أعلم أن الله منحنى موهبة ، وأنا شاكر له هذه المنحة وأحسبنى قمت بواجبى وكنت ذا نفع . . فليصنع الآخرون كما صنعت . » (٤٥)

الفصل الخامس عشر

موتسارت

١ - الصبي العجيب : ١٧٥٦ - ٦٦

كانت سالزبورج مخفرا موسيقيا أماميا لفيينا ، شأتها في ذلك شأن براغ وبرسبورج واستر هاتسا . لها طابعها الخاص أولا بسبب مناخها التي تعلل اسمها ، وثانيا بسبب جبالها المجاورة ونهر زالتساخ الذي يشطرها شطرين ، وثالثا بسبب نموها حول الدير والكرسى الاسقفى اللذين أنشأهما هناك القديس روبرت الفورمزي حوالى عام ٧٠٠ م . وقد رقى رئيس أساقفتها لرتبة (الأمير الامبراطورى) في ١٢٧٨ ، ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ١٨٠٢ ظل حاكم المدينة المدنى والدينى جميعا . وفي ١٧٣١ - ٣٢ أكره نحو ثلاثين ألف بروتستانتى على الهجرة ، خلفين سالزبورج كاثوليكية خالصة محكومة كلها بحكومة من رجال الدين الكاثوليك . وفيما عدا ذلك كان نير رئيس الاساقفة خفيفا على سكان سني العقيدة ، أقبلوا على المتع الجسدية وغيرها من مباحج الدنيا بعد أن أطمأنوا إلى حقائق الأبدية المؤكدة . وكان زيجسموند فون شراتنباخ رئيس الاساقفة أيام سمي موتسارت ، رجلا يتحلى بقدر كبير من الطيبة والشفقة إلا مع المهرطقين .

إلى هذه البلدة الجميلة إذن قدم ليوبولد موتسارت ، ١٧٣٧ وهو في الثامنة عشرة من وطنه أوجزبورج ، ربمما ليدرر اللاهوت ويمتنن القسوسية . ولكنه أسلم قلبه للموسيقى ، وخدم ثلاث سنين موسيقيا وتابعا في بيت أحد النبلاء ، وفي ١٧٤٣ أصبح رابع عازفي الكمان في أوركسترا رئيس الاساقفة . فلما تزوج آنا ماريا بيرتل (١٧٤٧) عدهما القوم أجمل عروسين في سالزبورج . وقد ألف الكونشرتوات والقداسات والسمفونيات ، كما ألف كتابا مدرسيا لتقنية السكمان حظى طويلا بالتقدير . وفي ١٧٥٧ عين مؤلفا موسيقيا لبلاط رئيس الاساقفة . ولم يبق الموت إلا على اثنين من

أطفاله السبعة جاوزا سن الطفولة : ماريا آنا (ماريانا « نانيزل »)
المولودة في ١٧٥١ ، وفولفجانج أماديوس المولود في ٢٧ يناير ١٧٥٦
(واسم الغلام الكامل - الذي تشفعت به الأسرة لدى قديسين عديدين -
كان يوانس خريسوستومس فولفجانجس تيوفيلوس موتسارت ، وقد
ترجم تيوفيلوس من اليونانية إلى اللاتينية بأماديوس أي محب الله .) وكان
ليوبولد زوجا وأبا طيبا ، مخلصا ومجتهدا . وخطاباته لولده تفيض محبة ولا
تعوزها الحكمة . وكان بيت موتسارت - إذا أغضينا عن قليل من نابي
الحديث يدور فيه - مرفأ للحب المتبادل ، والتقوى الأبوية ، والدعابات
الطفلية ، والموسيقى التي لا تنقضي .

كان القوم يتوقعون من كل طفل ألماني أن يصبح موسيقيا إلى حد ما ،
يعزف على إحدى الآلات . وعلم ليوبولد أطفاله الموسيقى مع مبادئ القراءة .
فكانت ماريانا قد اتقنت في الحادية عشرة العزف على الكلافيكورد .
أما فولفجانج فقد عكف على الكلافير في شغف بعد أن حفزته قدوتها ،
فأستطاع في الثالثة أن يميز بين الأوتار ، وفي الرابعة أن يعزف عدة قطع من
الذاكرة ، وفي الخامسة ابتكر ألحانا سجلها أبوه أثناء عزفها . وأمتنع
ليوبولد عن إتخاذ تلاميذ آخرين يلقيهم الموسيقى ليفرغ بجملة لطفلية وإن
كلفة ذلك بعض التضحية . ولم يرسل « فولف » إلى المدرسة ، لأنه نوى
أن يكون معلمه في كل شيء . ولعل هذا التعليم إقتضى شيئا من الضبط
الألماني ، ولكن لم تكن الحاجة لكثير منه في هذه الحالة ، ذلك أن الغلام
كان يلزم لوحة المفاتيح من تلقاء نفسه ساعات طوالا إلى أن يجبر على
مبارحتها^(١) . وقد كتب إليه ليوبولد بعد هذه الفترة بسنوات يقول :

« لقد كنت في مرحلة الطفولة والصبي تسلك مسلكا جادا مختلف عن
مسلك سائر الأطفال ، وحين كنت تعزف الكلافير ، أو تعكف على
الموسيقى ، لم تكن تسمح بأقل مزاح معك . لا بل إن سمعتك ذاتها كانت
تتسم بطابع الجلد الشديد ، حتى لقد تنبأ الكثيرون ممن راقبك بأنك ستموت
قبل أوانك بسبب نبوغك المبكر ومظهرك الجاد^(٢) » .

وفي يناير ١٧٦٢ ، حين كانت ألمانيا مازالت تمزقها الحرب ،
إصطحب ليوبولد ابنته وإبنة إلى ميونخ ليعرض على الأمير الناخب مكسميليان
يوزف براءتهما في العزف ، وفي سبتمبر استصحبهما إلى فيينا . ودعيا إلى
شونبرون ، وإبتهجت ماريا تريزا وفرانس الأول بالطفلين ، وقفز قولفجانج
إلى حجر الأمبراطورة ، وضمها إليه وقبلها ، ولما تحداه الأمبراطور
عزف على الكمان بأصبع واحدة ، وعزف على الكلافيكورد دون أن يخطيء
رغم حجب المفاتيح بقطعة من قماش . وفيما كان قولفجانج يمرح وهو
يجرى مع الأميرات ، زلت قدمه وسقط ، فالتقطته الأرشييد وقة ماريا
أنطونيا — وكانت في السابعة — وراحت تسرى عنه . فقال لها « أنت طيبة » ،
ثم أضاف شاكراً « سوف أتزوجك » (٣) . وفتح الكثير من النبلاء بيوتهم
لآل موتسارت وبهتوا للموسيقى التي سمعوها وأثابوا ثلاثتهم بالمال والهدايا .
ثم ألزم الغلام الفراش أسبوعين لأصابته بالحمى القرمزية . وكان هذا أول
الأمراض الكثيرة التي ستغص عليه رحلاته . وفي ١٧٦٣ عادت الفرقة
إلى سالزبورج .

وأغضى رئيس الأساقفة المتسامح عن تجاوز ليوبولد فترة أجازته ،
لا بل رقاها نائباً لرئيس فرقة المرتلين ولكن في ٩ يونيو شد ليوبولد رحالة
مرة أخرى مضجياً بالمزيد من الترقيات ، مصطحباً هذه المرة زوجته ،
ليعرض ولديه على أوروبا ، إذ لم يكن ممكناً أن يظلا أبد الدهر طفلين
معجزين . وقدم الطفلان حفلتين موسيقيتين في ماينز وأربعاً في فرانكفورت
وقد استعاد جوته بعد ستين عاماً ذكرى استماعه إلى إحداها ، وكيف تعجب
من « الرجل القصير ذي الباروكة والسيف » — لأنه هكذا ألبس ليوبولد
إبنة فولفجانج كأنه عجيبة من عجائب السرك . ففي إعلان نشر في جريدة
فرانكفورتية بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٧٦٣ وعد المتفرجون في حفلة ذلك
المساء بالآتي :

« ستعزف الفتاة الصغيرة ذات الأحادي عشرة سنة أعسر مؤلفات كبار
الموسيقيين ، أما الصبي الذي لم يبلغ السابعة بعد فسيعزف على الكلافيكورد

أو الهاربسيكورد . كذلك سيعزف كونشرتو للفيولينه ، ويصاحب سمفونياته على الكلافير ولوحة المفاتيح مغطاة بالقماش في يسر بالغ كأنه يبصر المفاتيح . وسيسمى جميع النغمات التي تعزف عن بعد ، سواء مفردة أو متوافقة ، على الكلافير أو على أية آلة أخرى — جرسا كانت أو كأسا أو ساعة . وأخيراً سرتجل على الهاربسيكورد والأرغن طوال ما يراد له أن يعزف ، وفي أى مقام^(٤) . »

وربما أضرت هذه المطالب المرهقة التي فرضت على مواهب الصبي بعض الضرر بصحته أو أعصابه ، ولكن يبدو أنه استمتع بتصفيق الجمهور لاستمتاع أبيه بدنانيره .

وقد عزفوا في كوبلنتز ، ونخاب أملهم في بون وكولونا ، ولكنهم أحيوا حفلة في آخن . وفي بروكسل توقعوا أن يشرف الحاكم العام الأمير شارل الاورينى الحفل بحضوره ، ولكنه كان مشغولا . كتب ليوبولد غاضباً :

« لقد إنقضى علينا الآن قرابة ثلاثة أسابيع في بروكسل . . . دون أن يحدث شيء . . . وما من شغل لسموه غير الصيد والتهام الطعام والشراب ، وقد يتبين لنا في النهاية أنه مفلس . . . صحيح أننا تأقمينا العديد من الهدايا هنا ، ولكننا لا نريد أن نحولها إلى نقود . . . وسيكون في استطاعتنا بعد قليل أن نفتتح متجرأ بكل هذه الهدايا من علب النشوق والحقائب الجلدية وما إليها من توافه رخيصة^(٥) . »

وأخيراً وافق الأمير على الحضور فأحييت الحفلة ، وجمعت الدنانير ، وركبت الفرقة ميممة باريس .

وفي ١٥ نوفمبر ١٧٦٣ بلغوا باريس بعد معاناة ثلاثة أيام من السفر على طريق وعرة تملؤها الحفر . وكانوا يحملون خطابات تقديم إلى كثير من الأعيان ، ولكن تبين أن اثنائها خطاب إلى ملشيور جريم ، الذي رتب أن يستقبل آل مونتسارت مدام ديمبادور ، والأسرة المالكة ، وأخيراً لويس الخامس عشر والملكة ماري لسزنسكا . وفتحت الآن أفخم البيوت للزائرين ،

وحالف التوفيق حفلاتهم الخاصة والعامة ، وكتب جريم إلى قرائه في حماسة يقول :

« إن المعجزات الحقيقية نادرة ، ولكن ما أعجب أن تتاح لنا الفرصة لرؤية واحده منها ! لقد قدم لتوه رئيس فرقة مرتلين من سالزبورج اسمه موتسارت بصحبة إثنين من أجمل الأطفال في العالم في فاماً لابنته البالغة من العمر أحد عشر ربيعاً فتعزف على البيان أروع عزف ، وتؤدي أطول المقطوعات وأصعبها بدقة مذهلة . وأما أخوها الذي سيبلغ السابعة في فبراير القادم فظاهرة خارقة بحيث لا تكاد تصدق ما تراه بعينيك . . . فيداه صغيرتان جداً . . . وهو يرتجل ساعة ، مستساماً لوحى عبقريته ، بذخيرة من الأفكار المبهجة . . . وليس لدى أكفأ رئيس لفرقة موسيقى ما لهذا الطفل من المعرفة العميقة بتألف الألحان والتنقل بين النغمات . . . وليس أيسر عنده من حل أى رموز تضعها أمامه . وهو يكتب ويؤلف بيسر مذهش ، ولا يجد ضرورة للذهاب إلى البيانو واختبار الأوتار التي يريدها . وقد كتبت له « منويتا » وطلبت إليه أن يضع باصاً لها . فأمسك بقلم وكتب الباص دون أن يذهب إلى البيان . . . أن الطفل سيدير رأسى إن استمعت إلى المزيد من عزفه . . . ومن أسف أن الناس في هذا البلد لا يفقهون عن الموسيقى إلا أقل القليل^(٦) » .

وبعد أن حققت الأسرة الكثير من الانتصارات في باريس غادرتها إلى كالية (١٠ أبريل ١٧٦٤) . وفي لندن استقبلهم جورج الثالث . وفي ١٩ مايو ، أمام الملك والحاشية ، طوال أربع ساعات عزف فوافججانج موسيقى هندل وباخ ، غيرهما من كبار الموسيقيين بمجرد النظر إلى المدونة وصاحب غناء الملكة شارلوت ، وارتجل لحناً جديداً لباص أغنية لهندل . أما بوهان كرستيان باخ ، الذي كان قد اتخذ لندن مقاماً له في ١٧٦٢ ، فأجلس الصبي على ركبتة وعزف معه صوناتا ، وكان كل منهما يعزف فاصلة بدوره « في دقة بالغة ما كان في استطاعة أحد معها أن يحسب العزف من عازفين لا من عازف واحد^(٧) » . وبدأ باخ « فوجّة » ، وتابعها

فولفجانج ، كما لو كان العازفان العبقريان عازفا واحداً هنا أيضاً . وبعدها طلت مؤلفات موتسارت سنوات عديدة متأثره بيوهان كرسثيان باخ . وفي ٥ يونيو أحيا الطفلان حفلة أبهجت قلب ليوبولد بمائة جنية انجليزية خالصة . ولكن الأب أصيب بالتهاب شديد في الحلق ، واعتكفت الأسرة في تشلسي للاستجمام أسابيع عدة ، ألف فيها فولفجانج سمفونيتين (ك ١٦ و ١٩) ، وكان الآن يناهز الثامنة .

وفي ٢٤ يوليو ١٧٦٥ غادروا لندن إلى هولنده ، ولكن في مدينة ليل مرض الوالد وولده ، وأرجئت الجولة شهراً ، وإن كان رئيس الأساقفة فون شراتنباخ قد طلب إلى ليوبولد أن يعود منذ زمن . ووصلوا إلى لأهاي في ١١ سبتمبر ، ولكن في الغد مرضت ماريانا بدورها ، ولم تلبث أن تدهورت حالها حتى أنها في ٢١ أكتوبر تناولت الأسرار المقدسة الأخيرة . وفي ٣٠ سبتمبر أحيا فولفجانج حفلة بدون مساعدة أخته . وما إن تماثلت للشفاء حتى دهمته الحمى ، واضطرت الأسرة إلى تعطيل كلفها غالباً حتى يناير ١٧٦٦ . وفي ٢٩ يناير و ٢٦ فبراير أحيا حفلات في امستردام ، وعزفت الآن لأول مرة سمفونية لموتسارت (ك ٢٢) أمام الجمهور . وكان الصبي خلال هذه الشهور يؤلف في نشاط محمود . ون مايو قفلوا إلى باريس حيث كانوا قد تركوا كثيراً من حقائقهم . وهياً جريم لهم مسكناً مريحاً ، وعادوا يعزفون في فرساي وفي حفلات عامة ، ولم يقتلوا أنفسهم من العاصمة الفاتنة إلا في ٩ يوليو .

وأطالوا المكث في ديجون ضيوفاً على أمير كوندية ، وأنفقوا أربعة أسابيع في ليون ، وثلاثة في جنيف ، وأسبوعاً في لوزان ؛ وآخر في برن ، وأثنى في زيورخ ، واثنى عشر يوماً في دوناوشنجن ثم وقفات قصيرة في بيراخ ، وأولم ، وأجزبورج ، وفترة أطول في ميونخ ، حيث مرض فولفجانج مرة أخرى . وأخيراً ، في آخريات نوفمبر ١٧٦٦ ، وبعد غيبة ثلاث سنين ونصف ، وصلت الأسرة إلى سالزبورج . وصفح عنهم رئيس الأساقفة الشيخ ، وإستطاعوا الآن أن ينعموا بأسباب الراحة المتاحة في

بيتهم . وبدأ أن كل شيء على ما برام ، ولكن موتسارت لم يستعد بعدها
صحته موفورة قط .

٢ - - مرحلة المراهقة : ١٧٦٦ - - ٧٧

كان ليوبولد رب عمل صارماً لا يعرف هواة ولا تلين له قناة . درب
ولده تدريباً شاقاً على دراسة الكونترا بنظ ، والباص الدقيق الكامل ، وغير
ذلك من عناصر التأليف الموسيقي التي تلقاها من الموسيقى الألمانية والإيطالية .
وحين سمع الأسقف أن فولفجانج يؤلف الموسيقى تساءل ألم يتعاون معه
أبوه في هذا التأليف . ولكي يقطع الشك باليقين دعا الغلام ليقم معه أسبوعاً
ثم عزله عن كل معونة خارجية ، ودفع إليه ورقاً وقلماً وأعطاه هاربيكورداً
وطالب إليه أن يؤلف قسماً من أوراتوريو عن الوصية الأولى . وفي ختام
الأسبوع قدم إليه موتسارت نتيجة عمله ، وقيل لرئيس الأساقفة . إنها
جديره بالثناء . وكلف رئيس أوركستراه ميخائيل (أنخا يوزف) هايدن
بأن يؤلف قسماً ثانياً ، وعازف أرغنه أن يؤلف قسماً ثالثاً ، ثم عزف الكل
في قصر رئاسة الأسقفية في ١٢ مارس ١٧٦٧ ، ورؤى أنه يستحق الأعادة
في ٢ أبريل . وقسم موتسارت وارد الآن تحت رقم ٣٥ في كتالوج كوشل (*)

وبلغ ليوبولد أن الأرشيذوقة ماريا يوزفا ستزف قريباً إلى فرد يناقد
ملك نابلي ، فخطر له أن الاحتفالات التي ستقام في القصر الإمبراطوري
ستتيح فرصة جديدة لولديه . وعليه قصدت الأسرة فيينا في ١١ سبتمبر
١٧٦٧ . فاستقبلوا في القصر ، وكانت النتيجة إصابة فولفجانج وماريانا
كليهما بالجدرى الذي التقطاً عدواه من العروس . وأخذ الأبوان التعسان
طفليهما المعجزين إلى أولوتر بموراquia ، حيث قدم لهما الكزنت بوتستاتسكى

(*) صدر هذا أصلاً في ليزج عام ١٨٦٢ تحت اسم Chronologisch-thematisches

Verzeichniss sammtlicher Tonwerke W.A. Mozarts

ونحن نستعمل الطبعة المنقحة من عمل ألفريد أينشتين في كتابه « موتسارت شخصيته وآثاره

(لندن ١٩٥٧) ، ٤٧٣ - ٨٣

المأوى والرعاية وظل موتسارت أعمى تسعة أيام . وفي ١٠ يناير عادت الأسرة إلى فيينا . واحتفلت بهم الأمبراطوره ويوزف الثانى ، ولكن البلاط كان فى حداد على وفاة العروس ، ولم يكن هناك محل لأحياء حفلات موسيقية .

وبعد غياب طويل لا نفع فيه عادت الأسرة إلى سالزبورج (٥ يناير ١٧٦٩) وواصل موتسارت دراساته مع أبيه ، ولكن فى أواخر ذلك العام قد ر ليربولد أنه علم الصبى كل ما يستطيع أن يعلمه ، وأن ما يحتاج إليه فولفجانج الآن هو الألمان بحياة ايطاليا الموسيقية . ومن ثم حصل الأب وابنه على خطابات تقديم لكبار الموسيقيين الإيطاليين من يوهان هاسى وغيره ، ثم انطلقا فى رحلتهما فى ١٣ ديسمبر ١٧٦٩ تاركين ماريانا وأمها ليحتفظا بموطىء قدم فى سالزبورج . وفى الليلة التالية أحيوا موتسارت حفلة فى لانزبروك ، وعزف بمجرد الاطلاع على النوتة كونشرتو غير مألوف وضع أمانة إمتحانا لمهارته ، وهالت الصحافة المحلية لـ « معلوماته الموسيقية الخارقة »^(٨) . وفى ميلان التقيا بسامارتنى وهاسى وبتشنى ، وحصل الكونت فون فرميان لفولفجانج على تكليف بتأليف أوبرا ، وهذا معناه مائة دوقاتية تدخل خزانة الأسرة . وفى بولونيا استمعا إلى صوت فارينلى الذى لم يزل معجزا ، وكان قد عاد من انتصاراته فى أسبانيا ، ورتبا مع بأدرى مارتينى أن يعود فولفجانج ليدخل الاختبارات المؤهلة لدبلوم « الأكاديمية فيلارمونيك » المرموق . وفى فلورنسة ، فى قصر الأرشيدوق ليوبولد ، عزف موتسارت على الهاربسيكورد مصاحباً فيولينه ناردنى . ثم هرع الأب وولده إلى روما ليلحقا موسيقى أسبوع الآلام .

ووصلا فى ١١ أبريل ١٧٧٠ ، أثناء عاصفة رعدية برقية ، فحق لليوبولد أن يكتب أنهما « استقبلا استقبال عظماء الرجال بإطلاق المدافع »^(٩) . وكان وصولهما بالضبط فى وقت سمح لهما بالذهاب إلى كنيسة السنتين والاستماع إلى « ميزيريرى » (لحن المزمور الخمسين « أرحمنى ») الذى ألفه جريجوريو الليجرى ، والذى كان يرتل هناك كل عام . وكان من العسير

الحصول على نسخ من هذا الكورال الأشهر المكتوب لأربعة أصوات أو خمسة أو تسعة ، فأصغى إليه موتسارت مرتين ثم كتبه من الذاكرة . ومكثا في روما أربعة أسابيع ، وأحييا حفلات موسيقية في بيوت النبلاء مدنيين وكنسيين . وفي ٨ مايو انطلقا في رحلتهما إلى نابلي . وكان الطريق خطرا لانتشار اللصوص فيه ، فسافر موتسارت وأبوه مع أربعة رهبان أو غسطينيين اينالا الحماية الدينية أو يظفرا بتناول القربان قبل الموت في هذه الضرورة الملاحية . واستبقتهما نابلي شهرا بأكلمة لأن النبلاء ابتداء من ثانوتشي فتازلا دعوهما لأمسيات ووضعوا كل أسباب الترف تحت تصرفهما . فلما عزف فولفجانج في « الكونسرفتوريو ديللا بيتا » عزا الجسهور المؤمن بالخرافات براعته لضرب من السحر كامن في خاتم يلبسه . وأدهشهم أنه واصل العزف بالبراعة ذاتها بعد أن خلع خاتمة .

وبعد أن استمتعا بالمقام في روما مره أخرى عبرا الأبنين ليصليا للعدراء في كنيسها « سانتا كازا » بلوريتا ، ثم اتجها شمالا لينفقا ثلاثة أشهر في بولونيا . وكان موتسارت يتلقى كل يوم تقريبا دروسا من بادري مارتيني في أسرار التأليف الموسيقي . ثم تقدم لاختبار القبول في « الأكاديمية فيلارمونيككا » ، فأعطى قطعة من ترنيمة بسيطة جريجورية ، طلب إليه أن يضيف إليها وهو محبوس وحده في حجرة نوتات عليا ثلاثا بالأسلوب التقليدي الدقيق « stile osserrato » وأخفق في المحاولة ، ولكن البادري الطيب صحح إجابته ، وقبل المخلقون الصورة المنقحة « نظرا إلى الظروف الخاصة » - ربما لصغر سن موتسارت .

وفي ١٨ أكتوبر كان الوالد والولد في ميلان . هناك حقق فولفجانج أول انتصاراته مؤلفاً موسيقيا ، ولكن بعد الجهد الجهيد والمعاناة الكثيرة وكان موضوع الأوبرا التي كلف بها « مترداتي ، ملك بنطس » ، وقد أخذ النص من راسين . وراح الفتى الذي لم يجاوز الرابعة عشرة يكد ويكدح تأليفاً وعزفاً وتنقيحا حتى كلفت أصابعه واستحالت حماسته ضربا من الحمى ، فاضطر أبوه إلى أن يحدد ساعات عمله ويهديء من اضطرابه بنزهة على

الأقدام بين الحين والحين . وأحس موتسارت أن هذا الاختبار ، وهو أول أوبرا جاده يؤلف موسيقاها ، أشد خطرا له من ذلك الامتحان العتيق الذى أداه فى بولونيا . فقد يكون مستقبله مؤلفا لموسيقى الأوبرا رهنة بنتيجته . وترسل الآن إلى أمه واخته ان يصليا من أجل نجاح هذه المغامرة رغم انه لم يكن شديد الميل إلى التقوى والورع ، « حتى ننعيم كلنا بالعيش معا مرة أخرى » (١٠) . وأخيرا حين كادت تضمنيه كثرة البروفات ، قدمت الأوبرا للجمهور (٢٦ ديسمبر ١٧٧٠) ، وقادها مؤلفها ، وكان انتصاره كاملا . وقوبلت كل أغنية هامة بالتصفيق الحاد ، وبعضها بهتافات يحي المايسترو يحي المايسترو الصغير . وأعيد عرض الأوبرا عشرين مرة . كتب الأب الفمخور التقى « بهذا نرى كيف نعمل قوة الله فينا حين لاندفن المواهب التى منحنا إياها فضلا منه » (١١) .

واستطاعا الآن أن يعودا إلى موطنهما برؤوس مرفوعة . ففي ٢٨ مارس ١٧٧١ وصلا إلى سالزبورج . وما إن بلغاها حتى تلقيا طلبا من البونت فون فرميان ، باسم الأمبراطورة ، يرجو أن يكتب فولفجانج سريناتا أو كنتاتا ، ويحضر إلى ميلان فى أكتوبر ليقودها جزءا من الاحتفالات التى ستقام بمناسبة زفاف الأرشيدوق فرديناند إلى أميرة مودينا . ووافق رئيس الأساقفة زجسموند على أن يتغيب ليوبولد مرة أخرى عن أعماله ، وفى ١٣ أغسطس يعم الوالد والولد من جديد شطرا إيطاليا ، فلما وصلا إلى ميلان وجدا فيها هاسى يعد أوبرا للاحتفالات ذاتها . وقد رتب المديرون — ربما عن غير عمد منهم — لقاء للعبقرية يتنافس فيه أشهر مؤلفى الأوبرا الايطالية الأحياء ، البالغ آنذاك ثلاثة وسبعين عاما ، مع غلام الخامسة عشرة الذى لم يكد يفرغ من اختبار جناحيه فى التحايق الأوبرالى . وأدبت أوبرا هاسى المسماة « رورجيرو » فى ١٦ أكتوبر فقوبلت بتصفيل حار وفى الغد رتلت كنتاتا موتسارت المسماة (Aseanio in Alba) تحت عصا قيادته ، وكان التصفيق خارقا . وكتب ليوبولد لزوجته « يؤسفنى ان سريناتا فولفجانج طمست أوبرا هاسى طمسا تاما » (١٢) . وكان هاسى

كريمًا تفتح النفس ، فشارك في الثناء على موتسارت ، وفاه بنبوءة مشهورة « ان هذا الفتى سيلقينا كلنا في زوايا النسيان » (١٣) .

وعاد الوالد والولد إلى سالزبورج (١١ ديسمبر ١٧٧١) . وبعد خمسة أيام مات زجسموند الطيب . وكان خلفه في رئاسة الأسقفية ، وهو هيرونيموس فون باولا ، كونت كوللوريدو رجلا عفلا في الثقافة ، معجبا بروسو وفولتير ، مستبدا مستنيرا يتوق إلى تنفيذ الاصلاحات التي كان يعدها يوزف الثاني . ولكنه فاق حتى يوزف في استبداده مع استنارته : فكان يشترط الانضباط والطاعة ولا يطبق المعارضة . ولم يقنع من موتسارت إسهاما في حفل تنصيبه في ٢٩ ابريل ١٧٧٢ بأقل من أوبرا يؤلفها لهذه المناسبة . واستجاب الفتى الذي ذاع صيته الآن سريعا بأوبرا « حلم سكيبيو » ، وقد وفّت بالغرض منها ثم نسيت . واغتفرها كوللوريدو ، وعين فولفجانج رئيسا لفرقة الموسيقى براتب سنوى قدره ١٥٠ فاورينا . وعكف الفتى شهورا على تأليف السمفونيات والرباعيات والموسيقى الدينية ، ولكنه أكب أيضا على أوبرا « لوتشيو سيللا » التي طابعتها ميلان لتعرض في ١٧٧٣ .

ولم يحل ٤ نوفمبر ١٧٧٢ حتى كان ليوبولد وصانع ثروته في عاصمة لومبارديا مرة أخرى ، وراح فولف بعد قليل يكد ويكدح ليوفق بين أفكاره الموسيقية ونزوات المغنين وقدراتهم . وبدأت مغنية الأوبرا الأولى « البريمادونا » بالخطرة والبرم بكل شيء ، وكان « المايسترينو » صبورا طويل الأناة معها ، وانتهت بحبه وصرحت بأنها « قد فتنها المعاملة الفذة التي عاملها بها موتسارت » (١٤) . ولم تلق حفلة الافتتاح (٢٦ فبراير ١٧٧٢) النجاح الأكيد الذي لقيته « ميرياداتي » قبل عامين ، فقد مرض المغنى التينور أثناء البروفات ، واقتضى الأمر إحلال مغن آخر محله لم يكن له سابق خبرة على خشبة المسرح ، ومع ذلك احتملت الأوبرا تسعة عشر عرضا . وكانت موسيقاها صعبة ، والأغاني منشودة بالانفعالات فوق ما ينبغي . ولعل أثرا من الحركة الأدبية الألمانية المسماة

Sturm und Drang (أى الدفع والجهاد ، وهى ثورة على التنوير الفرنسى) وقد دخل هنا دخولا معارضا إلى الأوبرا الايطالية^(١٥) . على موتسارت جلب معه نظير هذا وضوح الغناء الايطالى الجميل (البيل كانتو) ، وزادت أجواء ايطاليا المشرقة وحياة هوائها الطلق من إشراق روحه السعيدة بفطرتها . وتعلم فى ايطاليا أن الأوبرا الهازلة ، كما سمعها فى أعمال بتشيني وبايزييللو ، يمكن أن تكون فنا رفيعا ، فدرس شكايها ، وأبلغه الكمال فى « فيجارو » و « دون جوفانى » . لقد كانت كل تجربة يمر بها تعلمها لدهنه اليقظ وأذنيه المرهفتين .

وشهد ١٣ مارس ١٧٧٣ الوالد والولد مرة أخرى فى سالزبورج . ولم يكن رئيس الأساقفة الجديد متسامحا فى فترات غيابهما الطويل كما كان زجسموند ، ولم ير مبررا لمكافأة ليوبولد يترقيته ، وعامل فولفجانج كأنه مجرد فرد فى حاشيته الخاصة . وتوقع من موتسارت وأبيه أن يزودا كورسه وأوركستراه بالموسيقى فورىة ، جديدة ، جيدة . فظلا يشقيان عامين ليرضياه . ولكن ليوبولد لم يدرك كيف يستطيع أن يعول أسرته دون هذه الجولات الاضافية ، أما فولفجانج الذى تعود على سماع تصفيق الاستحسان له فلم يستطع تقبل وضعه خادما موسيقيا . ثم أنه أراد أن يكتب الأوبرات ، وكان مسرح سالزبورج ، وكورسها ، وأوركستراها وجمهورها - كل أولئك أصغر من أن يسمح لهذا الفرخ الأملح بأن يرفرف جناحيه النامين .

ثم إنقشعت السحب فترة حين كلف مكسمليان يوزف أمير بافاريا الناخب موتسارت بأن يكتب أوبرا هازلة لكرنفال ميونخ لعام ١٧٧٥ ، وحصل على موافقة رئيس الأساقفة ، بمنح المؤلف وأبيه أجازة من العمل . فغادرا سالزبورج فى ٦ ديسمبر ١٧٧٤ . وعانى فولفجانج من البرد القارس الذى ابتلاه بوجع فى الاضراس أقسى من أن تخفف منه الموسيقى أو الفلسفة ولكن حفلة الافتتاح لأوبرا « البستانية المزعومة » التى قدمت فى ١٣ يناير ١٧٧٥ حملت كرستيان شوبارت - وكان مؤلفا مرموقا - على التنبؤ بأنه

« ما لم يثبت موتسارت في النهاية أنه نبات ربي في مستنبت زجاجي [أى جعلت بنموه العناية البيتية المكثفة] ، فلست أشك في أنه سيصبح من أعظم المؤلفين الموسيقيين حتى يومنا هذا » (١٦) وعاد موتسارت إلى سالزبورج ورأسه يدوم بنشوة النجاح ليقوم بخدمة أحسن أنها ضرب حقير من العبودية .

وأمر رئيس الأساقفة بدراما موسيقية احتفالاً بزيارة الأرشييدوق مكسمليان ابن ماريا تريزا الأصغر ، وأخذ موتسارت نصاً قديماً لمتاستازيو وألف « الملك الراعى » . وقد أديت في ٢٣ أبريل ١٧٧٥ . والقصة سخيفة ، أما الموسيقى فرائعة ، وما زالت مقتطفات منها تظهر في ربرتوار الحفلات الموسيقية . وكان موتسارت في غضون هذا يتدفق بالصوونات والسمفونيات والكونشرتوات والسريناتات ، والقداصات ، ومن مؤلفات هذه الأعوام التعسة قطع تعد من روائية الخالدة — مثل كونشرتو البيانو في مقام E الحفيض (ك ٢٧١) والسريناته في مقام B (ك ٢٥٠) . على أن رئيس الأساقفة قال له إنه لا يفقه شيئاً في فن التأليف الموسيقي ، وإن عليه أن يذهب ليدرس في كونسرفتوار نابلي (١٧) .

وطلب ليوبولد الأذن بأن يأخذ ابنه في جولة بعد أن عمجز عن احتمال الموقف فوق ما احتمال ، فرض كوللوريديو وقال إنه لا يسمح بأن يظل أفراد من موظفيه « يستجدون الرحلات » فلما عاود ليوبولد الطلب فصله رئيس الأساقفة هو وابن من وظيفتهما . واغتبط فرلفجانج ، ولكن ليوبولد روعته فكرة القذف به وهو في السادسة والخمسين في نخضم عالم لا يميز الطيب من الخبيث . ولانت قناة رئيس الأساقفة ورده إلى منصبه ، ولكنه لم يسمح له بأى غياب عن عمله . فمن تراه يصحب فولفجانج الآن في الغزوة البعيدة التي اختطت له ؟ لقد بلغ موتسارت الحادية والعشرين ، وهى سن المغامرة الجنسية والقيود الزيجية ، ولقد كان الآن أحوج إلى الإرشاد منه في أى وقت مضى . ومن ثم تقرر أن تصحبه أمه . أما ماريانا التي حاولت أن تنسى أنها هى أيضاً كانت فيما مضى فتاة عبقرية فقد مكثت لتبذل لأبيها

أكرم الرعاية والمحبة . وفي ٢٣ سبتمبر ١٧٧٧ غادرت الأم وأبنها سالزبورج ليغزوا ألمانيا وفرنسا .

٣ - الموسيقى والزواج : ١٧٧٧ - ٧٨

كتب موتسارت لابيه - من ميونخ في ٢٦ سبتمبر يتغنى بما ظفر به من تحرر : « إننى فى أفضل حالاتى النفسية ، فرأسى تخفف من الأثقال كأنه الريشة منذ إنطلقت بعيداً عن ذلك الهراء ، وفوق ذلك أصبحت أسمن من ذنى قبل»^(١٨). ولا بد أن هذا الخطاب تقاطع مع خطاب آخر من ليوبولد ، الذى قد يذكرنا انفعاله مرة أخرى بأن أحداث التاريخ كتبت على أجساد البشر :

« بعد أن رحلتما كلاكما صعدت سامنا فى غاية التعب ، وألقيت بنفسى على مقعد . وحين تبادلنا عبارات الوداع بذلت جهودا كبيرة لأتماسك حتى لا أجعل فراقنا شديد الأيلام ؛ وفى غمرة الزحام والأضطراب نسيت أن أمنح ولدى بركة الأب . فعدوت إلى النافذة وأرسلت بركتى خلفك ولكنى لم أرك . . . وقد بكيت نانيرل بكاء مرا . . . وكلانا نرسل التحيات لأملك ونقبلك أنت وهى ملايين المرات »^(١٩) .

وعلمت ميونخ فولفجانج إنه لم يعد معجزاً فى عالم الموسيقى ، إنما هو موسيقى فرد فى بلد يفوق فيه المعروف من مؤلفى الموسيقى وعازفيها عدد المطلوب منهم . وكان الأمل قد راوده فى الحصول على وظيفة طيبة فى حاشية الناخب الموسيقية ، ولكن كل الوظائف كانت مشغولة . فمضت الأم وولدها إلى أوجزبورج ، حيث أفنيا نفسيهما فى زيارة أصدقاء ليوبولد أيام شبابه إستجابة لألحاح ليوبولد ، ولكن الأحياء منهم كان أكثرهم الآن يشكو السمنة والركود ، ولم يجد فولفجانج فيهم ما يشير لإهتمامه اللهم إلا ابنة عم مريحة تدعى ماريا أنا تكلا موتسارت سوف يخلد اسمها بعبارات بديئة . وكان ادنى إلى غرضه صانع بيانات يدعى بوهان إندرياس شتاين ، هنا

ولأول مره بدأ موتسارت الذى كان إلى الآن يعزف على الهاربسيكورد يقدر إمكانات الآلة الجديدة ، وما إن بلغ باريس حتى كان قد تم إنتقاله إلى البيانو . وفى حفلة موسيقية فى أوجزبورج عزف على البيانو والفيولينة فظفر بتصفيق شديد وربح ضئيل .

وفى ٢٦ أكتوبر مضت الأم وابنها إلى مانهايم . هناك استمتع موتسارت بالصحبة والتشجيع من موسيقيين بارعين ، ولكن الأمير الناخب كارل تيودور لم يستطع أن يجد له وظيفة ، وأكتفى بأن أثابه على أدائه فى البلاط بساعة ذهبية لا أكثر . وكتب موتسارت إلى أبيه يقول « كان أصلح لى أن ينفعنى بعشرة كارولينات . . . إن النقود هى ما يحتاج إليه المرء وهو فى رحلة ، واعلم أننى الآن أملك خمس ساعات . . . وأنا أفكر جدياً فى عمل جيب للساعات فى كل سروال من سراويلى ، وحين أزور شريفنا كبيراً سألبس ساعتين . . . حتى لا يخطر له أن ينفعنى بساعة (٢٠) » . ونصحه ليوبولد أن يبادر بالرحيل إلى باريس حيث يتلقى المساعدة من جريم ومدام ديبنيه ، ولكن فولفجانج أقنع أمه بأن الرحلة أشق من أن تطيقها فى شهور الشتاء . وإذا فترض ليوبولد أنهما راحلان عما قليل إلى باريس ، فقد حذر فولفجانج من نساؤها وموسيقيها ، وذكره بأنه الآن الأمل المرجو فى أعالة الأسرة . وقال ليوبولد إنه إستدان سبعمائة جولدن ، وإنه يعطى دروساً خصوصية فى شيخوخته .

« وهذا أيضاً فى بلدة يبخرس فيها أجر هذا العمل المرهق . . . إن مستقبلنا دهن بفطنتك الكبيرة . . . وأنا أعلم بأنك تحبى ، لا بوصفى أباك فحسب ، بل أصدق أصدقائك وأوفاهم ، وأنتك تفهم وتقدر أن سعادتنا وشقاءنا ، وأكثر من ذلك طول أجلى أو التعجيل بموتى ، كلها . . . فى يديك أنت بعد الله . وإذا كنت قد أصبت فى قراءة أفكارك ، فإنى لا أتوقع منك غير الفرح والاعتباط ، وهذا وحده خلىق أن يعزىنى وأنا محروم لغيابك من بهجة الأب وأنا أسمعك وأبصرك وأضمك بين ذراعى . . من صميم قلبى أمنحك بركتى الأبويه (٢١) » .

وفي أحد خطابات ليوبولد (٩ فبراير ١٧٧٨) أضافت « نانيريل »
التي بلغت الآن السادسة والعشرين والتي كانت لعدم توفر المهر تواجهه مستقبل
العوانس ، سطوراً تكمل صورة هذه الأسرة المتحابة :

« إن بابا لا يترك لي أبداً متدياً لأكتب لماما ولكن . . . إنني أتوسل إليها
إلا تنساني ... وأتمنى لكما رحلة سارة إلى باريس مقرونة بالصحة السابعة .
على أنني أرجو صداقة أن أستطيع عناقكما سريعاً . والله وحده عليم متى
يحدث هذا . كلانا تواق لأن تحقق لنفسك الثراء ، فهذا معناه سعادتنا جميعاً .
إنني أقبل يدي ماما وأعانقك ، وآمل أن تذكرنا وتفكر فينا دائماً . ولكن
عليك إلا تفعل إلا إذا كان في رقتك متسع ، ولو ربع ساعة تتخفف
أثناءه من التأليف والتدريس » (٢٢) .

في هذا المزاج من التفاؤل العظيم والثقة المشربة بالحب تلقى ليوبولد
خطاباً كتبه فولفجانج في ٤ فبراير يعلن إليه فيه وصول كيوييد . ذلك أن
رجلاً من صغار الموسيقيين في مانهايم يدعى فريدولين فيبر ، حباه الحظ
وأثقل كاهله بزوجة وخمس بنات وولد . وكانت السيدة فيبر تلقى شباكه
لتقتنص الأزواج ، لاسيما لكبرى بناتها يوزيفا ذات التسعة عشر ربيعاً ، التي
بلغت سن الزواج وخيف إن تفوتها سوقه . ولكن موتسارت تعلق بألويسيا
ذات الستة عشر ربيعاً ، التي جعلها صوتها الملائكي ومفاتها الرائعة حلماً
يراد خيال الموسيقى الشاب . ولم يكده يلاحظ كونستانسي ذات الأربعة
عشر ربيعاً التي قدر لها أن تكون زوجته . وقد ألف لألويسيا بعضاً من
أرق أغانيه . فلما غنتها نسي مطامحه وفكر في مرافقتها - مع يوزيفا وابيهما
- إلى إيطاليا حيث تستطيع الحصول على تدريب صوتي وتتاح لها فرص
أوبرالية ، بينما يعينهم هو على العيش باحياء الحفلات الموسيقية وتأليف
الأوبرات . كل هذا شرحه العاشق الصغير الشجاع لأبيه قال :

« لقد أحببت هذه الأسرة العسة حبا جعل أعز أمانى أن أسعدهم
ونصيحتي إليهم أن يقصدوا إيطاليا . والآن أود أن تكتب لصديقتنا الطيب

لوجاني ، وخير البر عاجله ، وتستفسر منه عن أفضل الشروط التي تعطى
للمغنية أوبرا أولى في فيرونا . . . أما عن غناء ألويسيا فاني أراهن بحياتي
أنها ستجلب لي الشهرة . . فإذا نجحت خططنا - فانتا - الهر فيبر ، وابنتاه
وأنا - سنشرف بزيارة أختنا العزيزة أسبوعيين في طريقنا مروراً
بسالزبورج . . . وسيسرني أن أكتب أوبرا لفيرونا لقاء خمسين تسكينى
(٦٥٠ دولاراً) ولو لتتاح لها فرصة الشهرة . . . وسوف تكون الابنة
الكبرى نافعة جداً لنا ، لأنها تستطيع أن تدير شئون بيتنا ، فهي خبيرة
بالطهو . وبالمناسبة ، لا تدهش كثيراً إذا عرفت أنه لم يبق معي سوى اثنين
وأربعين جولدينا من السبعة والسبعين ، وليس هذا إلا نتيجة أبهاجي
لوجودي مرة أخرى في صحبة قوم شرفاء على شاكلي في التفكير . . .

« وافني برد سريع . ولا تنس مبلغ شوقي لكتابة الاوبرات . وأنا
أحسد أي إنسان يؤلف أوبرا . وأكاد أبكي غيظاً حين أسمع . . . لحنا
(آربا) . ولكن أوبرا أيطالية لا ألمانية ، وجادة لا هازلة . . . والآن
قد كتبت كل ما يثقل صدري . وأي راضية تمام الرضى عن أفكارى . . .
وفكرة مساعدة أسرة فقيرة دون الأضرار بي تبهج نفسي في الصميم . إنني
أقبل يدك ألف مرة ، ومازلت حتى الموت ولدك المطيع جداً (٢٢) »

ورد ليوبولد في ١١ فبراير :

« يا ولدي العزيز : لقد قرأت خطابك المؤرخ ٤ الجاري بدهشة
ورعب . . لقد جفاني النوم الليل كله . . يا إلهي الرحيم ! . . . لقد ولت
تلك اللحظات السعيدة حين كنت وأنت طفل أو غلام لا تمضي إلى فراشك
دون أن تقف على كرسى وترتل لي . . . وتقبلني المرة بعد المرة على طرف
أنفي وتقول لي إنني حين أشبخ ستضعني في صندوق زجاجي وتحميني من
كل نسمة هواء ، حتى تحتفظ بي دائماً معك وتكرمني . أصنع إلى إذن
وتدفع بالصبر ! . . .

ومضني يقول إنه كان يأمل أن يؤجل فولفجانج زواجه حتى يؤمن

لنفسه مكانا مكيئا فى عالم الموسيقى ، وعندها يبنى بزوجة صالحة ، وينجب أسرة طيبة ، ويعين أبويه وشقيقته . ولكن هذا الأبن يتسى الآن أبويه بعد أن فتنه « سيرانة » شابة ، ولا يفكر إلا فى أن يتبع فتاة إلى ايطاليا كأنه فرد فى بطانتها . فياله من هراء لا يصدق !

« إنطلق إلى باريس ، ومن فورك ، وابحث عن مكانك بين عظماء القوم ، فأما أن تكون شيئاً عظيماً أو لا شيء إطلاقاً » ، فن باريس يدوى اسم الرجل ذى الموهبة العظمى وشهرته ويجلجلان فى أرجاء الدنيا بأسرها . هناك يعامل النبلاء العبقرين بأعظم إحترام وتقدير ومجاملة ، وهناك سترى أسلوباً مهذباً من الحياة هو النقيض المذهل لخشونة رجال حاشيتنا الألمان ونسائهم ، وهناك تستطيع التمكن من اللغة الفرنسية « (٢٤) » .

وأجاب موتسارت فى تواضع بأنه لم يأخذ مأخذ الجسد الشديد خطة مرافقة آل فيبر إلى ايطاليا ، ثم ودع الأسرة وداعاً باكياً ، ووعد بأن يراهم فى طريقه إلى أرض الوطن . وفى ١٤ مارس ١٧٧٨ اتخذ هو وأمه طريقهما إلى باريس مستقلين المركبة العامة .

٤ - فى باريس ١٧٧٨

وبلغها فى ٢٣ مارس ، وصادف وصولهما بالضبط حركة تمجيد فولتير التى طغت على نأى قدومهما . واتخذوا لهما مسكناً بسيطاً ، وانطلق موتسارت باحثاً عن عمل يكلف به . واستجمع جریم ومدام ديبنيه جهدهما ليلفتا بعض النظر إلى الشاب الذى هالت له باريس عجيبة موسيقية قبل أربعة عشر عاماً . فعرضت عليه فرساي وظيفة عازف أرغن البلاط لقاء ألى جنيه لخدمة ستة أشهر كل سنة ونصححه ليوبولد بقبول العرض ، وعارض جریم ، ورفض موتسارت الوظيفة لأن الأجر بنحس ، وربما لأنها لا تناسب موهبته . وفتحت له بيوت كثيرة إن قبل العزف على البيانو لقاء وجبة غداء أو عشاء . ولكن حتى الوصول إلى هذه البيوت اقتضى رحلة غالية فى عربة تشق طرقاً موحلة . ولاح بصيص من الأمل

في أحد النبلاء المدعو الدوق دجين ، والى موتسارت له ولابنته الكونشرتو الرائع في مقام (C) للفلاوته والمهارب (ك ٢٩٩)، وأعطى الشابة النبيلة دروسا في التأليف الموسيقى لقاء أجر طيب ، ولكنها لم تلبث أن تزوجت ولم يدفع الدوق سوى ثلاثة جنيهات ذهبية « لوى دور » (٧٥ دولارا) لكونشرتو كان خلقا بأن يطرح باريس تحت قدمي موتسارت . ولأول مرة في حياته فارقت شجاعته . فكتب إلى أبيه في ٢٩ مايو يقول « انى في صحة لا بأس بها ولكنى كثيرا ما أتساءل هل الحياة تستحق أن يعيشها المرء » . وانتعشت روحه المعنوية حين كلفه لجرو ، مدير الكونسير «يرتيويل» بكتابة سمفونية (ك ٢٩٧) أدت بنجاح في ١٨ يونيو .

ثم ماتت أمه في ٣ يوليو . وكانت قد بدأت حياتها الجديدة بالاستمتاع بتخفيفها من متاعب سالزبورج وعناء الزوجية ، ولكن سرعان ما حنت إلى بيتها وواجباتها واتصالاتها اليومية التي تضي على حياتها غنى ومغزى . وحطمت صحتها رحلة الأيام التسعة إلى باريس في مركبة مهتزة ورفقة منفرة ومطر غزير ، وألقى فشل ابنها في أن يجد له وظيفة في باريس ظلا من الكتابة على روحها المرحاة عادة . وراحت تقضى الأيام وحيدة وسط بيئة غريبة وألفاظ لاتفهمها ، بينما يذهب ابنها إلى تلاميذه وإلى الحفلات الموسيقية والأوبرات ... ورأها موتسارت الآن تدبل في هدوء ، وانفق الأسابيع الأخيرة بجوارها يرعاها ويحنو عليها ولايكاد يصدق أنها قد تموت بهذه السرعة .

وقدمت له مدام دبينيه حجرة في منزلها مع جريم ، ومكانا على مائدتها ، وحرية استعمال بياناها . ولم ينسجم تماما مع جريم في هذه الحجرة ، القريبة فلقد كان جريم يمجده فولتير وموتسارت يحتقره ، وصدمة زعم مضيفيه وأصدقائهم بأن المسيحية ليست سوى أسطورة نافعة في ضبط المجتمع . وأراد جريم أن يقبل التكايفات الصغيرة سبيلا إلى الكبيرة ، وأن يعزف دون أجر الأسر ذات النفوذ ، بيد أن موتسارت أحس أن عملا كهذا سينضب قوته التي يؤثر أن يادخرها للتأليف . وحكم

جريم بأنه كسلان ، وأخبر ليوبولد بحكمه هذا فأمن عليه^(٢٥) . وزاد الموقف سوءاً اقتراض موتسارت المرة بعد المرة من جريم مبالغ بلغت جملتها خمسة عشر جنيها ذهبيا (٣٧٥ دولارا) . وأخبره جريم أن في امكانه تأجيل السداد إلى أجل غير مسمى . وكذلك كان^(٢٦) .

وحسم الموقف خطاب (٣١ أغسطس ١٧٧٨) من موتسارت الأب يقول إن رئيس الأساقفة كوللوريدو عرض أن يرقى الأب رئيسا للمرتلين إذا عمل فولفجانج عازفا على الأرغن ورئيسا للموسيقين ، على أن يعطى كل منهما خمسمائة فلورين في العام ، يضاف إلى هذا « أن رئيس الأساقفة صرح أنه على استعداد لأن يسمح لك بالسفر حيث تشاء ان أردت كتابة أوبرا » . ثم أضاف ليوبولد طعما قدر أن موتسارت لا بد مبتلعه ، فقال ان ألويسيا فيبر ستدعى على الأرجح للانضمام إلى كورس سالزبورج ، وفي هذه الحالة « لا بد ان تعيش معنا »^(٢٧) . ورد موتسارت (١١ سبتمبر) حين قرأت خطابك هزنى الطرب لأننى شعرت بأننى أصبحت فعلا في حضنك . صحيح أن العرض لا يحمل أملا كبيرا لى في المستقبل كما إخالك معترفا ، ولكن حين أنطلمع إلى لقائك وعناق أختى العزيزة جدا لا أفكر في أى أمل آخر .

وعليه ففى ٢٦ سبتمبر استقل المركبة إلى نانسى . وفي ستراسبورج كسب بضعة جنيهات لقاء حفلات شاقة في مسارح كادت تخلو من روادها . وتلبث في مايبايم أملا في تعيينه قائدا للأوبرا الألمانية ، ولكن هذا الأمل أيضاً خاب كغيره ومضى إلى ميونخ وهو يحلم بألويسيا فيبر . ولكنها كانت قد وجدت مكانا في كورس الأمير الناخب ، ربما في قلبه ، فاستقبلت موتسارت بهدوء لم يبد فيه أى رغبة في أن تكون عروسا له . فألف وغنى أغنية مره ، ثم راض نفسه على قبول سالزبورج .

٥ - سالزبورج وفيينا : ١٧٧٩ - ٨٢

وصل إلى البيت في منتصف يناير ، واستقبل باحتفالات ألقى عليها ظلا من الحزن لإدراكه الألم الآن لحقيقة موت الأم . وسرعان ما شد إلى

نيره عازفا للأرغن ورئيسا لفرقة الموسيقى ، وسرعان ما أصابه القلق والتبرم وقد تذكر هذه الأيام فيما بعد :

« في سالزبورج كان العمل عبثاً على ، ولم أكد أستطيع إن أسكن إليه قط . فلم ذلك ؟ لأننى لم أكن قط سعيداً . . . فليس في سالزبورج — من وجهة نظرى على الأقل — تسلية لها أى قيمة . وأنا أرفض الاختلاط بأشخاص كثيرين هناك — أما غيرهم فأكثرهم لا يروننى ضالِحاً لصحبته . أضف إلى ذلك إنه ليس هناك من حافز لموهبتي . وكأن الجمهور خشب مسندة لا تستجيب حين أعزف أو حين تؤدي قطعة من تأليفى . أتمنى لو كان في سالزبورج ولو مسرح واحد متوسط الجودة (٢٨) » .

وتأقت نفسه إلى كتابة الأوبرات ؛ ورحب بطلب الأمير الناخب كارل تيودور أن يكتب أوبرا لمهرجان ميونخ التالى . فشرع يكتب « إيدومنيو ملك كريت » في أكتوبر ١٧٨٠ ، وفي نوفمبر ذهب إلى ميونخ لعمل البروفات . وفي ٢٩ يناير ١٧٨١ أخرجت الأوبرا بنجاح رغم طولها غير العادى . ومكث موتسارت في ميونخ ستة أسابيع أخرى ، يستمتع بحياتها الاجتماعية ، حتى استدعاه رئيس الأساقفة كوللوريدو ليلحق به في فيينا . هناك سره أن يسكن القصر الذى يسكنه رئيسه ، ولكنه كان يأكل مع الخدم . « يحلس التابعان على رأس المائدة ؛ وأنا أحظى بشرف الجلوس مقدما على الطباخين (٢٩) » . وكان هذا عرفاً شائعاً في ذلك العصر في بيوت النبلاء ، وقد احتمله هايدن باستياء مكظوم ، أما موتسارت فقد تمرد عليه في علانية متزايدة . وقد سره أن تعرض موسيقاه وموهبته في بيوت أصدقاء رئيس الأساقفة ؛ ولكنه استشاط غيظاً حين رفض كوللوريدو معظم توسلاته أن يأذن له بقبول ارتباطات خارجية قد تأتيه بدخل إضافي وشهرة أوسع . « حين أفكر في أننى سأغادر فيينا دون أن يكون في حياى ألف فلورين على الأقل يغوص قلبى في باطنى (٣٠) » .

وصحت نيئة على أن يترك خدمة كوللوريدو . ففي ٢ مايو ١٧٨١ ذهب ليسكن نزيلاً مع آل فيبر الذين كانوا قد أنتقلوا إلى فيينا . فلما أرسل

إليه رئيس الأساقفة تعلّياتة بالعودة إلى سالزبورج ، أجاب بأنه لن يستطيع الرحيل قبل ١٢ مايو . وتلا ذلك لقاء مع رئيس الأساقفة ، روى موتسارت مدار فيه لأبيه فقال :

« إنه رمانى بأفدع الشتائم — أوه ! إننى فى الحق لا أستطيع حمل نفسى على أن أكتبها كلها لك ! وأخيراً ، حين أحسست بالدم يغلى فى عروقى ، لم أطق أن أحتمل أكثر مما احتملت ؛ فقلت له : « إذن فسموك لست راضيا عني » ماذا ! أتريد أن تهددنى : أيها الوغد ، أيها الذئب ؟ دونك الباب إذن ، لن يكون لى صلة بعد اليوم برجل تعس مثلك ! » وأخيراً قلت « ولا أنا بك . « إذن فأخرج ! » وفيما أنا خارج قلت « فليكن ، وغدا سيصلك منى خطاب » . قل لى يا أبى العزيز أما كان لزاما على أن أقول هذا عاجلا أو آجلا ؟ . . .

« اكتب لى سراً بأنك مسرور — لأن لك الحق فى أن تسر حقيقة — وانتقدنى إنتقادا قاسيا علانية ، حتى لا يقع عليك أى لوم أو تريب . ولكن إذا نالك من رئيس الأساقفة أى اهانة فتعال إلى فوراً فى فيينا . ففى وسعنا نحن الثلاثة أن نعيش على دخلى^(٣١) » .

ودفع بليوبولد فى أزمة أخرى . وبدا أن منصبه تعرض للخطر ، وكان لأبد أن ينقضى بعض الوقت حتى تصله تأكيدات من كوللوربدو . وافزعه نبأ مساكنة ابنه لآل فيبر . فقد مات رب الأسرة ، وتزوجت اليوسيا الممثل يوزف لانجى ، ولكن كان الأرملة بنت أخرى تدعى كونستانسى تنتظر زوجاً . أفهذا طريق مسدود آخر أمام فولفجانج ؟ وتوسل إليه ليوبولد أن يعتذر لرئيس الأساقفة ويعود . ورفض موتسارت لأول مرة أن يطيع أباه . « إننى فى سبيل رضاك يا أبى مستعد لأن اتخلى عن سعادتى وصحتى بل وحياتى ذاتها ، ولكن شرفى فوق كل شيء عندى ، وكذلك يجب أن يكون عندك . يا أعز الآباء وأكرمهم ، طالبنى بما شئت إلا هذا^(٣٢) » . وفى ٢ يونيو بعث إلى ليوبولد بثلاثين دوقة عريونا لمساعدته المقبلة .

وتوجه ثلاث مرات إلى مسكن رئيس الأساقفة بقمينا ليقدّم إستقالته الرسمية . ورفض حاجب كوللوريدو أن ينقلها لسيدته ، وفي المرة الثالثة « ألقى بموتسارت خارج حجرة الانتظار وأردف ذلك بركلة في ظهره » - وهي العبارة التي وصف بها موتسارت المشهد في خطابه المؤرخ ٩ يونيو (٣٣) . ولكي يرضى أباه أنتقل من بيت فيبر إلى مسكن آخر . واكد لليوبولد أنه إنما كان « يمزح » فقط مع كونستانسي . « ولو كان على أن أتزوج كل من ضحككت معهن لكان لدى على الأقل مائتا زوجة (٣٤) » . على أنه كتب لأبيه في ١٥ ديسمبر يقول إن كونستانسي غاية في اللطف والسداجة وحب البيت ، وهو لذلك يريد أن يتزوجها .

« أترعبك الفكرة ؟ ولكني أتوسل إليك يا أعز أب وأحبه أن تصغى إلى . . . إن صوت الطبيعة يتكلم في باطني عالياً كما يتكلم في غيري - بل ربما أعلى مما يتكلم في رجل ضخم قوى غليظ . لأنني ببساطة لا أستطيع أن أعيش كما يعيش معظم الشباب في هذه الأيام . أولاً لأنني متدين جداً ، وثانياً لأنني أشد حباً للجار وأرفع احساساً بالشرف من أن أغوى فتاة بريئة ، وثالثاً لأن بي من الرعب والتقرز ، ومن رهبة الأمراض والخوف منها ، ومن الرعاية لصحتي ، ما يعصمني من العبث مع النسوة الفاجرات . وفي وسعي أن أقسم أنه لم يكن لي قط علاقات من هذا النوع مع أي امرأة . . . وأراهن بحياتي على صدق ما قلته لك . . .

« ولكن من هي موضوع حبي ؟ . . أليست إحدى بنات فيبر ؟ بلى . . لأنها كونسانتي . . . أرقهن كلهن وأذكاهن وأفضلهن جميعاً . . . قل لي هل في استطاعتي أن أتمنى لنفسى زوجة خيراً منها .. قصارى ما أطمع فيه أن يكون لي دخل مضمون صغير (وهذا رجائي الوطيد بحمد الله) ، وعندها لن أكف عن رجائك بأن تسمح لي أن أنقذ هذه الفتاة المسكينة وأن أحقق لي - ولنا جميعاً إن جاز لي القول - السعادة الكاملة . فلا أشك في أن سعادتي تسعدك ؟ وستحظى بنصف دخلي الثابت . . . أرجوك أن تشفق على ولدك ! (٣٥) »

ولم يعرف لوبولد ماذا يصدق . فقد بذل كل جهد ليثنى ولده .
المفلس تقريباً عن الزواج ، ولكن موتسارت أحس بأنه بعد أن قضى ستة
وعشرين عاماً من الطاعة لأبيه آن الأوان لينفذ مشيئته ويحيا حياته . وظل
سبعة أشهر يلتمس عبثاً موافقة أبيه ، وأخيراً ، في ٤ أغسطس ١٧٨٢ ،
تزوج دون هذه الموافقة . وفي ٥ أغسطس وصلت الموافقة ، وأصبح
موتسارت الآن حراً في أن يكتشف إلى أي حد يستطيع المرء أن يعول
أسرة بتأليف حشد من أكثر أنواع الموسيقى الرائعة تنوعاً في
تاريخ الإنسان .

٦ - المؤلف الموسيقي

كان له عذره في الثقة بنفسه ، لأنه كان قد أشتهر عازفاً على البيان ،
وحصل على دروس خاصة لتلاميذ يدفعون أجوراً مجزية ، وأخرج أوبرات
ناجحة ، فلم يمض شهر على تركه خدمة رئيس الاساقفة حتى تلقى
من الكونت أورسيني - روزنبرج مدير مسارح بلاط يوزف الثاني ،
تكليفاً بتأليف (دراما منظوقة) تتخللها الأغاني . وعرضت النتيجة في
١٦ يوليو ١٧٨٢ ، في حضرة الامبراطور ، تحت اسم (الاختطاف من
السراي) . وأدانها فريق من خصومه ، ولكن كل السامعين تقريباً فتنهم
الأغاني المرححة التي ازدان موضوع عتيق : حسناء مسيحية يأسرها القراصنة ،
ويبعونها لحريم تركي ، ثم ينقذها حبيبها المسيحي بعد دسائس لا تصدق .
وكان تعليق يوزف الثاني على الموسيقى « انها يا عزيزي موتسارت أجمل
مما تحتمله آذاننا ، وأنغامها كثيرة جداً » . وهو تعليق أجاب عنه المؤلف
المتهور « انها بالضبط يا صاحب الجلالة بالكثرة التي يقتضيها المقام » . (٣٦)
وأعيد عرض الأوبريت ثلاثاً وثلاثين مرة في فيينا في سنيها الست الأولى .
وقد أطراها جلوك ، وإن أدرك أنها أغفلت تماماً « إصلاحه » للأوبرا ،
وأعجب بالتأليفات الآلية لهذا الشاب العنيف ، ودعاه لتناول الغداء معه .

وقد استمد موتسارت الهامه من إيطاليا لا من ألمانيا ، وآثر اللحن
والتوافق البسيط على البوليفونية « تعدد الأصوات » المعقدة المتعمقة . ولم

يشعر بتأثيرات قوية من هندل ويوهان سبستيان باخ إلا في عقده الأخير . وفي ١٧٨٢ انضم إلى الموسيقيين الذين كانوا يحيون الحفلات تحت رعاية البارون جوتفريد فان زفيتن ، وأكثرها من تأليف هندل وباخ ، في المكتبة القومية أو في بيت فان زفيتن . وفي ١٧٧٤ كان البارون قد جلب من برلين إلى فيينا كتاب (فن الفوج) و (الكلافورد الحسن الضبط) وغيرهما من أعمال ي . س . باخ . واستنكر الموسيقى الإيطالية لأنها تفتقر إلى الاتقان الشديد ، ورأى أن الموسيقى الحقة تتطلب الالتفات الدقيق للفوج ، والبوليفونية ، والكونترابنت . أما موتسارت فهو وإن لم يسمح قط للبناء أو القاعدة أو الشكل بأن تكون غاية في ذاتها ، فقد أفاد من نصيحة فان زفيتن وموسيقاه ، ودرس هندل وأل باخ الكبار بعناية . وبعد ١٧٨٧ قاد موسيقى هندل في فيينا ، وسمح لنفسه بشيء من الحرية في توفيق مدونات هندل لأوركسترات فيينا . وفي موسيقاه الآلية اللاحقة زواج بين الميلوديا الإيطالية والبولفونية الألمانية في وحدة متسقة .

والنظرة العجلى إلى كتالوج كوشل لمؤلفات موتسارت هي إحدى التجارب الشديدة الوقع في النفس . فهناك قائمة ضمت ٦٢٦ عملاً - وهي أكبر حجم من الموسيقى خلفه أى مؤلف عدا هايدن ، وكلها أنتج في حياة صاحبها التي لم تتجاوز ستاً وثلاثين سنة ، وتحوى روائع من شتى الأشكال : ٧٧ صوناتا ، و ٨ ثلاثيات ، و ٢٩ رباعية و ٥ خماسيات ، و ٥١ كونشرتو ، و ٩٦ قطعة خفيفة (ديفرتمنى) أوركصات أو سرينادات ، و ٥٢ سمفونية ، و ٩٠ لحناً أو أغنية ، و ٦٠ مؤلفاً دينياً ، و ٢٢ أوبرا . وإذا كان بعض من كانوا قريين من موتسارت حسبوه كسولاً ، فربما كان السبب أنهم لم يدركوا تماماً أن عناء الروح قد يضنى الجسد ، وأن العبقرية إذا حرمت فترات الكسل انزلت إلى الجنون . وقد قال له أبوه (إن التأجيل خطيئتك التي لا تفتأ محذقة بك) (٣٧) . وكان موتسارت في كثير من الحالات يؤجل إلى آخر ساعة تدوين الموسيقى التي كانت تتخلق في رأسه . قال « لاني - إن شئت - منقوع في الموسيقى . فهي في عقلي طوال اليوم ، وأنا أحب أن أحلم بها ، وأدرسها ، وأنأملها . » (٣٨) وقد روت زوجته « كان دائم النقر على شيء ما - على قبعته ، أو كاتينة

ساعته - أو المائدة أو المقعد وكأنها لوحة المفاتيح . « (٣٩) وكان أحيانا يواصل هذا التأليف الصامت حتى وهو يبدو مصغيا لاحدى الأوبرات . وكان يحتفظ بقصاصات من ورق تدوين الموسيقى فى جيوبة أو فى جيب العربى الجانبي وهو مسافر ، ثم يدون عليها نوتات متناثرة ، وقد ألف أن يحمل علبة من الجلد تتلقى هذه الاشقات . فإذا تأهب للتأليف لم يجلس إلى لوحة المفاتيح بل إلى منضدة . تقول كونستانسى « كان يكتب الموسيقى كما يكتب الخطابات ، ولم يحاول قط عزف حركة حتى تكتمل . » أو قد يجلس إلى البيان ساعات بأكملها يرتجل ويترك خياله الموسيقى حرا طليقا فى الظاهر ولكنه فى نصف وعى يخضعه لبناء متميز - كشكل الصوناتا ، أو الآريا ، أو الفوجة . . . وكان الموسيقيون يستمتعون بارتجالات موتسارت لأنهم كانوا يستطيعون أن يتبينوا فى ابتهاج خفى الذسق المتوارى خلف أنغام تبدو عفوية فى ظاهر الأمر . قال نيمتشك فى شيخوخته « لو جرؤت على أن أصلى طلبا لفرحة أرضية أخرى لكنت أن أسمع موتسارت يرتجل » (٤٠)

وكان فى استطاعة موتسارت أن يعزف أى موسيقى تقريبا بمجرد الاطلاع نوتها لأن طول خبرته بارتباطات النوتات وتعاقباتها المعينة أتاح له قراءتها كأنها نوتة واحدة ، وكانت أنامله المدربة تعزفها كأنها جملة أو فكرة موسيقية واحدة ، تماما كما يستوعب القارئ المدرب سطرا كأنه كلمة ، أو فقرة كأنها سطرا . واقرنت ذاكرة موتسارت بهذه القدرة على إدراك الكليات ، والأحاساس بالمنطق الذى يلزم الجزء بالدلالة على الكل . وفى السنوات اللاحقة كان يستطيع أن يعزف أيا من كونشرتواته تقريبا عن ظهر قلب . وفى براغ كتب أجزاء الطلبة والبوق للمخاتمة الثانية فى « دون جوفانى » دون أن تتاح له نوته الآلات الأخرى ، وكان قد حفظ تلك الموسيقى المعقدة فى ذاكرته . وذات مرة دون جزء الفيوولينه فقط من صوناتا للبيانو والفيوولينه ، وفى الغد ، ودون بروفا ، عزفت رجينا سترينا زاكى جزء الفيوولينه فى حفلة ، وعزف موتسارت جزء البيانو من مجرد ذكرى تصوره دون أن يتسع له الوقت لتدوينها على الورق (٤١) . ولعل صحائف التاريخ لا تحوى ذكرى رجل آخر استغرقت الموسيقى إلى هذا الحد .

ونحن ننظر إلى صوناتات موتسارت على إنها أقرب إلى الحفة والمعابثة ،
وأنها لا تقف في صف مع ألحان بيتهوفن المشبوبة القوية من نفس النوع ،
وقد يكون السبب أنها كتبت لتلاميذ محدودى المهارة في العزف ، أو لها
ربسيكوردات ذوات تصويت محدود ، أو لبيانو لم يؤت وسيلة لمواصلة
نغمة^(٤٢) . والصونات في مقام A (ك ٣٣١) . وما حوت من « منويته »
ممتعة ، و « الروندو اللأتوركا » مازالت (١٧٧٨) بأسلوب الهاربسيكورد .

ولم يكن موتسارت أول الأمريتم بموسيقى الحجرة ، ولكن في ١٧٧٣
وقع على رباعيات هايدن المبكرة ، وحسد ما فيها من براعة كونترابطية ،
وقلدها تقليدا قارب النجاح في الرباعيات الست التى ألفها فى تلك السنة .
وفى ١٧٨١ نشر هايدن سلسلة أخرى ، وحرك هذا موتسارت ثانية للمنافسة
فأصدر (١٧٨٢ — ٨٥) ست رباعيات (ك ٣٨٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٨ ،
٤٥٨ ، ٤٦٤ — ٦٥) يعترف الجمع الآن بأنها من أرفع الأمثلة فى
بأسها . وشكا العازفون من صعوبتها الهائلة ، وانتقد النقاد الرباعية السادسة
على الأخص لتنافراتها المتعارضة ومزجها الصاخب بين المفاتيح الكبيرة
والصغيرة . ورد موسيقى ايطالى النوتة للناسر محتجا بأن من الواضح أنها تزخر
بالأخطاء الفظيعة . ومزق أحد المشترين أوراقها وقد استشاط غضبا حين
وجد إن التنافرات متعمدة . ومع ذلك فإن هايدن قال لليوبولد موتسارت
بعد عزفة الرباعيات الرابعة والخامسة والسادسة مع موتسارت وديترسدورف
وغيرهما « أمام الله ، وبصفتى رجلا صادقا ، أقول لك إن إبنك أعظم من
عرفت من المؤلفين قاطبة سواء شخصا أو بالاسم . فهو ذواقة ، وأكثر
من ذلك يملك أعظم معرفة بالتأليف الموسيقى^(٤٢) » . فلما نشرت الرباعيات
الست (١٧٨٥) أهداها موتسارت إلى هايدن بخطاب يتألق بتفرده حتى وسط
ما تبادل من رسائل كلها رائع :

« إن أبا قرر أن يدفع بأبنائه إلى الدنيا الواسعة فرأى من واجبه أن يكلهم
إلى رعاية وارشاد رجل كان ذائع الصيت فى ذلك الحين ، واتفق فوق
ذلك إنه كان أصدق أصدقائه . وبالمثل أدفع بأبنائى الستة إليك ، أيها الصديق

الأعز الأشر . حقاً أنهم ثمرة درس طويل شاق ، ولكن الأمل الذى علمنى به أصدقاء كثيرون بأن تعبى فيهم سيعوضة بعض الجزاء . . . يملؤنى زهواً بهذه الفكرة ، وهى أن أبنائى هؤلاء سوف يكونون يوماً ما مبعث عزاء لى .

« لقد اعربت لى أثناء مقامك بهذه العاصمة . . . عن استحسانك لهذه المؤلفات ، ويشجعنى تقديرك لها على أن اهديها إليك ويغرينى بالأمل بأنك لن تراها غير جديرة برضائك . فأرجو أن تتفضل بقبولها ، وكن لها بمثابة الأب والمرشد والصديق . ومنذ هذه اللحظة أنزل لك عن جميع حقوقى عليها . على أنى ألتبس منك أن تعفو عن الأخطاء التى ربما غابت عن عين مؤلفها المتحمزة ، وإن تواصل برغمها صداقتك الكريمة لرجل يقدر هذه الصداقه اسمى تقدير (٤٤) » .

وكان لموتسارت ولح خاص بخماسياته . وكان يرى أن خماسيته بمقام E المنخفض للبيانو والأوبوا والكلا رنيت والهورن والباصون (ك ٤٥٢) « خير ما ألفت قاطبة (٤٥) » . ولكن هذا كان قبل أن يكتب أوبراته الكبرى . وكانت قطعة Eine kleine Nachtmusik « موسيقى ليلية صغيرة » فى الأصل (١٧٨٧) مؤلفة كخماسية ، ولكن سرعان ما تلقتها الأوركسترات الصغيرة ، وهى الآن تصنف بين سرنادات موتسارت . وكان يقدر السرينادة بمقام E المنخفض (ك ٣٧٥) لأنها مكتوبة « بشئ من العناية » ، وهى القطعة التى عزفت له هو نفسه ذات أمسية فى ١٧٨١ ، ولكن الموسيقين يؤثرون عليها فى المرتبة السرnade بمقام C الصغير (ك ٣٨٨) - التى تعدل فى قناتها ألحان بهوفن وتشايكوفسكى الحزينة (الباتليك) .

ووجه موتسارت الأوركستر بعد أن اكتشفه إلى عشرات التجارب : افتتاحيات ، وموسيقىات حاملة ، ومتتاليات ، وكاساسيونات cassations (وهى تنويعات للمتتالية) وموسيقىات راقصة ، وأخرى خفيفة (ترفهية divertimenti) ، وقصد بالآخيرة عادة إن تخدم هدفاً عابراً لا أن يتردد

صداها في أبهاء التاريخ ، وعلينا أن نستمتع بها لا أن نزنها . وحتى مع هذا ، فإن القطعة الخفيفة رقم ١٥ (ك ٢٨٧) ورقم ١٧ (ك ٣٣٤) عملان قيان ، وأبعث للبهجة من معظم السمفونيات .

واستعمل موتسارت كما استعمل هايدن لسمفونياته « فرقة » من خمسة وثلاثين عازفا ، ومن ثم فهي تقصر دون توصيل قيمتها الكاملة لأذان ألفت الجمهورية المضاعفة في أوركسترات القرن العشرين ويطرى النقاد السمفونية رقم ٢٥ (ك ١٨٣) لأنها « مشبوبة العاطفة »^(٤٦) و « آية في التعبير العنيف .. »^(٤٧) ولكن أقدم سمفونيات موتسارت المشهورة هي « باريس » (رقم ٣١ ك ٢٩٧) التي طوعها موتسارت لحب الفرنسيين للرقعة والفتنة . أما سمفونية هافنر (رقم ٣٥ ك ٣٨٥) فقد ألفت أصلا على عجل لتزدان بها المهرجانات التي أعدها زجسموند هافنر ، عمدة سالزبورج السابق ، لزفاف ابنته (١٧٨٢) ، وفي تاريخ لاحق أضاف موتسارت إليها أدوارا للفلاوتة والكларنيت ثم قدمها في فيينا (٣ مارس ١٧٨٣) في حفلة حضرها يوزف الثاني « وصفق لي الأمبراطور تصفيقا حارا » ، ونفخة بخمس وعشرين دوقاوية^(٤٨) . وفي هذه السمفونية ورقم ٣٦ ، التي كتبها في لنتز في نوفمبر ١٧٨٣ ، ظل موتسارت محافظا على الشكل والطابع — المبهجين دائما ، العميقين . فيما ندر — اللذين طبع بهما هايدن السمفونية ، وفي السمفونيتين تقع الحركة البطيئة من الأذان المسنة موقع الاغتيال والعرفان . وعلينا أن نتكلم باحترام أكثر على السمفونية رقم ٣٨ التي ألفتها موتسارت لبراغ في ١٧٨٦ ، هنا تبهج الحركة الأولى الموسيقى بمنطقها البنائي ومهارتها الكونترابنطية ، أما حركتها المعتدلة البطء (الأندانتى) التي أضافت التأمل إلى اللحن ، فقد حملت الخبراء على الاشادة به « كما لها الخالد »^(٤٩) و « عالمها السحري »^(٥٠) .

وهناك إجماع على أن أعظم سمفونيات موتسارت قاطبة هي الثلاث التي سكبها في سيل متدفق من الإلهام في صيف ١٧٨٨ ، في حقبة من حياته ألم به فيها فقر كئيب وأثقلته ديون متفاقمة . والأولى مؤرخة ٢٦ يونيو ،

والثانية ٢٥ يوليو ، والثالثة ١٠ أغسطس — ثلاثة أطفال أنجبت في ثلاثة أشهر . وعلى قدر علمنا لم تعزف واحدة منها في حياته قط ، ولم يسمعها قط ، بل ظلت في ذلك العالم الخفى الغامض الذى كانت فيه البقع السوداء المسطورة على فرخ من الورق في نظر مؤلفها — « قصائد معدة للغناء لا صوت لها » — علامات وايفاعات لا يسمعها غير الدهن . والثالثة التى تسمى خطأ « جوبيتر » (رقم ٤١ بمقام C ك ٥٥١) تعد عادة خيرا ، ويرى شومان أنها تعدل أعمال شكسبير وبيتهوفن^(٥١) ، ولكنها لا تصلح لتذوق الهواة . والسمفونية رقم ٤٠ فى مقام G الصغير (ك ٥٥٠) تبدأ بقوة ترهص بموسيقى Eroica ثم تتطور تطوراً دعا المعلقين — فى نضالهم للتعبير عن الموسيقى بالألفاظ دون جذوى — إلى إن يقرؤا فيها « ليرا » أو « مكبثا » من المأساة الشخصية^(٥٢) ، ولكنها للأذان الأيسر تبدو مبهجة بهجة ساذجة تقريباً . وهذه الآذان نفسها تجد أن أعظم السمفونيات إشباعاً لها هى رقم ٣٩ فى مقام E المنخفض (ك ٥٤٣) ، فهى لا يثقلها كرب ، ولا تعذبها التقنية ، إنما هى الايقاع واللحن ينسابان فى غدير هادى مطمئن ، وهى من نوع الموسيقى التى قد تهيج قلوب الآلهة فى أجازة ريفية من الأعباء السماوية .

و « السنفونية كونشرتانتى » هى هجين بين السمفونية والكونشرتو ، وقد نبتت من الكونشرتو جروسو بمقابلة آلتين أو أكثر للأوركستر فى حوار بين الميلوديا والموسيقى المصاحبة . وقد ارتفع موتسارت بهذا الشكل إلى ذروته فى « السنفونية كونشرتانتى » فى مقام E المنخفض (ك ٣٦٤) للفلاوته والفيولينه والفيولا (١٧٧٩) ، وهى لا تقل روعة عن أى من سمفونياته الأخرى .

وكل الكونشرتوات مبهجة ، ففيها تعيين فقرات العزف المنفرد الأذن غير المدربة على تتبع مواضيع وانغام قد يحجبها فى السمفونيات التعقيد التقنى أو التفنن الكونترابنطى . والحوار فيها طريف ، ويزداد طرافة اذا كانت المناظرة بين واحد والكل « Solo contra tutti » كما نرى فى شكل الكونشرتو كما اقترحه كارل فليب ايمانويل باخ وطوره موتسارت . ولما كان موتسارت

يستطيع هذه المواجهات الهارمونية ، فانه كتب معظم كونشرتواته للبيانو ،
ففيها كان يعزف دور العازف المنفرد بنفسه مضيفا عادة في أواخر الحركة
الأولى قفلة تتيح له ان يسرح ويمرح ، وان يتألق عازفا بارعا لآلته .

وأول ما بدأ يتفوق في هذا الضرب كان في كونشرتو البيانو رقم ٩ في
مقام E المنخفض (ك ٢٧١) . وأول كونشرتواته التي ما زالت محببة
للسامعين هي رقم ٢٠ في مقام D الصغير (ك ٤٦٦) الشهيرة بـ « الرومانتسى »
الطفلية الطابع تقريبا . ويجوز لنا أن نقول انه في هذه الحركة البطيئة بدأت
الحركة الرومانسية في الموسيقى . وسواء كان السبب هو الكسل أو الشواغل ،
فان موتسارت لم يكمل تدوين موسيقى هذا الكونشرتو إلا قبل ساعة من
الزمن المحدد لأدائه (١١ فبراير ١٧٨٥) ، ووصلت نسخة العازفون وأدى
موتسارت دوره أداء خبير صناع ، حتى لقد طلبت اعادة الكونشرتو مرات
كثيرة في السنوات التالية .

وقدم موتسارت موسيقى رفيعة لآلات منفردة أخرى . ولعل الكونشرتو
الرخيم في مقام A للكلارينيت (ك ٦٢٢) يصلنا مذاعا مرارا أكثر من أى
من مؤلفاته الأخرى . وفي شبابه المرح (١٧٧٤) كان يستمتع أيما استمتاع
بكونشرتو في مقام B المنخفض للباسون . وكانت كونشرتوات الهورن
فقاعات تنفخ في مرح على النوتة — التي كانت أحيانا تحوى تعليمات مضحكة
للعازف . « da bravo ! corraggio ! bestia ! » لأن موتسارت كان
خبيرا بأكثر من آله نفخ واحدة . ثم يرفعنا كونشرتو الفلاوته والهارب
(ك ٢٩٩) إلى السماء الأعلى .

وفي ١٧٧٥ حين كان موتسارت في التاسعة عشرة ألف خمسة كونشرتوات
للفيولينه وكلها رائع ، وثلاثة منها ما زالت تحتويها ربرتوارات حية إلى اليوم .
والكونشرتو رقم ٣ في مقام G (ك ٢٢٦) فيه حركة بطيئة (أداجو)
انتشى لها رجل كأينشتين^(٥٢) ، ورقم ٤ في مقام D من روائع الموسيقى ،
ورقم ٥ في مقام A فيه حركة غنائية معتدلة البطء تنافس معجزة
صوت المرأة .

لا عجب إذا كان موتسارت قد أنتج بعضا من ألد الألحان في التأليف الموسيقي قاطبة ، لا سيما في سنوات حبه لألويسيا فيبر . وهي ليست أغاني (ليدات) مكتملة التفتح كالتى حققت تطويرها الناجح على يد شوبرت وبرامز ، إنما هي أبسط وأقصر ، تزين في الغالب كلمات سخيفة ، ولكن موتسارت إذا وجد شعرا بمعنى الكلمة كقصيدة جوته (البنفسجية) « ارتفع إلى ذرى الشكل (ك ٤٧٦) . فيها هنا بنفسجة مرتعشة فرحا باقتراب راعية حسناء تقول في نفسها ما أحلى الرقاد على صدرها ؟ ولكن بينما كانت الراحية تمشي وهي تغني في جذل إذا هي تسحقها تحت قدمها دون أن تلاحظها . (٥٤) أكانت هذه ذكرى ألويسيا القاسية ؟ لقد كتب لها موتسارت من قبل لحنا من أرق ألحانه Non so d'onde viene . ولكنه لم يلق بالآلى مثل هذه الأغاني المنعزلة ، فقد احتفظ بموارد فنه الصوتي الخفية لألحان أوبراته وللمؤلفات التي وضعها للكنيسة .

على أنه قل أن سمعت موسيقاه الدينية خارج سالزبورج ، لأن الكنيسة الكاثوليكية لم ترض عن المحسنات الأوبرالية التي كان رؤساء الأساقفة الذين خدمهم موتسارت يتوقعونها منه فيما يبدو . فالقداس المطول في سالزبورج كان يرتل في مصاحبة الأرغن ، والوتريات ، والأبواق ، والترمبونات ، والطبول ، وكانت فقرات من المرح تنطلق فجأة في أكثر المواضع وقارا ورهبة في قداسات موتسارت . ومع ذلك فإن الروح الدينية لا بد تحركها . موتينات نسجد لك (ك . ٣٢٧) و « القديسة مريم أم الرب » (ك ٣٤١ ب) ، وأبدع نغم يفرق جماله الموصول كل أنغام موتسارت يظهر في « سبحوا الرب » في القسم الرابع من تسبيحة الاعتراف المسائية (ك ٣٣٩) (٥٥) .

ويمكن القول عموما ان موسيقى موتسارت هي صوت عصر أرستقراطي لم يسمع بسقوط الباستيل ، وحضارة كاثوليكية لم يكدر إيمانها مكدر ، حرة في الاستمتاع بمباهج الحياة دون أن تسعى هذا السعى الحثيث لتجد مضمونا جديدا لحلم أفرغ من مضمونه القديم . وهذه الموسيقى في جوانبها الأنحف تتسق مع رشاقة الزخرف الروكوكي ، ومع رومانسيات فاتو التصويرية ،

وأولب تيبولو الطافى فى هدوء ، وابتسامات مدام دجومبادور وأروابها وخزفها . وهى فى عمومها موسيقى هادئة صافية ، تشوبها بين الحين والحين لمسات من الألم والغضب ، ولكنها لا ترفع صلاة متدلة ولا تحدىا بروميثيا للآلهة . لقد بدأ موتسارت موسيقاه فى طفولته ، وكانت تكمن فى مؤلفاته خصيصة طفلية حتى اتضح له أن القداس الجنائزى الذى كان يكتبه لرجل غريب كان قداسا لجنائزته هو .

٧ - الروح والجسد

لم يوهب موتسارت فتنة الجسد . فقد كان قصير القامة ، رأسه أكبر مما يناسب جسمه ، وأنفه أضخم من أن يلائم وجهه ، وشفته العليا راكبة على السفلى ، وحاجباه الكثيفان يحجبان عيناه القلقتين ، لا يروع الناظر إليه غير شعره الأشقر الغزير . وفى سنى عمره اللاحقة حاول التعويض عن عيوب قامته وقسماته باللباس البهى : قميص من الدنتلا ، وسترة زرقاء ، ذات ذبول ، وأزرار ذهبية وسراويل تصل إلى الركبة ومشابك فضية فوق حذائه .^(٥٦) ولم يكن الناظر إليه ينسى مظهره إلا وهو يعزف على البيانو ، عندها تضطرم عيناه بالتركيز الشديد ، وتخضع كل عضلة فى بدنه نفسها لحركة ذهنه ويديه .

وكان فى صباه متواضعا طيب القلب ، واثقا بالناس محبا لهم ، ولكن ما ظفر به من شهرة مبكرة ، وما اغتذى عليه كل يوم تقريبا من التصفيق والاستحسان ، أحدث عيوباً فى خلقه . وقد حذره ليوبولد (١٧٧٨) قائلا « انك يا بنى سريع الغضب مندفع . . . شديد التحفز للرد فى لهجة ساخرة على أول تحد »^(٥٧) . واعترف موتسارت بهذا وبأكثر منه . فكتب يقول « لا بد أن انتقم لنفسى إن أساء إلى إنسان ، فإذا لم أرد اعدوى الصاع صاعين أرانى إنما جازيته صاعا بصاع ولم أعاقبه . »^(٥٨) ثم كان أشد الناس غلوا فى تقدير عبقريته . « إن الأمير كاونتز أخبر الارشيدوق بأن أمثالى لا يوجد بهم الزمان إلا مرة كل مائة عام »^(٥٩) .

وكان يسود خطابه ويظهر في موسيقاه روح الفكاهة حتى آخر سني عمره . وكان هذا الروح عادة ضاحكا معابثاً في براءة ، يشتد أحياناً فيصبح هجاء جادا ، وفي شبابه كان بين الحين والحين ينحرف إلى فحش القول وهجره . وقد مر بمرحلة من الافتتان بالغائط . وحين كان في الحادية والعشرين كتب لابنة عمه ماريّا أ١٠ تكلاماً موتسارت تسعة عشر خطاباً تلوّثها سوقية لاتصدق^(٦٠) . وأشاد خطاب كتبه لأمه بالتطبل [أى إمتلاء البطن بالغازات] نثراً وشعراً^(٦١) ولم تكن أمه شديدة الاحتشام ، فقد نصحت زوجها في خطاب كتبه له فقالت « اعتن بصحتك يا حبيبي ، وادفع عجزك إلى فلك » ويبدو أن هذه العبارات « القفرية » كانت عرفاً سائداً في أسرة موتسارت وبيثها ، ولعلها كانت ميراثاً من جيل أشد شبقاً . على أنها لم تمنع موتسارت من أن يكتب لأبوية وشقيقته خطابات تفيض بأرق الحب . وكان في زعمه عريساً بكرّاً . فهل كان زوجاً وفياً ؟ لقد إتهمته زوجته بـ « مغازلات الخدم^(٦٢) » ويقول كاتب سيرته المختص :

« انتشرت الشائعات بين الجمهور وفي الصحف ، وبلغ في وصف لحظات نادرة من الضعف عنده ، فجعلت سمات مميزة لحلقه . فنسبت إليه مغازلة كل تلميذة من تلاميذه وكل مغنية كتب لها أغنية ، وكان يعد من الفكاهات إن يلقب بالسلف الأول لدون جوان^(٦٤) » .

وقد نجم عن كثرة لزوم زوجته الفراش للوضع ، وتكرار أسفارها إلى المنتجعات الصحية ، وغيابه عنها في جولاته الموسيقية ، وحساسيته لكل مفاتن النساء ، واختلاطه بالمغنيات الفاتنات والممثلات المتحررات - نجم عن هذا كله موقف كانت فيه المغامرة لا مفر منها تقريباً . وقد روت كونستانسى كيف أنه إترف لها بـ « حماقة » من هذا النوع ولم غفرتها له - « لقد كان طيباً جداً بحيث يستحيل على الإنسان أن يغضب منه » ولكن أختها تقص أبناء تفجرات عنيفة بينهما بين الحين والحين^(٦٥) . ويلاحظ إن موتسارت كان شديد التعلق بزوجته ، وقد احتمل عيوبها ربة للبيت ، وكان يكتب لها أثناء فراقهما خطابات تفيض إعزازاً كاعزاز الأطفال^(٦٦) .

ولم يكن موفقاً في الناحية الاجتماعية . من ذلك إنه قسا في الحكم على بعض منافسية « إن صوناتات كلمنتي عديمة القيمة . . . فهو مشعوذ ككل الايطاليين^(٦٧) . » « بالأمس أسعدني الحظ بالاستماع إلى اهر فريهولت يعزف كونشرتوا من تأليفه التعس . ولم أجد فيه إلا القايل جداً مما يستحق الإعجاب^(٦٨) » . ولكنه إمتدح الرباعيات التي نشرها مؤخراً اجنازبلييل وإن نافست رباعياته . ووبخه أبوه لأنه يبغض الناس فيه بصلفه^(٦٩) ، وأنكر موتسارت الصلف ، ولكن لا نكران في أنه لم يكن له إلا قلة ضئيلة من الأصدقاء بين موسيقى فيينا ، وأن روحه المتكبرة ألقت العقبات في طريق تقدمه . ذلك إن حظ الموسيقى في النمسا وألمانيا كان يعتمد على الطبقة الارستقراطية ، وقد رفض موتسارت أن يقدم النبالة على العبقرية .

ثم إنه عانى من معوق آخر هو أنه لم يختلف قط إلى المدرسة أو الجامعة . ولم يكن أبوه قد أتاح له متسعاً من الوقت للتعليم العام . وقد اقتنى موتسارت فيما إقتنى من كتب قليلة دواوين شعر لجستر وفيلاند وجلليرت ، ولكن يبدو أنه إستعملها في الكثير الغالب مصدراً لنصوص ممكنة للاوبرات . وكان قليل الإكتراث للفن أو الأدب . وكان في باريس حين مات فولتير ، فلم يستطع أن يفقه لم ضجعت المدينة هذا الضجيج الكثير بسبب زيارة التأثير الهرم وموته . كتب لأبيه يقول « إن هذا الوغد الكافر فولتير قد نفق كأنه كلب ، كأنه حيوان ! وهذا جزاؤه الحق^(٧٠) . » وقد تشرب بعض العداء لرجال الدين من اخواته الماسون ، ولكنه شارك في موكب لعيد القربان المقدس وهو يمسك شمعة في يده^(٧١) .

ولعل سداجة عقله هي التي جعلته محبوباً رغم أخطائه . فالذين لم ينافسوه في الموسيقى وجدوه انيس المعشر بشوشاً رفيقاً هادئ الطبع عادة . كتبت أخت زوجته صوفي فيبر « لم أر موتسارت طوال حياتي هائج الطبع ، ولا حتى غاضباً^(٧٢) . » ، ولكن هناك روايات تناقض هذه . وكان بمثابة الحياة لكثير من الحفلات الخاصة ، دائم الرغبة في العزف ، دائم الاستعداد لنكتة أو لعبة . وكان يحب البولنج ، والبليارد ، والرقص ، ويبدو أحياناً فخوراً

برقصه أكثر من موسيقاه . (٧٣) وإذا لم يكن كريما سمح النفس مع منافسيه ، فإنه كان أريخيا دون تفكير تقريبا مع كل من عداهم . وندر أن رد سائلا . فافترض منه ضابط أوتار البيانو المرة بعد المرة دون أن يرد قروضه . وكان موتسارت لا يخفى احترامه الشديد للمال ، ولكن مرد ذلك انه كان يفتقر أشد الافتقار إلى الوقت أو الميل للتفكير في المال ، حتى انه كثيرا ما أعوزه هذا المال . وإذا اضطر إلى الاعتماد على وسائله في كسب المال ، واضطر إلى أن يعول أسرة بمنافسة عشرات المرسقيين الغيورين منه فقد أهمل شئون ماله ، وسمح لمكاسبه ان تتسرب من بين أصابعه دون اكتراث منه ، وانحدر إلى درك الأملاق اليائس وهو يكتب أروع موسيقى جيله في سمفونياته الثلاث الأخيرة وأوبراته الثلاث الأخيرة .

٨ - الأوج : ١٧٨٢ - ٨٧

لقد بدأ حياة الاحتراف موسيقيا مستقلا في فيينا بنجاح قرت به عينه . فكان يتقاضى أجرا طيبا على الدروس التي يعطيها ، وأتاه كل كونه شرتو عزف في ١٧٨٢ - ٨٤ بنحو خمسمائة جولدن . (٧٤) ولم ينشر من مؤلفاته في حياته سوى سبعين ، ولكنه تقاضى عنها ثمنا معقولا . وأعطاه الناشر أرتارين مائة دوقاتية نظير الرباعيات الست المهداة إلى هايدن - وكان ثمنا طيبا في تلك الأيام . (٧٥) وخسر ناشر آخر يدعى هوفمايستر بطبعه رباعيات موتسارت للبيانو في مقام G الصغير (ك ٤٧٨) و E الحفيض (ك ٤٩٣) ، فقد وجدها الموسيقيون عسيرة جدا (وهي الآن تعد سهلة) ، وأنذر هوفمايستر موتسارت قائلا : « اكتب بشعبية أكثر وإلا فلن أستطيع أن أطبع المزيد من مؤلفاتك أو أنقذك عنه » (٧٦) . وكان موتسارت يتقاضى الأجر العادي عن أوبراته ، وهو مائة دوقاتية ، ولكنه تقاضى عن « دون جوفاني » ٢٢٥ دوقاتية مضافا إليها حصيلة حفلة موسيقية أحييت لصالحه . واجتمع له في هذه السنين « دخل طيب جدا » (٧٧) كتب أبوه وقد زاره في ١٧٨٥ يقول « إذا لم يكن على ولدي ديون مستحقة ففى ظنى أنه يستطيع الآن أن يودع في المصرف ألفى جولدن . (٧٨)

ولكن موتسارت لم يودع ذلك المال في المصرف ، بل أنفقته على مصروفاته الجارية ، وعلى الترفيه ، والملابس الفاخرة ، وعلى تلبية حاجات الأصدقاء المتسولين . لهذه الأسباب وغيرها من أسباب أكثر غموضا وقع في هوة الدين في ذروة الطلب على خدماته ومؤلفاته . وفي تاريخ مبكر (١٥ فبراير ١٧٨٣) كتب إلى البارونة فون فالدهشتين يقول إن أحد دائنيه هددته بأن « يقاضيني . . . وأنا في هذه اللحظة لا أستطيع الوفاء بالمبلغ - ولا حتى بنصفه . . . أتوسل إليك يا سيدتي بحق السماء أن تعينيني على الاحتفاظ بشرفي وسمعتي . (٧٩) وجاءه الفرج المؤقت من نجاح حفلة موسيقية أحييت لصالحه في مارس ، إذ أتته بألف وستمئة جولدن . وقد أهدى بعض هذا المال لأبيه .

وفي مايو ١٧٨٣ انتقل إلى منزل حسن في رقم ٢٤٤ بميدان يودن . هناك ولد له طفله الأول (١٧ يونيو) « صبي جميل قوى ، ملفوف كالكرة . » ولان جانب الأب بفضل هذا الحدث والهدية بعد أن ساءه زواج ابنه ، واستغل فولفجانج وكونستانتي هذا اللين ليزورا ليوبولد ونانيرل في سالزبورج ، بعد أن تركا الطفل في فيينا مع مربية . وفي ١٩ أغسطس مات الطفل . وبقي أبواه في سالزبورج لأن موتسارت كان قد رتب أن يعزف فيها قداسه في مقام C الصغير الذي سترتل فيه كونستانتي . وأطال فولفجانج وكونستانتي مكثهما فوق أصول الضيافة ، لأن ليوبولد كان عليه أن يحسب حساب كل درهم ، ورأى أن زيارة ثلاثة أشهر أطول مما يحتمل . وفي طريق عودتهما إلى فيينا تخلفا في لنز ، حيث كلف الكونت فون تون موتسارت بكتابة سمفونية .

فلما عاد إلى بيته عكف بهمة على التدريس والتأليف والعزف والقيادة . ففي ثلاثة أشهر (٢٦ فبراير إلى ٣ أبريل ١٧٨٤) أحيى ثلاثة حفلات موسيقية وعزف في تسع عشرة حفلة أخرى . (٨٠) وفي ديسمبر انضم إلى أحد المحافل الماسونية السبعة بفيينا ، واستمتع باجتماعاتهم ، ولم يتردد في الموافقة على تأليف الموسيقى لأعيادهم . وفي فبراير قدم أبوه في زيارة طويلة بعد أن

ألا انه مولد ولد آخر لكونستانسى . وفى ١٧٨٥ دخل لورنتسودا بونى حياة موتسارت .

وقد عاش لورنتسو هذا حياة فيها من المغامرة ما يقرب من مغامرة صديقه كازانوف . كان قد ولد فى ١٧٤٩ ابنا لدباغ جلود فى حى يهود تشينيدا . فلما بلغ الرابعة عشرة أخذ أبو ايمانويل كونليانو وأخوان له الأطفال إلى لورنتسودا بونى ، أسقف تشينيدا ، ليعملهم أتباعا للكنيسة الكاثوليكية . واتخذ ايمانويل اسم الأسقف ، وأصبح كاهنا ، والصل فى البندقية بامرأة متزوجة ، فنفى ، وانتقل إلى درسدن ، ثم إلى فيينا ، وفى ١٧٨٣ استخدمه المسرح القومى شاعرا وكاتبا لنصوص الأوبرات .

واقترح عليه موتسارت إمكان تأليف نص لأوبرا يؤخذ من كوميديا « زواج فيجارو » الحديثة التى ألفها بومارشيه . وكانت الكوميديا قد ترجمت إلى الألمانية لتمثيلها فى فيينا ، ولكن يوزف الثانى حظر عرضها بحجة احتوائها على نزعات ثورية تسيئ إلى بلاطه . فهل فى الامكان إقناع الامبراطور ، الذى لم يكن هو نفسه مفتقرا إلى النزعة الثورية ، بأن يسمح بأوبرا تستخلص من التمثيلية بحكمة وحصافة ؟ وكان يونتى معجبا بموسيقى موتسارت ، وسيبدي فيه رأى التالى فى تاريخ لاحق ، وهو أنه رجل « لم يستطع حتى الآن ، برغم ما أوتى من مواهب تفوق مواهب أى مؤلف موسيقى فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل ، أن يستغل عبقريته السماوية فى فيينا بسبب دسائس خصومه »^(٨١) . ثم حذف من التمثيلية الحواشى المتطرفة التى كتبها بومارشيه ، وحول ما بقى إلى نص لإيطالى يضارع خير نصوص متاستازيو .

كانت قصة «زواج فيجارو» هى المتأهة القديمة التى تتشابه فيها الاستخفاءات والمفاجآت والأكتشافات وإستغفال الخدم الذكى لسادتهم : وكل هذا مألوف فى الكوميديا منذ عهد ميناندر وبلوتس . وسرعان ما أحب موتسارت الموضوع ، وألف الموسيقى بسرعة تكاد تبلغ سرعة تشكىل النص ، فتم الاثنان

في ستة أسابيع . وفي ٢٩ إبريل ١٧٨٦ كتب موتسارت الافتتاحية ، وفي أول مايو حالف النجاح العرض الأول للأوبرا . وربما كان بعض الفضل في نجاحها لـبنوتشي ، الباصو المرح الجمهوري الصوت ، الذي غنى دور فيجارو ولكن لابد أن الفضل الأكبر لحيوية الموسيقى وملاءمتها للمناسبة ، ولألحان رائعة مثل شكاة كيروينو « ما الذي تعرفونه (Voi che sapete) ، وتوسل الكونتيسة توسلا حاراً فيه ضبط للنفس إلى إله الحب في لحن الحب « Porgi amor » وقد استعبدت الألحان غير مرة حتى استغرق العرض مثلي الوقت العادي ، وفي نهايته طلب الجمهور موتسارت مرات ليظهر على خشبة المسرح .

كانت حصيلة أخراج « فيجارو » في فيينا وبراغ خليقة بأن تعين موتسارت على الوفاء بديونه عاماً لولا اسرافه ولولا تكرار مرض زوجته وحملها . وفي إبريل ١٧٨٧ انتقلا إلى بيت أقل تكلفة ، في رقم ٢٢٤ شارع لاند شتراسي . وبعد شهر مات ليوبولد مخلصاً لولده ألف جولدن .

وكلفته براغ بأوبرا أخرى . واقترح بونتي مغامرات دون جوان الجنسية موضوعاً لها . وكان ترسو دي مولينا قد عرض « الدون » الأسطوري على المسرح بمديره في ١٦٣٠ تحت اسم « مخادع أشبيلية » ، وروى مولير القصة في باريس وسماها « وليمة الحجر » (١٦٦٥) وقدمها جولدوني في البندقية باسم « دون جوفاني تنوريو » (١٧٣٦) وكان فنتشنتي ريجيني قد عرض « وليمة الحجر » في فيينا عام ١٧٧٧ ، وفي عام ١٧٨٧ هذا نفسه كان جوزيبي جاتسانيجا قد أخرج بالعنوان ذاته أوبرا سطا بونتي على أسطر كثيرة منها ، ومن بينها قائمة مرحة بخطايا جوفاني .

وعرفت « أعظم الاوبرات قاطبة » (كما سماها روسيني) أول مرة في براغ في ٢٩ أكتوبر ١٧٨٧ . وذهب موتسارت وكونستانتي إلى العاصمة البوهيمية ليشهدا هذا الحدث ، وكثرت الحفاوة بهما إلى حد دعاه إلى تأجيل تأليف الافتتاحية حتى عشية العرض الأول ، وفي منتصف الليل

« بعد قضاء أبهج أمسية يمكن تصورها^(٨٢) » ألف قطعة أقرب ما تكون إلى موسيقى فاجنر في إيدانها بالعناصر التراجيدية والكوميديّة للتمثيلية . ووصلت نوتة الافتتاحية إلى الاوركستر بالضبط في الوقت المحدد للأداء^(٨٣) . كتبت جريدة فيينا تسايتريج تقول « مثلت يوم الاثنين أوبرا الموسيقار موتسارت « دون جوفاني » التي طال أنتظارها ويجمع الموسيقيون وأهل الخبرة على أن مثل هذا العرض لم ير في براغ قط من قبل . وقاد الهر موتسارت بشخصه الموسيقيين ، وكان ظهوره في الاوركستر إيدانا بترديد الهتاف الذي تكرر عند خروجه^(٨٤) » .

وفي ١٢ نوفمبر عاد الزوجان السعيدان إلى فيينا . وبعد ثلاثة أيام مات جلوك ، وعين يوزف الثاني موتسارت ليخلفه رئيس موسيقى الحجرة للهلاط . وبعد معاناة شديدة مع المغنين أخرجت « دون جوفاني » بفيينا في ٧ مايو ١٧٨٨ دون أن تلقى إستحسانا يذكر . وأدخل موتسارت وبونتي عليها المزيد من التغيير والتبديل ، ولكن الأوبرا لم تحظ قط في فيينا بالنجاح الذي حظيت به في براغ ومانهايم وهامبورج . وشكا ناقد برليني فقال أن « التمثيلية الهائلة » عدوان على الفضيلة . ولكنه أردف « إن كان لأمة من الأمم إن تفخر بأحد أبنائها ، فإن لألمانيا أن تفخر بموتسارت مؤلف هذه الأوبرا^(٨٥) » . وبعد تسع سنوات كتب جوته إلى شيلر « إن آمالك التي ترجوها للأوبرا تحققت بوفرة في دون جوفاني^(٨٦) » وتحسر على أن موتسارت لم يعيش ليكتب موسيقى فاوست .

٩ — الخفيضن : ١٧٨٨ — ٩٠

لم تلبث حصيلة دون جوفاني أن نفدت ، ولم يكف راتب موتسارت المتواضع لشراء الطعام إلا بالجهد . وقبل إعطاء بعض التلاميذ دروسا خبصوصية ولكن التدريس كان عملا مرهقا مضيقا للوقت . وعليه فقد إنتقل إلى مسكن أرخص في ضاحية فيرنجر شتراسي . ومع ذلك تكاثرت عليه الديون . فاقترض أينما أستطاع — خصوصا من تأجر كريم وأخ في الماسونية يدعى

ميخائيل بوشبرج . وقد كتب إليه موتسارت في يونيه ١٧٨٨ يقول : «

« ما زلت مدينا لك بثمانى دوقاتيات . ورغم أنى فى هذه اللحظة لست فى وضع يمكننى من سداد هذا المبلغ لك ، فإن ثقتى فىك لا حد لها ، بحيث أجرؤ على التوسل إليك بأن تسغفنى بمائة جولدن حتى الأسبوع القادم وهو الموعد المحدد لبدء حفلاتى الموسيقية فى الكازينو . عندئذ سأكون بالتأكيد قد تسلمت نصيبى الذى وعدت به فاستطيع بغاية السهولة أن أرد لك ١٣٦ جولدنا مقرونة بأحر عبارات شكرى . (٨٧) »

وأرسل إليه بوشبرج المائة جولدن . وشجع هذا موتسارت ، فرجاه (١٧ يونيو) فى إقراضه « ألف جولدن أو ألفين لمدة عام أو عامين بفائدة مناسبة » وكان قد ترك متأخرات من إيجار بيته القديم دون أن يدفعها ، فهدده المالك بحبسه ، فاستدان موتسارت ليؤدى له دينه . والظاهر أن بوشبرج لم يوافه بكل ما طلب ، لأن المؤلف اليائس أرسل إليه توسلات جديدة فى يونيو ويوليو . فى تلك الشهور النكدة المزعجة ألف موتسارت « السمفونيات الكبرى » الثلاث .

ثم رحب بدعوة أخته من الأمير كارل فون لشنوفسكى ليركب معه إلى برلين . واقترض تلك الرحلة مائة جولدن من فرانتز هوفدميل . وغادر الأمير والصعلوك فيينا فى ٨ إبريل ١٧٨٩ . وفى درسدن عزف موتسارت أمام الأمير الناخب فردريك أغسطس فظفر بمائة دوفاتية . وفى ليبزج عزف فى حفلة عامة على أرغن باخ ، وتأثر بترتيل فرقة « توماستولى » لموتيته باخ « أنشدوا للرب » . Singet dem Herron . وفى بوتسدام وبرلين (٢٨ أبريل إلى ٢٨ مايو) عزف لفردريك ولیم الثانى ، فنفحه بسبعمائة فلورين ، مع تكليف بست رباعيات وست صوناتات . ولكن مكاسبه انفقت بسرعة عجيبة ، وقد عزت شائعة غير مؤكدة بعض هذا الانفاق إلى صلة غرام بمغنية برلينية تدعى هنرييته بارونيوس . (٨٨) وفى ٢٣ مايو كتب إلى كونستانسى يقول « أما عن عودتى فعليك أن تتطلعى إلى أنا أكثر من التطلع إلى النقود (٨٩) » ووصل أرض الوطن فى ٤ يونيو ١٧٨٩ .

واحتاجت كونستانسى ، التى كانت حاملا مرة أخرى ، إلى الأطباء والعقاقير وإلى رحلة غالية للاستشفاء بمياه بادن - باي - فين : وقرع موتسارت إلى بوشبرج مرة أخرى :

« يا إلهى العظيم ! لست أتمنى لأعدى أعدائى أن يكون فى موقفى الراحن . إنك لو تخليت عني يا أعز صديق وأخ (ماسونى) لقضى علينا قضاء مبرما - نفسى التعسة البريئة وزوجتى المريضة المسكينة وأطفالى : فكل شئء رهن . . . بموافقتك على إقراضى خمسمائة جولدن أخرى ، وإلى أن تسوى أمورى أتعهد بأن أرد لك عشرة جولدنات كل شهر ، ثم أسدد لك المبلغ كله . يا إلهى ! لا أكاد أقوى على حمل نفسى على إرسال هذا الخطاب ، ومع ذلك لا بد مما ليس منه بد ! اغفر لى بالله ، فقط اغفر لى ! » (١٠) .

وأرسل له بوشبرج ١٥٠ جولدنا أنفق أكثرها فى سداد فواتير كونستانسى فى بادن . وفى ١٦ نوفمبر ، ولدت فى بيتهم بنتا ماتت فى اليوم نفسه . وأعانه يوزف الثانى بأن كلفة هو وبونى بكتابة ، « مبرحية هازلة » عن موضوع قديم (إستخدمة ما ريفو فى لعبة الحب والحظ ١٧٣٠) : خلاصتها إن رجلين يتنكران لاختبار وفاء خطيبتيهما فيجدان فيهما لينا ورخاوة ، ولكنهما يغفران لهما على أساس أن كل النساء هكذا « *cosi fan tutte* » ومن هنا اسم الأوبرا « هكذا يفعلن جميعا » . ولم يكن الموضوع بالذى يتفق ومزاج موتسارت المأسلوى آنشد (إذا استثنينا قليلا من العبث بلر من كونستانسى فى بادن) ، ولكنه قدم للنص البارع الظريف موسيقى هى التجسيد الكامل للبراعة والظرف ، ونذر أن مجد هراء يمثل ما مجد به هذا الهراء . وقد لقي عرض الأوبرا الأول فى ٢٦ يناير ١٧٩٠ نجاحا لا بأس به ، وأعيد العرض أربع مرات فى شهر واحد ، وكانت الحصيلة مائة دوقاتية لموتسارت . ثم مات يوزف الثانى (٢٠ فبراير) ، واغلقت مسارح فيينا أبوابها حتى ١٢ أبريل .

ورأود موتسارت الأمل فى أن يجد له الأمبراطور الجديد عملا ، ولكن

ليوبولد الثاني تجاهاة . وكذلك تجاهل بونتي فرحل إلى إنجلترا وأمريكا ، وإنهى به المطاف (١٨٣٨) مدرسا الايطالية في ما هو الآن جامعة كولومبيا بنيويورك^(٩١) . واستنجد موتسارت بيوشبرج من جديد (٢٩ ديسمبر ١٧٨٩ ، ٢٠ يناير ، ٢٠ فبراير ، ١ ، ٨ ، ٢٣ أبريل ١٧٩٠) ، ولم يرده ناثيا قط ، ولكن نذران تلقى منه كل ما طلب . وفي أوائل مايو طالب ستمائة جولدن ليؤدي ما استحق عليه من إيجار . فأرسل إليه يوشبرج مائة . واعترف ليوشبرج في ١٧ مايو « إنني مضطر للألتجاء إلى المرابين » وفي ذلك الخطاب ذكر أنه لم يبق له من تلاميذه سوى اثنين ، ورجا صديقه « أن يذيع بين الناس أنني مستعد لإعطاء الدروس^(٩٢) » على أن ما به من توتر الأعصاب وضيق الخاق كان يحول بينة وبين إجادة التعليم . وكان أحيانا يخلف مواعيده مع تلاميذه وأحيانا يلعب معهم البليارد بدلا من أن يعطيهم درسا^(٩٣) . ولكنه كان إذا وجد طالبا ذا موهبة مبشرة بذل له نفسه دون تحفظ ، وهكذا نراه يعلم يوهان هومل في اغتباط وبنجاح ، وقد تتلمذ له (١٧٨٧) وهو لا يزال في الثامنة ، وأصبح عازفا شهيرا للبيان في الجيل التالي .

وأضافت الأمراض الخطيرة آلاما إلى أحزان موتسارت . وقد شخص طبيب أوجاعة بأنها « التهاب مفرز لحويصلة الكلية مصحوب بتقيح ، وتضررات بؤرية كامنة . تفضى بالضرورة إلى عجز كلوى تام^(٩٤) » . وهذا معناه التهاب في الكلى صديدي مضعف . كتب إلى يوشبرج في ١٤ أغسطس ١٧٩٠ يقول « إنني اليوم في منتهى التعاسة . لم يغمض لي جفن في الليلة البارحة لشدة الألم . . . تصور حالي - عليل تتوشنى الهموم والمنغصات . . . ألا تستطيع إعانتى بمبلغ تافه ؟ إنني أرحب جداً بأقل مبلغ . » وأرسل له يوشبرج عشرة جولدنات .

ولمأخذ موتسارت رغم سوء حالته الصحية خطوة يائسة ليعول أسرته . ذلك أنه تقرر تتويج ليوبولد بفرانكفورت في ٩ أكتوبر ١٧٩٠ . وكان في حاشية الإمبراطور صبعة عشر موسيقيا للبلات ، ولكن موتسارت لم يدع . ومع ذلك ذهب بصحبة فرانز هوفر زوج أخته وعازف الفيولين . ورهن موتسارت آنية الأسرة الفضية لغطي نفقة الرحلة . وفي فرانكفورت عزف

وقاد في ١٥ أكتوبر كنشرتو البيانو في مقام D (ك ٥٣٧) ، الذي ألفه قبل ثلاث سنوات ، ولكن شاعت نزوة من نزوات التاريخ أن تسمية « كنشرتو التتويج » - وهو ليس من أفضل موسيقاه . كتب لزوجته يقول « لقد نجح نجاحاً باهراً من حيث الشرف والمجد ، ولكنه أخفق من حيث المال^(٩٥) » . وقفل إلى فيينا دون أن يزيد ما كسبه عما أنفق إلا قليلاً ، وفي نوفمبر أنتقل إلى مسكن أرخص في راوهنشتاينجاسي حيث قدر له أن يلتقي منيته .

١٠ - القداس الجنائزي : ١٧٩١

وأعانة على الحياة عاماً آخر ثلاثة تكاليفات وافته في تتابع سريع . ففي مايو ١٧٩١ عرض عليه إيمانويل شيكانيدر ، الذي كان يخرج الاوبرات والتمثيليات الألمانية في مسرح بإحدى الضواحي ، مخططاً لنص يدور حول ناي سحري ، ورجا أخاه في الماسونية أن يؤلف موسيقى للنص ، فقبل موتسارت . ولما ذهبت كونستانسي وهي حبل مرة أخرى إلى بادن - باي فيين في يونيو ، قبل دعوة شيكانيدر أن ينفق نهاره في بيت وسط حديقة قرب المسرح حيث يستطيع تأليف « الناي السحري » تحت حث المدير والحاجة . أما الأمسيات فقد سحب فيها شيكانيدر في حياة الليل بالمدينة . يقول يان « كانت الحماسة والسرف الرفيقتين الحتميتين لمثل هذه الحياة ، وسرعان ما وصلت أنباؤهما إلى إيدان الجماهير . . . فلوثت اسمه شهوراً بقدر من القدر فوق ما يستحق^(٩٦) » . ووسط هذه الاسترخاءات وجد موتسارت وقتاً للركوب إلى بادن (على أحد عشر ميلاً من فيينا) ليزور زوجته التي ولدت له فولفجانج موتسارت الثاني في ٢٦ يوايو .

في ذلك الشهر وافاه طلب من غريب مجهول الاسم ، يعرض عليه مائة دوقاتية يؤلف لقاءها سرّاً قداساً جنائزياً ، ثم يرسله إليه دون أي إعلان لاسم المؤلف . وتحول موتسارت من مرح « الناي السحري » إلى موضوع الموت ، وإذا هو يتلقى في أغسطس تكليفاً من براغ بتأليف أوبرا « La clemenza di Tito » « شفقة تيتو » تمثل هناك في مناسبة وشيكة هي تتويج ليوبولد الثاني ملكاً على بوهيميا . ولم يتح له غير شهر واحد لوضع موسيقى جديدة للنص متأسناً به القديم . وعكف عليه في مركبات مهتزة

وفنادق صاحبة أثناء رحلته مع زوجته إلى براغ . وغنيت الأوبرا في ٦ سبتمبر دون أن تحظى إلا باستحسان وسط . وكانت الدموع تترقرق في عيني موتسارت وهو يغادر المدينة الوحيدة التي ناصرته من قبل ، ويدرك أن الإمبراطور شهد فشله . ولم يكن له من عزاء إلا أجر المائتي دوقاتية ، والنبأ اللاحق بأن إعادة عرض الأوبرا في براغ في ٣٠ سبتمبر أتمى كل نجاح .

في ذلك اليوم قاد من البيانو أول عرض للناي السحري . والقصة كانت في بعضها من قصص الجان ، وفي بعضها تمجيذا لشعائر الدخول في الماسونية . وأفرغ موتسارت خير فنه في تأليف موسيقاها وإن أتبع معظم الألحان نلحط ميلودي بسيط يناسب جمهوره المؤلف من الطبقة الوسطى . وقد ألقوا فيها من الزوقات (الكولوراتورا) على « ملكة الليل » ، ولكنه كان يبينه وبين نفسه يسخر من غناء الكولوراتورا ويشبهه بـ « الشرائط المقطعة » . (٩٧) ومارش الكهنة الذي يفتح الفصل الثاني موسيقى ماسونية ، ولحن كبير الكهنة « in diesen Leiligen Hallen » « في هذه القاعات المقدسة لا نعرف شيئا عن الانتقام ، ومحبة الداخلين في الإيمان لإخوانهم من البشر هو المبدأ الهادي » — هذا اللحن هو زعم الماسونية بأنها ردت أخوة البشر التي بشرت بها المسيحية من قبل . (قارن جوته بين الناي السحري والجزء الثاني من فاوست ، الذي بشر هو أيضا بالأخوة ، وإذا كان هو نفسه ماسونيا فقد قال عن الأوبرا إن لها « معنى أسمى لن يغيب عن أعضاء الجماعة . » (٩٨) وأتمى العرض الأول نجاحا قللًا ، وصدم النقاد ذلك المزج بين الفوجة والمرح (٩٩) ، على أن الناي السحري ما لبث أن أصبح أحب أوبرات موتسارت إلى الناس ، وأحب الأوبرات قبل فاجنر وفردى . وقد أعيد أداؤه مائة مرة خلال أربعة عشر شهرا من العرض الأول .

وجاء هذا النصر الأخير وموتسارت يشهر بيد الموت تمسه . وكان القدر أراد أن يؤكد سحره ، إذ تلقى الآن من جماعة من نبلاء المجرين تعهدا باشتراك سنوى قدره ألف فلورين ، ثم عرض عليه ناشر أمستردام مبلغا أكبر حتى من هذا نظير اختصاصه بحق طبع بعض أعماله . ثم تلقى في سبتمبر دعوة إلى لندن من بونتي ، فرد عليه قائلا « كان بودى أن أتبع نصيحتك ، ولكن كيف أستطيع ؟ ... إن حالي تنبئني بأن ساعتي قد

حانت ، فأنا موشك على فراق الحياة . وقد أتت النهاية قبل ان أستطيع إثبات موهبتي . ومع ذلك كانت الحياة جميلة » (١٠٠) .

وفي شهوره الأخيرة أفرغ عافيته المتداعية في تأليف « القداس الجنائزى » وراح يعكف عليه أسابيع عديدة عكوفاً محموماً . فلما حاولت زوجته أن تصرفه عنه إلى شواغل أقل جهامة قال لها « إننى أكتب القداس الجنائزى لنفسى ، وسيصاح صلاة لما تمى » (١٠١) وألف لحن « يارب أرحم » Kyrie وأجزاء من « يوم الغضب » والبوق السماوى Tuba Mirum « والمملك الموهوب » Rex Tremendae واذكرنى Recordare و « الباكية » Lacrimosa و « أيها الرب » و « المدانون Confutatis » و « القرايين » Hostias . وقد ترك هذه الأجزاء المتناثرة دون مراجعة ، وهى تشى باضطراب عقل يواجه الانهيار . وقد أكمل فرانتز زافير زوسماير « القداس الجنائزى » على نحو رائع .

وفي نوفمبر بدأت يدا موتسارت ورجلاه تتورم وورما مؤلماً ، وأصابه شلل جزئى . فاضطر إلى ازوم فراشه ، فى تلك الامسيات حين كانت أوبرا « الناي السحرى » تمثل كان يضع شاعته إلى جواره ويتابع كل فصل فى خياله ، مدندنا بالألحان أحياناً . وفى آخر يوم فى حياته طلب نوتة القداس الجنائزى ، ورتل دور الألتو ، ورتلت السيدة شاك السوبرانو ، وفرانتز هوغر التنور ، والهر جيرل الباص . فلما بلغوا « الباكية » بكى موتسارت . وتنبأ بأنه سيموت الليلة . وناوله كاهن الأسرار المقدسة الأخيرة . وقرب المساء فقد الوعى ، ولكنه فتح عينيه بعد منتصف الليل بقليل ثم أدار وجهه إلى الحائط وسرعان ما إنتهت آلامه (٥ ديسمبر ١٧٩١) .

ولم تستطع زوجته ولا أصدقاءه أن يشيعوه كما ينبغى أن يشيع . صلى على الجثمان فى كنيسة القديس إسطفانوس فى ٦ ديسمبر ، ودفن فى فناء كنيسة القديس مرقس . ولم يشتر له قبر ، بل أدلى الجثمان فى قبوه عام صنع ليتلقى أجساد خمسة عشر أو عشرين من الفقراء المعدمين . ولم تحدد الموضع علامة من صليب أو نص ، فلما ذهبت إليه أرملته بعد أيام لتصلى ، لم يستطع أحد أن يدها على البقعة التى ضمت رفات موتسارت .

المراجع الافرنجية

CHAPTER IX

1. Vaussard, *La Vie quotidienne en Italie au xviii^e siècle*, 27.
2. *Ibid.*, 107.
3. 105.
4. 125.
5. Smith, D. E., *History of Mathematics*, I, 519.
6. Baedeker, *Northern Italy*, 471.
7. James, E. E., *Bologna*, 178-80.
8. Casanova, *Memoirs*, I, 14.
9. Rolland, Romain. *Musical Tour through the Land of the Past*, 167.
10. *Ibid.*
11. *Ibid.*
12. *Réalités*, November, 1954, p. 45.
13. Láng, *Music in Western Civilization*, 354.
14. Grout, D. J., *Short History of Opera*, 196.
15. Kirkpatrick, R., *Domenico Scarlatti*, 94.
16. Einstein, Alfred, *Gluck*, 101.
17. Lee, Vernon, *Studies of the 18th Century in Italy*, 106.
18. Vaussard, 82.
19. De Sanctis, *History of Italian Literature*, II, 825.
20. Vaussard, 83.
21. *Ibid.*, 86.
22. 88.
23. Campbell, T. J., *The Jesuits*, 424.
24. McCabe, Jos., *Candid History of the Jesuits*, 287.
25. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 276.
26. Chesterfield, *Letters*, Feb. 28, 1749.
27. Einstein, *Gluck*, 15.
28. Gatti-Cazazza Collection, Venice.
29. Private collection, Venice.
30. *Ibid.*
31. Museo Civico, Bassano.
32. Voltaire, *Works*, VIIIa, 5.
33. Molmenti, P., *Venice*, Part III: *The Decadence*, I, 37.
34. *Ibid.*, 49.
35. Molmenti, *The Decadence*, II, 17, 146.
36. *Ibid.*, 48.
37. 49.
38. Rousseau, *The Confessions*, I, 301; Molmenti, II, 93.
39. Vaussard, 180.
40. Goldoni, *Memoirs*, 178.
41. Rousseau, *The Confessions*, I, 292.
42. Molmenti, I, 169; Vaussard, 195.
43. *Grove's Dictionary of Music*, III, 314.
44. Pincherle, *Vivaldi*, 16.
45. *Ibid.*, 17.
46. Rolland, *Musical Tour*, 187.
47. Pincherle, 67.
48. E. g., Violin Concerto in E, Concerto Grosso in D Minor.
49. Pincherle, 61.
50. *Ibid.*, 229-32.
51. *Time*, Nov. 29, 1963.
52. Lord Walpole Collection.
53. Brera Gallery, Milan.
54. Boston Museum of Fine Arts; Wallace Collection.
55. National Gallery, London.
56. Wallace Collection.
57. London, Vienna, Geneva.
58. New York.
59. Turin.
60. Louvre.
61. Duke of Devonshire Collection.
62. Levey, *Painting in 18th-Century Venice*, 92.
63. Anon., *Tiepolo*, 34.
64. Ospedaletto, Venice.
65. E.g., Sitwell, S., *Southern Baroque Art*, 35.
66. Molmenti, *Tiepolo*, 19; Venturi, L., *Italian Painting from Caravaggio to Modigliani*, 74.
67. Letter of Mar. 13, 1734, in Rolland, *Musical Tour*, 149.
- 67a. Goldoni, *Memoirs*, 184.
68. Casanova, *Memoirs*, II, 276.
69. Kirkpatrick, *Scarlatti*, 29; Vaussard, 193.
70. Goldoni, *Memoirs*, I, 4.
71. *Ibid.*, 179.
72. 183.
73. Garnett, R., *History of Italian Literature*, 323.
74. Gozzi, Carlo, *Memoirs*, II, 110 f.
75. Molmenti, *Venice: Decadence*, I, 168.
76. Goldoni, *Memoirs*, 346.
77. *Ibid.*, introd., xi.
78. Gibbon, Edward, *Memoirs*, 7.
79. Goldoni, *Memoirs*, xxi.
80. Sitwell, S., *German Baroque Art*, 70.
81. Gibbon, *Decline and Fall of the Roman Empire*, VI, 675.
82. Ranke, *History of the Popes*, III, 472.
83. *New Cambridge Modern History*, VII, 284.

84. Funk, F. X., *Manual of Church History*, II, 180.
85. Macaulay, *Essays*, II, 179.
86. De Brosses in McCabe, Jos., *Crises in the History of the Papacy*, 354.
87. *Correspondance de Benoît XIV*, II, 268, in McCabe, *Crises*, 354.
88. *CMH*, VI, 591.
89. Ford, Miriam de, *Love Children*, 205.
90. Lanfrey, P., *L'Église et les philosophes*, 190.
91. Putnam, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 60.
92. Sime, James, *Lessing*, I, 92.
93. Stirling-Maxwell, *Annals of the Artists of Spain*, IV, 1393.
94. Gershoy, Leo, *From Despotism to Revolution*, 146.
95. *CMH*, VI, 598.
96. *Ibid.*, 599.
97. Robertson, *Short History of Freethought*, II, 369.
98. Vico, Giambattista, *Autobiography*, 111.
99. Croce, B., *Philosophy of Giambattista Vico*, 252.
100. Vico, *The New Science*, No. 31.
101. *Ibid.*, Nos. 916-18; we have ventured to improve the translation.
102. Nos. 922-24.
103. 925-27.
104. Vico, *Autobiography*, 171.
105. *The New Science*, No. 1104.
106. 1105.
107. 417-24.
108. 873-80.
109. 361.
110. *Autobiography*, 173.
111. *The New Science*, No. 1110.
112. Croce, *Philosophy of Vico*, 269.
113. *Ibid.*, 274.
114. Croce, *Filosofia di G. B. Vico* (1911).
115. Grout, *Opera*, 200.
116. *Ibid.*, 208.
117. *Oxford History of Music*, IV, 185.
118. Burney, Charles, *General History of Music*, II, 917.
119. *Grove's Dictionary*, II, 785.
120. *Ibid.*
121. *Ibid.*
122. Beckford, Wm., *Travel Diaries*, II, 167.
123. Lee, Vernon, *Studies*, 194.
124. Kirkpatrick, *Scarlatti*, 21.
125. *Ibid.*, 32.
126. 33.
127. Introd. to the Victor Album of Scarlatti's Sonatas.
128. Kirkpatrick, 58.
129. *Ibid.*, 103.
130. Especially delightful: Nos. 13, 23, 15, 104, and 338, in the Longo numbering.
131. Coxe, Wm., *Memoirs of the Kings of Spain*, IV, 231.

CHAPTER X

1. Beckford, *Travel Diaries*, II, 171.
2. Cheke, Marcus, *Dictator of Portugal*, 4.
3. Day, Clive, *History of Commerce*, 186; *History Today*, November, 1955, p. 730.
4. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 28; Stirling-Maxwell, IV, 1385.
5. *New CMH*, VII, 289.
6. Stephens, H. M., *Story of Portugal*, 354.
7. *Enc. Brit.*, XX, 681b.
8. *History Today*, November, 1955, p. 731.
9. Campbell, *The Jesuits*, 431.
10. Cheke, 50.
11. *Ibid.*, 111.
12. *History Today*, November, 1955, p. 733.
13. See *The Age of Reason Begins*, 249-51.
14. Cheke, 106.
15. McCabe, *The Jesuits*, 262.
16. Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 258; Cheke, 114.
17. Our account follows Cheke, 118 f.
18. Lanfrey, 259.
19. Cheke, 132.
20. Lanfrey, 260.
21. McCabe, *Jesuits*, 263.
22. Campbell, *Jesuits*, 462.
23. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 152; Cheke, 140.
24. Voltaire, *Works*, XVla, 243.
25. Cheke, 155.
26. *Ibid.*, 157.
27. Voltaire, XVla, 243.
28. Gershoy, 153; Cheke, 204.
29. Gershoy, 154.
30. Stephens, *Portugal*, 367.
31. Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, III, 310n.
32. Bell, Aubrey, *Portuguese Literature*, 277.
33. Cheke, 251.
34. *Ibid.*, 268.
35. *Ibid.*

CHAPTER XI

1. Altamira, R., *History of Spain*, 482, 466; Ogg, D., *Europe in the 17th Century*, 22; *New CMH*, VII, 271.
2. Herr, Richard, *The Eighteenth-Century Revolution in Spain*, 106; see also Altamira, 467-68.
3. Herr, 96.
4. Altamira, 460; Stokes, Hugh, *Francisco Goya*, 187.
5. Klingender, F. D., *Goya in the Democratic Tradition*, 4n.
6. *Ibid.*, 4-5; Campbell, *Jesuits*, 424.
7. Kany, C. E., *Life and Manners in Madrid, 1750-1800*, 375.
8. Vallentin, A., *This I Saw*, 26.
9. Lea, *Inquisition in Spain*, III, 308-10; IV, 523.

10. Martin, H., *France*, XV, 114-15.
11. Ticknor, Geo., *History of Spanish Literature*, III, 244.
12. Lea, IV, 530.
13. Buckle, H. T., *Introd. to the History of Civilization in England*, IIa, 61.
14. CMH, VI, 124.
15. Voltaire, XIXa, 214.
16. Burney, Charles, *History of Music*, II, 815-16.
17. Kany, 392.
18. Coxe, *Memoirs of the Kings of Spain*, IV, 141-43.
19. Trevor-Roper, *Historical Essays*, 268.
20. Herr, 75.
21. Letter of d'Alembert to Voltaire, May 13, 1773, in Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 372.
22. Herr, 63.
23. *Ibid.*, 77.
24. Ségur, *Lespinasse*, 254.
25. Altamira, 508.
26. Lea, *Inquisition*, IV, 307.
27. Herr, 210.
28. Michelet, *Histoire de France*, V, 439.
29. Stokes, *Goya*, 147.
30. Coxe, *Kings of Spain*, IV, 235.
31. Letters of an English officer, 1788, in Buckle, IIa, 92.
32. Coxe, IV, 236.
33. Hume, Martin, *Spain: Its Greatness and Decay*, 397.
34. Coxe, IV, 408.
35. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 163.
36. Coxe, IV, 341.
37. *Ibid.*, 361.
38. Campbell, *Jesuits*, 511-12.
39. *Ibid.*; Lanfrey, *L'Eglise et les philosophes*, 280.
40. Coxe, IV, 362.
41. *Ibid.*, 363.
42. Lanfrey, 282.
43. Campbell, 517-18.
44. *Ibid.*, 519; Lanfrey, 281.
45. Coxe, IV, 368.
46. Herr, 23.
47. *Ibid.*
48. 205.
49. 29.
50. 208.
51. Kany, 356-57.
52. Buckle, IIa, 86; Robertson, *Freethought*, II, 372.
53. Herr, 210; Robertson, 373.
54. Herr, 35; Trevor-Roper, 264.
55. Coxe, IV, 412-16; Casanova, *Memoirs*, II, 344.
56. Altamira, 438.
57. Fitzmaurice-Kelly, *History of Spanish Literature*, 357.
58. Rev. Geo. Edmundsen, in CMH, VI, 384.
59. Vallentin, 5.
60. Herr, 54.
61. *Ibid.*, 57.
62. Buckle, IIa, 98.
63. *Ibid.*, 94.
64. Herr, 128.
65. CMH, VI, 383.
66. Herr, 148.
67. *Ibid.*, 141-42.
68. 150.
69. Kany, 24; Vallentin, 26.
70. Kany, 38.
71. *Ibid.*, 18.
72. Hume, Martin, *Spain*, 411.
73. Stokes, 188; Kany, 214.
74. Laborde, *Spain*, in Buckle, IIa, 114.
75. Kany, 24.
76. *Ibid.*, 280.
77. Casanova, II, 348.
78. Kirkpatrick, *Scarlatti*, 132.
79. Altamira, *History of Spanish Civilization*, 183.
80. Trevor-Roper, 264.
81. Kany, 345; Buckle, IIa, 95.
82. Ticknor, III, 256; Herr, 165.
83. Ticknor, III, 262.
84. *Ibid.*, 273.
85. Vallentin, 144.
86. Calvert, A. F., *Royal Palaces of Spain*, 97.
87. Cathedral of Salamanca.
88. Prado.
89. Private collection, Zurich.
90. Prado.
91. Poore, Charles, *Goya*, 156.
92. Calvert, *Goya*, 55.
93. Poore, 48.
94. One in Frick Collection, New York.
95. Prado.
96. Prado.
97. Vallentin, 93.
98. Trevor-Roper, 266.
99. Vallentin, 111.
100. *Ibid.*, 112.
101. E.g., Malraux in Goya, *Drawings from the Prado*, xiv.
102. Lassaigue, J., *Spanish Painting: From Velázquez to Picasso*, 89.
103. Vallentin, 112.
104. *Ibid.*, 119.
105. Duke of Alba Collection.
106. Goya, *Drawings*, Plate 4.
107. Collection of the Hispanic Society, New York.
108. Vallentin, 195.
109. *Ibid.*, 203.
110. Prado.
111. Vallentin, 183.
112. Academy of San Fernando, Madrid.
113. National Gallery, Washington.
114. Academy of San Fernando, Madrid.
115. Klingender, *Goya*, 92.
116. Goya, *Drawings*, 123.

117. *Ibid.*, 130.
118. 170.
119. Academy of San Fernando.
120. Goya, *Drawings*, 112.
121. *Ibid.*, 89-117.
122. 118.
123. Vallentin, 223.
124. Both in the Prado.
125. Metropolitan Museum of Art, New York.
126. In Goya, *The Disasters of War*, No. 23.
127. *Ibid.*, No. 12.
128. No. 44.
129. No. 47.
130. No. 18.
131. These pictures from the Quinta del Sordo are in the Prado.
132. Lassaigue, *Spanish Painting: From Velázquez to Picasso*, 106.

CHAPTER XII

1. Goethe, *Letters from Italy*, Sept. 16, 1786.
2. *Ibid.*, Sept. 12 and 13, 1786.
3. Goeri, Carlo, *Memoirs*, II, 7.
4. *Ibid.*, 100-03.
5. Hazlitt, W. C., *The Venetian Republic*, II, 323.
6. Casanova, *Memoirs*, II, 110.
7. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 275.
8. Pearson, Hesketh, *Johnson and Boswell*, 171.
9. Goethe, *Letters from Italy*, Oct. 25, 1786.
10. *CMH*, VI, 601.
11. Winckelmann, J., *History of Ancient Art*, I, 48.
12. Goethe, *Letters from Italy*, Mar. 17, 1787.
13. Vaussard, 74.
14. Friedländer, Ludwig, *Life and Manners under the Early Empire*, II, 78.
15. Goethe, Oct. 27, 1786.
16. Vaussard, 84.
17. *Ibid.*, 89.
18. Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 122.
19. McCabe, *The Jesuits*, 346.
20. E.g., Lanfrey, *Histoire politique des papes*, 384; *id.*, *L'Église et les philosophes*, 105.
21. Campbell, *Jesuits*, 536.
22. McCabe, *Jesuits*, 346.
23. Ranke, *History of the Popes*, II, 449-50.
24. Campbell, 538.
25. *Ibid.*, 541.
26. McCabe, 355.
27. Campbell, 563.
28. Mozart, letter of Aug. 4, 1770, in Anderson, Emily, *Letters of Mozart*, I, 227.
29. Jahn, *Life of Mozart*, I, 151.
30. Biont, Eric, *Mozart*, 57.
31. Goethe, *Letters from Italy*, Nov. 24, 1786.
32. Vaussard, 141-43.

33. Beccaria, *Dei delitti e delle pene* (1766 ed.), p. 11.
34. Carlyle, "Count Cagliostro," in *Essays (Works, III)*, 187-92.
35. Goethe, *Letters*, Apr. 13 and 14, 1787.
36. Casanova, I, 13.
37. *Ibid.*, 14.
38. 123.
39. *Introd.* xx.
40. 210.
41. 211.
42. 219.
43. 287.
44. 330.
45. 406-7.
46. II, 370, 393.
47. *Ibid.*, 340.
48. Gilbert, O. P., *The Prince de Ligne*, 157.
49. Winckelmann, I, 3.
50. *Ibid.*, 9.
51. 18.
52. 21.
53. Pater, Walter, *The Renaissance*, 155.
54. In Brandes, *Goethe*, II, 244.
55. Winckelmann, I, 31.
56. In Muther, *History of Modern Painting*, I, 81.
57. Pater, *Renaissance*, 148.
58. Winckelmann, I, 46.
59. *Ibid.*, 60.
60. II, 319.
61. I, 64.
62. *Ibid.*
63. *Ibid.*
64. *Ibid.*
65. I, 70.
66. 287.
67. 77.
68. 76, 84.
69. 86.
70. In Pater, 147.
71. Both in Museo Correr, Venice.
72. Good examples in Morgan Library, New York, and Metropolitan Museum of Art.
73. Levey, *Painting in Venice*, 103.
74. Poldi-Pezzoli Museum, Milan.
75. Louvre.
76. Ältere Pinakothek, Munich.
77. Muther, I, 86.
78. Winckelmann, I, 407.
79. Prado.
80. Jahn, *Mozart*, III, 1, 15.
81. Burney, Fanny, *Diary*, 72-73.
82. Burney, Charles, *History of Music*, II, 886-91.
83. Einstein, Albert, *Gluck*, 151.
84. *Grove's Dictionary*, IV, 174.
85. *Ibid.*, 509.
86. Einstein, *Gluck*, 149.
87. *Grove's*, I, 650.
88. Translation by Richard Garnett (*History of Italian Literature*, 300).

89. In De Sanctis, II, 831.
90. Alfieri, Vittorio, *Autobiography*, Epoch I, Ch. i.
91. *Ibid.*, Epoch II, Ch. iv.
92. III, iii.
93. III, xii.
94. Alfieri, *Of Tyranny*, 102.
95. *Ibid.*, Book I, Section 1.
96. II, vii.
97. II, viii.
98. I, ix.
99. I, viii.
100. "Forethought" to *Of Tyranny*.
101. *Autobiography*, Epoch IV, Ch. viii.
102. Epoch I, Ch. viii.
103. IV, v.
104. IV, xx.
105. IV, xvi.

CHAPTER XIII

1. Gilbert, *Prince de Ligne*, 29, 57.
2. *Ibid.*, 135.
3. Mowat, R. B., *Age of Reason*, 96.
4. Frederick the Great, *Guerre de Sept Ans*, 386.
5. Gooch, G. P., *Maria Theresa*, 3.
6. Jahn, *Mozart*, I, 65.
7. Voltaire, *Works*, XVIa, 167.
8. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 89.
9. Campbell, *Jesuits*, 433.
10. Paulsen, F., *German Education*, 147-49.
11. Schoenfeld, Hermann, *Women of the Teutonic Nations*, 297.
12. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 100.
13. Casanova, *Memoirs*, I, 147.
14. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 387.
15. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 305.
16. Padover, 20.
17. Stryiński, *Eighteenth Century*, 64.
18. *Ibid.*
19. Jahn, I, 67.
20. Frederick, *Guerre de Sept Ans*, 387.
21. Casanova, I, 148.
22. *Enc. Brit.*, XIII, 151b.
23. Padover, 34.
24. *Enc. Brit.*, 1. c.
25. Padover, 34.
26. *Ibid.*, 37.
27. 41.
28. Gooch, *Maria Theresa*, 14.
29. Padover, 47.
30. Mann, Thos., *Three Essays*, 165.
31. Gooch, 21-29; Padover, 67.
32. Gooch, 29.
33. Padover, 134.
34. *Ibid.*, 134, 30.
35. 136.
36. 84; Gooch, 29.
37. Padover, 89.
38. Gooch, 65.
39. *Ibid.*, 66.
40. Padover, 77.
41. Gooch, 41.
42. Padover, 90-93.
43. Lewis, D. B. Wyndham, *Four Favorites*, 202.
44. Gershoy, 89.
45. Riedl, Frederick, *History of Hungarian Literature*, 77-81.
46. Hazard, *European Thought*, 109.
47. Padover, 73.
48. *Ibid.*, 74.
49. 81.
50. Gooch, 70.
51. Martin, *France*, XVI, 392.
52. *Ibid.*, 391.
53. Padover, 94; CMH, VI, 628.
54. Parton, James, *Daughters of Genius*, 402.
55. Cf. Coxe, *History of the House of Austria*, III, 485-86.
56. Richard, Ernst, *History of German Civilization*, 380.
57. Padover, 181.
58. *Ibid.*, 178.
59. 279.
60. 281.
61. 285; Gershoy, 100.
62. Gershoy, 101.
63. Padover, 286.
64. Coxe, *House of Austria*, III, 491n.
65. Lanfrey, *L'Église et les philosophes*, 356.
66. Padover, 212.
67. Jahn, *Mozart*, II, 401.
68. Padover, 214-15.
69. *Ibid.*
70. *History Today*, September, 1955, p. 615.
71. Padover, 246.
72. Coxe, III, 493.
73. Padover, 243.
74. Vambéry, *The Story of Hungary*, 385.
75. Padover, 299.
76. *Ibid.*, 311.
77. Coxe, III, 526.
78. Padover, 319.
79. *Ibid.*, 345.
80. 373.
81. 360.
82. 364.
83. 383.
84. *History Today*, September, 1955, p. 620.
85. Gilbert, O. P., *Prince de Ligne*, 193.
86. Coxe, III, 541.
87. Carlyle, *History of Friedrich the Second*, VII, 492.
88. Padover, 287.

CHAPTER XIV

1. Jahn, *Mozart*, II, 202.
2. Weinstock, Herbert, *Handel*, 268.

3. Rolland, *Musical Tour*, 208.
4. Rolland, *Essays in Music*, 176.
5. Einstein, *Gluck*, 59.
6. In Brockway and Weinstock, *The Opera*, 66.
7. Einstein, *Gluck*; *Grove's Dictionary of Music*, II, 401.
8. Láng, P. H., *Music in Western Civilization*, 659.
9. Faguet, E., *Rousseau artiste*, 191; Einstein, *Gluck*, 137.
10. Brockway and Weinstock, *Opera*, 97.
11. Einstein, 138.
12. Faguet, *Rousseau artiste*, 191.
13. *Grove's*, II, 400.
14. Rolland, *Essays*, 197-98.
15. *Kobbé's Complete Opera Book*, 42.
16. Rolland, *Essays*, 179.
17. Einstein, 146.
18. Burney, C., *History of Music*, II, 973.
19. Einstein, 151.
20. Vigée-Lebrun, Mme., *Memoirs*, 70.
21. *Kobbé's*, 51.
22. *Grove's*, IV, 174.
23. Einstein, 182.
24. Pratt, W. S., *History of Music*, 362.
25. Clark, Robert, *Herder*, 108, 429.
26. *Grove's*, II, 566.
27. Geiringer, Karl, *Haydn*, 44.
28. *Grove's*, II, 568.
29. Geiringer, 52-54.
30. *Ibid.*, 55.
31. *Grove's*, II, 570.
32. Jahn, II, 349.
33. Geiringer, 77.
34. *Ibid.*, 89.
35. 99.
36. *Grove's*, II, 574.
37. Geiringer, 108.
38. *Ibid.*, 110.
39. 121.
40. Jacob, H. E., *Joseph Haydn*, 212.
41. *Ibid.*, 267.
42. Geiringer, 168.
43. *Ibid.*, 167.
44. McKinney and Anderson, *Music in History*, 465.
45. *Grove's*, II, 582.

CHAPTER XV

1. Jahn, *Mozart*, II, 437.
2. *Ibid.*, I, 212.
3. I, 28.
4. 33.
5. Blom, *Mozart*, 26.
6. Biancolli, *Mozart Handbook*, 129.
7. Jahn, I, 39.
8. *Ibid.*, 107.
9. 119.
10. 129.
11. 132.

12. 137.
13. *Ibid.*
14. Wyzewa and Saint-Foix, *W. A. Mozart*, I, 470.
15. *Ibid.*, 474.
16. Jahn, I, 149.
17. *Ibid.*, 344.
18. Anderson, E., *Letters of Mozart*, I, 403.
19. *Ibid.*, 395.
20. Einstein, *Mozart*, 41.
21. Anderson, II, 686-88.
22. *Ibid.*, 695.
23. 681-83.
24. 700-09.
25. Einstein, *Mozart*, 30-31.
26. Anderson, II, 925.
27. Blom, 88; Jahn, II, 65-66.
28. Letter of May 6, 1781, in Einstein, 54.
29. Jahn, II, 171.
30. *Ibid.*, 176.
31. 179.
32. 184.
33. Anderson, II, 1100.
34. Letter of July 25, 1781, in Anderson, II, 1121.
35. Anderson, III, 1166-69.
36. Einstein, 458.
37. Jahn, II, 413.
38. *Ibid.*, 419.
39. 420.
40. 439.
41. 337, 422.
42. Einstein, 238.
43. Letter of Leopold Mozart, Feb. 14, 1785, in Anderson, III, 1321.
44. Anderson, 1329.
45. Letter of Apr. 10, 1784, in Einstein, 265.
46. *Grove's*, III, 563.
47. Einstein, 223.
48. Biancolli, 345.
49. Einstein, 214.
50. Biancolli, 355.
51. *Ibid.*, 374.
52. 367-69; Blom, 183.
53. Einstein, 280.
54. Goethe, *Poetical Works*, 120. In *Works*.
55. "His Master's Voice" Record C 2736.
56. Jahn, II, 440; Nettle, Paul, *Mozart and Masonry*, 112.
57. Biancolli, 132.
58. Rolland, *Essays*, 246.
59. *Ibid.*
60. E.g., in the letter of Nov. 5, 1777: "I wish you good night, but first shit into your bed." And on Nov. 13: "I've been shitting, so 'tis said, nigh twenty-two years through the same old hole, which is not yet frayed one bit." (Anderson, II, 525, 546).
61. Letter of Jan. 31, 1778.
62. Letter of Sept. 26, 1777.
63. Nettle, 122.

64. Jahn, II, 269-71.
65. *Ibid.*
66. E.g., letters of Apr. 13, 1789, and Sept. 30, 1790.
67. Letter of June 7, 1783.
68. Letter of Feb. 20, 1784.
69. Letter of July 31, 1782.
70. Anderson, II, 826.
71. Nettle, 115; Ghéon, *In Search of Mozart*, 216.
72. Anderson, III, 1450.
73. Jahn, II, 304; Nettle, 120.
74. Einstein, 57.
75. Jahn, II, 295.
76. *Ibid.*
77. 298.
78. Einstein, 57.
79. Anderson, III, 1253.
80. *Ibid.*, 1296.
81. In Biancolli, 138.
82. Jahn, II, 412.
83. Einstein, 442.
84. Jahn, III, 134.
85. *Ibid.*, 140.
86. Goethe to Schiller, Dec. 30, 1797.
87. Anderson, III, 1360.
88. Blom, 138.
89. *Ibid.*
90. Letters of Dec. 14, 1789, in Anderson, III, 1383-85.
91. Brockway and Weinstock, *Opera*, 91.
92. Anderson, III, 1398-99.
93. Jahn, II, 278-80.
94. Nettle, 116.
95. Biancolli, 421.
96. Jahn, III, 285.
97. Einstein, 363.
98. Grout, *Short History of Opera*, 294.
99. Biancolli, 554.
100. Nettle, 117.
101. Stendhal in Clark, B. H., *Great Short Biographies of the World*, 900.

